

حزب الأندلس في عاين الأندلس

تأليف العالم الأديب
الشيخ تقي الدين أبي بكر علي
المعروف بابن حجة الجموي
رحمه الله

شرح
عصا شعيتو

الجزء الثاني

منشورات
دار وكتبة الهدى
بيروت - لبنان

حقوق هذه الطبعة محفوظة

للمنشر
الطبعة الاولى

١٩٨٧

بيروت - بئر العبد - شارع مركز بنابية برج الصناعية

ملك دار الهلال تلفون ٨٣٦٩٨١ - ٤٦٣٥٥٧

ص.ب ١٥/٥٠٠٣ بريقياً مكنتهلال



ذكر النوادر

نوادير المدح في أوصافه نشقت منها الصبا فأتتنا وهي في شمم

هذا النوع، أعني النوادر، سماه قوم الإغراب والطرفة، وهو أن يأتي الشاعر بمعنى يستغرب، لقلّة استعماله، لا لأنه لم يسمع بمثله. وهذا مما اختاره قدامة دون غيره، ولكن غالب علماء البديع اختاروا غير رأي قدامة في هذا النوع، فإنهم قالوا: لا يكون المعنى غريباً إلا إذا لم يسمع بمثله.

وأورد زكي الدين ابن أبي الأصبح، في كتابه المسمى «بتحرير التحبير» لنوع النوادر حداً أقرب إليه من اختيار قدامة، وأبلغ وأوقع في النفوس، وهو أن يعمد الشاعر إلى معنى مشهور، ليس بغريب في بابه، فيغرب فيه بزيادة لم تقع لغيره، ليصير بها ذلك المعنى المشهور غريباً، وينفرد به دون كل من نطق به. وبيان ذلك أن تشبيه الحسان بالشمس والبدر مبذول معروف، قد ذهبت طلاوته لكثرة ابتذاله، وكان سابق المتقدمين وقبلة المتأخرين، القاضي الفاضل، أنفت نفسه من المثابرة على هذا الابتذال، وكثرة تشبيه الحسان بالبدر، فقال:

ترأى ومرآة السماء صقيلة فآثر فيها وجهه صورة البدر

سبحان المانع حاصل كلامه تشبيه محسوبه بالبدر. لكن زيادة هذه النادرة اللطيفة لا تخفى إلا على أكمه^(١) لا يعرف القمر، وعلى هذا المنوال نسجت بيت بديعتي.

(١) الأكمه: الأعمى.

ويعجبني، في باب النوادر، قول القائل:

عرض المشيب بعارضيه فأعرضوا وتقوضت خيم الشباب فقوضوا^(١)
ولقد سمعت وما سمعت بمثله بين غراب البين فيه أبيض

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته يقول فيه، عن النبي ﷺ:

كأنما قلب معن مرء فيه فلم يقل لسائله يوماً سوى نعم

هذا البيت، ذكره الشيخ صفي الدين في شرحه أن النادرة فيه، قلب معن بنعم. قلت: قلب معن بنعم لم يعد من نوع النوادر، بل من أنواع الجنس المسمى بالقلب والعكس، وجناس القلب وغيره من أنواع الجنس ليس فيه غير خدمة الألفاظ، فإنه نوع لفظي والذي قرره قدامة وغيره، في هذا النوع، أن الغرابة تكون في المعنى، بحيث يعد ذلك المعنى من النوادر.

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم وبیت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعته [هو]:

نوادر من جناني كالجنان زهت أم هل بدت واضحات الحسن من إرم

قلت: إن بيت الشيخ صفي الدين الحلبي، مع ما فيه من النقد والمؤاخذة، معدود من النوادر بالنسبة إلى هذا البيت. وما أشبهه بالبيت الذي أخبر عنه الحريري في مقاماته، وقال إنه أخرج من التابوت، وأوهن من بيت العنكبوت. وما ذاك إلا أنني كررت النظر في أركان هذا البيت، فلم أجد فيه مَقْرَأً لنادرة من النوادر التي تقدم تقريرها، فلم يسعني غير النظر في شرحه، فوجدته قال: إن جناني ظهر منه محاسن مدهشة، أم بدت محاسن إرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد، ويحكى أنها جنة بناها عاد. قلت وما أحق اختراع الخراع بهذه العبارة، وهي، بشهادة الله، عبارته بنصها. والذي أعده من النوادر، إبراز الشيخ عز الدين مثل هذا البيت في بديعته، ورضاه به، وتنزيل مثل هذه العبارة عليه. انتهى.

وبيت بديعيتي أقول فيه، عن النبي ﷺ:

نوادر المدح في أوصافه نشقت منها الصبا فأتتنا وهي في شمم

النادرة في معنى هذا البيت عرفها ضائع لمن شمه من أهل الأدب، وما ذاك إلا أن

(١) قوض: خرب.

النسيم أكثر الشعراء من استعماله في تحمل الرسائل. وغاية ما أغربوا فيه أنه ينشق منه عَرَفَ الأحبة، إذا هب من نحوهم. والنادرة التي أغربت بها هذا المعنى: أن نسيم الصبا لما نشقت عرف مديح النبي، ﷺ، وتعرفت به تزايد شممها. والشمم للنسيم نادرة، بل نكتة لم أسبق إليها. فإن النسيم أحق باشتراك هذه التورية من غيره، لأن الشمم لائق به. وهذا الذي أشار إليه ابن أبي الأصبغ، في أن الشاعر يعمد إلى معنى مبدول معروف ليس بغريب في بابه، فيغربه، بزيادة لم تقع لغيره، ويصير بها ذلك المعنى المعروف غريباً. ومثل ذلك، حتى يزداد نوع النوادر إيضاحاً، قول أبي نواس:

هبّت لنا ريح شمالية تمت إلى القلب بأسباب
أدت رسالات الهوى بيننا عرفتھا من بين أصحابي

قوله: عرفتھا من بين أصحابي، نادرة لم يسبق إليها. وقد جراه مجير الدين الخياط، في بديع هذا النوع. ونادرة هذا المعنى لولا الحياء لقلت إنه أحرز قصبات سبق عليه، بقوله:

يا نسيم الصبا الولوع بوجدي حبذا أنت لو مررت بهند
ولقد رابني شذاك فبالله متى عهدہ بأطلال نجد^(١)

بين ولقد رابني شذاك، في بيت مجير الدين، وبين عرفتھا من بين أصحابي معرك ذوقي، ما يدركه إلا من صفت مرآت ذوقه في علم الأدب. ولعمري إن النادرتين يتجمل بهما هذا النوع ومثله قول القائل، ويعجبني إلى الغاية:

ويد الشمال عشية مذ أرعشت دلت على ضعف النسيم بخطها
كتبت سقيماً في صحيفة جدول فيد الغمامة صححته بنقطها^(٢)

النوادر في هذين البيتين، لم يحتج برهانها إلى إقامة دليل، وقد فهمت الزيادات في غرابة المعاني المبتدلة.

ومثلاً. ولم يخرج عما نحن فيه من لطف النسيم ونوادر النوع، قول القائل:

هبّت صبا من قاسيون فسكنت بهبوبها وصب الفؤاد البالي^(٣)
خاضت مياه النيرين عشية وأتتک وهي بليلة الأذيال^(٤)

(١) رابني: حيرني، وجعلني أرتاب أي أشك.

(٢) النقط: وضع النقاط على الحروف.

(٣) قاسيون: جبل يشرف على دمشق - الوصب: المرض والوجع.

(٤) النيرين: دجلة والفرات، وهما من أسماء الشمس والقمر. والله أعلم.

ويعجبني في هذا الباب قول ناصر الدين بن المشد:

مسكية الأنفاس تملئ الصبا
عنها حديثاً قط لم يملل
جنت لما أن سرى عرفها
وما نرى من جن بالمندل (١)

وألف منه وأكثر نوادر، قول بدر الدين حسن الغزي، الشهير بالزغاري:

سرت من بعيد الدار لي نسمة الصبا
وقد أصبحت حسرى من السير ضائعه
ومن عرق مبلولة الجيب بالندی
ومن تعب أنفاسها متابعه

ومن العجائب في هذا النوع:

حبذا ليلة رأيت دجاها
زاهياً عطفه بحلة فجر
بشرت باللقاء وهي غراب
ونفى الفجر حسنها وهي قمري (٢)

ومن النوادر اللطيفة، في هذا الباب، قول علاء الدين الجويني، صاحب الديوان ببغداد، من دو بيت:

مذ صار ميبتنا بضوء القمر
والحب نديمنا وصوت الوتر
نادى بفراقنا نسيم سحراً
ما أبرد ما جاءت نسيم السحر

ومن نادر ما اتفق لي قولي من قصيدة رائية:

ومذ سرت نسמת الشجر باردة
بدا بأعضاء ذاك الجفن تكسير

قد تقدم تقرير حد ابن أبي الأصعب، في نوع النوادر وتكرره، وهو أن يعمد الشاعر إلى معنى مشهور كثير الاستعمال، فيغرب فيه بزيادة نكتة لم تقع لغيره، ليصير المعنى المستعمل بها غريباً. وقد فهم ما أوردته هنا من تلاعب الشعراء بالنسيم، وما أظهروا فيه من النوادر التي تركت رخيصه غالباً. وتكسير الجفن أيضاً ونسبة التكسير إليه أكثر أهل الأدب استعماله في تغزلهم ونسيبهم، ولكن استعارة النسמת الباردة للشجر، وهبوبها على أعضاء ذاك الجفن السقيم، حتى ظهر فيه التكسير، نادرة النوادر في هذا النوع والله أعلم.

(١) العرف: الرائحة الطيبة - المندل: العود الطيب الرائحة.

(٢) القمري: نوع من الحمام.

ذكر المبالغة

بالغ وقل كم جلا بالنور ليل وغي والشهب قد رمدت من عثير الدهم^(١)
المبالغة نوع محدود من محاسن هذا الفن عند الجمهور، واستدلوا على ذلك بقول
من قال: أحسن الشعر أكذبه، ويقول النابغة الذبياني: أشعر الناس من استجيد كذبه،
وضحك من رديئه. واستدلوا أيضاً برد النابغة المذكور على مثل حسان بن ثابت، في
قوله:

لنا الجففات الغر يلمعن في الضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما^(٢)
والرد الذي رده النابغة على هذا البيت في ثلاثة مواضع: الأول منها أنه قال له:
قلت لنا الجففات والجففات تدل على قليل، فلا فخر لك ولا مبالغة إذا كان في ساحتك
ثلاث جفان أو أربع. والثاني: أنك قلت: يلمعن، واللمعة بياض قليل ليس فيه كبير
شان. والثالث: أنك قلت في السيف: يقطرن، والقطرة تكون للقليل فلا تدل على فرط
نجدة، ولا مبالغة.

وترشيح جانب المبالغة مذهب ابن رشيق، في العمدة، ومنهم من لم يعدّ المبالغة من
حسنات الكلام، ومشى في ذلك على مذهب حسان بن ثابت رضي الله عنه، فإنه قال:
وإنما الشعر عقل المرء يعرضه على الأنام فإن كَيْسا وإن حمقا^(٣)

(١) الوغى: الحرب - رمدت: صار لونها شبيهاً بلون الرماد - العثير: الغبار - الدهم: جمع أدهم وهو من الخيل الأسود.

(٢) الجففات: واحدها الجفنة وهي القصعة وعاء كبير يطبخ فيه.

(٣) الكيس: اللباقة والحداقة.

وإن أشعر بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا
وعند أهل هذا المذهب، أن المبالغة لم تسفر عن غير التهويل على السامع، ولم
يفر الناظم إلى التخييم عليها إلا لعجزه، وقصور همته عن اختراع المعاني المبتكرة، لأنها
في صناعة الشعر كالاستراحة من الشاعر، إذا أعياه إيراد المعاني الغريبة، فيشغل الأسماع
بما هو محال وتهويل. وقالوا: ربما أنها أحالت المعاني فأخرجتها عن حد الكلام
الممكن إلى حد الامتناع. والمبالغة تعاب في بابها إذا خرجت عن حد الإمكان إلى
الاستحالة، ويأتي الكلام على حدها في موضعه. والذي أقوله: إن المبالغة من محاسن
أنواع البديع، ولم يستطرد في حلقات سبقها إلا فحول هذه الصناعة، ولولا سمو رتبها ما
وردت في القرآن العظيم والسنة النبوية، ولو سلمنا إلى من يهضم جانبها ولم يعدها من
حسنات الكلام، بطلت بلاغة الاستعارة، وانحطت رتبة التشبيه.

وتسمية المبالغة منسوبة إلى قدامة، ومنهم من سمي هذا النوع التبليغ، وسماه ابن
المعترز الإفراط في الصفة، وهذه التسمية طابقت المسمى ولكن أكثر الناس رغبوا في
تسمية قدامة لخفتها.
وهذا النوع، أعني المبالغة، شركه قوم مع الإغراق والغلو لعدم معرفة الفرق، وهو
مثل الصبح ظاهر.

والمبالغة في الاصطلاح هي إفراط وصف الشيء بالممكن القريب وقوعه عادة.

والإغراق وصف الشيء الممكن البعيد وقوعه عادة.

والغلو، وصفه بما يستحيل وقوعه.

ويأتي الكلام على كل واحد من الثلاثة في موضعه. وقد تقرر أولاً أن المبالغة،
نوعها مبني على وصف الشيء بالممكن القريب وقوعه.

وحد قدامة المبالغة فقال: هي أن يذكر المتكلم حالاً من الأحوال لو وقف عندها
لأجزأت، فلا يقف حتى يزيد في معنى ما ذكره ما يكون أبلغ من معنى قصده، كقول
عمير بن كريمة التغلبي:

ونكرم جارنا ما دام فينا وتبعه الكرامة حيث مالا

وقال: إن هذا البيت من أحسن المبالغة عند الحذاق، فإن الشاعر بلغ فيه إلى
أقصى ما يمكن من وصف الشيء، وتوصل إلى أكثر ما يقدر عليه، فتعاطاه.

ولخص بعضهم عبارة الحد الذي حده قدامة، وقال: المعنى إذا زاد على التمام
سمي مبالغة.

وقال ابن رشيق، في العمدة: المبالغة: بلوغ الشاعر أقصى ما يمكن في وصف الشيء.

قلت: وعلى هذا التقرير، فجل القصد في المبالغة الإمكان والخروج عن المستحيل. والمذهب الصحيح فيها أنها ضرب من المحاسن، إذا بعدت عن الإغراق والغلو، وإن كان الإغراق والغلو ضربين من المحاسن ونوعين من أنواع البديع، فقد شرط علماءه أن النوع لا يتجاوز حده بحيث يزول الالتباس. ويعجبني من أمثلة المبالغة في المديح قول القائل:

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه^(١)
فالمعنى تم للنظام لما انتهى في بيته إلى قوله: دجى الليل. ولكن زاد بما هو أبلغ وأبدع وأغرب في قوله: حتى نظم الجزع ثاقبه.

ومثله قول أبي الطيب المتنبي في وصف جواد

وأصرع أي الوحش قفيته به وأنزل عنه مثله حين أركب
قال زكي الدين بن أبي الأصبغ، في كتابه المسمى «بتحرير التحبير»: أبلغ شعر سمعته في باب المبالغة، قول شاعر الحماسة، إذ بالغ في مدح ممدوحه بقوله:

رهنت يدي بالعجز عن شكر بره وما فوق شكري للشكور مزيد
ولو كان مما استطاع استطعته ولكن ما لا استطاع شديد

فانظر ما أحلى احتراسه عن ذلك بقوله: وما فوق شكري للشكور مزيد، وانظر كيف أظهر عذره في عجزه مع قدرته، بأن قال في البيت الثاني: ولو كان مما استطاع استطعته. ثم أخرج بقية البيت للمبالغة، مخرج المثل السائر، حيث قال: ولكن ما لا استطاع شديد. ومن هنا قال أبو نواس:

لا تسدين إلي عارفة حتى أقوم بشكر ما سلفا^(٢)

ومن معجز المبالغة، في القرآن العظيم، قوله تعالى: «سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار»^(٣)، فجعل كل واحد منهم أشد

(١) الجزع: نوع من العقيق ذي الخطوط المتوازية المستديرة.

(٢) العارفة: المعروف.

(٣) الرعد، ١٠/١٣.

مبالغة في معناه وأتم صفة، وجاء من المبالغة، في السنة النبوية، قوله ﷺ مخبراً عن ربه، كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به. وقوله في بقية هذا الحديث: والذي نفس محمد بيده لخلوف^(١) فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك. ففي الحديث الشريف مبالغتان: إحداهما، كون الحق، سبحانه وتعالى، أضاف الصيام إلى نفسه دون سائر الأعمال، لقصد المبالغة في تعظيمه وشرفه، وأخبر أنه عز وجل يتولى مجازاة الصائم بنفسه، مبالغة في تعظيم الجزاء وشرفه، ونحن نعلم أن الأعمال كلها لله سبحانه وتعالى ولعبداه باعتبارين: أما كونها للعبد، فلأنه يثاب عليها، وأما كونها لله، فلأنها عملت لوجهه الكريم، ومن أجله، فتخصيص الصائم، بالإضافة للرب سبحانه، وتخصيص ثوابه بما خصص به إنما كان للمبالغة في تعظيمه. والمبالغة الثانية، إخبار النبي ﷺ، بعد تقديم القسم، لتأكيد الخير، بأن خلوف فم الصائم عنده الله أطيب من ريح المسك، ففضل تغير فم الصائم، بالإمساك عن الطعام والشراب، على ريح المسك الذي هو أعطر الطيب، على مقتضى ما يفهم من ريح المسك، وأتى بصيغة أفعل للمبالغة، فجمع هذا الكلام بين قسمي المبالغة: المجازي والحقيقي ولذلك ورد أن دم الشهيد كريح المسك، للمبالغة.

وهذا النوع، أعني المبالغة، ممكن الناظم منه في المدائح النبوية والصفات المحمدية، فإن المادح إذا بالغ في وصفه ﷺ، كانت تلك المبالغة ممكنة قريبة من معجزاته وعظمه عند ربه، فمن ذلك، قولي من قصيدة نبوية أقول فيها عن النبي ﷺ:

إذا ما سرى فرداً لفرط جلاله يقول الورى قد سار جيش عرمرم

فالمبالغة تمت لما انتهت إلى قولي: سار جيش، وزدت بعد ذلك بما هو أبلغ منه وأعظم، لقولي: عرمرم.

وبيت الشيخ صفى الدين الحلبي في بديعته، يقول فيه عن النبي ﷺ:

كم قد جلت جنح ليل النقع طلعت والشهب أحلك ألواناً من الدهم^(٢)

المبالغة تمت للشيخ صفى الدين، في الشطر الأول، بقوله: كم قد جلت جنح ليل النقع طلعت. ولكن زاد بما هو أبلغ منها، حيث قال: والشهب أحلك ألواناً من الدهم.

(١) الخلوف: رائحة الفم إذا تغيرت وفسدت.

(٢) النقع: الغبار أثناء المعارك - الدهم: الخيول السوداء.

وبيت العميان في بديعيتهم:

يمم نبياً تباري الريح أنمله والمزن من كل هامى الودق مرتكم^(١)
المجمع عليه أن المبالغة في الأوصاف المحمدية ممكنة عقلاً وعادة، ولكن الأبلغ
في مبالغة العميان أن الريح والمزن كان يحب كل منهما أن يتطفل على أنامل النبي ﷺ،
في المباراة، لعلو رتبته وعظم مقامه.

وبيت الشيخ عز الدين الموصلبي في بديعته:

امدح وجز كل حد في مبالغة حقاً ولا تطر تقبل غير متهم^(٢)
هذا البيت لم ينتظم في سلك ما قبله من أبيات المديح النبوي، ولا بينه وبين
المبالغة أدنى وصلة، ولم يظهر لي في بيته، غفر الله له، إلا وصيته للمادح أنه إذا مدح
يتجاوز كل حد، وأنه لا يطري فيقبل، وما أحقه هنا بقول القائل:

تمنيتهم بالرقمتين ودارهم بوادي الغضى يا بعد ما أتمناه
وبيت بديعيتي أقول فيه، عن النبي ﷺ:

بالغ وقل كم جلا بالنور ليل وغمى والشهب قد رمدت من عثير الدهم
فالمبالغة تمت في شطر البيت الأول، بقولي: بالغ وقل كم جلا بالنور ليل وغمى.
والزيادة، بما هو أبلغ منها قولي: والشهب قد رمدت من عثير الدهم. وتسمية النوع هنا
هي ديباجة المبالغتين على هذه الصيغة، والله أعلم.



(١) يمم: توجه نحو- تباري: تسابق - الأنمل: جمع أنمله وهي طرف الاصبع - المزن: جمع مزنة وهي الغيمة الممطرة - هامى: سائل - الودق: المطر - مرتكم: بعضه فوق بعضه الآخر.
(٢) جُز: تجاوز- تطر: من الإطراء وهو المبالغة في المدح على غير الحقيقة.

ذكر الإغراق

لو شاء إغراق من ناواه مد له في البر ببحراً بموج فيه ملتطم
قد تقرر في نوع المبالغة أنها إفراط وصف الشيء بالممكن القريب وقوعه عادة.
وهذا النوع، أعني الإغراق، فوق المبالغة، ولكنه دون الغلو، وهو في الاصطلاح إفراط
وصف الشيء بالممكن البعيد وقوعه عادة. وقل من فرق بينهما. وغالب الناس عندهم
المبالغة والإغراق والغلو نوع واحد. وهنا لم يعمل بقول الحريري: سامح أخاك إذا
خلط.

وكل من الإغراق والغلو لا يعد من المحاسن إلا إذا اقترن بما يقربه إلى القبول،
كقد، للاحتمال، ولولا، للامتناع، وكاد، للمقاربة، وما أشبه ذلك من أنواع التقريب.

وما وقع شيء من الإغراق والغلو، في الكتاب العزيز، ولا في الكلام الفصيح، إلا
مقروناً بما يخرج من باب الاستحالة، ويدخله في باب الإمكان، مثل: كاد ولو وما
يجري مجراهما، كقوله تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يُذْهِبُ بِالْأَبْصَارِ﴾^(١) إذ لا يستحيل في
العقل أن البرق يخطف الأبصار، لكنه يمتنع عادة وما زاد وجه الإغراق هنا جمالاً إلا
تقريبه بكاد، واقتران هذه الجملة بها هو الذي صرفها إلى الحقيقة، فقلبت من الامتناع
إلى الإمكان.

ومن شواهد تقريب نوع الإغراق، بلو، قول زهير:

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا

(١) النور، ٤٣/٢٤.

فاقتران هذه الجملة أيضاً بامتناع قعود القوم فوق الشمس، المستفاد بلو، هو الذي أظهر بهجة شمسها في باب الإغراق.

ومما استشهدوا به على هذا النوع، بغير أداة التقريب، قول امرئ القيس:

تنورتها من أذرعات وأهلها يثرب أدنى دارها نظر عالي^(١)

وبين المكانين بعد تام، فإن أذرعات من الشام، والنار التي تنورها من أذرعات كانت يثرب مدينة النبي ﷺ. وقد أثبتوا هذا الشاهد في باب الإغراق، لأنهم قالوا: لا يمتنع عقلاً أن ترى النار من بعد هذه المسافة، وأن لا يكون ثم حائل من جبل أو غيره، من عظم جرم النار، ولكن ذلك ممتنع عادة، هذا إن جعلنا تنورتها نظرت إلى نارها حقيقة، وأما إن جعلناه بمعنى توهمت نارها وتخيّلتها في فكري، فلا يكون في البيت إغراق.

ومثله قول أبي الطيب المتنبّي في صباه:

روح تردد في مثل الخلال إذا أطارت الريح عنه الثوب لم بين^(٢)
كفى بجسمي نحولاً أنني رجل لولا مخاطبتي إياك لم ترني

وقالوا: هنا لا يمتنع عقلاً أن ينحل الشخص، حتى يصير مثل الخلال، ولا يستدل عليه إلا بالكلام، إذ الشيء الدقيق إذا كان بعيداً لا يرى، بخلاف الصوت. ولكن صيرورة الشخص، في النحول، إلى مثل هذه الحال، ممتنع عادة. ولعمري، إن الشيخ شرف الدين بن الفارض ضم خصص هذا المعنى الرقيق، ورشحه بنفائس العقود، حيث قال:

كأنني هلال الشك لولا تأوهي خفيت فلم تُهدّ العيون لرؤيتي

قلت: إذا قابلنا نحول المتنبّي بهلال الشك الذي أبرزه ابن الفارض، لم تبعد المقارنة، لكن من قابل قول المتنبّي: أنني رجل لولا مخاطبتي، بقول الشيخ شرف الدين ابن الفارض، في بيته: كأنني هلال الشك لولا تأوهي، لا بد أن يقابله الله على ذلك، وأين لطف: لولا تأوهي، من ثقل: لولا مخاطبتي. فالفرق بين خطاب الرجل وتأوه هلال الشك لا يخفى على حذاق أهل الأدب.

(١) تنورتها: بصرت بها أو توهمتها - أذرعات: إسم مكان في الشام يبعد مسيرة ثلاثة أشهر عن يثرب،

مدينة الرسول ﷺ.

(٢) الخلال: الشبح.

ومنه قول بعضهم:

قد سمعتم أنينه من بعيد فاطلبوا الشخص حيث كان الأنين

قلت: ما برح طائر فكري يحوم على ورد هذا المعنى الذي حصلت فيه الموارد، على أن الشخص لا يرى لشدة نحوه إلا بأنين أو تأوه، وأريد أن أرشحه بنكته، إلى أن قلت من قصيدتي التي عارضت بها كعب بن زهير، وامتدحت بها النبي ﷺ:

وفوق طرس مشيبي أرخوا تلفي وذلك الطرس فوق الرأس محمول
وقد تجاوز جسمي حد كل ضني وها أنا اليوم في الأوهام تخييل

وقد تقدم وتقرر، أن أداة المقاربة ما استعملت في الإغراق إلا لتنقله من الامتناع إلى الإمكان، وهذا الذي أوردته بغير أداة المقاربة هنا، إن كان يبعد عادة، لا يبعد عقلاً.

ومما استشهدوا به على نوع الإغراق، بلو، التي يمكن الإغراق بها عقلاً ويمتنع عادة، قول القائل:

ولو أن ما بي من جوى وصبابة على جمل لم يبق في النار كافر

يريد أنه لو كان ما به من الحب بجمل لنحل حتى يدخل في سمّ الخياط، وذلك لا يستحيل عقلاً، إذ القدرة قابلة لذلك لكنه ممتنع عادة. وهذا غاية في الإغراق.

وأورد الشيخ شهاب الدين ابن جعفر المغربي الأندلسي، في شرحه الذي كتبه على بدعية صاحبه شمس الدين محمد بن جابر الأندلسي، على هذا البيت حكاية لطيفة، وهي أن إبليس تعرض لبعض الأولياء فلم ينل منه غرضاً. فقال له الولي: من أشدّ عليك: العابد الجاهل، أو العالم المسرف على نفسه؟ فقال: العالم المسرف، وأما العابد الجاهل فهو في قبضتي أدخل عليه في دينه من حيث شئت. وأنا أريك ذلك. فانطلق به إلى أعبد الجهال في ذلك الزمان، فطرق عليه الباب، فخرج إليهما. فقال له إبليس: جئت أستفتيك: هل الله قادر على أن يدخل الجمل في سم الخياط أو لا. فتوقف وتحير وغلق الباب. فقال إبليس للولي: ها هو قد كفر بالشك في قدرة الله تعالى، ثم انطلق به إلى عالم مسرف على نفسه، وطرق عليه الباب، وكان في القائلة^(١)، فقال الرجل العالم: من هذا الشيطان الذي يضرب بابي في القائلة، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

(١) القائلة: الاستراحة وقت الظهر.

قلوا فإن الشياطين لا تقيل؟ فقال إبليس: ها هو قد عرفني قبل رؤيتي، فلما خرج قال له إبليس: هل في قدرة الله تعالى أن يدخل الجمل في سم الخياط؟ فقال له: أتشك في قدرة الله تعالى على أن يوسع سم الخياط حتى يدخل فيه الجمل، أو يرقق الجمل حتى يصير كالخيوط فيدخل في سم الخياط! فانصرفا، وقال إبليس لرفيقه: معرفة هذا بالله تمحو ذنوبه، وحاله خير من حال العابد الجاهل بالله. انتهى.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته، على نوع الإغراق:

في معرك لا تثير الخيل عثيره مما تروي المواضي تربه بدم^(١)

بيت الشيخ صفي الدين الحلبي على هذا النوع أبرزه بغير أداة التقريب، وهو بيت عامر قريب من العقل بعيد من الوقوع عادة، على شرط الإغراق، لكنه غير صالح للتجريد وقد تقرر وتكرر: أن بيوت البديعيات شواهد على الأنواع، فلا ينبغي أن يكون البيت متعلقاً بما قبله، ولا بما بعده

وبيت بديعية العميان يقولون فيه، عن النبي ﷺ، وقد أتوا فيه بأداة التقريب حيث قالوا:

لو قابل الشهب ليلاً في مطالعها خرت حياء وأبدت برّ محترم
لو شاء إغراق وجه الأرض أجمعه ندى يديه لأحيائها ولم يضم^(٢)
وبيت بديعيتي أقول فيه عن النبي ﷺ:

لو شا إغراق من ناواه مدّ له في البر بحراً بموج فيه ملتطم^(٣)
على كل تقدير، مقام النبي ﷺ صالح للمغلاة بالإغراق في مديحه، والله أعلم.



(١) المعرك: مكان العراك - العثير: الغبار - المواضي: جمع ماضي: السيف.
(٢) الندى: الجود والكرم والعطاء - يضم: يصاب بالضميم وهو الضعف والنقص والسوء.
(٣) ناواه: ناواه مخففه ومعناها خاصمه وعانده

ذكر الغلو

بلا غلو إلى السبع الطباق سرى وعاد والليل لم يجفل بصبحهم^(١)
قد تقدم القول على المبالغة، وتقرر أنها في الاصطلاح إفراط وصف الشيء
بالممكن القريب وقوعه عادة. وتقرر أن الإغراق فوقها في الرتبة، وهو في الاصطلاح
إفراط وصف الشيء بالممكن البعيد وقوعه عادة.

والغلو، فوقهما فإنه الإفراط في وصف الشيء بالمستحيل وقوعه عقلاً وعادة وهو
ينقسم إلى قسمين: مقبول، وغير مقبول. فالمقبول لا بد أن يقربه الناظم إلى القبول بأداة
التقريب، اللهم إلا أن يكون الغلو في مديح النبي ﷺ، فلا غلو.

ويجب على ناظم الغلو أن يسبكه في قوالب التخيلات الحسنة، التي يدعو العقل
إلى قبولها في أول وهلة، كقوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهَا نَارٌ﴾^(٢) فإن
إضاءة الزيت من غير مس نار، مستحيلة عقلاً، ولكن لفظة يكاد، قربته فصار مقبولاً.
ومنه قول أبي العلاء المعري:

تكاد قسيه من غير رام تمكن في قلوبهم النبالات
تكاد سيوفه من غير سل تجد إلى رقابهم انسلالات

ويعجبني هنا قول ابن حمديس الصقلي، في وصف فرس:

ويكاد يخرج سرعة من ظله لو كان يرغب في فراق رفيق

(١) السبع الطباق: السماوات السبع.

(٢) النور، ٣٥/٢٤.

ومنه قول الفرزدق، في علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين:

يكاد يمسكه عرفان راحته ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم^(١)

ومن الغلو المقبول، بغير أداة التقريب، قول أبي الطيب المتنبي في ممدوحه:

عقدت سناكبها عليه عثراً فلو ابتغى عنقا عليه أمكناً

معنى هذا البيت: أن سناكب الخيل، وهي أطراف الحوافر، عقدت على هذا الممدوح عثراً، وهو الغبار، حتى لو أراد أنه يمشي عليه عنقاً لأمكن، والعنق هو المشي السريع، وانعقاد الغبار في الهواء حتى يمكن المشي عليه، مستحيل عقلاً وعادة إلا أنه تخيل حسن مقبول.

وقد وقع^(٢) للقاضي الأرجاني، جمع فيه بين الشيتين الموجبين للقبول والتقريب، وهما ما جرى بهما مجرى كاد، والتخيل الحسن، وذلك قوله:

يخيل لي أن سُمّ الشهب في الدجا وشدت بأهدابي إلهن أجفاني

فقوله: يخيل لي، هو الجاري مجرى كاد، فإنه جعل الأمر توهماً لا حقيقة، وأما التخيل الحسن، فهو ما ذكر من تسمير الشهب، وشد أجفانه إليها بأهدابه، وجعل الأهداب بمنزلة الجبال، ولا يخفى ما في هذا من التخيل الحسن.

وأما الغلو الذي هو غير مقبول فكقول أبي نواس:

فلما شربناها ودب دبيبها إلى موضع الأسرار قلت لها قفي
مخافة أن يسطو عليّ شعاعها فيطلع ندماني على سري الخفي

قالوا: إن سطوة شعاع الخمر عليه، بحيث يصير جسمه شفافاً يظهر لنديمه ما في باطنه لا يمكن عقلاً ولا عادة.

ومنه قول بعضهم:

أسكر بالأمس إن عزمت على الشرب غداً إن ذا من العجب

(١) الحطيم: بناء خارج الكعبة قبالة ميزاب الرحمة - الاستلام: أي استلام الحجر الأسود وهو من شعائر الحج.

(٢) وقع تخيل حسن.

فسكره بالأمس، بسبب عزمه على الشرب غداً، مما لا يمكن عقلاً ولا عادة أيضاً.
ومنه قول أبي نواس:

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التي لم تخلق

وهذا الذي قاله أبو نواس أيضاً، أمر مستحيل، فإن قيام العرض الموجود، وهو الخوف بالمعدوم، وهي النطف التي لم تخلق، لا يمكن عقلاً ولا عادة. ومن الطف ما يحكى هنا أن العتابي الشاعر لقي أبا نواس، فقال له: أما تستحي من الله بقولك: وأخفت أهل الشرك البيت؟ فقال له أبو نواس: وأنت أيضاً ما استحييت من الله بقولك:

ما زلت في غمرات الموت مطرحاً يضيق عني وسيع الرأي من حيل
فلم تزل دائماً تسعى بلطفك لي حتى اختلست حياتي من يدي أجلي^(١)

فقال العتابي: قد علم الله، وعلمت أن هذا ليس مثل قولك، ولكنك أعددت لكل سؤال جواباً.

ومنه قول بعضهم:

قد كان لي فيما مضى خاتم واليوم لو شئت تمنطقت به^(٢)
وذبت حتى صرت لوزج بي في مقلة النائم لم يتتبه^(٣)
ومثل هذا أيضاً لا يقبله العقل، ولا عليه رونق القبول.

قلت: ومراتب الغلو تتفاوت إلى أن تؤول بقائلها إلى الكفر. فمن ذلك قول ابن دريد:

مارست من لو هوت الأفلاك من جوانب الجو عليه ما شكاً
قيل إنه لأجل هذا البيت، والادعاء العظيم الذي ادعى فيه ابتلي بمرض كان فيه يخاف من الذباب أن يقع عليه.

(١) معنى قول أبي نواس ظاهره الشرك وباطنه المبالغة فهو يكاد يصل بممدوحه درجة الخالق جلّ وعلا إذ النطف التي لم تخلق لا تخاف إلا خالقها، عقلاً وقول العتابي: يعني: ما زلت أعاني من المصاعب المميتة ولا أستطيع لنفسي حيلة للنجاة. وأنت واضبت، تلتطفاً منك وكرماً، تفتش لي عن مخرج مما أنا فيه حتى كان ذلك على يدك فكأنك قد خلصتني من الموت بإذن الله. ولا يخفى الفرق بين المقصودين.

(٢) تمنطق: لبس المنطقه وهي قطعه من جلد أو من قماش تشد على الوسط.

(٣) زج: حشر ووضع في مكان يضيق عليه.

ومنه قوله :

ولو حمى المقدار عنه مهجة
تغدو المنايا طائعات أمره
لرامها أو تستيبح ما حمى
ترضى الذي يرضى وتأبى ما أبى

ومثله قول أبي الطيب :

كأنى دحوت الأرض من خبرتي بها
وكأن بنى الإسكندر السدم من عزمي (١)
هذا أيضاً من الغلو الذي يؤدي إلى سخافة العقل، مع ما فيه من قبح التركيب،
وبعده عن البلاغة.

وأقبح من هذا كله قول عضد الدولة :

ليس شرب الراح إلا في المطر
غانيات سالبات للنهى
مبرزات الكأس من مطلعها
عضد الدولة بان ركنها
وغناء من جوارٍ في السحر
ناغمات من تضاعيف الوتر (٢)
ساقيات الراح من فاق البشر (٣)
ملك الأملاك غلاب القدر

روي أنه لم يفلح بعد هذا القول، وكان لا ينطق إلا بقوله تعالى : ﴿ما أغنى عني
ماليه * هلك عني سلطانيه﴾ (٤).

ولولا الإطالة، وهو نظم غير مقبول، لأوردت كثيراً من نظم الذين كانوا يتساهلون
في هذا النوع، كأبي نواس، وابن هانئ الأندلسي، والمنتبي، وأبي العلاء المعري،
وغيرهم من المتأخرين، كابن نبيه ومن جرى مجراه. وكنت من المبادئ أستقيح قول
الشيخ صفي الدين الحلي، وأستقل أدبه بقوله، في موشحه الذي أوله: دارت على الدوح
سلاف القطر. وذلك قوله في ممدوحه :

لو قابل الأعمى غدا بصيرا
ولو يشا كان الظلام نورا
ولو رأى ميتاً غدا منشورا (٥)
ولو أتاه الليل مستجيرا
آمنه من سطوات الفجر

(١) دحوت الأرض: سطحها فجعلتها مدحية مسطحة، أو بسطتها ووسعتها.

(٢) النهى: العقول والألباب.

(٣) فاق البشر: أعلى منزلة منهم.

(٤) الحاقه، ٢٩/٦٩ و٢٨/٢٩.

(٥) النشور: الحياة بعد الموت.

وبيته في بديعته على هذا النوع، أعني الغلو، قوله:

عزيز جار لو الليل استجار به من الصباح لعاش الناس في الظلم
قلت هذا الغلو هنا مقبول، في مديح النبي ﷺ، غير لائق بممدوحه الذي أشار إليه
في موثقه بقوله:

ولو أتاه الليل مستجيراً آمنه من سطوات الفجر

فقد تقرر أن الناظم إذا قصد الغلو في مديح النبي ﷺ، فلا غلو.

وبيت العميان في بديعيتهم يقولون فيه، عن النبي ﷺ:

تكاد تشهد أن الله أرسله إلى الورى نطف الأبناء في الرحم

فنسبة الشهادة إلى النطف، وهي في الأرحام، لا تمكن عقلاً، وما استحال عقلاً
استحال عادة، وهذا الغلو هنا مقبول في مديح النبي ﷺ، وقد زاد الناظم تقريبه بكاد،
ولكن ذكر الأرحام والنطف في المدائح النبوية ما يخلو من قلة أدب.

وبيت الشيخ عز الدين في بديعته، يقول فيه عن النبي ﷺ:

في مدحه نفحات لا غلو بها يكاد يحيي شذاها بالي الرمم^(١)

نفحات هذا البيت عطرت الوجود بالمديح النبوي، وغلوها فيه ملحوظ بعين
القبول، وتقريبها بكاد أحرز قصبات السبق، ولا أقول كاد، وهذا البيت عندي مقدم على
بيت الشيخ صفي الدين. وبيت العميان، لالتزامه بتسمية النوع البديعي موري به من
جنس المديح، مع انسجامه ورقته.

وبيت بديعيتي أقول فيه، عن النبي ﷺ:

بلا غلو إلى السبع الطباق سرى وعاد والليل لم يجفل بصبحهم

هذا الغلو يرخص عنده بانتظامه في سلك المدائح النبوية كل غلو، فإنه لو كان في
غير النبي ﷺ، استحال عقلاً وعادة، ونعوذ بالله من نسبه إلى غيره، فإنها تؤدي إلى
الكفر المحض، وحصره في النبي ﷺ متفق عليه عقلاً ونقلاً. وقولي عند نظم هذا النوع
بلا غلو، ويعلم طالب هذا العلم طريق سلوك الأدب، وهذا البيت من خلاصات المدائح
النبوية، فنرجو الله أن تشملنا بركة ممدوحه ﷺ والله أعلم.

(١) الرمم: جمع رمة وهي جثة الإنسان بعد موته.

ذكر ائتلاف المعنى مع المعنى

سهل شديد له بالمعنيين بدا تألف في العطا والدين للعظم
هذا النوع، وهو ائتلاف المعنى مع المعنى، ضربان: فالأول في الاصطلاح، هو أن
يشتمل الكلام على معنى معه أمران: أحدهما ملائم، والآخر بخلافه، فيقرنه بالملائم.
واستشهدوا عليه بقول أبي الطيب المتنبي:

فالعرب منه مع الكدري طائرة والروم طائرة منه مع الحجل^(١)

وقالوا: إن تقوية المعنى الأول، مناسبة القطا الكدري مع العرب، لأنه يلائمهم
بنزوله في السهل من الأرض، وينفر من العمران ويستأنس بالمهمه، ولا يقرب العمران إلا
إذا زاد به العطش وقل الماء في البر. ومناسبة الحجل مع الروم، أنها تسكن الجبال،
وتنزل في المواضع المعروفة بالشجر.

والضرب الثاني هو أن يشتمل الكلام على معنى وملائمين له، فيقرن بهما ما
لاقرانه مزية. واستشهدوا على هذا الضرب الثاني، بقول أبي الطيب المتنبي أيضاً:

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم^(٢)

تمر بك الأبطال كلمي هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم^(٣)

وقالوا: إن عجز كل من البيتين يلائم كلياً من الصدرين، وما اختار ذلك الترتيب إلا

(١) الكوربي: نوع من القطا أغبر اللون، مرقش الظهر، أصفر الحلق.

(٢) الردى: الموت.

(٣) كلمي: مجرحة.

لأمرين: أحدهما أن قوله: كأنك في جفن الردى وهو نائم، تمثيل السلامة في مقام العطب، ولهذا قرر له الوقوف والبقاء في موضع يقطع على صاحبه فيه بالهلاك، أنسب من جعله مقرراً لثباته في حال هزيمة الأبطال. والثاني، أن في تأخير التميم بقوله: ووجهك وضاح وثغرك باسم، عن وصف الممدوح بوقوفه ذلك الموقف، وبمرور أبطاله كلمى بين يديه، ما يفوت بالتقديم. ولعمري إن الضرب الثاني من ائتلاف المعنى مع المعنى أبدع من الضرب الأول، وأوقع في القلوب، وأقرب إلى مواقع الذوق، وعليه نظمت بيت بديعيتي ويأتي الكلام عليه في موضعه، ولكن هنا نكتة تزيد بديع الضرب الثاني إيضاحاً، وترشح قصد المتنبي في ترتيبه الذي تقدم عليه الكلام.

حكى أن سيف الدولة بن حمدان ممدوح المتنبي قال، عم إنشاده إياه هذين البيتين: يا أبا الطيب قد انتقدنا عليك، كما انتقد على امرىء القيس في قوله:

كأنني لم أركب جواداً لغارة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال^(١)
ولم أسبأ الزرق الروي ولم أقل لخلي كرى كربة بعد إجحاف^(٢)

فقال المتنبي: أيها الأمير إن صح أن البزاز أعلم بالثوب من حائكة، فقد صح ما انتقد على امرىء القيس وعلي، فإن امرأ القيس أحب أن يقرن الشجاعة باللذة في بيت واحد، وهو الأول، وقد وقع مثل هذا في الكتاب العزيز، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَنْ لَا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنْتَ لَا تَنظُمُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾^(٣) فإنه تعالى لم يراع فيه مناسبة الري بالشبع والاستظلال باللبس، في تحصيل نوع المنفعة، بل راعى مناسبة اللبس للشبع في حاجة الإنسان إليه وعدم استغنائه عنه، ومناسبة الاستظلال للري في كونهما تابعين لللبس والشبع.

قلت وأما جواب المتنبي عن قول امرىء القيس:

كأنني لم أركب جواداً لغارة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال

فهو الافتتان بعينه، وهو نوع من أنواع البديع العالية، وقد تقدم.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي، في بديعته على هذا النوع، قوله:

من مفرد بغيرار السيف منتشر ومروج بسنان الرمح منتظم^(٤)

(١) تبطن: خبر وعرف الباطن - الكاعب: الفتاة إذا نهد ثديها.

(٢) سبأ الزرق الروي: اشترى وعاء الخمر المليء ليشربه.

(٣) طه، ١١٨/٢٠ و ١١٩.

(٤) المروج: السريع - غرار السيف: حده.

قد كثر تكرار القول، بأن المراد من بيت البديعية أن يكون شاهداً على نوعه، وإن لم يكن صالحاً للتجريد لم يصح الاستشهاد به على ذلك النوع. وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي، هنا، غير صالح للتجريد، وعدم صلاحه للتجريد هو الذي عقده وحجب إيضاح معناه عن مواقع الذوق.

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعته، يقول فيه عن النبي ﷺ:

ذو معنيين بصحب والعدا ائتلفا للخلف ما أشهب البازي كالرخم^(١)

قلت: إن هذين المعنيين، لشدة العقادة، أتعبت الفكر فيهما على أن يتضح لي منهما معنى فعجزت عن ذلك، والله أعلم. وبيت بديعيتي، أقول فيه عن النبي ﷺ:

سهل شديد له بالمعنيين بدا تألف في العطا والدين للعظم

وقد تقدم قولي: إن بيت بديعيتي منظوم في سلك الضرب الثاني، لكونه أبدع وأوقع في الذوق من الضرب الأول، وهو أن يشتمل الكلام على معنى وملائمين فيقرن بهما ما يلائم ويظهر باقترانه مزية فسهولة النبي ﷺ، قرنتها بالعطاء وناهيك بهذه الملاءمة وشدته ﷺ قرنتها بالدين لعظمه، فأكرم بها ملاءمة وشرف قران. وقد ورد نص الكتاب بذلك في قوله تعالى: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشدء على الكفار رحماء بينهم﴾^(٢) وقولي في القافية: للعظم، بعد ثبوت الشدة للدين، في غاية التمكن. والله أعلم.



١ أشهب: أصاب - البازي: طائر من الجوارح يستعمل ليصطاد به - الرخمة: طائر غزير الريش.
(٢) الفتح، ٢٩/٤٨.

ذكر نفي الشيء بإيجابه

لا يتنفي الخير من إيجابه أبداً ولا يشين العطا بالمن والسأم^(١)

نفي الشيء بإيجابه، هو أن يثبت المتكلم شيئاً في ظاهر كلامه، وينفي ما هو من سببه مجازاً، والمنفي في باطن الكلام حقيقة هو الذي أثبتته، كقوله تعالى: ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾^(٢) فإن ظاهر الكلام نفي الذي يطاع من الشفعاء، والمراد نفي الشفيع مطلقاً، وكقوله تعالى: ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾^(٣) فإن ظاهر الكلام نفي الإلحاف في المسألة، والباطن نفي المسألة بته، وعليه إجماع المفسرين.

وذكر ابن أبي الأصبع، في كتابه المسمى «بتحرير التحبير» أنه منقول عن ابن عباس رضي الله عنهما. وهذا هو الحد الذي قرره ابن رشيقي، في العمدة، فإنه قال: نفي الشيء بإيجابه إذا تأملته وجدت باطنه نفيًا وظاهره إيجاباً واستشهد عليه بقول زهير:

بأرض خلاء لا يُسدُّ وصيدها عليّ ومعروفي بها غير منكر^(٤)

فأثبت لها في الظاهر وصيداً، ومراده في الباطن أن ليس لها وصيد فيسد.

وألطف ما رأيت، من شواهد هذا النوع، أعني نفي الشيء بإيجابه، قول مسلم بن

الوليد:

(١) يشين: يعيب.

(٢) غافر، ١٨/٤٠.

(٣) البقرة، ٢٧٣/٢.

(٤) الأرض الخلاء: الخالية من الناس - والوصيد: هو الباب ومنه قوله تعالى عن أهل الكهف: ﴿وكلهم باسط ذراعيه بالوصيد﴾ الكهف، ١٨/١٨.

لا يعبق الطيب خديه ومفرقه ولا يمسح عينيه من الكحل^(١)
فإن ظاهر الكلام نفي عبق الطيب ومسح الكحل، والمراد نفي الطيب والكحل
مطلقاً.

ومثله قول أبي الطيب المتنبّي:

أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها مضع الكلام ولا صبغ الحواجيب
ولا برزن من الحمام مائلة أوراكنه صقيلات العراقيب^(٢)

فظاهر الكلام عدم بروزهن من الحمام على تلك الهيئات، والمراد، في باطن
الكلام، عدم الحمام مطلقاً، فإنهن عربيات كظباء الفلاة، ولهذا قال ذو الرمة:

بالله يا ظبيات قلن لنا ليلاي منكن أم ليلي من البشر

والقصد أن حسنهن لم يفتقر إلى تصنع ولا إلى تطرية بدخول الحمام.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته على هذا النوع، أعني نفي الشيء
بإيجابه، يقول فيه عن النبي ﷺ:

لا يهدم المن منه عمر مكرمة ولا يسوء أذاه نفس متهم

فظاهر الكلام، في بيت الشيخ صفي الدين الحلبي، أن النبي ﷺ لا يتبع المكرمة
بمن وحاشاه من ذلك، ولا يصدر منه لنفس متهم إساءة. والمراد، في الباطن، نفي المن
والإساءة مطلقاً، فإن مقام النبي ﷺ، في الكرم والحلم، فوق ذلك.

والعميان لم ينظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين، غفر الله له،
يقول فيه عن النبي ﷺ:

لم ينف ذماً بإيجاب المديح فتى إلا وعاقدت فيه الدهر بالسلم

هذا البيت ليس له تعلق بهذا النوع، فإن مشايخ البديع تواردوا في حده على عبارة
واحدة لم تختلف بحرف، بل الجميع قالوا: نفي الشيء بإيجابه، هو أن يثبت المتكلم
شيئاً في ظاهر كلامه، وينفي ما هو من سببه مجازاً، والمنفي في باطن الكلام حقيقة هو

(١) عبق: لاسم ولاصق.

(٢) الأوراك: ملتقى الفخذ مع الجذع، مفردها: ورك - العراقيب: أوتار غليظه فوق الأماق، مفردها

عرقوب.

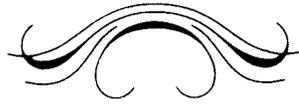
الذي أثبتته . وأوردوا على ذلك ما تقدم من شواهد القرآن العظيم، والشواهد الشعرية التي زادت النوع إيضاحاً. ولم يتضح لي في بيت الشيخ عز الدين غفر الله له، لمعة استضيء بها في ظلمة هذه العقادة إلى تقرير هذا النوع في البيت المذكور، فلم يسعني غير النظر في شرحه، فوجدته قد قال: ما نفي الذم بإيجاب المديح كريم، إلا وكان النبي ﷺ قد عاقد الدهر بالسلم على ذلك المعنى قبل الذي فعل هذا الفعل المحمود، فإنه هو الأصل في الأسباب الخيرية جميعها، فما علمت ما مراده في النظم، ولا في الشرح، ولا أين استقر نفي الشيء بإيجابه، والله أعلم.

وبيت بديعيتي، أقول فيه عن النبي ﷺ:

لا ينتفي الخير من إيجابه أبداً ولا يشين العطا بالمن والسأم

الذي أقوله: إن محاسن هذا البيت، ببركة ممدوحه ﷺ، تغني عن التطويل في شرحه، وسهولة مأخذ النوع منه لم تفتقر إلى زيادة إيضاح، وما أحقه هنا بقول القائل:

وقد ظهرت فلا تخفى على أحد إلا على أكمه لا يعرف القمر



ذكر الإيغال

للجود في السير إيغال إليه وكم حبا الأنام بوّد غير منصرم
هذا النوع، مأخوذ من إيغال السير. فإنه يقال: أوغل في المسير، إذا بلغ غاية
قصده بسرعة. ولهذا قلت: للجود في السير إيغال إليه، ومعنى ذلك: أن المتكلم، أو
الشاعر، إذا انتهى إلى آخر القرينة، أو البيت، استخرج سجعة أو قافية يريد معنى زائداً
أو كلاً منهما، فكأن المتكلم، أو الشاعر، قد تجاوز حد المعنى الذي هو آخذ فيه، وبلغ
مراده فيه إلى زيادة عن الحد.

وهذا النوع مما فرعه قدامة، وفسره بأن قال: هو أن يستكمل الشاعر معنى بيته
بتمامه، قبل أن يأتي بقافيته، فإذا أراد الإتيان بها ليكون الكلام شعراً، أفاد بها معنى زائداً
على معنى البيت، كقول ذي الرمة:

قف العيس في آثار مية واسأل رسوماً كأخلاق الرداء المسلسل^(١)

فتم كلامه قبل القافية، فلما احتاج إليها أفاد بها معنى زائداً، وكذلك صنع في
البيت الذي بعده، حيث قال:

أظن التي يجدي عليك سؤالها دموعاً كتبديد الجمان المفصل^(٢)

فإنه تم كلامه بقوله: كتبديد الجمان، واحتاج إلى القافية فأتى بما يفيد معنى
زائداً، ولو لم يأت بها لم يحصل. انتهى.

(١) العيس: الإبل مفردها أعيس - ومية: هي حبيبة ذي الرمة - الرسوم: الآثار - أخلاق الرداء المسلسل:
الرداء المقطع البالي.

(٢) تبديد: تفريق - الجمان: اللؤلؤ - المفصل: المنضود والمرتب.

والفرق بين الإيغال والتميم، أن التميم يأتي إلى المحتاج فيتممه، كقول الشاعر وقد تقدم:

أناس إذا لم يقبل الحق منهم ويعطوه غاروا بالسيوف القواضب

فإن المعنى بدون قوله: ويعطوه ناقص، والإيغال لا يرد إلا على المعنى التام، فيزيده كمالاً ويفيد فيه معنى زائداً، غير أن بين الإيغال والتكميل تجازباً يكاد أن ينتظم كل منهما في سلك الآخر. ولكن رأيت الناس قد سلموا إلى قدامة ما اختاره وفرعه هنا، فمشيت مع الناس. واستشهدوا على الإيغال بقوله تعالى: ﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾^(١) فإن الكلام تم بقوله تعالى: ﴿ومن أحسن من الله حكماً﴾ ثم احتاج الكلام إلى فاصلة تناسب القرينة الأولى، فلما أتى بها أفاد معنى زائداً. قلت: ولعمري لو طلب التكميل حقه من هذا الشاهد، لم يمنعه الذوق السليم. ومثله قوله تعالى: ﴿ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين﴾^(٢) فإن المعنى تم بقوله تعالى: ﴿ولا تسمع الصم الدعاء﴾ ثم أراد، وهو أعلم، إتمام الكلام بالفاصلة، فقال: ﴿إذا ولوا مدبرين﴾.

وقد حُكي عن الأصمعي أنه سئل من أشعر الناس؟ فقال: الذي يأتي إلى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كثيراً، وينقضي كلامه قبل القافية، فإن احتاج إليها أفاد ما يـ زائداً. فقيل له: نحو من؟ فقال: نحو الفاتح لأبواب المعاني، وهو امرؤ القيس، حيث قال:

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب^(٣)
ومثله قول زهير:

كأن فتات العهن في كل منزل نزلن به حب الفنا لم يحطم^(٤)

فكلام امرئ القيس انتهى إلى زلة الجزع، وزيادة المعنى في قوله: الذي لم يثقب، ولا يخفى على حذاق الأدب ما فيها من المحاسن. ومعنى قول زهير انتهى في

(١) المائة، ٥٠/٥.

(٢) النمل، ٨٠/٢٧، والروم، ٥٢/٣٠.

(٣) الجزع: العقيق.

(٤) العهن: الصوف المصبوغ ألواناً، ومنه قوله تعالى: ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾ القارعة،

٥/١٠١ - الفنا: شجر ثمره حب أحمر فيه نقط سود (عنب الثعلب).

كلامه إلى قوله: حب الفنا، وزيادة المعنى في قوله: لم يحطم، فيها نكتة بديعية غريبة، وأنا أذكرها هنا تنبيهاً على ما قرره الأصمعي، وما ذاك إلا أن زهيراً شبه ما تفتت من العهن بحب الفنا، والفنا شجر ثمره حب أحمر وفيه نقط سود، وقال الفراء: هو عنب الثعلب. فلما قال زهير، بعد تمام معنى بيته: لم يحطم، أراد أن يكون حب الفنا صحيحاً، لأنه إذا كسر ظهر له لون غير الحمرة.

وقال ابن أبي الأصبغ: في كتابه المسمى «بتحريف التحبير»: ولقد أحسن ابن المعتز في إيغاله، بقوله لابن طباطبا العلوي:

فأنتم بنو بنته دوننا ونحن بنو عمه المسلم
فإنه تحيل على المساواة، بأن قال: ونحن بنو عمه المسلم، والكلام تم قبل الإتيان بالقافية، فلما أتى بها أفادت معنى، إذ لا طريق له إلى التفضيل بزيادة في حسن الجدل.
والذي وقع اتفاق البديعيين عليه: أن أعظم ما وقع في هذا الباب وأبلغ، قول الخنساء أخت صخر:

وإن صخرأ لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه ناراً^(١)

فإن معنى جملة البيت كامل دون القافية، فوجودها زيادة لم تكن له قبلها. وهذه المرأة لم ترض لأخيها أن يأتهم به جهال الناس، حتى جعلته يأتهم به أئمة الناس، وهذا تميم. ولم ترض تشبيهه بالعلم، وهو الجبل المرتفع المعروف بالهداية، حتى جعلت في رأسه ناراً.

ويعجبني، من أمثلة هذا النوع في شعر المتأخرين، قول الباخري من قصيدة:

أنا في فؤادك فارم طرفك نحوه ترني فقلت لها وأين فؤادي

ومثله قول الآخر:

تعجبت من ضنى جسمي فقلت لها على هواك فقلت عندي الخبر

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته، يقول فيه عن النبي ﷺ:

كأن مرآه بدر غير مستر وطيب رياه مسك غير مكتم

(١) تأتم: تجعله إماماً وتقتدي به - الهداة: الأئمة - العلم: الجبل.

الإيغال مع الشيخ صفي الدين في غير مستتر وغير مكتتم. والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم،

وبيت الشيخ عز الدين الموصلي، في بديعته يقول فيه عن النبي ﷺ:

أضحت أعاديه في الأقطار طائرة وأوغلت في الهوى خوفاً مع العصم^(١)

قال الشيخ عز الدين غفر الله له في شرحه: إن الإيغال الذي أفاد في بيته معنى زائداً بعد تمامه، قوله: خوفاً مع العصم. وذكر أن العصم هي الجوارح من الطيور التي تفرخ في العوالي، والله أعلم.

وبيت بديعتي أشير فيه إلى النبي ﷺ بقولي:

للجود في السير إيغال إليه وكم حبا الأنام بود غير منصرم

فمعنى بيتي انتهى إلى قولي عنه ﷺ: حبا الأنام بود. ولما قلت بعد ذلك: غير منصرم إشارة إلى ود النبي ﷺ، ظهر لي من زيادة المعنى ما أقام قواعد بيتي، وملاً الدنيا بهجة بمحاسن الصفات النبوية، والله أعلم.



(١) العصم: من الوحوش: التي في قوائمها بياض وسائر لونها أسود أو أحمر.

ذكر التهذيب والتأديب

تهذيب تأديبه قد زاده عظما في مهده وهو طفل غير منظم

نوع التهذيب والتأديب ما قرروا له شاهداً يخصه، لأنه وصف يعم كل كلام منقح محرر، وهو عبارة عن ترداد النظر في الكلام بعد عمله، والشروع في تهذيبه وتنقيحه، نظماً كان أو نثراً، وتغيير ما يجب تغييره، وحذف ما ينبغي حذفه وإصلاح ما يتعين إصلاحه، وكشف ما يشكل من غريبه وإعراجه وتحرير ما يدق من معانيه، واطراح ما يتجافى عن مضاجع الرقة من غليظ ألفاظه، لتشرق شمس التهذيب في سماء بلاغته، وترشف الأسماع على الطرب رقيق سلافته، فإن الكلام إذا كان موصوفاً بالمهذب، منعوتاً بالمنقح، علت رتبته وإن كانت معانيه غير مبتكرة. وكل كلام قيل فيه: لو كان موضع هذه الكلمة غيرها، أو لو تقدم هذا المتأخر وتأخر هذا المتقدم، أو لو تمم هذا النقص بكذا، أو لو تكمل هذا الوصف بكذا، أو لو حذفت هذه اللفظة، أو لو اتضح هذا المقصد، وسهل هذا المطلب لكان الكلام أحسن، والمعنى أبين، كان ذلك الكلام غير منتظم في سلك نوع التهذيب والتأديب.

وكان زهير بن أبي سلمى معروفاً بالتنقيح والتهذيب، وله قصائد تعرف بالحوليات، قيل إنه كان ينظم القصيدة في أربعة أشهر، ويهذبها وينقحها في أربعة أشهر، ويعرضها على علماء قبيلته في أربعة أشهر. ويروى، أنه كان يعمل القصيدة في شهر وينقحها ويهذبها في أحد عشر شهراً. ولا جرم أنه قلما يسقط منه شيء، ولهذا كان الإمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، مع جلالته في العلم، وتقدمه في النقد، يقدمه على سائر الفحول من طبقتة، وما أحسن ما أشار أبو تمام إلى التهذيب بقوله:

خذها ابنة الفكر المهذب في الدجى والليل أسود رقعة الجلباب^(١)

فإنه خص تهذيب الفكر بالدجى، لكون الليل تهدأ فيه الأصوات وتسكن الحركات، فيكون الفكر فيه مجتمعاً ومرآة التهذيب فيه صقيلة، لخلو الخاطر وصفاء القريحة، لا سيما وسط الليل والنفس قد أخذت حظها من الراحة، بعد نيل قسطها من النوم، وخف عليها ثقل الغذاء، وصح ذهنها وصار صدرها منشرحاً، وقلبها بالتأليف منسبطاً، وما قدموا وسط الليل في التأليف على السحر، مع ما فيه من رقة الهواء وخفة الغذاء وأخذ النفس سهمها من الراحة، إلا لما يكون فيه من انتباه أكثر الحيوان الناطق وارتفاع معظم الأصوات، وجرس الحركات، وتقشع الظلماء بطلائع الأضواء، وبدون ذلك ينقسم الفكر، ويشغل القلب، ووسط الليل خال مما ذكرناه. ولهذا خص أبو تمام تهذيب الفكر بالدجى عادلاً عن الطرفين، لما فيهما من الشواغل المذكورة.

وحكت الثقات عن أبي عبادة البحرري الشاعر قال: كنت في حدائتي أروم الشعر، وكنت أرجع فيه إلى طبع سليم، ولم أكن وقفت له على تسهيل مأخذ ووجوه اقتضاب، حتى قصدت أبا تمام وانقطعت إليه واتكلت في تعريفه عليه، فكان أول ما قال لي: يا أبا عبادة تخير الأوقات، وأنت قليل الهموم صفر من الغموم، واعلم أن العادة في الأوقات، إذا قصد الإنسان تأليف شيء أو حفظه أن يختار وقت السحر، وذلك أن النفس تكون قد أخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم، وخف عنها ثقل الغذاء، وصفا من أكثر الأبخرة والأدخنة جسم الهواء، وسكنت الغماغم^(٢)، وركت النسائم، وتغنت الحمائم.

وإذا شرعت في التأليف تغن بالشعر، فإن الغناء مضماره الذي يجري فيه، واجتهد في إيضاح معانيه، فإن أردت التشبيب فاجعل اللفظ رقيقاً، والمعنى رشيقاً، وأكثر فيه من بيان الصبابة، وتوجع الكآبة، وقلق الأشواق، ولوعة الفراق، والتعلل باستنشاق النسائم، وغناء الحمائم، والبروق اللامعة، والنجوم الطالعة، والتبرم من العذال، والوقوف على الأطلال.

وإذا أخذت في مدح سيد فأشهر مناقبه، وأظهر مناسبه، وأرهب من عزائمه ورغب في مكارمه. واحذر المجهول من المعاني، وإياك أن تشين شعرك بالعبارات الردية والألفاظ الوحشية، وناسب بين الألفاظ والمعاني في تأليف الكلام، وكن كأنك خياط تقدر الثياب على مقادير الأجسام، وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك، ولا تعمل إلا وأنت فارغ

(١) الجلباب: الثوب الواسع الفضفاض.

(٢) الغماغم: الأصوات.

القلب، ولا تنظم إلا بشهوة فإن الشهوة نعم المعين على حسن النظم، وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من أشعار الماضين، فما استحسن العلماء فاقصده، وما استقبحوه فاجتنبه. انتهت وصية أبي تمام.

وأورد العلامة زكي الدين بن أبي الأصبع، في كتابه المسمى «بتحرير التحبير» وصية لنفسه أوردها أيضاً على نوع التهذيب والتأديب، فاخترت منها ما هو اللائق بالحال، وأولها: ينبغي لك أيها الراغب في العمل، السائل عن أوضح السبل، أن تحصل المعنى قبل الشروع في النظم، والقوافي قبل الأبيات. قلت: وهذا مذهبننا. ثم قال ابن أبي الأصبع: ولا تكره خاطر على وزن مخصوص وروي مقصود، وتوخ الكلام الجزل دون الرذل، والسهل دون الصعب، والعذب دون المستكره، والمستحسن دون المستهجن. ولا تعمل نظماً ولا نثراً عند الملل، فإن الكثير معه قليل، والنفيس معه خسيس، والخواطر ينبع، إذا رُفق بها جمت^(١)، وإذا كثر استعمالها نزحت^(٢). واكتب كل معنى يسبح، وقيد كل فائدة تعرض، فإن نتائج الأفكار كلمعة البرق ولمحة الطرف، إن لم تقيدها شردت وندت^(٣)، وإن لم تستعطف بالتكرار عليها صدت. والترنم بالشعر مما يعين عليه، فقد قال الشاعر:

تغن بالشعر إما كنت قائله إن الغناء لقول الشعر مضمار^(٤)

وقد يكمل خاطر الشاعر ويعصى عليه الشعر زماناً، كما روي عن الفرزدق أنه قال: لقد يمر عليّ زمان وقلع ضررس من أضراسي أهون عليّ من أن أقول بيتاً واحداً. وإذا كان كذلك، فاتركه حتى يأتيك عفواً، وينقاد إليك طوعاً، وإياك وتعقيد المعاني وتقصير الألفاظ، وتوخ حسن النسق عند التهذيب، ليكون كلامك بعضه آخذ بأعناق بعض، وكرر التنقيح، وعاود التهذيب، ولا يخرج عنك ما نظمته إلا بعد تدقيق النقد وإمعان النظر. انتهى.

قلت وهذا لعمرى هو المراد من النوع الذي نحن في شرحه، أعني نوع التهذيب والتأديب، لا كقول الفرزدق:

وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حي أبوه يقاربه

(١) جمّت. الينايع: كثر ماؤها.

(٢) نزحت الينايع: قل ماؤها أو جفت.

(٣) ندّت: الفكرة، نفرت وغابت.

(٤) المضمار: في الأصل مكان تضمّر فيه الخيل. وللشعر: مجال.

فإن الممدوح إبراهيم بن هشام المخزومي، خال هشام بن عبد الملك وأما التقديم والتأخير ففي قوله وما مثله، البيت، فإن تقديره: وما مثله في الناس حي يقاربه إلا مملكا أبو أمه أبوه. وسلوك طريق التعقيد في قوله أبو أمه أبوه، وكان يجزيه قوله جده. وهذا لعمري هو التعقيد الذي بينه وبين التهذيب والتأديب الذي قررناه، بعد المشرقين. وقد تقدم قولي: إن البديعيين أجمعوا على أن هذا النوع ليس له شاهد يخصه، لأنه وصف يعم كل كلام منقح فاختصرت الشواهد، ليظهر للمتأمل من أحرز قصبات السبق من نظام البديعيات في هذا النوع، أعني التهذيب والتأديب.

ولكن رأيت العلامة زكي الدين بن أبي الأصعب قد استحسن من الشواهد الثلاثة بهذا النوع قول القاضي السعيد بن سنا الملك:

تغنى عليها حليها طرباً بها وفاحت فقلنا هذه الروضة الغنا

قال: وقوله صحيح، لو لم تقدم في صدر البيت لفظة مشتقة من الغناء، حصل بها في البيت من الروتق ما لا يحسن بدونها، وكان البيت خالياً من التهذيب، فإن بوجودها حصل في بيته تصدير وتجنيس وائتلاف وتهذيب، وانتفى عنه من العيوب عدم الائتلاف وقلق القافية، وبذلك تقدم التهذيب فإنه لو قال:

زهت بأزاهير الجمال وحسناها وفاحت فقلنا هذه الروضة الغنا

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته على هذا النوع، يقول فيه عن النبي ﷺ:

هو النبي الذي آياته ظهرت من قبل مظهره للناس في القدم

قد تكرر قولي أنني لم أكثر من شواهد هذا النوع، إلا ليظهر فيه من أحرز قصبات السبق من نظام البديعيات.

والعميان لم ينظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعته يقول فيه عن النبي ﷺ:

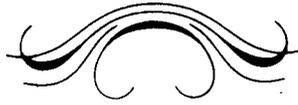
والله هذبه طفلاً وأدبه فلم يحل هديه الزاكي ولم يرم^(١)

وبيت بديعيتي، أقول فيه عن النبي ﷺ:

تهذيب تأديبه قد زاده عظما في مهده وهو طفل غير منظم

(١) لم يحل: لم يتغير.

هذا البيت يشتمل، ببركة من أدبه ربه فأحسن تأديبه، وهو الممدوح ﷺ، على عشرة أنواع من البديع: أولها النوع الذي هو شاهد عليه وهو التهذيب والتأديب، والانسجام والسهولة، والتورية بتسمية النوع، والتميم، والتكميل، والتمكين، والإيغال، والائتلاف، والمبالغة. ولولا الخوف من الإطالة لذكرت كل نوع في موضعه، ولكن في نظر أصحاب الذوق السليم من علماء هذا الفن ما يغني عن ذلك. والله أعلم.



ذكر ما لا يستحيل بالانعكاس

بحر وذو أدب بدا وذو رجب لم يستحل بانعكاس ثابت القدم
هذا النوع سماه قوم المقلوب والمستوي، وسماه السكاكي مقلوب الكل، وعرفه
الحريري في مقاماته بما لا يستحيل بالانعكاس، وهو أن يكون عكس البيت، أو عكس
شطره، كطرده.

وهذا النوع، أعني ما لا يستحيل بالانعكاس، غايته أن يكون رقيق الألفاظ سهل
التركيب منسجماً، في حالتي الثر والنظم. وجاء منه في الكتاب العزيز: ﴿كل في
فلك﴾^(١) و﴿وربك فكبير﴾^(٢) ومن الكلام الذي رق لفظه: «أرض خضراء». وأورد
الحريري في مقاماته: «سأكب كاس» وزاد في العدة: «كبر رجاء أجر ربك» وزاد في
العدة أيضاً فقال: «لذ بكل مؤمل إذا لم وملك بذل». قلت هذا الكلام الذي زاد
الحريري في عدة كلماته صحيح التركيب، في طرده وعكسه، ولكن لم يخف على
الحذاق وأصحاب السجيا الرقيقة أن التكلف طوق جيده بطوق العقادة.

وذكروا أن العلامة القاضي فتح الدين بن الشهيد، صاحب ديوان الإنشاء الشريف
بالشام المحروس، تغمده الله برحمته ورضوانه، وصل في تركيب هذا النوع إلى أكثر من
هذه العدة، ولكن ما وقفت له على شيء من ذلك، وإنما مولانا، المقر الأشرف القاضي
الناصرى محمد بن البارزى الجهني الشافعى، صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالممالك
المحروسة الإسلامية. عظم الله تعالى شأنه، أخبر المملوك أنه وقف على ما نثره القاضي

(١) الأنبياء، ٣٣/٢١.

(٢) المدثر، ٣/٧٤.

فتح الدين المشار إليه في هذا النوع، قبل تيمورلنك، وذكر أنه في غاية العقادة، وقد تقدم القول وتقرر: أن المراد من تركيب هذا النوع نثراً كان أو نظماً غير كثرة العدد، والمبرز فيه هو الذي يأتي به رقيق الألفاظ سهل التركيب، رافلاً في حلال الانسجام. ومن استوعب هذه الشروط في كلام منشور، مولانا قاضي القضاة شرف الدين شيخ الإسلام ابن البارزي الجهني الشافعي نور الله ضريحه بقوله: «سور حماه بربها محروس» ومن الغايات أيضاً، في هذا النوع، قول العماد الكاتب، وقد مرّ عليه القاضي الفاضل ركباً: «سر فلا كبابك الفرس». فأجابه الفاضل على الفور، وقد علم القصد: «دام علا العماد». وقال الحريري في المقامات:

إن أحببت أن تنظم فقل للذي تعظم
أس أرملًا إذا عرا وارع إذا المرء أساً^(١)

قلت: وهذا النظم أيضاً، لا يخفى أنه يتجافى عن الرقة بغليظ لفظه. ومن الشواهد المقبولة على هذا النوع في النظم، قول الشاعر:

عج تنم قربك دعد آمناً إنما دعد كبرق متجعج^(٢)

ومنها:

أراهن نأدمنه ليل لهو وهل ليلهن مدان نهارا

والذي وقع عليه الإجماع، أن أبلغ الشواهد على هذا النوع، الذي استوعب ناظمه فيه الشروط التي تقدم ذكرها، قول القاضي الأرجاني:

مودته تدوم لكل هول وهل كل مودته تدوم

ومثال شطر البيت الذي نسجت أبيات البديعيات على منواله: «أرانا الإله هلالاً أنارا».

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته على هذا النوع:

هل من ينم بحب من ينم له بما رموه كمن لم يدر كيف رمى

قلت الشيخ صفي الدين الحلبي، غفر الله له، غير مشكور في نظم هذا البيت فإن الطرد والعكس لم يأت به إلا في الشطر الأول، وهو غير ملتزم تسمية النوع، فإن تسمية

(١) أس: من المواساة وهي التعزية: الأرملة: الذي ماتت زوجته - عرا: ألم. أسا: أساء. والله أعلم.

(٢) عج: عاج بالمكان مرّ به ومال إليه - المتجعج: المقصود لفائدته.

هذا النوع بما لا يستحيل بالانعكاس، تستوعب جزءاً كبيراً من البيت، ومع عدم التزامه بشيء من ذلك، جاء بيته في غاية العقادة، ولظلمة عقادته لم يلح لي فيه لمعة اهتدى بها إلى فهم معناه. وأعجب من ذلك أن البيت مبني على مديح النبي ﷺ، والبيت الذي قبله:

من مثله وذراع الشاة كلمه عن سمه بلسان صادق الرنم
والبيت الذي بعده:

هو النبي الذي آياته ظهرت من قبل مظهره للناس في القدم
فبيت ما لا يستحيل بالانعكاس بينهما أجنبي، ونسبه بعيد من شرف هذين البيتين
المتسبين إلى النبي ﷺ.

والعميان لم ينظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في
بديعته، يقول فيه عن النبي ﷺ.

لم يستحل بانعكاس في سجيته مدنٍ أخا طعم معط أخا ندم^(١)
قلت الشيخ عز الدين رحمه الله تعالى، يعذر هنا إذا احتجبت عنه مسالك الرقة،
لالتزامه بتسمية النوع الذي استوعب جزءاً كبيراً من بيته.

وبيت بديعيتي أقول فيه عن النبي ﷺ:

بحر وذو أدب بدا وذو رجب لم يستحل بانعكاس ثابت إقدام
وقد حبست عنان القلم هنا، عن الإطناب في انسجام هذا البيت ورقة ألفاظه
وتمكين قافيته، علماً أن في إنصاف أصحاب الذوق السليم من أهل الأدب ما يغني عن
ذلك، والله أعلم.



(١) مدنٍ: من أدنى، مقرب.

ذكر التورية

أوصافه الغر قد حلت بتورية جيدي وعقد لساني بعد ذا وفمي

التورية، يقال لها: الإيهام والتوجيه والتخيير. والتورية أولى في التسمية لقربها من مطابقة المسمى، لأنها مصدر وريت الخبر تورية إذا سترته وأظهرت غيره، كأن المتكلم يجعله وراءه بحيث لا يظهر. وهي في الاصطلاح، أن يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان حقيقيان، أو حقيقة ومجازاً، أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفية، فيريد المتكلم المعنى البعيد ويوري عنه بالمعنى القريب، فيتوهم السامع أول وهلة؛ أنه يريد القريب وليس كذلك، ولأجل هذا سمي هذا النوع إيهاماً، ومثل ذلك قول أبي العلاء المعري:

وحرف كنون تحت راء ولم يكن بدالٍ يؤم الرسم غيرَه النقط

فمن سمع هذا البيت توهم أنه يريد براء ودال حرفي الهجاء، لأنه صدر بيته بذكر الحروف وأتبع ذلك بالرسم والنقط، وهذا هنا هو المعنى القريب المتبادر أولاً إلى ذهن السامع، والمراد غيره وهو المعنى البعيد المورى عنه بالقريب، لأن مراده بالحرف الناقه، وبحرف النون تشبيه الناقه به في تقويسها وضمورها، وبراء اسم الفاعل من رأى إذا ضرب الرثه، وبدال اسم الفاعل من دلا يدلوا إذا رفق في السير، وبالرسم أثر الدار، وبالنقط المطر. ومعنى هذا البيت أن هذه الناقه لضعفها وانحنائها مثل نون تحت رجل يضرب رثتها ولم يرفق بها في السير فهو غير دالٍ، وقد تقدم أن الدالي هو الرفيق ويؤم بها داراً غير المطر رسمها. واجتماع هذه الأوصاف دليل على ضعف الناقه لأنها لو كانت قوية لما احتاجت إلى ضرب رثتها، وإلى الرفق بها مع شدة شوقه إلى ديار أحبابه، وذلك باعث على شدة السير.

قال حذاق الأدب تراكيب التورية، في هذا البيت بالنسبة إلى ديباجة المتأخرين وطلاوة ألفاظهم، وزخارف بيوتهم تستحق قول القائل:

وما مثله إلا كفسارغ حمص خلي من المعنى ولكن يفرقع

لأن هذا النوع، أعني التورية، ما تنبه لمحاسنه إلا من تأخر من حذاق الشعراء وأعيان الكتاب، ولعمري إنهم بذلوا الطاقة في حسن سلوك الأدب إلى أن دخلوا إليه من باب، فإن التورية من أغلى فنون الأدب وأعلاها رتبة، وسحرها ينفث في القلوب، ويفتح بها أبواب عطف ومحبة، وما أبرز شمسها من غيوم النقد إلا كل ضامر مهزول، ولا أحرز قصبات سبقها من المتأخرين غير الفحول، ومما يؤيد قولي هذا، قول الشيخ صلاح الدين الصفدي، رحمه الله تعالى في ديباجة كتابه المسمى «بفض الختام عن التورية والاستخدام». ومن البديع ما هو نادر الوقوع، ملحق بالمستحيل الممنوع، وهو نوع التورية والاستخدام، فإنه نوع تفق الأفهام حسرى دون غايته عن مرامي المرام.

نوع يشق على الغبي وجوده من أي باب جاء يغدو مقفلا

لا يفرع هضبته فارغ^(١)، ولا يقرع بابه قارع، إلا من تنحو البلاغة نحوه في الخطاب، وتجري ريحها بأمره رخاء حيث أصاب.

وقال الزمخشري، وهو حجة في هذا العلم: ولا نرى باباً في البيان أدق ولا ألطف من هذا الباب، ولا أنفع ولا أعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله، وكلام نبيه ﷺ، وكلام صحابته رضي الله عنهم أجمعين، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾^(٢) لأن الاستواء على معنيين، أحدهما، الاستقرار في المكان، وهو المعنى القريب المورى به، الذي هو غير مقصود، لأن الحق تعالى وتقدس منزّه عن ذلك، والثاني الاستيلاء والملك وهو المعنى البعيد المقصود الذي وُرى عنه بالقرب المذكور. انتهى. ومنه قول النبي ﷺ، حين سئل في مجيئه عند خروجه إلى بدر فقيل لهم: ممن أنتم؟ فلم يرد أن يعلم السائل فقال: من ماء. أراد أنا مخلوقون من ماء، فوري عنه بقبيلة يقال لها ماء. ومنه ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: لا يزال المنام طائراً حتى يقص فإذا قص وقع. ففي الكلام توريتان: لفظه طائر، ولفظة يقص، ويحتمل أيضاً أن يكون في لفظه وقع تورية ثالثة. ومنه قول أبي بكر رضي الله عنه، في الهجرة، وقد

(١) فرع: الهضبة علاها.

(٢) طه، ٥/٢٠.

سئل عن النبي ﷺ، من هذا؟ فقال: هادٍ يهديني. أراد أبو بكر رضي الله عنه هادياً يهديني إلى الإسلام، فوری عنه بهادي الطريق، وهو الدليل في السفر.

وكانت خواطر المتقدمين عن نظم التورية بمعزل، وأفكارهم مع صحتها ما خيمت عليها بمنزل، لكنها ربما وقعت لهم عفواً من غير قصد، لأنهم على كل حال ولادة هذا الشأن، وأدلة هذا الركب. وقيل إن أول من كشف غطاءها، وجلا ظلمة إشكالها، أبو الطيب المتنبي بقوله:

برغم شبيب فارق السيف كفه وكانا على العلات مصطحبان
كأن رقاب الناس قالت لسيفه رفيقك قيسي وأنت يماني

يريد أن كف شبيب وسيفه متنافران فلا يجتمعان، لأن شبيباً كان قيسياً والسيف يقال له يماني، فوری به عن الرجل المنسوب إلى يمن، ومعلوم ما بين قيس ويمن من التنافر. قلت: وكان من قال: إن أبا الطيب أول من كشف غطاء التورية، ما لمح قول عمرو بن كلثوم في معلقته عن الخمرة:

مشعشة كان الحصص فيها إذا ما الماء خالطها سخينا^(١)

الشاهد هنا في سخينا، فإن العرب كانوا يسخنون الماء في الشتاء لشدة برده، ثم يمزجونها به فسخينا على هذا التقدير نعت لموصوف محذوف والمعنى: فأضحى شراباً سخينا، وهذا هو المعنى القريب المورى به. ويحتمل السخاء الذي هو عبارة عن الكرم، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه. ومراد الناظم ومما يؤيد قولي أنه المراد، قول الجوهري في الصحاح: قول من قال سخينا من السخونة، نصب على الحال ليس بشيء فإن المراد لما خالطها الماء ومزجت به طبنا وسخينا بأموالنا: كقول عنترة:

وإذا سكرت فلإنني مستهلك مالي وعرضي وافر لم يكلم^(٢)

والحصص هو الزعفران على أحد الأقوال، وهو الذي شبه صفرتها به، فإن قيل: سخا

(١) الحصص: الزعفران وهو ذو لون أصفر شبيه بلون بعض أنواع الخمرة، وسخينا: صيغة مبالغة من السخونة، وهي منصوبة على الحال وليس كما أورد الكاتب عن الجوهري إذ ليس ما يوجب التأويل الذي لجأ إليه الكاتب بقوله: فسخينا على هذا التقدير نعت لموصوف محذوف، والمعنى: فأضحى شراباً سخيناً. والذي نراه أن البيت يحتمل تأويلين: الأول وهو: تراها مشعشة لونها بلون الزعفران إذا مزجت بالماء سخيناً، أي مسخناً. والثاني: إذا شربناها مشعشة لونها بلون الزعفران ممزوجة بالماء صرنا كراماً.

(٢) لم يكلم: لم يتعرض لأذى والكلم هو الجرح.

مضارعه يسخو، ويسخو من ذوات الواو فلا يجوز أن يكون سخيناً فعلاً على هذا التقدير، فالإجماع عند أهل اللغة أنه يقال سخا يسخا وسخا يسخو، وهذا مذهب الجوهري في الصحاح، وعلى هذا التقدير، فاشترك التورية في سخينا صحيح ممكن من الوجهين. انتهى.

وكشف أيضاً عن قناع التورية في شعره النابغة الذبياني بقوله:

خيل صيام وخيل غير صائمة تحت العجاج وأخرى تعلق اللجما^(١)

أراد بالصيام ههنا القيام، وورى بقوله: تعلق اللجما، عن الصيام.

وأورد السكاكي، في المفتاح، للعرب من هذا الباب:

حملناهم طراً على الدهم بعدما خلعنا عليهم بالطعان ملابسا^(٢)

أراد بالحمل على الدهم، تقييدهم، وأوهم بالركوب على دهم الخيل.

قلت: وقبل المتنبي أيضاً بزمان طويل قال أبو نواس:

فتنت قلبي محببة وجهها بالحسن منتقب^(٣)

قال الشيخ صلاح الدين الصفدي، في كتابه المسمى «بفض الختام عن التورية والاستخدام» امتحنت، بيت أبي نواس، جماعة ممن حاضرتهم وذاكرتهم وعاطبتهم كؤوس الأدب وعاشرتهم، فبعضهم استخرج منه النكتة، وبعضهم لم أجد له إليها لفظة.

وقال البحرني:

ووراء تسدية الشواح ملية بالحسن تملح في القلوب وتعذب^(٤)

الشاهد في قوله: تملح، فإنه يحتمل أن يكون من الملوحة التي هي ضد العذوبة، وهو المعنى القريب المورى به، ويحتمل أن يكون من الملاححة وهو المعنى البعيد المورى عنه، وقد تقدم من لوازمه على جهة التبيين قوله: ملية بالحسن.

(١) العجاج: الغبار - اللجم: جمع لجام وهي حديدة توضع في فم الحصان أو الفرس حتى تسهل السيطرة عليه.

(٢) الدهم: جمع أدهم: القيود، والمصائب، والخيول السوداء اللون - الطعان: القتال.

(٣) منتقب: لابسة نقاباً وهو الحجاب.

(٤) ملية بالحسن: كثيرة الحسن.

وأما أبو العلاء، فإنه أتى في التورية بلمعة خفية للإيماء شديدة العقادة والتكلف، وذلك في قوله:

حروف السرى جاءت لمعنى أردته برتني أسماء لهن وأفعال
إذا صدق الجدّ افترى العم للفتى مكارم لا تخفى وإن كذب الخال

الجد هنا مشترك بين أبي الأب والسعد، ومراده السعد. والعم مشترك بين أخي الأب والجماعة من الناس، ومراده الجماعة. والخال مشترك بين أخي الأم والظن، ومراده الظن. قلت زحوف^(١) هذا البيت أيضاً لا تخفى إنه مكسوف بدخان العقادة، أين هذا من قول الشيخ تقي الدين السروجي:

في الجانب الأيمن من خدها نقطة مسك اشتهي شمها
حسبته لما بدا خالها وجدته من حسنه عمها^(٢)

ومثله في اللطف والظرافة قول الشيخ عز الدين الموصلي:

لحظت من وجتها شامة فابتسمت تعجب من حالي
قالت قفوا واستمعوا ما جرى قد هام عمي الشيخ من خالي^(٣)

قلت: ولهذا وقع الإجماع على أن المتأخرين هم الذين سموا إلى أفق التورية وأطلعوا شمسها، ومازجوا بها أهل الذوق السليم لما أداروا كؤوسها، وقيل إن الفاضل هو الذي عصر سلافة التورية لأهل عصره، وتقدم على المتقدمين بما أودع منها في نظمه ونثره، فإنه رحمه الله تعالى كشف بعد طول التحجب ستر حجابها، وأنزل الناس بعد تمهيدها بساحاتها ورحابها. وممن شرب من سلافة عصره، وأخذ عنه وانتظم في سلكه بفرائد دره، القاضي السعيد ابن سنا الملك، ولم يزل هو ومن عاصره مجتمعين على دور كأسها، و متمسكين بطيب أنفاسها، إلى أن جاءت بعدهم حلبة صاروا فرسان ميدانها، والواسطة في عقد جمانها، كالسراج الوراق وأبي الحسين الجزار، والنصير الحمامي وناصر الدين حسن بن النقيب، والحكيم شمس الدين بن دانيال، والقاضي محيي الدين ابن عبد الظاهر.

قال الشيخ صلاح الدين الصفدي، في كتابه المسمى «بفض الختام عن التورية

(١) زحوف: زحافات مصطلح عروضي يفيد تغييراً يلحق ثاني السبب في التفعيلة العروضية.

(٢) الخال: نقطة سوداء تكون في الجلد(الشامة) - عمها: أي ملاً جسمها كله.

(٣) عمي: يقال لكل رجل كبير في السن. وخالي: شامتي.

والاستخدام». وجاء من شعراء الشام جماعة تأخر عصرهم، وتآزر نصرهم، ولأن في هذا النوع هصرهم^(١) وبعد حصرهم، كل ناظم تود الشعرى^(٢)، لو كانت له شعراً، ويتمنى الصبح لو كان له طرساً والغسق مداً والنثرة^(٣) نثراً، ما حلا من بنات فكره خودا^(٤) إلا شاب لحسنها الوليد، وسيزها في الأفاق وبين يديها من النجوم جوار^(٥) ومن الشعراء عبيد، كالشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصاري شيخ شيوخ حماة، والأمير مجير الدين ابن تميم، وبدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي، ومحيي الدين بن قرناص الحموي، وشمس الدين محمد بن العفيف، وسيف الدين بن المشد. وقال الشيخ صلاح الدين في أواخر ديباجة كتابه المذكور. ومع هؤلاء جماعة يحضرنى ذكرهم عند شعرهم، ويعز علي إذ لم أهرم على تكاثرهم لفوات عصرهم. وتلطف بقوله بعد ذلك: ولا تقل أيها الواقف على هذا التأليف، لقد أفرطت في التعصب لأهل مصر والشام، على من دونهم من الأنام، وهذا باطل ودعوى عدوان، وحمية لأوطانك ومن جاورها من البلدان. فالجواب أن الكلام في التورية لا غير، ومن هنا تنقطع المادة في السير، ومن ادعى أنه يأتي بدليل وبرهان. فالمقياس بيننا والشقراء^(٦) والميدان. انتهى كلام الشيخ صلاح الدين الصفدي.

قلت: قد تقدم وتقرر أن التورية عند علماء هذا الفن بمنزلة الإنسان^(٧) من العين، وسموها في البلاغة سمو الذهب على العين^(٨)، وقد ثبت أن خواطر المتقدمين كانت بها شحيحة، وأفكارهم لا تقصد مظانها^(٩) وإن كانت سليمة صحيحة، لكنها ربما وقعت لهم عفواً من غير مرام^(١٠)، فنقول إنها رمية من غير رام. وقد علم أن المتأخرين من الفاضل إلى من فضل بعدهم نور مشكاتها^(١١)، والمتفككين في أدواح الأدب بشمراتها، فإذا جليت عرائس أفكارهم على اختلاف أنواع التورية لا يمل المتأمل، اللهم إلا أن يكون سيف

(١) هصرهم: غمزهم.

(٢) الشعرى: كوكب نير يطلع في الجوزاء في شدة الحر.

(٣) النثرة: مجموعة من النجوم في صورة السرطان تشكل المنزلة الثامنة من منازل القمر.

(٤) الخود: الفتاة الحسنة.

(٥) جوار: جمع جارية: وهي الخادمة.

(٦) الشقراء: الفرس.

(٧) الإنسان: إنسان العين، يؤبؤها.

(٨) العين: ما ضرب نقداً من الدنانير.

(٩) مظانها: أماكنها التي يصعب الوصول إليها.

(١٠) مرام: مطلب.

(١١) المشكاة: مكان وضع المصباح أو القنديل.

ذهنه كليلاً^(١) فيقول إنه من هذا الفن متصل^(٢)، فإن هذه العرائس لم تبرز لمتأمل إلا من خدور هذا الكتاب، وإذا طلبها من غيره توارت عنه بالحجاب، فإذا سرح المتأمل طرفه وأمسى في كل واد من محاسنها يهيم، وتنوعت حلاوات أنواعها لذوقه السليم، جردت سيف العزم وأقمت لكل نوع حداً، ونظمت له من أنواع التورية وأقسامها في سلك هذا النوع عقداً، فإن الشيخ صفي الدين الحلبي لم يذكر في شرح بديعته نوعاً من أنواع التورية، ولا قسماً من أقسامها، بل ذكر حد التورية الذي أجمع الناس عليه وقال: هي أن يأتي المتكلم بلفظة مشتركة بين معنيين قريب وبعيد، فيذكر لفظاً يوهم القريب إلى أن يجيء بقرينة يظهر منها أن مراده البعيد.

قلت: ومن أين يعرف الطالب من هذا الحد التورية المجردة، والتورية المرشحة وقسميها، والمبنية وقسميها، والمهياة وأقسامها.

وكذلك العلامة زكي الدين ابن أبي الأصعب، لم يذكر في كتابه المسمى «بتحرير التحبير»، نوعاً من أنواعها ولا قسماً من أقسامها، مع أن كتابه ما وضع في هذا الفن له نظير، بل قال: التورية، وتسمى التوجيه، وهي أن يكون الكلام يحتمل معنيين، فيستعمل المتكلم أحد احتماليه ويهمل الآخر، ومراده ما أهمله لا ما استعمله.

وأما صاحب التلخيص فإنه قال، مشيراً إلى البديع: ومنه التورية، وتسمى الإيهام أيضاً، وهي أن يطلق لفظ له معنيان، قريب وبعيد، وهي ضربان: مجردة ومرشحة. ولم يزد على هذا القدر شيئاً.

وإذا أردت ما وعدت بإيراده من طلاوة المتأخرين في التورية، شرعت في الكلام على أنواعها وأقسامها، ليسير ركب الأدب في طرقها المتشعبة بدليل، ويصير لديباجة هذا النوع تفصيل، وقد قدمت ذكر الفاضل ومن فضل بعده، في باب الاستخدام، ولكن لم يمكن اختصارهم في باب التورية، فإنهم فرسان حلباتها، وأجل من سكن غريب نظمه بأبياتها، وكل ما أوردته لهم ولغيرهم من التورية في غير باب، تعين نظم شمله هنا، ليجتمع كل غريب بأقاربه وأنسابه. فمن مخترعات القاضي الفاضل في التورية قوله من مديح قصيدة طائية، وهي نكتة لم تختل في صدر غيره، وهو:

أما الثريا فنعل تحت أخمصه وكل قافية قالت لذلك طا^(٣)

(١) كليلاً: غير قاطع.

(٢) متصل: تخلص، نفى إسهامه.

(٣) طا: أي طا. أمر من وطأ.

ومثله قوله:

والخال حبه وقلبي الطائر

في خده فح لعطفة صدغه

ومثله قوله:

فصرت وصرنا وهو غير مساعد
ونفسي تأبى شركها في الموارد

وكنت وكنا والزمان مساعد
وزاحمني في ورد ريقك شارب

ومن هنا أخذ الشيخ عز الدين الموصلي، وقال:

وكنا وكانت للزمان مواهب
وزاحمني في ورد ثغرك شارب

لقد كنت لي وحدي ووجهك حضرتي
فعارضني في ورد خدك عارض

ومن نظم الفاضل أيضاً، في بواب يلقب بالبحري:

فها أنا قد وليته دونكم ظهري^(١)
فكل خرافي الشطفي لحيّة البحر (ي)^(٢)

وهب أن هذا الباب للرزق قبلة
وهب أنه البحر الذي يخرج الغنى

ومثله قوله:

والقلب صخر لا يلين لقاصد^(٣)
وضربت من ذا في حديد بارد

عاتبته فتضرجت وجناته
فنظرت من ذا في حرير ناعم

ومن اختراعاته التي لم تجل في فكر غيره، قوله من مديح قصيدة عادلية:

فآثار الشفاه عليه شامه
أروني غير أقلامي نظامه
بها غصن وقافيتي حمامه

وهذا الترب أم خد لثمننا
وهذا الدر منشور ولكن
وهذي روضة تندى وسطري

ومنه قوله أيضاً:

لم أشف من ماء الفرات غليلا
إن كان طرفي بالبكاء بخيلا

بالله قل للليل عني إنني
وسل الفؤاد فإنه لي شاهد

(١) قبلة: مقصداً، وجهة والقبلة: الجهة التي يتوجه إليها المسلمون أثناء صلاتهم وتكون فيها الكعبة الشريفة.

(٢) الخرا: روث الإنسان - وإضافة الياء إلى البحر تجعله إسماً للبواب المقصود.

(٣) تضرج: أشرب حمرة. أو تلون بلون الدم.

يا قلب كم خلفت ثم بشينة
ومنه قوله وأجاد إلى الغاية:

وقائل وثب الأعداء قلت له
فإن ثوب الذي عاداكم كفن
بلغتموهم مناهم في ترفعهم
هل السيوف عيون في الجفون لكم
كما الفراش على نيرانه يثب
كما بيوت الذي عاصاكم ترب^(٢)
والقوم ما ارتفعوا إلا وقد صلبوا
فإنها لقراب البغي ترتقب^(٣)

ومن نثره، في هذا الباب، قوله في يوم شديد المطر والبرد: والخادم في رأس جبل يتلقى الرحمة غضة قبل أن يتذللها الناس، ويصافح الرياح عاصفة قبل أن تقتسمها الأنفاس، ويتلقى الرعد بالرعدة^(٤)، وإذا السماء انشقت استصحها المملوك بالسجدة^(٥).

وقد تقدم القول إن ممن أخذ عنه ونهل من موارده العذبة، القاضي السعيد ابن سناء الملك فمن نظمه في هذا الباب قوله:

أما والله لولا خوف سخطك
ملك الخافقين فتهت عجباً
لهان عليّ ما ألقى برهطك^(٦)
وليس هما سوى قلبي وقرطك^(٧)
ومنه قوله أيضاً:

وفي الحي من صيرتها نصب خاطري
تته بفرع منه أصل بليتي
فما أذنت في نازل الشوق بالرفع
ولم أر أصلاً قط يسعى إلى فرع
ومنه قوله:

ليس إلا دمعي الذي من رأى جفني رآه كأن دمعي هدبي
أنجم الدمع لا تغيب شروقاً مع أني رأيتها في الغرب

(١) بشينة: حبيبة جميل بن معمر الشاعر العذري، ويقصد بها مجرد الحبيبة - جميلاً: جميل بن معمر - والصبر الجميل.

(٢) تُرب: خربة، فاسدة.

(٣) عيون: حراس - الجفون: جمع جفن وهو غمد السيف - قراب: غمد - البغي: الظلم.

(٤) الرعدة: الارتجاج.

(٥) استصحها: طلب صحوها - بالسجدة: أي بسورة السجدة من القرآن الكريم.

(٦) رهط الرجل: قومه وعشيرته.

(٧) تاه: افتخر - القرط: ما تتحلى به المرأة في أذنيها.

ومنه قوله :

فلحظك نصبي وهو إن صحفوا يصبي^(١)
فكسرة ذاك الجفن من ذلك الضرب

صفتك في كل الوجوه صحيحة
حرس الحشا من ناظريك بصارم

ومما سبق إليه الناس، في هذا الباب، قوله :

وفي الخد دينار وفي الجفن كسره

وفي القلب تصديع وفي الوصل جبره

وأخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة فقال :

للحسن دينار وكسر

في خده وجفونه

وتلاعب الناس، بعد ابن سنا الملك، بهذا المعنى كثيراً حتى وصل إلى المعمار فقال :

قلت ألفاً وكسورا

كم حوى جفني معنى

ولم يزل ابن سنا الملك يتلاعب في التورية باختراعاته، ويسكنها في عامر أبياته، إلى أن ظهر بعده السراج فجلا غياها بنور مشكاته، وتعاصر هو وأبو الحسين الجزار والنصير الحمامي، وتطارحوا كثيراً وساعدتهم صنائعهم وألقابهم في نظم التورية، حتى إنه قيل للسراج الوراق لولا لقبك وصناعتك لذهب نصف شعرك، فمن ذلك قوله :

طرفي عنكم فصرت محبوساً^(٢)
كنت سراجاً فصرت فانوساً

شعريتي مذ رمدت قد حبست
الحمد لله زادني شرفاً

وقال من أبيات، فيمن تلقب بالضياء، وأجاد :

وعش فبقاء مولانا بقائي
وما يغني السراج بلا ضياء^(٣)

أمولانا ضياء الدين دُم لي
فلولا أنت ما أغنيت شيئاً

ومثله قوله فيه :

تساوى الصبح فيه والمساء^(٤)
ولا هو مثل ما يدعى ضياء

وما أنا سائر في ليل خطب
فلا أنا مثل ما أدعى سراج

(١) نصبي : متعبي، من النصب - أو غايتي إذا كان بمعنى نصب عيني - التصحيف : هو تغيير الكلمة عن طريق زيادة نقط حروفها أو نقصها - يصبي : يعيد الصبا.
(٢) رمدت : هاجت وورمت، أو ذاعت واشتهرت.
(٣) المثل السائر أو السراج : لقب الشاعر - الضياء : لقب الممدوح.
(٤) الخطب : المصيبة إذا ألت.

ومنه قوله :

وكنت حبيباً إلى الغانيات
وكنت سراجاً بليل الشباب

وكتب إلى بعض الرؤساء :

وكتبتك راج لي أملي وقصدي
ولولا أنت لم ترفع مناري
وفي يدك النجاح لكل راج
ولا عرف الوري قدر السراج^(١)

ومنه قوله، يتقاضى من بعض الرؤساء شمعاً :

ما علينا ضوء وقد أبطأ السمـع فقوض به خيام الدياتي
وتدارك بيتاً عليه ظلام لم يكذ ينجلي بنور السراج

وقال، وقد اجتمع شمس الدين بيلبك وبدر الدين آق سنقر :

لما رأيت الشمس والبدر معاً
حقرت نفسي ومضيت هارباً
قد انجلت دونهما الدياتي
وقلت ما ذا موضع السراج

وظريف قوله في هذا الباب :

بُنِي اقتدى بالكتاب العزيز
فما قال لي أف مذ كان لي
وراح لبري سعيماً ولاجا^(٢)
لكوني أباً ولكوني سراجا

ومنه قوله :

أقول في يوم شتاء له
خرجت من بيتي سراجاً وقد
من سحبه ما خلف النيلا
عدت بحمد الله قنديلا

وكتب إلى أبي حسين الجزار في عيد الأضحى :

أجبت بعيد النحر من كان سائلي
إذا بطل الجزار والعيد عيده
عن الحال في عيدي وقد مرَّ ذكره^(٤)
فلا تسأل الوراق فالعذر عذره

(١) الشيبب: الشيببة: الشبان والشابات.

(٢) الوري: الناس - السراج: أداة الضوء، ولقب الشاعر.

(٣) الكتاب العزيز: القرآن الكريم - ولاج: داخل، من ولَّج: دخل.

(٤) عيد النحر: من أسماء عيد الأضحى، سمي به لأن الحجاج ينحرون الأضاحي فيه قربة إلى الله تعالى.

ومنه قوله :

فشكراً لنعمائك التي ليس تكفر
ونوراً لذا قالوا السراج المعمر^(١)
وما ساءني أن السراج منور

إلهي لقد جاوزت سبعين حجة
وعمرت في الإسلام فازددت بهجة
وعمم نور الشيب رأسي فسرنني
ومن أظرف ما وقع له في هذا الباب قوله :

قلد في نظمه النحورا
فاقطع لساني إزدك نورا

كم قطع الجود من لسان
فها أنا شاعر سراج

ومثله قوله :

لم أهج خلقاً ولا هجاني
إن لم يكن دافئ اللسان^(٢)

أثنى عليّ الأنام أني
فقلت لا خير في سراج

ومثله قوله :

بلا راحة في مدحهم أتعبوا ذهني
سراجاً غدا رطب اللسان بلا دهن

إذا بحث بالشكوى عنيت معاشرأ
يريدونني رطب اللسان ومن رأى

وكتب إليه الأمير نصير الدين الحمامي ، وهو مقيم بالروضة :

أبل شوقي وأحيي ميت أشعاري
وأنت في روضة والقلب في نار

كم قد ترددت للباب الكريم لكي
وأثني خائباً مما أومله

فكتب إليه السراج :

أنفاسها بين أزهار وأثمار
وكل بيت أراه بيت خمار
أولى بأن قال إن القلب في نار

الآن نزهتني في روضة عبقت
أسكرتني بشذاها فأنشيت بها
فلا تغالط فمن فينا السراج ومن

وقال النصير يوماً للسراج الوراق: قد عملت قصيدة في الصاحب تاج الدين،
وأشتهي أن تثنى عليها بحضرته، وسيرها إلى الصاحب. فلما أنشدت بحضرة السراج،
قال السراج بعدما فرغ منها:

(١) السراج المعمر: المضاء. - والسراج: لقب الشاعر- المعمر: الذي عاش كثيراً وكبر في السن.

(٢) دافئ اللسان: لا يتكلم بالفاحش من القول.

شاقني للنصير شعر بديع ولمثلي في الشعر نقد بصير
ثم لما سمعت باسمك فيه قلت نعم المولى ونعم النصير
ومنه قوله:

طوت الزيارة إذ رأت عصر الشباب طوى الزياره
ثم انثنت لما انثنى بعد الصلابة كالحجاره
وبقيت أهرب وهي تسأل جارة من بعد جاره
وتقول يا ستي استرحنا لا سراج ولا مناره^(١)
ومما ورى به عن صناعة الوراقه قوله:

نصب الحشا غرضاً فقرطس إذ رمى وهي القلوب سهامها الأحداق^(٢)
وسألته وصلأ فقال يحجني يا ليت شعري من هو الوراق
ومثله قوله:

يا خجلتي وصحائفي سود غدت وصحائف الأبرار في إشراق
وموبخ لي في القيامة قال لي أكذا تكون صحائف الوراق^(٣)
ومن لطائفه، في غير لقبه وصناعته، قوله:

قالوا وقد ضاعت جميع مصالحي لهموم نفس ليت لا حملتها
قد كان عندك يا فلان صريمة فأجبتهم بعث الحمار وبعثها^(٤)
ومنه قوله:

رفضوا الشعر جهدهم ورموه بينهم بالهوان والازدراء
فلو أن الكتاب كان بأيديهم محوا منه آية الشعراء^(٥)
وله في المعنى وأجاد:

يا بني الآمال قد خاب الرجاء وقد اشتدت وقد عز العزاء
سفن الآمال في بحر المنى وحلت منا فأين الرؤساء

(١) الست: السيدة.

(٢) قرطس: أصاب القرطاس، وأهْلَكَ - الأحداق: سواد العيون.

(٣) القيامة: يوم المعاد والحساب.

(٤) الصريمة: العزيمة.

(٥) الكتاب: القرآن - آية الشعراء: سورة الشعراء.

وقال في المعنى:

لقاء الموت عندهم الأديب
ولو وافى به لهم حبيب^(١)

أصون أديم وجهي عن أناس
ورب الشعر عندهم بغيض

ومن لطائفه قوله:

من انتظاري لأمال تعيننا^(٢)
محمودة قلت أخشى أن تخرينا

وقائل لي لما أن رأى قلقي
عواقب الصبر فيما قال أكثرهم

ومن لطائفه بعد تخرينا قوله:

فلم تبعث نفسه الجامده
تعاف المفتلة الباردة^(٣)

أتيت أرجيه في حاجة
وفتل في ذقنه والنفوس

ومنه قوله:

واكدح فنفس المرء كداحه
فالصفع موجود مع الراحه

دع الهوينا وانتصب واكتسب
وكن عن الراحة في عزلة

وأشده الجزار وهو يسرح ذقنه مماجنأ:

فكل أمري لبس^(٤)
وإنما ثمَّ نفس

لا تعجبت من لباسي
والله ما ثمَّ مآل

فأجابه على الفور:

وإنما ثمَّ نحس
فيها وعندك حدس

صدقت ما ثمَّ مال
وثمَّ أخرى وأخرى

ومنه قوله:

بطيب شذا ولا طيب العروس
يحق لك القيام على الرؤوس

ومغمومات روس باكرتنا
فقت بما يلين لها فقالت

(١) حبيب: هو أبو تمام حبيب بن أوس الشاعر.

(٢) عناه: الأمر، أتعبه.

(٣) المفتلة الباردة: كناية عن البراز وهو روث الإنسان.

(٤) لبس: اشتباه واختلاط.

ومنه قوله :

لنسبة بينهما ووصله
قد مد في وجه الضيوف رجله

وأحمق أضافنا ببقله
فمن أقل أدياً من سفله

ومنه قوله :

انشدت شعراً دونه الشعري
قد عبدوا البيضاء والصفرا
قلت بلى بطيخة خضرا

وسائل يسأل مني وقد
يقول لي إذ كنت في معشر
هل حصلت دائرة بينهم

ومنه قوله :

قولي ونادى الناس كم تتعب
فاتك أين اللبن الطيب

مدحته جهدي فما اهتز من
فقلت أرجو زبدة قيل لي

ومن لطائفه أيضاً قوله :

يلطم الأكساس سخره
ومعي شيب ودره

كان أيراً صار سيراً
كيف لا ينفرن عني

ومنه قوله :

فصل في قوله وأجمل
فكان ذاك الطلوع دمل

فسر لي عابر مناما
وقال لا بد من طلوع

ومنه قوله وقد طلب شراباً فما وصل إليه :

سادوا بغير مآثر السادات
سرقوا العلا فخلت من الراحات

لا تطمعن براحة من معشر
قطعت عن المعروف أيديهم وقد

ومن نكته البديعة في مدائحه قوله :

فنحن على المدى نجني ونجني
وسيفك إن حلمت قرير جفن^(١)

رأيت قطوف عفوك دانيات
وكم بات المسيء قرير عين

(١) إذا عفوت فإن سيفك يبعي لا يتحرك، قريراً في غمده (جفن).

وكتب إلى فتح الدين بن عبد الظاهر:

يرجوه من ظفر ومن نجح
مع أين مبني على الفتح

أنا تحت وعدك واعد أملي بما
إذ قال أين الجود قلت أجيبه

ومنه قوله:

يندى وظني فيه ظن مخلف^(١)
فأجابني لكنه لا يصرف

ومبخل بالمال قلت لعله
جمع الدراهم ليس جمع سلامة

وكتبت في هذا المعنى، إلى الخوaja شهاب الدين بن لؤلؤ الذهبي، بدمشق
المحروسة، وقد مطلني في صرف دنانير أخلت بها عليه:

ولكم في السورى هبات كثيره
صرفها واجب لأجل الضروره

قد منعتم صرف الدنانير عني
وأنا شاعر وفي شرع بنظمي

وكتب السراج إلى بعض أصحابه يطلب كتاباً:

معروفة الأنساب والأسباب
تقواك تشفع سنة بكتاب^(٢)

لك في المكارم سنة مألوفة
فابعث لعبدك بالكتاب فلم تزل

ومن لطائفه في شخص اسمه عرفات:

يتعاطون له حسن الصفات
قلت عندي وقفة في عرفات^(٣)

أطنبوا في عرفات وغدوا
ثم قالوا لي هل وافقتنا

ومن أغزاله قوله:

مجرداً عن جفنه ومغمداً
فبات في عذاره مزرداً^(٤)

وفاتك يجرح سيف لحظه
خاف على خديه من لحاظه

ومنه قوله، وهو في غاية الحسن:

يوماً إليّ فقلت من ألم الجوى
فأجاب كيف وأنت من جهة الهوى

ومهفهف عني يميل ولم يمل
لم لا تميل إليّ يا غصن النقا

(١) يندى: يكرم، يجود - مخلف: لا يصدق.

(٢) شفع الأمر بالأمر: أتبعه به - السنة: ما ترك النبي ﷺ من قول وفعل وأثر - الكتاب: القرآن.

(٣) وقفة: وقوف، واعتراض - عرفات: الجبل المعروف وإسم الشخص.

(٤) العذار: الشعر ما بين العين والأذن - مزرد: مقيد بالزرد الذي شبه به العذار.

ومثله قوله :

قلت للأهيف الذي فضح الغصن — كلام الوشاة ما ينبغي لك (١)
قال قول الوشاة عندي ريح قلت أخشى يا غصن أن يستميك

ومنه قوله :

عذبت طرفي بالسهاد فليله
وألح سائل أدمعي فحرمتني
وقال في مليح قلندري :

عشقت من ريقته قرقفاً
قلندريا حلقوا حاجباً
سلطان حسن زاد في عدله
وما لها إذ ذاك من شارب (٢)
منه كنون الخط من كاتب
فاختار أن يبقى بلا حاجب

ومنه قوله :

ولنا ساقٍ جواد كفه
قال قوم فاق كعباً في الندى
وكفّت بالراح سحباً بعد سحب (٣)
قمت لا غرو لساق فوق كعب (٤)

ومنه قوله :

يا ساكناً قلبي على أنه
قلبي من خوف النوى واجب
بوجوده في قلق دائم
وأنت لم تخرج عن الواجب (٥)

نكتة الواجب أخذها الشيخ جمال الدين بن نباتة، ولكن سبكها في غير هذا
القالب، في قوله في رامي بندق :

إسعد بها يا قمري برزة
صرعت طيراً وسكنت الحشا
سعيدة الطالع والغارب (٦)
فما تعديت عن الواجب

(١) الوشاة: جمع واشي وهو المفسد بين المتحابين.

(٢) القرقف: الخمر.

(٣) وكف: صب. انهل.

(٤) الندى الكرم والعطاء - لاغرو: ليس غريباً.

(٥) وُجب: خفق، واضطرب.

(٦) البرزة: المرأة التي تجالس الرجال.

ويعجبني من تغزلات السراج الوراق قوله:

فقالوا رأينا قدها منه أرشقا
فقالوا إذن شبهت شيئاً محققاً

أقول لهم شبهت بالغصن قدها
فقلت وبالرمان شبهت نهدها

ومنه قوله:

ودمعي يسقى ثم عهداً ومعهداً
وحظي منها حين أسألها الصدا^(١)

وقفت بأطلال الأحبة سائلاً
ومن عجب أني أروي ديارهم

ومنه قوله:

في قومها كمهاة بين آساد
بيتاً من الشعر لم يمدذ بأوتاد
لكن لأفئدة منا وأكباد^(٢)
على الرؤوس وقلن الفضل للبادي

وبي من البدو كحلاء الجفون بدت
بنت عليها المعالي من ذوائبها
وأوقدت وجتها النار لا لقرى
فلو بدت لحسان الخصر. قُمن لها

قلت ديوان الشيخ سراج الدين الوراق سبعة مجلدات من القطع الكامل، ولكن الذي جنيته وفكته المتأمل به هنا هو ثمرات تلك الأوراق، وجمع الشيخ صلاح الدين الصفدي من ديوانه كتاباً لطيفاً سماه «لمع السراج» ولكن رأيت نور السراج فيه قليلاً.

ومن مقاطيف الجزار في سمين التورية، قوله مورياً في صناعته:

ل عن قومي وعن أهلي
كرام الفرع والأصل
وتخشاهم بنو عجل^(٣)

ألا قل لسذي يساً
لقد تسأل عن قوم
ترجيهم بنو كلب

ومثله قوله:

دأب وسل عنهم إن رمت تصديقي
فكل أيامهم أيام تشريق^(٤)

إني لمن معشر سفك الدماء لهم
تضيء بالدم إشراقاً عراصهم

(١) الصدا: العطش.

(٢) القرى: إطعام الضيوف.

(٣) الكلب، يرجو الجزار لما يرميه له، والعجل يخشاه لما يفعله به.

(٤) العراص: ساحات الدور- أيام التشريق: أيام ثلاثة تلي أيام الحج مباشرة وعيد الأضحى على الخصوص، تشرق فيها لحوم الأضاحي أي تقدد.

ومثله قوله:

أصبحت لحاماً وفي البيت لا
واعترضت من فقري ومن فاقتي
أعرف ما رائحة اللحم
أضله الله على علم
جهلته فقراً فكنت الذي

ومثله قوله:

أعمل في اللحم للعشاء ولا
خلا فؤادي وفي فمي وسخ
أنال منه العشا فما ذنبي
كأنني في جزراتي كلبني^(١)

وظريف قوله:

كيف لا أشكر الجزارة ما عشت
وبها صارت الكلاب ترجيني وبالشعر كنت أرجو الكلاب

وقلبه أيضاً وقال:

لا تعبني بصنعة القصاب
كان فضلي على الكلاب فمذ صر
فهي أذكي من عنبر الآداب^(٢)
ت أديباً رجوت فضل الكلاب

ومثله قوله:

معشر ما جاءهم مسترفد
أنا جزار وهم من بقر
راح إلا وهو منهم معسر
ما رأوني قط إلا نفرأوا^(٣)

وقال متهكماً على المتنبي:

تعاظم قدري على ابن الحسين
وكم مرة قد تحكمت فيه
فذهني كالعارض الصيب^(٤)
لأن الخروف أبو الطيب^(٥)

(١) الجزارة: دكان الجزار، وهو هنا بيته.

(٢) القصاب: الجزار.

(٣) نفر: خاف وهرب، نفرز.

(٤) ابن الحسين: هو المتنبي واسمه: أحمد بن الحسين الجعفي - العارض: المطر في غير أوانه -

الصيب: الغزير.

(٥) أبو الطيب: كنية المتنبي.

وكتب إليه الشيخ نصير الدين الحمامي، مورياً عن صناعته:

ومذ لزمت الحمام صرت بها خلا يداري من لا يداريه
أعرف حر الأشياء وباردها وأخذ الماء من مجاريه

فأجابه أبو الحسين الجزار بقوله:

حسن التأني مما يعين على رزق الفتى والحظوظ تختلف
والعبد مذ صار في جزارته يعرف من أين تؤكل الكتف

ومن لطائفه البديعة، ما كتب به إلى بعض الرؤساء، وقد منع من الدخول إلى بيته في يوم فرح:

أمولاي ما من طباعي الخروج ولكن تعلمته من خمول
أتيت لبابك أرجو الغنى فأخرجني الضرب عند الدخول

وكتب إلى بعض الرؤساء يستهدي منه قطراً:

أيا علم الدين الذي جود كفه براحته قد أخجل الغيث والبحرا
لئن أمحلت أرض الكنافة إنني لأرجو لها من سحب راحته القطرا^(١)

هذا القطر تحلى به الشيخ جمال الدين بن نباتة بقوله:

لجود قاضي القضاة أشكو عجزي عن الحلو في صيامي
والقطر أرجو ولا عجيب للقطر يرجى من الغمام
تلاعب الناس به بعده كثيراً.

ويعجبني من تغزلات أبي الحسين الجزار قوله:

تكلف بدر السما إذ حكى محياك لو لم يشنه الكلف^(٢)
وقام بعذري فيك العذار فأجرى دموعي لما وقف

(١) الكنافة: نوع من الحلوى. القطر: هو السكر مذاباً بالماء ومغلياً مع إضافة قليل من الحامض إليه - والعطاء.

(٢) الكلف: حبوب سمراء تعتري وجه الحامل (النمش).

ومنها قوله :

له أمل في مورد ومورد^(١)
فأعرب عن تفصيل نحو المبرد^(٢)

حمت خدها والثغر عن حاتم شج
وكم هام قلبي لارتشاف رضابها

ومن لطائف مجونه في التورية قوله :

ليس لها عقل ولا ذهن
ما جسرت تبصرها الجن
وشعرها من حولها قطن^(٣)
فقلت ما في فمها سن

تزوج الشيخ أبي شيخة
لو برزت صورتها في الدجا
كأنها في فرشها رمة
وقائل قال ما سنها

قال الشيخ أثير الدين أبو حيان: رأيت أبا الحسين بالقاهرة عند الشيخ قطب الدين ابن القسطلاني، فقال لي الشيخ قطب الدين: هذا هو الأديب أبو الحسين الجزار، فأنشدني لنفسه، وكتبت عنه:

كثروا عليّ وأكثروا
ج من الصداقة يعسر
س ومحوه يتعذر
لكن ذاك يؤثر^(٤)

من منصفي من معبر
صادقتهم وأرى الخرو
كالخط سهل في الطرو
وإذا أردت كشطه

ومما شرح الصدور والقلب من قول الحمامي:

تكدر فيها العيش من كل مشرب
ولا كان قلب الماء فيها بطيب

وكدرت حمامي بغيتك التي
فما كان صدر الحوض منشرحاً بها

ومنه قوله :

ينهل غيثاً كالسحب
وأكرم الجار الجنب^(٥)

لي منزل معروفه
أقبل ذا العذر به

(١) الحائم: الذي يحوم حول الشيء ولا يستطيع الوصول وهو بأمس الحاجة إليه - المورد: مكان الوُزُود

أي الشرب. ويقصد هنا الفم لما فيه من الرضاب - المورد: الخد.

(٢) الرضاب: الريق - أعرب: انكشف. عن أسنان كأنها البرد المنضود.

(٣) الرّمة: بقية الجثة بعد الموت.

(٤) كشط: أزال.

(٥) الجنب: القريب الذي بيته إلى جانب بيتك.

ومن لطائفه، ما كتب به إلى السراج الوراق، على يد مليح ولسانه:

عبدك يا مولاي وافى بها
وهو على الباب ومقصوده
وفى بها معنى لمن يعقل
وفيك فهم أنه يدخل

ومن نكته اللطيفة قوله:

أصبحت من أغنى الورى
الخمير عندي ذهب
وطائراً بالفرح
أكتاله بالقح

وقوله:

أقول للكاس إذ تبدى
أخربت بيتي وبيت غيري
بكف أحوى أغن أحور^(١)
وأصل ذا كعبك المدور

ومن لطائفه في تغزلاته قوله:

ما زال يسقيني زلال رضابه
ويظنني حياً رويت بريقه
لما خفيت ضنى وذبت توقدا
فإذا دعا قلبي يجلو به الصدى

أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة وتقوى عليه بالسيف، فقال:

أدعو السيوف صقيلة من لحظه
وإذا دعوت لمام جاوبني الصدى^(٢)

ومن لطائفه في مداعباته قوله:

رأيت شخصاً آكلاً كرشة
وقال ما زلت محباً لها
وهو أخو ذوق وفيه فطن
قلت من الإيمان حب الوطن

وممن انتظم في سلك الجماعة وانتصر للتورية وحسن مواقعها، ناصر الدين حسن بن النقيب:

وجردت مع فقري وشيخوختي التي
فلا يدعي غيري مقامي فإنني
بها اليوم نومي عن جفوني مشرد
أنا ذلك الشيخ الفقير المجرد

(١) الأحرى: الأسود لشدة نضارته - الأغن: في صوته غنّه - الأحرى: الشديد بياض، بياض العين وسواد سوادها.

(٢) اللما: الرفقة - الصدى: رجوع الصوت.

ومن نكته الغريبة في التورية قوله:

دعوني فإني آكل الخبز بالجبن

أقول وقد شنوا إلى الحرب غارة

ومثل ذلك قوله:

ولا يكُ منك لي ما عشت أوبه (١)

أقول لنوبة الحمى أتركيني

وهل يبقى الأمير بغير نوبه (٢)

فقلت كيف يمكن ترك هذا

ومن لطائفه قوله:

والعلق لا شيء لديه ولا معه (٣)

قالوا رأينا العلق ينفق مسرفا

قالوا صدقت لذلك ينفق من سعه

فأجبتهم إنفاقه من جحره

ومن لطائف ما وقع في تورية السعة، قول أبي الحسين الجزار وقد وقف على باب

ابن الزبير ومنع من الدخول دون غيره، فكتب رقعة وأرسلها إلى ابن الزبير، فإذا فيها:

والعبد مثل الخصي ملقى على الباب

الناس قد دخلوا كالأير أجمعهم

فلما وقف ابن الزبير على هذا البيت، أمر بعض الخدم أن يقف على الباب

وينادي: أدخل يا خصي فدخل وهو يقول: هذا دليل على السعة، ومنه قوله:

لعساه لا يشكى إليه ويشكر

ومكرش أضحى يحلق سفله

لباك وهو محلق ومقصر

ويقص لحيته فإن ناديته

ويعجبني من لطائفه قوله في داره:

ولكن نزلت إلى السابعة (٤)

ودار خراب بها قد نزلت

محجتها للورى شاسعه

طريق من الطرق مسلوكة

بها أو أكون على القارعه

فلا فرق ما بين أني أكون

فتصغي بلا أذن سامعه

تساررها هفوات النسيم

(١) الأوبة: واحدة الإياب وهو الرجوع.

(٢) النوبة: الأولى بمعنى: دورة الوجع والثانية بمعنى الحاشية والحرس.

(٣) العلق: النفيس من كل شيء.

(٤) السابعة: أي الأرض السابعة.

وأخشى بها أن أقيم الصلاة
إذا ما قرأت إذا زلزلت
فتسجد حيطانها الراكعه
خشيت بأن تقرأ الواقعة^(١)

ومنه قوله:

جودوا لتسجع بالمديح على علاكم سرمدا
فالطير أحسن ما يغرد عنـد ما يقع الندى

ومن بدائع أغزاله قوله:

وما بي سوى عين نظرت لحسنها
وقالوا به في الحب عين ونظرة
وذاك لجهلي بالعيون وغرتي^(٢)
لقد صدقوا عين الحبيب ونظرتي

ومن لطائف مجونه قوله:

نفقت لي رأس من الخيل كانت
وابتلى الله في المشاعر أخرى
وإذا قيل كم بقي لك رأس
تسبق البرق والرياح الزعازع^(٣)
بشفاق لها عن المشي مانع
قلت رأس لكن بغير كوارع^(٤)

ومن لطائفه أيضاً في تورية المطوق قوله:

أنت طوقتني صنيعاً وأسمعك شكراً كلاهما ما يضيع^(٥)
فإذا ما شجاك سجي فيني أنا ذاك المطوق المسموع^(٦)

ومن هنا أخذ الشيخ جمال الدين بز نائة سجع المطوق، ووصل به عدة مقاطيع،

للكسي

ومن غاية تغزلاته قوله:

رميت بمهجتي جمرات شوق
فهرول دمع عيني فوق خدي
ولم تأخذك بالمشفاق رأفه
وما حصلت له مع ذاك وقفه

(١) «إذا زلزلت» «والواقعة» من سور القرآن الكريم.

(٢) الغرة: الإغترار وعدم التجريب.

(٣) نفق: الحيوان، مات - الزعازع: الهوجاء.

(٤) الكوارع: القوائم.

(٥) الصنيع: عمل المعروف.

(٦) المطوق، والمطوقة: الحمامة.

ومن لطائف مجونه قوله:

مثل ما أعرف وصفك
قلت باب الخرق خلفك

قال لي الواسع صف لي
أين باب الخرق قل لي

ومن غرائب النكت قوله:

ر ولا قصور بها يعيق
حر ومعناها رقيق^(١)

أبيات شعرك كالقصو
ومن العجائب لفظها

ومن بديع اختراعاته قوله:

وهي الغمام ومنها الوابل الغدق^(٢)
بأنها النيل قلت النيل يحترق

قالوا قد احترقت بالنار راحته
وقال قوم وما ضلوا وما وهموا

ومن غريب نكته قوله:

يعرف هذا العاشق الوامق^(٣)
من دمع عيني إنه الصادق

بخالد الأشواق يحيى الدجا
فخذ حديث الوجد عن جعفر

ومن بديع تغزله قوله:

ما لي سألت فما أجبت سؤالي
وشكايتي من جفئك الغزال^(٤)

يا مالكي ولديك ذلي شافعي
فوخذك النعمان إن بليتي

ومن بديع غزله قوله:

ولكنه ليس يخشى نبوه^(٥)
وأخرج فيه من الضعف قوه

أقول لمن جفنه سيفه
تكلف جفئك حمل الفتور

ومن نكته الغربية قوله:

أفرط بي فرط ضنى واكتئاب
تلبس والله عليه الثياب

قلت لسقم الجسم مني وقد
فعلت بي يا سقم ما لم يكن

(١) الرقيق: العبد - أو من الرقة.

(٢) الوابل الغدق: المطر الغزير.

(٣) الوامق: المحب.

(٤) النعمان: شقائق النعمان والنعمان بن المنذر الملك - الغزال: والغزالي الفيلسوف.

(٥) نبوه: من نبا السيف إذا أخطأ والسهم، طاش ولم يصب.

وممن حصل الجلاء لعيون التورية بملاطفته، الحكيم شمس الدين بن دانيال، من لطائفه قوله:

يا سائلي عن حرفتي في الورى
ما حال من درهم إنفاقه
ومنه قوله:

لا بدُّ لشمس من طلوع
يرقى إلى السطح من طلوعي
كم قيل لي إذ دعيت شمسا
فكأن ذاك الطلوع داء

ومن لطائفه أيضاً قوله:

أقل من حظي ومن بختي^(١)
وصرت لا فوقي ولا تحتي^(٢)
ما عاينت عيناى في عطلي
قد بعت عبدي وحماري معاً

ومن لطائفه أيضاً في جارية تضرب بالدف، وأجاد، قوله:

لو مرَّ يوماً عليه طائر صدحا
لنقره ببنان يشبه البلحا
فما ينقط إلا كل من رشحا^(٣)
ذات القوام الذي يهتز غضن نقا
تبدي على الدف كالجمار معصمها
غناؤها برقيق الغنج تمزجه

ومن اختراعاته البديعة قوله:

أيا سائلي عن قد محبوبي الذي
أبي قصر الأغصان ثم رأى القنا
فتنت به وجداً وهمت غراما
طوالاً فأضحى بين ذاك قواما

وممن أحيا رسوم التورية وأظهر خفيها، القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، ومن نظمه فيها:

لقد قال كعب في النبي قصيدة
فإن شملتنا بالجوائز رحمة
وقلنا عسى في فضلها نتشارك
كرحمة كعب فهو كعب مبارك

(١) البخت: الحظ والنصيب.

(٢) وصرت لا فوقي ولا تحتي: مثل يقال للذي يكون عنده شيء فيبيعه فيصير معدماً ويحتاج إلى المعونه.

(٣) رشح: سال ببطء، نر.

ومن لطائفه قوله:

لا ينقل الروض أحاديثه
فإنه ينقل أخباره
عن عين نمام غدت حافية^(١)
إلى أعين عنده صافية

ومثله قوله:

يا قاتلي بلحاظ
إن صبروا عنك قلبي
قتيلها ليس يقبر
فهو القتل المصبر

وقال:

إن لوزي جلق
لم يكلفك كسره
واهن الجبل والقوى
فالق الحب والنوى

ومن نظمي في هذا المعنى، في المشمش السلطاني بحماه:

قال سلطاني حماة عندما
مشمش الشام يقوي قلبه
أجلسوه مذ اتاهم في الصدور
يوم نقع فهو قد أضحى وزير^(٢)

ومن لطائف القاضي محيي الدين قوله:

شكراً لنسمة أرضكم
لا غرو أن حفظت أحبا
كم بلغت عني تحيه
ديث الهوى فهي الذكيه

وهذه النكتة أخذها الشيخ صلاح الدين الصفدي، وقال:

يا طيب نشر هب لي من نحوكم
أهدي تحيتكم وأشبه لطفكم
فأثار كامن لوعتي وتهتك^(٣)
وروى شذاكم إن ذا نشر ذكي

وأشار إلى هذه السرقة الشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة، بقوله، ولم يخرج عما نحن فيه من التورية:

إن ابن أيبك لم تزل سرقاته
نسب المعاني في النسيم لنفسه
تأتي بكل قبيحة وقبيح
جهلاً فراح كلامه في الريح

(١) النمام: الذي يسعى بين الناس بهدف الإيقاع بينهم - حافية: ضعيفة لكثرة استعمالها.

(٢) النقع: بل الشيء بالماء.

(٣) التهتك: إهمال النفس.

ومن نكته البديعة الغريبة قوله:

لا تسلني عن أول العشق إني أنا فيه قديم هجر وهجره
من دموعي ومن جبينك أرخست غراماً بمستهل وغره^(١)

وتطفل الشيخ عز الدين الموصلي على هذا المعنى، ولكن سبكه في قالب حسن، بقوله من قصيدة:

فيا هاجري عاماً لقد ضل عاذلي وليس له وجه وتاريخه سلخ

ومن لطائفه قوله بمنزلة القطيفة بالقرب من دمشق:

هذي القطيفة التي لا تشتهي عقلاً ونقلاً
حشيت ببرد يابس فلأجل ذاك الحشو ثقل^(٢)

ومن لطائفه قوله:

ضفر الشعر وألقى خلفه كالقطن وفره
قلت ماذا قال شيب قلت والله ودره

ومن لطائفه قوله في معشوقه المعنى المسمى بالنسيم:

إن كانت العشاق من أشواقهم جعلوا النسيم إلى الحبيب رسولا
فأنا الذي أتلو لهم يا ليتني كنت اتخذت مع الرسول سبيلا

ومثله قوله فيه:

يا من غدا لي من عوا صف هجره الريح العقيم^(٣)
أترى يطيب لي الهوى ويقال لي رق النسيم

ومن لطائفه قوله:

سلّ سيفاً من جفنه ثم أرخى وفرة وفرت عليه الحميلة^(٤)
إن شكا الخصر طولها غير بدع لنحيل يشكو الليالي الطويلة

(١) المستهل: الدمع - الغرة: أول الشعر من مقدم الرأس.

(٢) ثقل: تكره وتهجر.

(٣) الريح العقيم: التي لا تفيد، والعقيم في الأصل من لا ينجب.

(٤) الحميلة: حميلة السيف، مكان في الرجل يوضع فيه السيف.

والم به ابن العفيف، فقال:

حلّ ثلاثاً يوم حمامه ذوائباً تعبق منها الغوال^(١)
فقلت والقصد ذواباته يا سهري في ذي الليالي الطوال

وهذا المعنى تلاعب به جماعة من المتأخرين، ولولا الخيفة من طول الشرح
لذكرت ذلك، ولكن لا بد أن يرد على المتأمل في مواضعه، ويعجبني قوله:

وبروحي هويته عجميا لي لذت ألفاظه الغتمية^(٢)
كم حلا عجمه فقلت لخلي خلني والحلاوة العجمية
ومن لطائف مجونه قوله:

وأعور العين ظل يكشفها بلا حياء منه ولا خيفه
وكيف يُلفى الحياء عند فتى عورته لا تزال مكشوفه^(٣)
ومنه قوله:

قال لي العلق وقد جثته أريه أيراً فاق في حسنه
أيرك هذا مات قلت انحنى كرامة الميت في دفنه
ويعجبني من خمرياته قوله:

خمرة للشقيق أمست شقيقه بنت كرم بالمكرمات خليقه^(٤)
قال قوم من لطفها هي في الكا س مجاز والكاس فيها حقيقه
أنتجت فرحة وجاءت بكأس صبغت حمرة فنعم الشقيقه
ومن بديع اقتباسه بالتورية قوله:

بأبي فتاة من كمال صفاتها وجمال بهجتها تحار الأعين
كم قد دفعت عواذلي عن وجهها لما تبدت بالتالي هي أحسن

(١) الغوال: جمع غالية وهي أخلاط من الطيب، كالمسك والعنبر وغيرهما.
(٢) الغتيمة: غير الفصيحة لعجمة قائلها. من غتم: إذا لم يفصح لعجمة في منطقته.
(٣) يُلفى: يوجد. العورة: ما حرم الله كشفه من جسم الإنسان. وهو القبل والدبر. ومن المرأة معظم
جسمها لقوله ﷺ: «المرأة عورة كلها».
(٤) خليقه: حقيقه وجديرة.

هذا الاقتباس بالتورية أخذه الشيخ جمال الدين بقافيته، ولكن زاده إيضاحاً بقوله:

يا عاذلي شمس النهار جميلة وجمال فاتنتي ألد وأزين
فانظر إلى حسنيهما متأملاً وادفع ملامك بالتي هي أحسن

والم به الشيخ عز الدين الموصللي وما خرج عن إيضاحه أيضاً بقوله:

قد سلونا عن المليح بخود ذات وجه به الجمال تفنن^(١)
ورجعنا عن التهتك فيه ودفعناه بالتي هي أحسن

ومن لطائفه قوله:

ذات طوق وذات زيق تغنى فتنبي بالوجد من ليس يدري^(٢)
زيفت ثم كاشفتنا فقلنا لك زيق الغنى ولي زيق فقري
ما تراها قد حدثت خاطر النهـر بما قد جرى وما منه يجري

ومن لطيف كلامه قوله:

وبطحاء في واد يروك روضها ولا سيما إن جاد غيث مبكر
تلاحظها عين تفيض بأدمع يرققها منه هنالك محجر
إذا فاخرتها الريح وهي علية بأذيال كئبان الربا تتعثر
بها الفضل يبدو والربيع وقد غدا بها الروض يحيى وهو لا شك جعفر^(٣)

وقال في مليحة اسمها وردة:

بأبي وردة مولدة الحسن دعوها بوردة البستان
في التصاوير مثلها ليس يُلفى فيقولون وردة كالدهان^(٤)

ومن تواريه الغربية في المواليا في مليح مشطوب:

لك طرف أحور حمى من حسنك السرحه كم قد أغار على العشاق في صبحه
لما علمت بانو سابق اللمحة عليه خفت فشطبتو على صبحه

(١) الخود: الفتاة الحسناء.

(٢) الزيق: ما يخاط بالقميص لتقويته به. وزَيقت: جعلت لقميصها زيقاً.

(٣) الفضل والربيع ويحيى وجعفر: بالإضافة إلى أنها أسماء أشخاص فإنها مستعملة هنا بمعانها الأخر، وهي: الفضل: الشيء الفاضل والخير، والربيع: الفصل المعروف - يحيى من الحياة - جعفر: نهر.

(٤) يُلفى: يوجد - الدهان: الصباغ الأحمر يدهن به.

ومن نكته الغريبة في أغزاله قوله:

ذباب السيف من لحظ إليه
ولا عجب إذا ما قيل هذا
لأخضر صدغه حسن انتسابي^(١)
له صدغ زمردة ذبابي^(٢)

ومن اختراعاته الغريبة قوله:

كُتبت لكم من أعين القصب التي
فإن أطرب التشبيب فيها بذكركم
لها من معانيكم ومن نفسها طرب
فكم أطرب التشبيب من أعين القصب

ومن هنا أخذ المعمار، فقال:

هويته مشبها
تيم قلبي بالحجا
جماله برّح بي
ز من عيون القصب

ومن مخترعات القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر قوله:

ملأت الليالي من علا وختمتها
ختمت عليها بالثريا فقل لنا
فقد أصبحت محشوة بمكارمك
أهذا الذي في كفها من خواتمك

ومنه قوله:

يا سيدي إن جرى من مدمعي ودمي
لا تخش من قود يقتصص منك به
للعين والقلب مسفوح ومسفوك
فالعين جارية والقلب مملوك^(٣)

ومنه قوله:

ذو قوام يجور منه اعتدال
سلب القضب لينها فهي غيظي
كم طعين به من العشاق
واقفات تشكوه بالأوراق

ومنه قوله:

يا رب كأس صرت من شربها
ملتهب الأحشاء ناراً لأن
من بعد رشفي ريق معشوقي
شربتها منه على الريق

(١) ذباب السيف: حده - الصدغ: الشعر ما بين العين والأذن.

(٢) دُبابي: أي حاد كذباب السيف. أو لونه شبيه بلون الذبابة وهي الحشره المعروفه.

(٣) القود: الدية: اقتصص: أخذ منه قصاصاً - جارية: بالدمع وعبدة. ومملوك: عبد.

ويعجبني منه قوله:

أنت من وجه ولحظ لك دينار وكسر^(١)

هذا الدينار والكسر، اغتصبه الشيخ جمال الدين بن نباتة ولم يسبكه في غير قلبه، فقال:

أفدي حبيباً لي إلى مرآه طول الدهر فقر
في خده وجفونه للحسن دينار وكسر

وهذه زاوية اخترتها من ديوان الشيخ الإمام العلامة شيخ الشيوخ عبد العزيز الأنصاري الحموي، سقى الله ثراه، أما بعد حمداً لله الذي أطلعنا من زوايا الأدب على خبايا، وأرشدنا بمشايع شيوخه إلى سلوك ما فيه من المزايا، والصلاة والسلام على نبيه الذي اختاره فكان نعم المخترار، وعلى آله وصحبه المنتظمين في سلك هذا الاختيار. فقد انتهى ما أوردته منوعاً في التورية من الحلوات القاهرية، وقد تعين أن أفكّه المتأمل بعد ذلك بالفواكه الشامية، وأقتطف له من فروع شيخ الشيوخ ما يظهر به مزية الثمرات الحموية، وقدرة السلطنة في الأدب وناهيك بالسلطنة الشيخية. فاخترت من أبيات قصائده ومواويل مقاطيعه ما يحلو بها التشبيب، وسميته زاوية شيخ الشيوخ علماً بأنها زاوية يتأهل بها الغريب، والله تعالى يجعلنا ممن تخير العمل الصالح فأحسن، وسمع القول فاتبع منه الأحسن. فمن ذلك قوله من قصيدة:

ويلاه من نومي المشرد وآه من شملي المبدد
يا كامل الحسن ليس يظفي ناري سوى ريقك المبرد

منها ووصل إلى المخلص، وهو في غاية الحسن قوله:

غصن نقا حل عقد صبري بلين خصر يكاد يعقد^(٢)
فمن رأى ذلك الوشا ح الصائم صلى على محمد

ومنه قوله من قصيدة:

لنا من ربة الخالين جاره تواصل تارة وتصد تاره
تعاملني بما يحلي سلوي ولكن ليس في حلو مراره

(١) الكسر: من الدينار ما يقل عنه من العملة.

(٢) غصن النقا: الغصن الطري الذي جرى فيه الماء.

ومنه قوله وهو مطلع قصيدة:

حروف غرامي كلها حرف إغراء
على أن سقمي بعض أفعال أسماء
ومن هنا أخذ الشيخ جمال الدين وقال:
أودت فعالك يا أسما بأحشائي
واحيرتي بين أفعال وأسماء
ومن بديع نكته قوله:

وبدر دجى لم ينتقل كسميه
ولكنه ما زال في القلب والطرف
يلوح لعيني ماشقاً نون صدغه
فأعبد خلّاتي على ذلك الحرف
هذه النكة أخذها ابن الوردي بقافيتها وغالب ألفاظها ومعناها، فقال:

يا بدر تم نوره باهر
منزله في القلب والطرف
صدغك حرف النون في مشقه
من يعبد الله على حرف^(١)
ولعمري إنها سرقة فاحشة، ومنه قوله:

أقام لخدّه الناري عذاراً
ومذ أقصى عذاري وهو ثلجي
حمى مرج العذار بمقلتيه
فأمشى الناس في هرج ومرج^(٢)
ومنه قوله في التورية، مع بديع الاقتباس:

يا نظرة ما جلّت لي حسن طلعتة
حتى انقضت وأدامتني على وجل
عابت إنسان عيني في تسرعه
فقال لي خلق الإنسان من عجل
أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة، وجعله مطلعاً لقصيدة، فقال:

إنسان عيني بتعجيل السهاد ملّى
عمري لقد خلق الإنسان من عجل
ومنه قول الشيخ عز الدين شيخ الشيوخ، وتلطف ما شاء مع قصر الوزن:

وغمام معربد ببروق وزمجره
غادر الروض ناضراً . بعيون مخضره

(١) الذي يعبد الله على حرف: السريع الانقلاب إلى الكفر عندما تواجهه أبسط المصاعب في سبيل الله سبحانه وتعالى .

(٢) الهرج والمرج: ثورة الفوضى .

ومنه قوله:

قلت وقد عقرب صدغاً له
قد سدت يا رب الجمال الذي
عن مشقة الحاجب لم يحجب
ألف بين النون والعقرب^(١)

وقال، وتلطف ما شاء، وأظنه أول من ورى بهذه النكتة:

أفدي حبيباً رزقت منه
بوجنة ما أتم ربحي
عطف محب على حبيب
وقد غدا وردها نصيبي

ومن هنا أخذ الشيخ جمال الدين بن نباتة وغيره، وقول الشيخ جمال الدين بن نباتة:

فديتك غصناً ليس يبرح مثمراً
تفتح في وجناته الورد أحمر
من الحسن في الدنيا بكل غريب
فيا ليت ذاك الورد كان نصيبي

ومنه قوله:

لا تنس وجددي بك يا شادناً
ما لي على هجرتك من طاقة
بحبه أنسيت أحبابي^(٢)
فهل إلى وصلك من باب^(٣)

ومنه قوله:

مرضت ولي جيرة كلهم
فأصبحت في النقص مثل الذي
عن الرشد في صحبتي حائد
ولا صلة لي ولا عائد^(٤)

ومن هنا أخذ الشيخ عز الدين الموصللي، وقال:

أهل دمشق قد مرضت عندهم
مع علمهم بأنني أنا الذي
وما قصدت نحوهم بمسأله
ولا أتاني عائد ولا صلة

ومنه قوله:

قالوا أما في جلق نزهة
يا عاذلي دونك من لحظه
تنسيك من أنت به مغرى
سهماً ومن عارضه سطرأ

(١) النون: الحاجب في وسطه العين والعقرب: الشعر ما بين الأذن والعين مجعداً على التشبيه.

(٢) الشادن: الغزال.

(٣) الطاقة: القدرة والشباك.

(٤) الصلة والعائد: في الأصل الأقرباء والزوار أو العطاء والهبة - وفي المصطلح النحوي الصلة ما يصل

بين جملتين - والعائد: ضمير يعود على متأخر في الكلام.

السهم وسطرى من منتزهات دمشق المشهورة، ومن هنا أخذ الشيخ جلال الدين بن
خطيب داريا وقال:

سألتكما إن جئتما الشام بكرة
قفا واقراً مني كتاباً كتبته
وعايتما الشقراء والغوطة الخضراء
بدمعي لكم مقراً ولا تنسيا سطرا

ومقرا أيضاً من منتزهات دمشق، وحسن بعدها ذكر سطراً، ومنه قوله، وأجاد:

سبحان مورثه من حسن يوسف ما
أقام للشعراء العذر عارضه
لم يبق في الحجرلي والصبر من حصص
فكم لهم من ديبب النمل من قصص^(١)

ومنه قوله:

ولقد عجبت لعاذلي في حبه
أو ما درى من ستي وطريقتي
لما دجا ليل العذار المظلم
أنى أميل مع السواد الأعظم^(٢)

ومن هنا أخذ الشيخ جمال الدين بن نباتة وغيره، فأما ابن نباتة فإنه أخذه وزناً، وقافية،
وقال:

أهواه معسول الرضاب منعماً
يا قلب هذا شعره وجفونه
ولقد يعذبني الهوى بمنعم^(٣)
صبراً على هذا السواد الأعظم

ومن لطائفه قوله:

أكملت ستاً وأربعين بها
وجزت في السبع خائفاً وجلأً
أخلت همومي من راحتي ربي^(٤)
لأنني جائز على سبع^(٥)

ومن نكته اللطيفة قوله:

هزم الهم عن نداماي راح
لم تكد في الكؤوس تظهر لطفاً
حظيت من سماعهم بلحون
فبدت من خدودهم في الصحون

(١) الديبب: مشي كل ذات أربع.

(٢) السواد الأعظم: المجموع الأكبر من الناس - أو معظمهم.

(٣) معسول الرضاب: كأن ريقه العسل، حلو الريق.

(٤) الربيع: الدار.

(٥) جاز: : : قطع ودخل وتجاوز ما قبله - السبع: العدد والحيوان.

ومن لطائف مجونه قوله:

سألته من ريقه شربة
فقال أخشى يا شديد الظما
أطفي بها من كبدي حره
أن تتبع الشربة بالجره^(١)

ومن هنا أخذ المتأخرون. ومن نكته اللطيفة ما كتبه على جرن حمام السلطان بحماة:

كملت لطفاً ووقاراً على
من أجل هذا صرت أهلاً لأن
ما حزت من أوصافي الحلوه
أجالس السلطان في الخلوه

وممن أجاز رقيق التورية من غلظ العقادة، الأمير مجير الدين بن تميم. فمن ذلك قوله:

لما لبست لبعده ثوب الضنى
أجريت واقف أدمعي من بعده
وغدوت من ثوب اصطباري عارياً^(٢)
وجعلته وفقاً عليه جارياً^(٣)

ومن لطائف نكته قوله في كتاب:

يا حسنها نسخة يلهو مطالعها
صحت وقد لطفت أجزاءها فحكمت
بها لما قد حوت من رائق الكلم
لطف النسيم وحاشاها من السقم

ومنه قوله:

بتنا جميعاً ويات لثمي
فمات مني الظلام غيظاً
له حمى ثغره مباح
وانشق من غيظه الصباح

ومنه قوله:

وساقية تدور على الندامى
سنشكر يوم لهو قد تقضى
وتنهرهم لسرعة شرب خمر
بساقية تقابلنا بنهر

وهذه النكته تلاعب الناس بها كثيراً. ومن نكته الغريبة قوله في سجادة:

أيا حسنها سجادة سندسية
يرى للتقى والزهد فيها توسم^(٤)

(١) الجرّه: وعاء من الفخار أسطوانى الشكل يستعمل للماء.

(٢) وردت في الأصل «لبثت» بدل «لبست» وما أثبتناه أصح ونظنه من خلط الذين يلفظون الثاء سيناً والذال

والظاء والضاد زايأ في هذه الأيام لكثرة ما صقلتهم «المدنية» و«الحزارة الحديسة».

(٣) وقفته عليه: قصرته عليه.

(٤) سندسية: نسبة إلى السندس وهو من رقيق الديباج - التوسم: الأمل.

إذا ما رآها الناسكون ذوو الحجا
ومن هنا أخذ الشيخ جمال الدين بن نباتة وقال:

إن سجادتي الحقيرة قدرا
وتطفل عليها الشيخ زين الدين بن الوردي أيضاً، فقال:

سجادة أذكرتني
منك الذي كنت تعلم
أهديتها لمحـب
صلى عليها وسلم

ومن قوله وهو من أطف أغزاه:

يا حسن أهيف حظه من حبنا
طيب النعيم وحظنا منه الشقا^(٢)
قدم العذار إلى نقا وجناته
يا مرحباً بقدوم جيران النقا^(٣)
ومن نكته الغريبة، قوله في مليح جرح جبينه:

بكوا لجراحة شقت جبين الـحبيب فقال ما ضر الجراح
أليس جبينه صباحاً منيراً
ولا عجب إذا انشق الصباح

ومن لطائفه قوله:

وعيرني بالشيب قوم أحبهم
فقلت وشأن العاشقين التحمل
بعثم إلى رأسي المشيب بهجركم
ومهما أتى منكم على الرأس يحمل

وهذه النكته أيضاً، تلاعب بها المتأخرون بعد ابن تميم كثيراً. ومن لطائف نكته أيضاً قوله:

ونهر حالف الأهواء حتى
غدا طوعاً لها في كل أمر
إذا سرقت حلى الأزهار ألقت
إليه بها فيأخذها ويجري

(١) الناسكون: جمع ناسك وهو الذي يقتصر على عبادة الله سبحانه وتعالى - ذوو الحجا: الثقات. ذوو الاستمساك بالعقيدة.

(٢) الأهيف: الدقيق الخصر الضامر البطن - الشقا: الشقاء.

(٣) نقا: نقاء. النقا: الكثيب من الرمل.

ومثله قوله:

لما أتاها وهي في اطرابها
في صدره من خوفه وجرى بها

سرق النسيم حلى الغصون بسحره
ورمى بها نحو الغدير فضمها

ومن بدائع نكته:

راحاً تسل شبابي من يد الهرم
غزالة الصبح ترعى نرجس الظلم^(١)

وليلة بت أسقى في غياهبها
ما زلت أشربها حتى نظرت إلى

ومن لطائف نكته في أغزاله قوله:

غزال به عذر المحيين واضح
ألم تعلمنا أن العيون جوارح

خليلي قد صاد الفؤاد بحسنه
ولا غرو أن صاد الفؤاد بلحظه

ومن لطائف نكته في أغزاله أيضاً قوله:

فأضحى سعيد الخد وهو معذر
فإن صح ذلك الخط فهو مزور

وقالوا بدا خط العذار بخده
فقلت خيال الشعر ما قد رأيتم

من هنا أخذ الشيخ صلاح الدين، ولكن زاده نكتة أخرى، بقوله:

وأنت بخط عذاره تذكارا
فالحظ زور والشهود سكارى^(٢)

عيناه قد شهدت بأني مخطيء
يا حاكم الحب أتتد في قتلي

ومن نكته الغريبة قوله:

عن الجود خوف الفقر ماذاك سائغ
نصيبك والنعماء عليك سوابغ^(٣)

أيا ذا الذي قد كف كفيه عامداً
أتخشى سهام الفقر ما دمت منفقاً

ومن نكته الغريبة قوله:

يروح ويغدو هائماً بوصالها
جفاها وأمسى قانعاً بخيالها

ونهر بحب الروض أصبح مغرماً
إذا بعدت عنه شكاً بخيريه

(١) غزالة الصبح: الشمس.

(٢) أتتد: تؤدّة تمهل.

(٣) سوابغ: جمع سابعة: النعمة: فائضة وزائدة عن الحاجة.

ومن لطائف مجونه :

وقواد يعيد الهجر وصلأ
يكاد لحكمة فيه ولطف
ومن نكته البديعة الغريبة في باب التورية قوله:

لما جسستك بالمديح ولم أكن
ناديت لما أن جسستك بالهجا
أدري بأنك خامل في الناس
أكليب خذاها من يدي جساس^(٢)

ومنه قوله :

مذ لاحظ المثور طرف النرجس الممزور قال وقوله لا يدفع
فتح عيونك في سواي فإنني
عندي قبالة كل عين أصبع
ومن لطائفه في هذا الباب قوله :

أيا حسنها من روضة ضاع نشرها
ودولابها كادت تعد ضلوعه
النكتة في يدور وفي ضاع دارت بين ابن تميم وبين الجماعة، وتسلسل دورها
منهم بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي بقوله :

وروضة دولابها
من حين ضاع نشرها
ومنهم الشيخ جمال الدين بن نباتة بقوله :

وناعورة قسمت حسنها
وقد ضاع نشر الربا فاغتدت

ومنهم الشيخ صلاح الدين الصفدي ونقل المعنى إلى الغزل بقوله :

أضحى يقول عذاره هل فيكم لي عاذر
الورد ضاع بخده وأنا عليه دائر

(١) القواد: القائد إلى الفجور.

(٢) جس: جرب - الخامل: المغمور غير المعروف - وجساس: المجرب وقاتل كليب أخي المهلهل الشاعر.

(٣) ضاع: يضيع، انتشر - والنشر: الرائحة الطيبة.

(٤) الدولاب: ما يوضع في الروضة ليستقى به، وتديره الدابة (الناعورة).

وبعضهم نقصه وفتح بالدور بقوله :

أبدى لنا الدولاب قولاً معجباً
لما رأنا قادمين إليه
لاني من العجب العجيب كما ترى
قلبي معي وأنا أدور عليه

وزاد الشيخ جمال الدين بن نباتة الدور نكتة أخرى فقال :

وناعورة قالت وقد ضاع قلبها
وأضلعها كادت تعد من السقم
أدور على قلبي لأنني فقدته
وأما دموعي فهي تجري على جسمي

وهذا المعنى سبق إليه ابن تميم أيضاً، بقوله :

قامت لنا بالعدر ناعورة
تقول لما ضاع قلبي وقد
صيرت جسمي كله أعيناً
أدمعها في غاية السكب
ضعفت بالنوح وبالندب
يدور في الماء على قلبي

ومثله قوله :

ناعورة مذ ضاع منها قلبها
ناحت عليه بأنة وبكاء
وتعللت بلقائه فلأجل ذا
جعلت تدير عيونها في الماء

وقنع الشيخ زين الدين بن الوردي بالدور، فقال :

ناعورة مذعورة ولهانة وحائرة (١)
الماء فوق كتفها وهي عليه دائرة

وعلى ذكر تورية الدور يعجبي قول المقر المرحومي الفخري ابن مكناس، وقد كتب بدر الدين البشتكي يداعبه، وقد دار الشيخ بدر الدين المذكور في ساقية الهمائل (٢).

دورة البدر في سواقي الهمائل
تركت أدمع العيون هوامل (٣)
آه من للرياض نور أديب
مظهر من كلامه سحر بابل
فاق سعياً على بني عجل في الجو
د وأغنى عن الولي الهاطل
زاد علماً على أبي ثور لكن
قال بالدور تارة والسلاسل

(١) ولهانة : شديدة الحزن .

(٢) الهمائل : إسم للساقية :

(٣) الهوامل : التي تفيض بالدمع .

ومنها ولم يخرج عن تورية الدور:

يا سعيداً أثرى من النظم والنثر فأنسى الورى زمان الفاضل
قد سقيت الرياض يا شيخ بالدو ر فها غصنها من السكر مائل

ومن نظمي في تورية الدور أيضاً قولي من قصيدة:

ومذ مد ذاك النهر ساقاً مدملجاً وراح بنفش البيت يمشي على بسط
لوينا خلاخيل النواعير فالتوت وأبدت لنا دوراً على ساقه السبط^(١)

وعلى ذكر تورية الدور وتسلسلها هنا نكتة لطيفة، وهي أنه اتفق أن الشيخ نجم الدين الفجفيري سأل جماعة من الطلبة المستعلمين عليه من قول الشاعر:

يا أيها الحبر الذي علم العروض به امتزج^(٢)
أين لنا دائرة فيها بسيط وهزج

ففكر بعض الطلبة فيه ساعة طويلة ثم قال: هذا في الدولار، لأنه أراد بالبسيط الماء وبالهزج صوته حال دورانه. فقال له الشيخ: صدقت، إلا أنك درت في الدولار زماناً حتى ظهرت لك التورية. وهذا الكلام في غاية الظرافة من الشيخ رحمه الله تعالى.

رجع إلى ما كنا فيه من لطائف ابن تميم، فمن ذلك قوله:

لم لا أميل إلى الرياض وحسناها وأعيش منها تحت ظل ضافي
والزهر يلقاني بثغر باسم والماء يلقاني بقلب صافي

وهذان البيتان عزاهما الصلاح الكتبي، في كتابه فوات الوفيات، للبدر يوسف بن لؤلؤ الذهبي، ونسبا أيضاً لمحبي الدين بن قناص، في مواضع كثيرة، والله أعلم. ومن نكته اللطيفة في التورية قوله:

روحي الفداء لمن أدار بلحظه صهباء في عقلي لها تأثير^(٣)
فاعجب له أنى يصون بلحظه مشمولة وإنؤها مكسور^(٤)

(١) السبط: الطويل.

(٢) الحبر: رجل العلم الذي يعد مرجعاً في علمه.

(٣) الصهباء: الخمرة.

(٤) المشمولة: التي هبت عليها ريح الشمال وهي أبرد وأطيب.

ومنه قوله:

إني لأشهد للحمى بفضيلة
ما زاره أيام نرجسه فتى
وتلاعب المتأخرون بهذه النكتة كثيراً.

ومنه قوله:

ألا رب يوم قد تقضى ببركة
بعيني رأيت الماء فيها وقد هوى

ومثله قوله:

يا حسنه من جدول متدفق
ما زلت أنظره عيوناً حوله
فأبى وزاد تمادياً في جريه

وتورية تكسر تلاعب بها الناس بعد ابن تميم كثيراً. ومن نكته البديعة الغريبة قوله:

لو كنت تشهدني وقد حمي الوغى
لترى أنابيب القناة على يدي

ومن لطائف نكته قوله:

قالوا رأيناك كل وقت
إني فتى قنوع

ومنه قوله:

حاذر أصابع من ظلمت فإنه
فالورد ما ألقاه في جمر الغضى

ومن لطائف نكته وقد تقدم معناها، ولكن حلا مكررها هنا بقوله:

تأمل إلى الدولاب والنهر إذ جرى
فأصبح ذا يجري وذاك يدور

(١) «بعيني» في الأصل «بعني» ونظنه من خطأ النساخ.

(٢) الأنابيب: جمع أنبوب وهو جسم الرمح - والقناة: الرماح - القسطل: الغبار الكثيف.

(٣) جمر الغضى: يضرب به المثل في شدة الحرارة وهو جمر شجر يدوم طويلاً.

وقال الشيخ أثير الدين أبو حيان أنشدني أبو الخير الأزدي، لمجير الدين بن صميم:

نزلنا إلى الغور في جحفل نقاتل قوماً من المسلمينا
قطعنا الشريعة في حربهم وخضنا إليهم مع الخائضينا^(١)

ومن نكته البديعة الغريبة قوله:

إني لأعجب في الوغى من فارس حارت دقائق فكرتي في كنهه
أدى الشهادة لي بأني فارس الـ هيجاء حين جرحته في وجهه

ومن لطائف مجونه قوله:

هويت نطاعاً إذا جئته بادرني باللحظ والصفح^(٢)
أروم أن أحظى بوصل وقد قابلني بالسيف والنطع

ويعجبني من نكته في الخمریات قوله:

ومدامة كاساتها تعطي الأمان من الزمان
قد أحكمت علم النجو م وأتقنت سحر البيان
فإذا حساها الشاربو ن وأوقعتهم في الأماني
بدأت بإخراج الضمير وبعده عقد اللسان

ومن لطائف مجونه قوله:

غطت محاسن وجهها عن ناظري هيفاء لم أر في البرية شبهها
وغدت تمانعني فقت مبادراً وكشفت من بعد التمتع وجهها

ومن نكته الغريبة قوله:

سأهجو أناساً يبتغون نقيصتي وقد رسخوا في بحر جهلهم رسخا
وأسلخهم لا في أوان مغيبهم ولكن أريهم في وجوههم السلخا

ومن لطائفه قوله:

بعث النسيم رسالة بقدومه للروض فهو بقربه فرحان

(١) الشريعة: مورد الماء الذي يستقى منه - والقانون السماوي - الخائضين: الذين يتحدثون في ما لا

يعلمون. أو السابحين.

(٢) النطاع: الأنيق المتأنق.

ولطيب ما قرأ الهزار بشدوه مضمونها مالت له الأغصان^(١)
ومن لطائفه التي سبقه السراج إليها واستعملها ابن تميم أحسن منه:

أراق دمي بسيف اللحظ ظلما وها أثر الدماء بوجنتيه
فلما خاف من طلبي لثأري أدار عذاره زرداً عليه

وقال في غلام وقاد:

لاموا على الوقاد في حبه وحبه باللوم يزداد
لو لم يكن في حسنه كوكباً ما كان أمسى وهو وقاد

وزاد شيخنا الشيخ شهاب الدين بن حجر، فسح الله في أجله، هذا المعنى نكتة
حصل بها الاتفاق البديع بلقبه الكريم، فقال في وقاد أيضاً:

أحب بوقاد كنجم طالع أنزلته برضا الغرام فؤادي
وأنا الشهاب فلا يعاند عاذلي إن ملت نحو الكوكب الوقاد

ومن نكته البديعة الغريبة قوله:

بنده الأزرق لما شدّه من قد سباني
جدول فوق كثيب دار يسقي غصن بان

ومن نكته الغريبة قوله في وكيل بدار القاضي بدمشق المحروسة:

لا تقرب الشرع إذا لم تكن تخبره فهو دقيق جليل
ووكل العز الذي وجهه على نجاح الأمر أقوى دليل^(٢)
ولا تمل عنه إلى غيره وحسبنا الله ونعم الوكيل

وعلى ذكر الوكيل رأيت:

لاقي فلان اليوم ما ساءه وأفرغ الصك عليه وكيل^(٣)
وذاق من كف الوكيل العمى وحسبنا الله ونعم الوكيل

(١) الهزار: البلب.

(٢) العز: العزيز الكريم القوي.

(٣) الصك: الوثيقة التي تثبت ملكية منقولة أو غير منقولة.

ومن لطائفه قوله يصف روضة:

أرض كساها القطر حلة سندس
وفد النسيم أضاع نشر رياضها

وكتب إلى كمال الدين بن النجار، وكيل بيت المال بدمشق المحروسة، وهي من نكته المخترعة:

كمال الدين يا مولاي يا من
أتيت لحاجة فاغنم ثنائي
ولا تجعل سواك لها فإني
أجمل أن يقول الناس أني
وأصبح بينهم مثلاً لأنني

ومن لطائف نكته قوله:

لم أنس قول الورق وهي حبيسة
قد كنت ألبس من غصوني أخضرا

وقال فيمن تاب عن شرب الخمر:

تركت شرب الحميا غير مفتكر
فارجع فقد أسبل الراووق أدمعه

فأنشده بعد ذلك وقد وافقه:

إن كان قد أسبل الراووق أدمعه
فاليوم أعينه من فرط فرحته

ومن نكته الغريبة قوله فيمن غضب عند عزله من منصب ولايته:

كم قلت لما فاض غيظاً وقد
لا تعجبوا إن فار من غيظه

(١) رقم الثوب: إذا وشي.

(٢) الورق: الحمام.

(٣) مقفصاً: الأولى بمعنى موضوعاً في القفص (سجينا)، والثانية بمعنى: المجمع..

(٤) الراووق: من أوعية الخمر (الباطية).

(٥) فار: استشاط غضباً.

وهذا المعنى ألم به شرف الدين النصيبي واستعمله أرق وأسجم، بقوله:

ولوك إذ علموا بجهلك منصّباً
علموا بأنك عن قليل تبرخ^(١)
طبخوا بنار العزل قلبك بعد ذا
وكذا القلوب على المناصب تطبخ

وقال يعتذر عن مخدومه في كثرة تجريده له:

لقد لام قوم صاحبي حيث لم يزل
رأني حساماً ماضياً فأقامني
يجردني دون الرفاق تعمداً
مدى الدهر في وجه الأعداء مجرداً

ومنه قوله:

مذ قلت للمنشور إن الورد قد
بسمت ثغور الأقحوان مسرة
وإني على الأزهار وهو أمير
بقدومه وتلون المنشور

وأحسن منه قوله:

ومذ قلت للمنشور إني مفضل
تلون من قلبي وزاد اصفراره
على حسنك الورد المنزه في الشبه
وفتح كفيه وأوما إلى وجهي

ومثله قوله:

كيف السبيل للشم من أحبته
ما بين مشور وناصر نرجس
في روضة للزهر فيها معرك
مع أقحوان وصفه لا يدرك
هذا يشير بأصبع وعيون ذا
ترنو إليّ وثغر هذا يضحك

ومثله قوله:

كيف السبيل لأن أقبل خدّ من
وأصابع المشور تومي نحونا
أهوى وقد نامت عيون الحرس
حسداً وتغمزها عيون النرجس

ومنه قوله:

روض الحمى يهوى لقاك وإنه
لم يهد نرجسه إليك وإنما
من فرط شوق لا يزال قرينه
لغرامه أهدي إليك عيونه

(١) تبرخ: تبرج.

ومن لطائفه في أغزاله قوله :

قالوا بدا نبت خديه فخذ بدلا
إن لاح في خده نبت فلا عجب
وتورية النبت والرعي تلاعب بها جماعة من المتأخرين بعد ابن تميم، ومن
مخترعاته في هذا الباب قوله :

لو كنت حين علوت كور مطيتي
وتوسطت بحر السراب حسبتي
لم تعلقها للمطي عيون^(١)
من فوقها ألفاً وتحتي نون
ومن نكته المخترعة قوله :

دعيت فكان أكلي فخذ طير
وما يومي كأمس وذاك أني
ولم أشرب من الصهباء نقطه
أكلت أوزة وشربت بطه^(٢)
أخذ الشيخ صلاح الدين الكل مع القافية فقال :

شوى الأوز فأضححت
فقلت تشوي أوزاً
في حمرة الخد بسطه
أم كنت تشرب بطه
ومن اختراعاته التي لعب الناس بها بعده :

قد هجرت الراح حتى
وعلى الراووق مني
ليس لي فيها نصيب
طول ما عشت صليب^(٣)

ومن نكته المخترعة الغربية قوله يرثي الأمير قطب الدين رحمه الله تعالى :

نأيتم فلا قلبي عن الحزن مقصر
وأفلاك لذاتي تعطل سيرها
عليكم ولا جفني يجف له غرب^(٤)
وهل فلك يسري إذا عدم القطب^(٥)

(١) أنبته : صيره رجلاً .

(٢) الكور : للمطية هو الرجل .

(٣) البطة : الباطية - والطائر المعروف .

(٤) الراووق : الباطية - وعاء للخمرة .

(٥) النأي : البعد والسفر - غرب الجفن : دمه .

(٦) الأفلاك : السفن - عدم القطب : لم يعرف الجهة .

ومن غريب نكته في أغزاله قوله:

شبهت خدك يا حبيبي عندما
تفاحة حمراء قد كتبوا بها
أبدى الجمال به عذاراً أشقرا
خطاً دقيقاً بالنضار مشعرا

ومثله في الغرابة قوله:

ولما احتمت عنا الغزالة بالسما
نصبنا شباك الماء في الأرض حيلة
وعز على قناصها أن ينالها^(١)
عليها فلم نقدر فصدنا خيالها

ومن لطائف غرامياته:

لا تبعثوا غير الصبا بتحية
خاضت دموع العاشقين وعرجت
من أرضكم فلها عليّ جميل^(٢)
عنهم إليّ وثوبها مبلول

وهذا المعنى وقفت عليه لغيره، والله أعلم من السابق. ولعمري إن الآخر أجاد بقوله:

وصبا صبت من قاسيون فسكنت
خاضت مياه النيرين عشية
بهيوبها وصب الفؤاد البالي^(٣)
وأنتك وهي بليلة الأذيال^(٤)

ومن لطائفه قوله:

لو لم أعانق من أحب بروضة
ما شق جيب شقيقها حسداً ولا
أحداق نرجسها إلينا تنظر
بات النسيم بذيله يتعثر

وتلاعب الناس بعد ابن تميم بهذا المعنى كثيراً. وقال في إهداء مهرة حمراء، وهي من مخترعاته:

أهديت لي يا مالكي مهرة
مؤخرها والعنق قد أوقع
جميلة الخلق بوجه جميل
تخبرنا أن أباهأ أصيل
قد لبست من شفق حلة

(١) غزاة السماء: الشمس.

(٢) الصبا: الريح المشرقية تهب عند استواء الليل.

(٣) قاسيون: جبل يطل على دمشق - الوصب: المرض والتعب الشديد.

(٤) النيرين: دجلة والفرات وكوكبين قطيين والله أعلم.

ومنه قوله، وهو من الاختراعات اللطيفة:

حبيبي وعدت الكاس منك بقبلة
وما كان هذا لونها غير أنها
وأعقب ذلك الوعد منك نفاً^(١)
علاها لطول الانتظار صفار

ومن هنا أخذ الشيخ بدر الدين بن الصاحب فقال:

يا حابس الكأس لا تزدها
واغنم مزاجاً لها لطيفاً
من بعد حبس الدنان حسره^(٢)
أورثه الانتظار صفره

ومن نكته الغريبة البديعة قوله:

مما رأت عيني مناطك التي
لا تستقر وقد علتها صفرة
أيقنت أن الخصر ضاع نحافة
أضحت بشعرك دائماً تتعلق
ونحول جسم بالصباية ينطق
فلذا تدور جوى عليه وتقلق

ومن هنا أخذ الشيخ صلاح الدين الصفدي وقال:

وشاح من أحبته قال لي
قد ضاع مني الخصر لما انثنى
وهو الذي في قوله قد صدق
أما تراني دائراً في قلق

وقال في شخص اسمه عثمان يهدده بالهجو:

توعدت يا عثمان بالهجو شاعراً
فخذها قصيداً قد أتت من محمد
سيوليك هجواً عاره ليس ينجلي
كجلمود صخر حطه السيل من عل

وممن أبدر في أفق التورية ونظم عقود لآلئها بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي، فمن
لآلئ عقوده قوله:

صدوا وقد دب العذار بخده
هل ذاك غير نبات خد قد حلا
ما ضرهم لو أنهم خبروه
لكنهم لما حلا هجره

ومنه قوله:

عرج على الزهر يا نديمي
فالروض يلقاك بابتسام
ومل إلى ظله الظليل
والريح تلقاك بالقبول

(١) نفاً: هجر.

(٢) الدنان: جمع دن وهو وعاء الخمر.

ومنه قوله وأجاد:

ورياض وقفت أشجارها وتمشت نسمة الصبح إليها
طالعت أوراقها شمس الضحى بعد أن وقعت الورق عليها^(١)

قال الشيخ صلاح الدين الصفدي، في كتابه المسمى «بفض الختام عن التورية والاستخدام»^(١)، لما وقف على هذين البيتين نكتة التوقيع، هنا، أليق بابن عبد الظاهر، لكن طلع واطلّع عليه البدر، وحفظ سره لما أضاعه ذلك الصدر، ومنه قوله:

وحديقة مطلولة باكرتها والشمس ترشف ريق أزهار الربا^(٢)
يتكسر الماء الزلال على الحصى فإذا جرى بين الرياَض تشعبا

ومن هنا أخذ الشيخ برهان الدين القيراطي فقال من قصيدة:

وكان ذاك النهر فيه معصم بيد النسيم منقش ومكتب^(٣)
فإذا تكسر ماؤه أبصرته في الحال بين رياضه يتشعب

ويعجبني قوله من قصيدة كلها غرر، ولولا خشية الإطالة لأوردتها بكمالها:

وتنبهت ذات الجناح بسحرة بالواديين فنبهت أشواقني
ورقاء قد أخذت فنون الحزن عن يعقوب والألحان عن إسحق
قامت تطارحني الغرام جهالة من دون صحبي بالحمى ورفاقي
أنى تباريني جوىً وصبابةً وكأبةً وأسىً وفيضَ مآقي^(٤)
وأنا الذي أملى الجوى من خاطري وهي التي تملى من الأوراق

ومنه قوله:

هلم يا صاح إلى روضة يجلو بها العاني صدا همه
نسيمها يعثر في ذيله وزهرها يضحك في كمه

ومنه قوله:

أدر كؤوس الراح في روضة قد نمقت أزهارها السحب

(١) الورق: جمع ورقاء وهي الحمامة.

(٢) مطلولة: أصابها الطل وهو الندى.

(٣) مَكْتُب: مجمع أو مخطط.

(٤) مآقي: جمع موق وهو مكان خروج الدمع من العين.

الطير فيها شيق مغرم وجدول الماء بها صب^(١)
ومن هنا أخذ الشيخ جمال الدين بن نباتة، وقال في نواعير حماة من طرديته:

ذات النواعير سقات الترب وأمهات عصفه والأب
تعلمت نوح الحمام الهتف أيام كانت ذات فرع أهيف
فكلها من الحنين قلب وكيف لا والماء فيها صبّ

وقال ابن نباتة في مطلع قصيدة:

دمعي عليك مجانس قلبي فارث على الحالين للصب

ونكتة الصب تطفل عليها أيضاً الشيخ صلاح الدين الصفدي، ولكن ركبها تركيباً قلقاً
فقال:

وحقكم ما حلت عن سنن الوفا ولم ينقلب مني إلى سلوة قلب
وما أنا غر بالصباية والهوى فأنكر دمعي إن جرى وأنا صب^(٢)

ويعجبني قول بدر الدين يوسف بن لؤلؤ من قصيدة:

باكر إلى الروضة تستجلها فثغرها في الصبح بسام
والنرجس الغض اعتراه الحيا فغض طرفاً فيه أسقام
وبلبل الدوح فصيح على الأيكة والشحرور تمتام^(٣)
ونسمة الريح على ضعفها لها بنا مر والإمام^(٤)
فعاطني الصهباء مشمولة عذراء فالواشون نؤام^(٥)
واكتم أحاديث الهوى بيننا ففي خلال الروض نام

ومن هنا أخذ الجميع، حتى الشيخ صفي الدين الحلبي، مع أن التورية غير مذهبه فقال:

(١) الشيق: صيغة مبالغة من الشوق، المشتاق - صب: كثير الانصباب - ومغرم:

(٢) الغر: الجديد الذي لا تجربة له.

(٣) الأيكة: واحدة الأيك وهو الشجر الكثير الملتف - تمتام: مغرد.

(٤) الإمام: المعرفة.

(٥) عاطني: أعطني - الصهباء: الخمرة - مشمولة: باردة لأنها أصابتها ريح الشمال - عذراء: مختومة في

دنها لم تفضض - الواشون: النمامون السعاة بالشر.

أقول وطرف النرجس الغض شاخص
أيا رب حتى في الحدائق أعين
إليّ وللنمام حولي إمام (١)
عليّ وحتى في الرياحين نمام (٢)

ولكن ما أدخل بها الشيخ جمال الدين بن نباتة لثلا يخرج عن مذهبه فقال:

وأهيف ينهب أرواحنا
تنم خداه بقتل الوري
ووجهه كالروض بسام
فخده ورد وثمان (٣)

وأخذها ابن الوردى أيضاً، ولكن زادها نكتة أخرى بقوله:

إن قال صف لي عذارى وصف مبتكر
هذا عذارك نمام ومسكنه
ووجنتي قلت خذ يا صنعة الباري
نار بخديك والنمام في النار

ومنه قوله:

الروض أحسن ما رأيت إذا تكاثرت الهموم
تحنو عليّ غصونه ويرق لي فيه النسيم

ومنه قوله:

البرد قد ولّى فما لك راقدا
أو ما ترى وجه الربيع وحسنه
يا أيها المدثر المزمّل (٤)
والروض يضحك والحيا يتهلّل (٥)

ومن لطائف تغزلاته قوله:

حلا نبات الشعر يا عاذلي
فشاقتي ذاك العذار الذي
لما بدا في خده الأحمر
نباته أحلى من السكر

ومثله في اللطف قوله:

شوقي إليك على البعاد تقاصرت
واعتلت النسمات فيما بيننا
عنه خطاي وقصرت أقلامي
مما أحملها إليك سلامي

(١) شاخص: ناظر.

(٢) الأعين: الرقباء.

(٣) الثمام: عشب من الفصيلة النجيلية..

(٤) المدثر: لابس الدثار وهو الغطاء. المزمّل: الملفف.

(٥) الحيا: المطر سمي به لأنه يبعث الحياة في الأرض ومن بعدها الإنسان والحيوان - تهلل المطر: سقط.

ومنه قوله :

تعشقتَه لَدن القَوامِ مَهفَهفًا
وقالوا بَدَا حَب الشَّبابِ بوجهِه
شَهي اللَّمى أَحوى المَراشِفِ أَشنِبا^(١)
فِيا حَسنه وَجَهًا إِلَيَّ مُحِبِبا^(٢)
وقَد تَقَدَّم القَولُ أَن أبا تَمامٍ أَوَّلُ مَن اِخترَع هَذه النَكتَةَ . وَمَن نَكتَه الغَربِية اللَطيْفَة
البَديعة قولَه :

وذي قَوامٍ أَهيف
قَام يَقطُ شَمعة
بَين النَدامى قَد نَشط
فَهل رَأيتَ الظَّبِي قَط^(٣)

وتَظفلُ النَّاسَ بَعده عَلى هَذه النَكتَةَ . وَمنه قولَه :

وَبمَهجَتِي المَتحَمِلونَ عَشيَّة
وَحَدَاتِهِم أَخذتُ حَجازًا بَعدمَا
والرَكبُ بَين تَلازِمٍ وَعِناق^(٤)
غَنتُ وَراءَ الرَكبِ فِي عِشاق

وَمَن هَنا أَخذَ النَّاسَ بَعَدَ الشَّيخِ بَدَرَ الدَينِ ، كَقولِ بَعْضِهِم :

قَلتُ مَذا غَنى حَجازًا
لِيتَنَّا فِي أَصبَهان

وَمنه قولُ الشَّيخِ بَدَرَ الدَينِ بِن لُؤلُؤ :

لَكَ مَبسَمُ عَذبِ اللَّمى يَفتَرُ عَن
وَفم يَحاكِي المِيمَ إِلا أَنه
بَرَدٌ وَسلسالُ الرَضابِ مَرادِي^(٥)
كَم حَولَه عَينَ تَحومِ كِصاد^(٦)

وَهَذا المَعنى أَيضًا تَظفلُ عَليه المَتاخِرونَ بَعَدَ الشَّيخِ بَدَرَ الدَينِ ، مَنهمُ الشَّيخُ جَمالُ
الدَينِ بِن نَباتَةَ ، حَيثُ قال :

يا عَينَ آمالي إِذا اسْتَجَمعتُ
إِنِّي إِلى مَورِدِ لَقياكِ صاد

(١) لَدن القَوامِ : رَشيقُ القَد - مَهفَهفًا : نَحيفُ الخَصرِ ضامِرُ البَطن - اللَّمى : سَمرةٌ فِي الشَفاة - أَحوى المَراشِفِ : أَلَمى الشَفاة - الأَشنِب : رَقيقُ الأَسنانِ أَيضها .

(٢) حَب الشَّبابِ : بثورُ تَخرجُ فِي وَجهِ الشَّابِ فِي سَن مَعينَه وَتَكونُ دَليلاً عَلى بَلوغِهِ مَبلَغِ الرَجالِ .
(٣) يَقطُ : يَسوي .

(٤) المَتحَمِلونَ : المَساْفرونَ - تَلازِم : تَلاصِق .

(٥) السَلسالُ : العَذب - الرَضابُ : الرِيق .

(٦) كِصاد : الحَرفُ الهَجائي المَعروفُ والعَطشان .

ويعجبني قوله من قصيدة ورى في بيتها الأول باسمه فقال:

قد أنحلنتي الغوادي غير راحمة
فكم أوارى غراماً من جوى وأسى
ومحقتني الليالي بعد إبدار^(١)
زناده تحت أثناء الحشا واري
بعدتم صار دمعي بعدكم جاري
جيراننا كتمم بالرقمتين فمذ

ومن هنا أخذ الشيخ جمال الدين بن نباتة وقال:

بروحي جيرة أبقوا دموعي
كأنا للمجاورة اقتسمنا
وقد رحلوا بقلبي واصطباري
فقلبي جارهم والدمع جاري

وما أحلى قول بدر الدين من القصيدة المذكورة، في الخمرة، ولم يخرج عما نحن فيه من التورية، فقال:

سارت لتقتص من قوم فما ربحت
فالقوم من بعد قتلها وما ظلمت
في حث كأس على الأوتار دوار^(٢)
وإنما أخذت منهم بأوتار

ومن هنا أخذ القاضي أمين الدين الحمصي وكان كاتب السرّ الشريف بالشام المحروس، فقال:

وقوس حاجبه يصمي^(٣) كأنّ له
مطالبات على قلبي بأوتار

ويطربني قوله من قصيدة:

فلما تفرقنا كأني ومالكاً
فأتبعته قلباً مطيعاً على الغضى
لطول اجتماع لم نبت ليلة معا
وخليت لي جفنأ على السفح أطوعاً^(٤)

ومن لطائفه الغريبة:

رفقاً بصب مغرم
وفاك سائل دمعه
أبليته صدأً وهجرأ
فرددته في الحال نهراً^(٥)

هذا النهر ورد منه المتأخرون قاطبة، ولولا طول الشرح لذكرت ذلك، ومن لطائفه قوله:

(١) الغوادي: جمع غادة وهي الحسنة - محقتني: جعلتني في المحاق، بلا ضوء.

(٢) اقتص: قاصص ثاراً وثأراً - الأوتار: في الإنسان العروق والشرايين.

(٣) يصمي: يصيب ويردي.

(٤) الغضى: الرغم وشجر.

(٥) وافى المكان: وصل إليه.

يا عاذلي فيه قل لي إذا بدا كيف أسلو
يمرّ بي كل وقت وكلما مر يحلو
ومن لطائف اتفاقه ونكته الغريبة قوله في نجم الدين بن إسرائيل، وقد هويّ مليحاً يلقب
بالجارج:

قلبك اليوم طائر عنك أم في الجوانح
كيف ترجّي خلاصه وهو في كف جارج
وكتب إليه وقد بلغه أنه سلا عن معشوقه المذكور:

خلصت طائر قلبك العاني ترى من جارج يغدو به ويروح^(١)
ولقد يسر خلاصه إن كنت قد خلصته منه وفيه روح
ومن مخترعاته الغريبة قوله في الخمرة:

أبدى الحجاب لها خطأ فأحسن ما قد كان حرر من ميم ومن هاء^(٢)
قديمة ذاتها في روض جنتها كانت وكان لها عرش على الماء

ومن هنا أخذ الصاحب فخر الدين بن مكاسف فقال من قصيدة السرحة:

فاستمهدت دوحها المخضبل وافترشت نجم الربا ورقت عرشاً على الماء^(٣)
ولكن لم يساعده في لفظة العرش اشتراك تورية بالنسبة إلى الشيخ بدر الدين فإن
نسبة العروش إلى الكرم معروفة. ومنه قوله في مليح نجار:

بروحي نجار حكى الغصن قدّه رشيق الثني أحور الطرف وسان^(٤)
يميل على الأعواد قطعاً بما جنت وما سرقت من قدّه وهي أغصان
ومن هنا أخذ جميع الناس وقال من قال:

قد لمت ذا الأهيف النجار وهو على الأشجار يقطع في أغصان خلاف^(٥)
فقال لي عندها ثار تُحدُّ به لأنها سرقت من لين أعطافي^(٦)

(١) العاني: الخاضع الذليل الأسير.

(٢) الحجاب: الفقايع التي تعلق وجه السائل عند صبه.

(٣) استمهدت: اتخذت منه مهدياً.

(٤) حكى: شابه - رشيق الثني: خفيف الحركات - وسان: ذابل الطرف كأنه نعلان.

(٥) الخلاف: شجر الصفصاف.

(٦) تُحدُّ: تعاقب. والحدود قصاصات معلومة فرضها الله تعالى مثل: حد السرقة وحد الزنى..

وممن أحيما ما درس من رسوم التورية القاضي محيي الدين بن قرناص الحموي،
تغمده الله برحمته. فمن نكته اللطيفة قوله:

سقيا له روضاً قدود غصونه
جنت به ورق الحمام صبابة
ومن لطائف قوله:

مبال القضيبي بروضة من سكره
حتى إذا سرق النسيم دراهما
ومثله قوله:

مذ أتينا نبغي زيارة دوح
ناولتنا أيدي الغصون ثماراً
ومثله قوله، وتلطف ما شاء في جمعه بين الاستعارة البديعة والتورية:

قد أتينا الرياض حين تجلت
ورأينا خواتم الزهر لما
ومنه قوله:

ورب نهر له عيون
لما غدا الريق منه عذباً
ومنه قوله:

أيا حسنها روضة قد غدا
أتى الماء فيها على رأسه
ومنه قوله:

تثنى الغصن إعراضاً وعجباً
فرق له النسيم وجاء يسعى
على نهر يذوب أسى عليه
ملاطفة وميِّله إليه

(١) الأبراد: جمع برد وهو الثوب الموشى.

(٢) العقار: الخمرة سميت به من المعاقرة.

(٣) الأفنان: جمع فنن وهو الغصن.

ومنه قوله وتلطف ما شاء:

يضاحك زهره شمس النهار
صبيح الوجه مخضر العذاب

ويوم قد قطعناه بروض
فكأن نهارنا طلق المحيا

ومنه قوله:

حمل من أجلك ما لا يطيق
وأعين الأزهار نحو الطريق^(١)

أنعم فإن الدوح يا مالكي
يرقبك الطير على وكره

وهذا المعنى أخذه صاحب فخر الدين بن مكاسم وزناً وقافية فقال:

فلا يخلي عينه للطريق

والترجس الغض غدا شاخصاً

ومنه قوله، وتلطف ما شاء:

في روضة أطيّارها تترنم
عنا وثغر أقاحها يتبسم

لو كنت إذ نادمت من أحببته
لرأيت نرجسها يفض جفونه

ومنه قوله في معذر:

وأشبه الأس ذاك العارض النضر
ناراً وجرّ عليها ذيله الخضر^(٢)

ووجنة قد غدت كالورد حمرتها
كأن موسى كليم الله أقبسها

وهذا المعنى استعمله بعضهم في شجرة نارنج^(٣) فقال ولكن لم أعلم المخترع من هو:

زبرجد ونضار صاغه المطر^(٤)
ناراً وجرّ عليها ذيلة الخضر

نارنجة برزت في منظر عجب
كأن موسى كليم الله أقبسها

ومنه قوله:

يطيب به الندامي والمدام
حمائمه ويسقيه الغمام

ورروض قد أتت فيه معان
يسامره النسيم إذا تغنت

(١) الوكر: للظير كالبيت للإنسان.

(٢) أقبس النار: أضرمها بقبس.

(٣) النارنج: شجر مثمر يصنع من زهره ماء الزهر. ومن قشرة الثمرة دواء أو مربيات.

(٤) الزبرجد: أحجار كريمه متنوعة، أشهرها الأخضر.

ومنه قوله :

وغناء الورق فيها بارتفاع^(١)
فهي ما بين شراب وسماع

روضه من قرقف أنهارها
لا تلم أغصانها إن رقصت

ومن لطائفه في أغزاله قوله :

قلبي بهجرانه جريح
وإنما شكله مليح

هويت في مكتب غلاماً
أهيف أضحي قبيح خط

ومنه قوله في مليح مؤذن :

لكنه بالوصل أي شحيح
من بعد ذاك أعيش بالتسيح

ومؤذن أضحي كريماً وجهه
أبدأ أموت بهجره لكنني

ومنه قوله :

وهصرت لين قوامه المياس^(٢)
يشفي قواي فجاءني بالأس (ي)

قبلت خط عذاره لما بدا
وطلبت لي من خده المحمر ما

وهذه النكتة توارد هو وشمس الدين محمد بن العفيف عليها فقال :

كم أذكره وهو لعهدي ناسي
يشكو دنف سقامه للآسي (س)^(٣)

من يعطف نحوي قلب هذا القاسي
أشكو سقمي لعارضيه وكذا

وتطفل عليها بعدهما الشيخ صلاح الدين الصفدي فقال :

كالسيف في صحة القياس
فصح أن الطيب آسي

كم جرح القلب منه جفن
وطب آس العذار جرحي

وابتذل المتأخرون بعدهم حجابها، ونظمتها أنا ولكن زدتها نكتة أخرى من جنسها
فترشحت وازدادت حسناً، وهي قولي :

ألق للضعف وللكسر انجبارا
درت داري مرض القلب فداري

مذ جفاني ممرض القلب ولم
قلت للعارض يا آسي إذا

(١) القرقف: الخمرة - الورق: الحمام.

(٢) هصر: حذب وعطف به نحوه - المياس: المتمائل.

(٣) دنف السقام: شدتها حتى يبدو السقيم وكأنه سكران.

ومن لطائفه في أغزاله قوله:

إن الذين ترحلوا نزلوا بعين ناظره
أنزلتهم في مقلتي فإذا هم بالساهره

وهذه النكتة أيضاً ابنذل المتأخرون حجابها كثيراً. ومن ظرافات شمس الدين محمد
ابن العفيف المشهور بالشاب الظريف قوله:

إذا حاولت حل البند قالت معاطفه حمانا لا يحل
وإن جليت بوجنته مدام يرى لعداره دور ونزل^(١)

وسبك أيضاً، تورية الدور في قالب آخر، وجاء في غاية اللطف والغرابة بقوله:

لحاظك أسياف ذكور فما لها كما زعموا مثل الأرامل تغزل
وما بال برهان العذار مسلماً ويلزمه دور وفيه تسلسل

ومنه قوله فيما يكتب على كاس وأجاد:

أدور لتقبيل الشايبا ولم أزل أجود بنفسي للندامي وأنفاسي
وأكسو أكف الشرب ثوباً مذهباً فمن أجل هذا لقبوني بالكاس (ي)

ومن هنا أخذ الشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة وقال مضمناً:

يا صاح قد حضر الشراب ومنيتي وحظيت بعد الهجر بالإيناس
وكسا العذار الخد حسناً فاسقني واجعل حديثك كله في الكاس (ي)

ويعجبني قوله وقد أهدى مجموعاً:

يا أيها الصدر الذي وجه العلا منه يزان بمنظر مطبوع
لا تعتقد قلبي يحبك وحده ها قد بعثت لسيدي مجموعي

ونكتة المجموع استعملها الشيخ جمال الدين وغيره. ومن نكته البديعة التي لم يسبق إليها
قوله:

كان ما كان وزالا فاطرح قيلاً وقالا
أيها المعرض عنا حسبك الله تعالى

(١) نزل: مساكن، ونزول نحو الأسفل - ودور - دوائر، ومنازل.

وهذه أخذها صاحبنا المرحوم مجد الدين بن مكناس بنصها، فقال من قصيدة:

يا غصناً في الرياض مالا
يا رائحاً بعد ما سباني
حملتني في هواك مالا
حسبك رب السما تعالى
ومن لطائفه في مליح رسام قوله:

قلت لرسامكم
قال متى أذيبه
بك الفؤاد مغرم
فقلت حين ترسم
ومن لطائفه واختراعاته قوله:

قامت حروب الزهر ما
وأنت بأجمعها لتغزو
بين الرياض السندسية
روضة الورد الجنية^(١)
د شوكته قويه
لكنها انكسرت لأن الور
ومن لطائفه أيضاً قوله:

يا ساكناً قلبي المعنى
لأي معنى كسرت قلبي
وليس فيه سواك ثاني
وما التقى فيه ساكنان^(٢)
ومن لطائفه أيضاً قوله:

إني لأشكو في الهوى
ما كان يدري ما الجفا
ما راح يفعل خده
لكن تفتح ورده
ومن هنا أخذ الشيخ صلاح الدين الصفدي، فقال، ولكن زاده نكتة:

أقول له ما كان خدك هكذا
فمن أين هذا الحسن والظرف قال
ولا الصدغ حتى سال في الشفق الدجا
لي تفتح وردتي والعدار تخرجا^(٣)
ومن نكته البديعة قوله:

قد تعشقت خلافي
كلما جادلني العا
ولي فيه معاني
ذل فيه ولحاني
بدليل الدوران
جئته من عارضيه

(١) الجنية: الناضجة.

(٢) ساكنان: المقيمان - وفي اللغة حرفان مسكنان بسكون.

(٣) تخرجا: صار كالخرج وهو نوع من الوشي يوضع في طرف الثوب. ويقصد أنه تخلله الشيب.

ومن اختراعاته اللطيفة قوله في مליح خيالي :

ولست أراه يرغب في وصالي
فما لي صرت أفزع من خيالي

خياليّ أخاف الهجر منه
وكنت عهدتني قدماً شجاعاً

وقال في زهر اللوز:

وأقبل في حسن يجمل عن الوصف
فإن غصون الزهر تصلح للقصف^(١)

تبسم ثغر اللوز عن طيب نشره
هلموا إليه بين قصف ولذة

ومثله قوله :

على قده أغصان بان النقا تشني
ألا فانظروا هذي الحلاوة في الصحن^(٢)

تمشي بصحن الجامع الشادن الذي
فقلت وقد لاحت عليه حلاوة

وقال :

ونبه الوجد والجوى لي
شوقاً إلى وجهك الهلالي

يا ذا الذي نام عن غرامي
جفني جرى طيه دموع

ومن اختراعاته الغريبة قوله :

وأظنكم بدليله لم تشعروا
بدماء أرباب القلوب مضفر^(٣)

عبتم على المحبوب حمرة شعره
لا تنكروا ما احمر منه فإنه

وقال في مليح زجاج :

له محيا بالسنا يسفر
وكان معروفك لا ينكر
في صحة من حسنها تكسر

قولوا لزجاجكم ذا الذي
إن كنت في الصنعة ذا خبرة
فما لأحداك أقداحها

وقال أيضاً :

ما كنت يوماً آمناً من هجرها
من أدمعي ودقيقها من خصرها

كلف الفؤاد بظبية عجانة
عجنت فؤادي بالغرام فماؤها

(١) القصف: اللهو واللعب والافتتان في الطعام والشراب.

(٢) صحن الدار: ساحتها.

(٣) مضفر: صبغت صفائر شعره.

وهذا المعنى تلاعب به الجماعة بعد ابن العفيف، ولكن ما برح دقيقة خاصاً. وقال في ذم الحشيش وأجاد:

ما للحشيشة فضل عند آكلها
صفراء في وجهه خضراء في فمه
لكنه غير مصروف إلى رشده
حمراء في عينه سوداء في جسده
وقال في مליح أصيبت عينه:

كان بعينين فلما طغى
وذاك من لطف بعشاقه
بسحره ردّاً إلى عين
ما يضرب الله بسيفين
وتورية السيف تناولها الجماعة بعد ابن العفيف، ولولا خشية الإطالة لذكرت غالبها، وقال في مليح بدوي:

بدوي كم جدلت مقلته
ذو محيا يصيح يا لهلال
عاشقاً في مقاتل الفرسان^(١)
ولحاظ تقول يا لسان^(٢)
وقال في مليح جرح بسكين:

لم تجرح السكين كف معذبي
هي مثل ما قد قيل جارحة له
إلا لمعنى في الغرام يحقق
ولكل جارحة إليه تشوق^(٣)
وقال في مليح مؤذن بالجامع الأموي:

فديت مؤذناً تصبو إليه
يطير النسر من شوق إليه
بجامع جلق منا النفوس
وتهوى أن تعانقه العروس
هذان البيتان توارد على نكتهما شمس الدين بن العفيف والشيخ جمال الدين بن نباتة، ورأيتهما في ديوانه، والبيت الأول بنصه والبيت الثاني فيه بعض تغيير وهو:

لقد زف الزمان لنا مليحاً
تكدأ بأن تعانقه العروس
وقال في مليح منير:

منير وجدي به
وكيف تخفى لوعتي
أكتمه ويظهر
وقد غدا ينير

(١) جعّوجندل: الفارس رماه أرضاً وقتله.

(٢) هلال وسان: بالإضافة إلى معنيهما المتداولين فهما إسما قبيلتين.

(٣) الجارحة: العضو العامل من أعضاء الجسد.

وقال أيضاً يصف ساطاً:

بساط يملأ الأحداق حسناً
ويشرح حين ييسط كل صدر
ويهدي للقلوب به سرورا
وخير البسط ما يرضي الصدورا

وقال [من] دو بيت:

الصب بحبكم عراه الوله
إيضاح غرامه غدا تكلمة
في طوع هواكم عصى عدله^(١)
إذ كان مفصل الهوى مجمله^(٢)

وقال أيضاً:

أفدي عرباً بوادي الجزع
لما بحثوا عندي في فرقتنا
يا وحشة ناظري لهم في الربع
أنشأت لهم مسائلأ من دمعي

ومنه قوله:

يقول وقد رنا عن لحظ ظبي
أأقتلكم بطرفي أم بعطفي
وهز الغصن في ورق الغلائل
فقلت بما تشا فالكل ذابل^(٣)

وهذه النكتة أخذها الشيخ جمال الدين بقافيتها وقال:

له معطف لدن القوام ومرشف
رقيق على التقبيل فالكل ذابل

وقال الشيخ صلاح الدين الصفدي، في كتابه الذي جمعه من إملاء الشيخ أثير الدين أبي حيان، وسماه «مجانبي الهصر من أدب أهل العصر»: أنشدني الشيخ أثير الدين، قال: أنشدني شمس الدين محمد بن العفيف في مליح طباخ:

رب طباخ مليح
مالكي أصبح لكن
فاتر الطرف غرير^(٤)
شغلوه بالقدور^(٥)

قال أنشيخ صلاح الدين: وأنشدني الشيخ أثير الدين، قال: أنشدني شمس الدين محمد ابن العفيف لنفسه:

(١) الولة: ذهاب العقل لشدة الحزن.

(٢) المفصل والمجمل: من آيات القرآن الكريم واضحة وغامضة.

(٣) العطف: الجانب.

(٤) الغرير: المغرور والذي لا تجربة له.

(٥) مالكي نسبة إلى الإمام مالك - القدور: الجبر، نظرية بعض الفرق الإسلامية التي لا تؤمن بالاختيار.

ليس خليلاً لي ولكنه
يا ردفه جرت على خصره
يضمرم في الأحشاء نار الخليل^(١)
رفقاً به ما أنتم إلا ثقيل^(٢)

وهذه النكتة تلاعب بها غالب المتأخرين بعد ابن العفيف. ومن لطائفه قوله وقد احتجب بعض أصحابه عنه:

ولقد أتيت إلى جنابك قاضياً
وأتيت أقصد زورة أحيا بها
باللثم للعتبات بعض الواجب
فرددت يا عيني هناك بحاجب^(٣).

هذه النكتة أخذها الشيخ جمال الدين بن نباتة غفر الله له بقافيتها فقال:

حجبتني فازددت عندي عسلاً
وقلت لا أعدم من سيدي
برغم من أقبل كالعائب
من كان عيني فغدا حاجبي

وألم الشيخ زين الدين بن الوردي بهذه النكتة، ولكن سبكها في غير هذا القالب بقوله:

زرتكم صحبة وودا
سعيي إلى بابكم جنون
ألفيتكم مغلقين بابا
عليه أستأهل الحجابا

ومن لطائفه في أغزاله قوله:

وكم يدعي صوناً وهذي جفونه
وكم يتجافى خصره وهو ناحل
بفترتها للعاشقين يواعد
وكم يتحالي ريقه وهو بارد

ومن هنا أخذ الشيخ صفي الدين الحلبي وليته ما قال:

وما فيه شيء ناقص غير خصره
وما فيه شيء بارد غير ريقه

ومنه قوله:

أيسعدني يا طلعة البدر طالع
ولو أن قسا واصف منك وجنة
ومن شقوتي خط بخدك نازل
لأعجزه نبت بها وهو باقل^(٤)

(١) الخليل: الصديق الملازم وإبراهيم خليل الرحمن ﷺ.

(٢) الردف: العجز والمؤخرة.

(٣) الزورة: الزيارة - الحاجب: ما يعلو العين من الشعر والخادم الذي يحجب الحاكم عن الناس.

(٤) باقل: مثمر قرونا تشبه الباقلاء، وباقل الذي يضرب المثل به في العي وقس: هو ابن ساعدة الإيادي، خطيب مفوه.

الذي يظهر لي أن النكتة في باقل من اختراعات ابن العفيف، فإني لم أجد أحداً ممن تقدّمه ألمّ بها، ولكن ما صبر الشيخ جمال الدين عنها لحسنها فقال من قصيدة ضمناً:

تطاوت الأغصان تحكي قوامه وعند التناهي يقصر المتطاول
وأعيا فصيح الوقت نبت عذاره وعير قسا بالفهاة باقل^(١)

وكذلك الشيخ زين الدين بن الوردى، ما صبر عنها حتى قال:

وبي أغيد من حسنه البدر خائف على نفسه والنجم في الغرب مائل
فلو رام قس وصف باقل خدّه لعير قساً بالفهاة باقل

ومن لطائف قوله:

يا خاله خضرة بعارضه حرستها عن متيم مغرى
كف عن العاشقين مقتصراً هل أنت إلا حويرس الخضرا^(٢)

ومن نكته اللطيفة قوله:

زار وجيب الظلام منسدل فانشق ثوب الدجى عن الفجر
وبت من صدغه ومبسمه أجمع بين الحشيش والخمر

هذه النكتة أخذها الشيخ زين الدين بمعناها وقال:

ومليح قال جهراً يا نفوس الناس عيشي
من رضابي وعذارى بين خمر وحشيش

ومن لطائف نكت ابن العفيف قوله:

وأتى بوجه كالهلال مركب من قامة غصنية هيفاء
وبمقلة خفق الفؤاد وقد رنت وكذا الجنون يكون عن سوداء^(٣)

(١) الفهاة: العي.

(٢) حويرس: تصغير حارس، للتحقير.

(٣) رنا: نظر بعطف - السوداء: مرض عصبي يصيب الإنسان نتيجة خلل في إفراز أحد الأخطاط الأربعة التي بها قيام الجسم وهي: الصفراء، الدم، البلغم والسوداء.

ومن لطائف اختراعاته قوله:

بدا وجهه من فوق أسمر قد
فقلت عجيب كيف لم يذهب الدجى
وقد لاح من سود الذوائب في جنح
وقد طلعت شمس النهار على رمح

ومنه قوله والنكتة غريبة وبديعة:

أسكرني باللفظ والمقلة الكحلء والوجنة والكاس
ساقٍ يريني قلبه قسوة وكل ساق قلبه قاس (ي)

ومن لطائفه أيضاً قوله:

يا باعثاً شعره انتشاراً
الموت من ناظريك لكن
بقامة ما لها نظير
من شعرك البعث والنشور^(١)

ومن لطائفه قوله في مليح اسمه مالك:

مالك قد أحل قتلي برمح الـ
ليس يفتي سواه في قتل صب
قد منه وراح قلبي طعينه
كيف يفتي ومالك بالمدينة^(٢)

ومنه قوله مع حسن التضمين:

جلا ثغراً وأطلع لي ثنايا
وأنشد ثغره يبغي افتخاراً
يسوق بها المحب إلى المنايا
أنا ابن جلا وطلاع الثنايا^(٣)

ومن لطائفه قوله:

بأبي شادن غدا الوجه منه
سلب القضب لينها فهي غيظي
يخجل النيرين في الإشراق^(٤)
واقفات تشكوه بالأوراق

(١) البعث: إعادة الإحياء - النشور: القيام من الموت.

(٢) كيف . يفتي ومالك في المدينة: أي لا يفتي ومالك في المدينة ومالك هو الإمام مالك بن أنس صاحب المذهب المالكي.

(٣) أنا ابن جلا: واضح النسب، وطلاع؛ صيغة مبالغة من طلع والثنايا: الطرق الجبلية، وطلاع الثنايا: الذي يتحمل الصعاب. وهذا القول هو للحجاج بن يوسف الثقفي من خطبة في أهل العراق يوم تولى أمره.

(٤) النيرين: الشمس والقمر.

البيت الثاني بلفظه، ومعناه تقدم لابن عبد الظاهر، والله أعلم أيهما السابق. وابتدل حجاب هذه النكتة بعد ذلك المتأخرون، منهم الشيخ زين الدين بن الوردي بقوله:

قدّه جار اعتدالا فله فتك ونسك
سلب الأغصان لينا فهي بالأوراق تشكو

ومن نكته البديعة الغريبة قوله:

ومستتر من سنا وجهه بشمس لها ذلك الصدغ في
كوى القلب مني بلام العذار فعرفني أنها لام كي^(٥)

ومن لطائفه قوله:

كأنني واللواحي في محبته في يوم صفين قد قمنا بصفين
وكيف يطلب صلحاً أو موافقة ولحظه بيننا يسعى بسفين

ومن نكته التي تطفل الناس بعده عليها قوله:

بأبي أفدي حبيباً تيم القلب غراما
عذر العاذل فيه مذ رأى العارض لاما

وقال:

لو لم تكن ابنة العنقود في فمه ما كان في خدّه القاني أبو لهب^(٦)
تبت يدا عاذلي فيه فوجنته حمالة الورد لا حمالة الحطب^(٧)

أخذه ابن نباتة وقال:

حمالة الحلّى والديباج قامته تبت غصون النقا حمالة الحطب

قلت ورد ابن العفيف أغلى من ديباج ابن نباتة، من حيث المناسبة الأدبية، والله أعلم. وهذه النكتة أيضاً أغار عليها المعمار بقوله:

تعرض البدر يحكي حسن صورته فراح منكسفاً وانشق بالغضب
وبانة الجزع ماست مثل قامته تبت وقد أصبحت حمالة الحطب

(١) لام العذار: أطال سالفه وجعله بشكل حرف اللام، ولام كي في النحو هي التي تنصب الفعل المضارع.

(٢) ابنة العنقود: الخمرة - أبو لهب هو عم النبي محمد الذي خالف دعوته وحاربه.

(٣) تبت: انقطع وخسر - وحمالة الحطب: زوجة أبي لهب.

وممن أحسن المباشرة في نظم التورية سيف الدين بن المشد. فمن نكته البديعة
الغريبة قوله:

مسكية الأنفاس تملي الصبا عنها حديثاً قط لم يملل
جننت لما أن سرى عرفها وما نرى من جن بالمنديل^(١)

ومن لطائفه قوله:

ومجلس راق مر واش يكدره ومن رقيب له باللوم إيلام
ما فيه ساع سوى الساقى وليس به على الندامى سوى الريحان نمام

هذه النكته تقدمت للبدر بن لؤلؤ الذهبي، وذكرت من أغار عليها من الجماعة،
ولكن الأمير سيف الدين زادها نكته أخرى بديعة، واستعملها أحسن من الجماعة، ومن
لطائفه قوله:

وشادن أورد في هجره لهيب حر الشوق والفرقه
أصبحت حران إلى ريقه فليت لي من قلبه رقه^(٢)

هذه النكته نظمتها في مبادي العمر، ولم أفق على قول ابن المشد، إلا بالديار
المصرية في الأيام المؤيدية فقلت:

أرشفني ريقه وعانقني وخصره يلتوي من الدقة
فبت من خصره وريقته أهيم بين الفرات والرقه

ومن لطائفه قوله:

في يوم غيم من لذاذة جوّه غنى الحمام وطابت الأنداء
والروض بين تكبر وتواضع شمخ القضيب به وخر الماء

ومن لطائفه أيضاً قوله:

أذن القمري فيها عند تهويم النجوم^(٣)
فانثنى الغصن يصلي بتحيات النسيم

(١) العرف: الرائحة الطيبة، الشذا.

(٢) حران: ظمان.

(٣) القمري: حمام مطوق حسن الصوت - التهويم: النوم الخفيف، وتهويم النجوم إختفاؤها.

ومن لطائفه قوله :

لئن صرفت وحاشا لك فالدنانير تصرف
وما اعتقلت كريماً إلا وأنت مثقف

ومن لطائفه قوله :

الحمد لله في حلي ومرتحلي على الذي نلت من علمي ومن عملي
بالأمس كنت إلى الديوان منتسباً واليوم أصبحت والديوان ينسب لي

ومن لطائفه قوله :

لعبت بالشطرنج مع شادن رشاقة الأغصان من قدّه^(١)
أحل عقد البند من خصره وألثم الشامات من خدّه

تورية الشامات رخصها المتأخرون بعد سيف الدين بن المشد . وممن أخذها الشيخ جمال الدين بن نباتة فقال :

أفديه لآعب شطرنج قد اجتمعت في شكله من معاني الحسن أشتات^(٢)
عيناه منصوبة للقلب غالبه والخذ فيه لقتل النفس شامات

انتهى ما تخيرته ووعدت بإيراده في باب التورية . من كلام هذه العصابة ، التي مشت تحت العصابات الفاضلية ، وصار لها من بعده في نظم التورية أعظم روية ، وقدمت إمامهم الذي صلت الجماعة خلفه ، وهو القاضي الفاضل وبعده القاضي السعيد ابن سنا الملك ، والشيخ سراج الدين الوراق ، وأبو الحسين الجزار ، ونصير الدين الحمامي ، وناصر الدين حسن بن النقيب ، والحكيم شمس الدين بن دانيال ، والقاضي محيي الدين ابن عبد الظاهر ، وهذه [هي] الفرقة التي تقدمت بعد الفاضل بالديار المصرية . وأما الفرقة الشامية فإمام جماعتها الشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصاري ، شيخ شيوخ حماة ، وبعده مجير الدين بن تميم ، وبدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي ، ومحيي الدين بن قرناص الحموي ، وشمس الدين بن العفيف ، وسيف الدين بن المشد .

ولكن عجبت من الشيخ صلاح الدين الصفدي كيف أدخل في كتابه المسمى «بفض الختام عن التورية والاستخدام» بذكر الشيخ علاء الدين علي بن المظفر الكندي الشهير بالوداعي ، وهو أشهر من قفا نيك ، في نظم التورية ، بل هو امرؤ قيسها وكنديها ، وإذا

(١) الشادن : الغزال .

(٢) أشتات : متفرقات .

ذكر شرف نسبها فإنه علويها، وانتقل من حلب إلى دمشق المحروسة، وعاصر الجماعة المذكورين، ومولده سنة أربعين وستمائة، ووفاته سنة ست عشرة وسبعمائة، فكانت مدة حياته ستاً وسبعين سنة. ومولد السراج الوراق سنة خمس عشرة وستمائة، ووفاته سنة خمس وتسعين وستمائة، فكانت مدة حياته ثمانين سنة. ومولد أبي الحسين الجزار سنة إحدى وستمائة، ووفاته سنة اثنتين وسبعين وستمائة، فمدة حياته إحدى وسبعون سنة. ووفاة نصير الدين الحمامي لسنة اثني عشرة وسبعمائة. ووفاة ناصر الدين بن النقيب سنة سبع وثمانين وستمائة. ووفاة الحكيم بن دانيال سنة عشرة وسبعمائة. ومولد محيي الدين ابن عبد الظاهر سنة عشرين وستمائة، ووفاته سنة اثنتين وتسعين وستمائة، فمدة حياته اثنتان وسبعون سنة. ومولد شيخ الشيوخ الأنصاري سنة ست وثمانين وخمسمائة، ووفاته سنة إحدى وستين وستمائة، فمدة حياته خمس وسبعون سنة. ووفاة مجير الدين بن تميم سنة إحدى وثمانين وستمائة. ووفاة بدر الدين يوسف الذهبي سنة ثمانين وستمائة. ومولد شمس الدين بن العفيف سنة اثنتين وستين وستمائة، ووفاته سنة سبع وثمانين وستمائة، فمدة حياته خمس وعشرون سنة. ومولد سيف الدين بن المشد سنة اثنتين وستمائة، ووفاته سنة خمس وخمسين وستمائة. فمدة حياته ثلاث وخمسون سنة. وجل القصد من ذلك، تحقيق الواقف على هذا الشرح، إن علاء الدين الوداعي عاصر الجماعة أو غالبهم، وقد تقدم قولي في باب التوجيه، إن الشيخ علاء الدين الوداعي سبك التورية في قوالب لم يسبقه أحد من هذه الجماعة إليها، ولا سقط فكره عليها.

ومع علو قدر الشيخ جمال الدين بن نباتة، وهو الذي مشت ملوك الأدب قاطبة، بعد الفاضل، تحت أعلامه، تطفل على موائد نكت الوداعي ومعانيه، وعلى الأنواع الغريبة من تواريه. وأوردت هناك من هذا القدر نبذة، ولكن تعين إيرادها هنا كاملة لأنها حق من حقوق التورية، وصل في تقدمه إلى غير مستحقه بحيث أن الطالب، إذا أراد أن يفرد هذا النوع، أعني التورية، كان بإفراده فريداً، وعقداً نضيداً. وكلما أوردته من أنواع التورية في غير باب، عزمت على نظم شمله هنا ليجتمع كل غريب بأقاربه وأنسابه، وقد عن لي أنني إذا فرغت من هذا الشرح أن أفرد باباً للتورية والاستخدام، وأجعلهما مصنفاً مفرداً، وأسميه: كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام، فإن الشيخ صلاح الدين الصفدي، في كتابه، لم يشف القلوب بترتيبه، ولا تفقه في بديعه وغريبه.

فمن موائد الوداعي التي تطفل الشيخ جمال الدين بن نباتة عليها قوله من قصيدة:

أثخنت عينها الجراح ولا إثم عليها لأنها نعساء
 زاد في عشقها جنوني فقالوا ما بهذا فقلت بي سوداء

أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة، فقال من مطلع قصيدة:

قام يرنو بمقلة كحلاء علمتني الجنون بالسوداء

والشيخ جمال الدين بن نباتة أدرك الوداعي وهو في عنفوان شبابه، ولمعان سيوف آدابه، وقد تقدم مولد الوداعي ووفاته، ومولد الشيخ جمال الدين سنة ست وثمانين وستمائة، وتوفي سنة ثمان وستين وسبعمائة، فمدّة حياته اثنتان وثمانون سنة. وعلى هذا كان سن الشيخ جمال الدين ابن نباتة عند وفاة الوداعي ثلاثين سنة والله أعلم. ومما نعطف به على ما تقدم قول الوداعي:

إذا رأيت عارضاً مسلسلاً في وجنة كجنة يا عاذلي^(١)
فاعلم يقيناً أنني من أمة تقاد للجنة بالسلاسل

أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة، وزناً وقافية، وقال:

أفدي الذي ساق إليها مهجتي فرع طويل تحت حسن طائل
قلبي بصدغيها إلى طلعتها يقاد للجنة بالسلاسل

ومن ذلك قول الشيخ علاء الدين الوداعي:

لقد سمح الزمان لنا بيوم غدا فيه السمي مع السمي^(٢)
تجمعنا كأننا ضرب خيط عليّ في عليّ في عليّ

أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة، أيضاً وزناً وقافية، وقال:

علوت اسماً ومقداراً ومعنى فيا لله من حسن جليّ
كأنكم الثلاثة ضرب خيط عليّ في عليّ في عليّ

قال الشيخ علاء الدين الوداعي:

من آخذ من خده بدم الشهيد المغرم فالريح ريح المسك منه
ولونه لون الدم

أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة وقال:

لا ينكر الكاسر من جفنه دم الشهيد الصابر المغرم
فالريح ريح المسك من خده كما ترى واللون لون الدم

(١) العارض: المطر في غير أوانه - المسلسل: الدائم الهطول.

(٢) السمي: الذي يسمى بالإسم نفسه.

قال الشيخ علاء الدين الوداعي من قصيدة:

يفتن بالفاتر من طرفه وريقه البارد يا حار

أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة وقال من قصيدة:

لو ذقت برد رضاب من مقبله يا حار ما لمت أعضائي التي ثملت^(١)

مع أن الشيخ جمال الدين فتر عن الفاتر.

وقال الشيخ علاء الدين الوداعي:

قيل إن شئت أن تكون غنياً فتزوّج وكن من المحصنين^(٢)

قلت ما يقطع الإله بحُرٍ لم يضع بين أظهر المسلمينا

أخذه الشيخ جمال الدين بالقافية، وقال:

قال لي خلي تزوّج تسترح من أذى الفقر وتستغني يقينا

قلت دع نصحك واعلم أنني لم أضع بين ظهور المسلمينا

قلت إن قافية محصنين أصدق من يقين ابن نباتة في مقطوعه.

قال الشيخ علاء الدين الوداعي مضمناً:

يا عاذلي في النكاريش أطرح عذلي واعذر فعذري فيهم واضح حسن^(٣)

فالمرد إن حاولوا حربي بهجرهم إذا لقام بنصري معشر خشن^(٤)

أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة فقال:

لو آذنتني عذالي بحربهم إذ في النكاريش قد أصبحت هيما

إذا لقام بنصري معشر خشن عند الحفيظة ان ذو لوثة لانا^(٥)

قال الشيخ علاء الدين الوداعي من قصيدة:

عذب مقبله وحلو لحظه أو ما تراه بالنعاس معسلا^(٦)

(١) المقبل: مكان التقبيل (الشفاه) - ثمل: سكر.

(٢) المحصنين: المتزوجين.

(٣) النكاريش: جمع نكريش وهو اللواطي، وقد سبق وأشرنا إلى هذه اللفظة (ص ١٣٧).

(٤) المرء: جمع أمرء وهو الذي لا لحية له من الشبان.

(٥) الحفيظة: الغضب أو الحمية - اللوثة: الجنون.

(٦) المعسل: من التعسيل وهو النوم الخفيف، أن ينام وتبقى عيناه مفتوحتين قليلاً.

أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة وقال من قصيدة:

معسل بنعاس في لوحظه أما تراها إلى كلّ القلوب حلت

قال الشيخ علاء الدين الوداعي، من القصيدة المذكورة:

ألحاظه وهي السيوف كليله ويكون تعذيب الكليله أطولاً^(١)

أخذه الشيخ جمال الدين مع القافية وقال من قصيدة:

بليت به ساجي اللحاظ كليلها وما زال تعذيب الكليله أطولاً^(٢)

قال الشيخ علاء الدين الوداعي من قصيدة:

والنهر كالمبرد يجلو الصدا ببرده عن قلب ظمآنه

أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة وقال من قصيدة:

والنهر فيه كمبرد فلأجل ذا يجلو الصدا

لكن، نقص نهره وكل مبرده، عن نكتة ببرده في بيت الوداعي، فإن الشيخ جمال الدين حط مكانها في بيته: فلأجل ذا. وشتان.

قال الشيخ علاء الدين الوداعي في مطلع قصيدة:

ما كنت أول مغرم محروم من باخل بادي النفار كريم^(٣)

أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة وقال من قصيدة:

مبخل يشبه ريم الفلا يا طول شجوي من بخيل كريم

قال الشيخ علاء الدين الوداعي في مליح أعمى:

بروحي غزال راح في الحسن جنة تعشقتة أعمى فهمت من الوجد

إذا ما تردى قائداً بيمينه تيقنت حقاً أنه جنة الخلد

أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة بالقافية، وقال:

أفديه أعمى مغمداً لحظه ليرتعي في خده الوردي

تمكنت عيناي من وجهه فقلت هذي جنة الخلد

(١) الكليله: من السيوف غير القاطعة.

(٢) ساجي اللحاظ: ساكنه ولينه.

(٣) النفار: الهجر وعدم الوصال - كريم الحسب والأصل.

قال الشيخ علاء الدين الوداعي من قصيدة:

بخلت عليّ بدّر مبسمها فغدت مطوقة بما بخلت^(١)

أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة وقال من قصيدة:

بخلت بلؤلؤ ثغرها عن لائم فغدت مطوقة بما بخلت به

هذا المعنى استحقته على الشيخ علاء الدين الوداعي، والشيخ جمال الدين بن

نباتة، فإني زدت الاقتباس من الحديث تورية بقولي:

ناحت مطوقة الرياض وقد جرى دمعي الملوّن بعد فرقة حبه
لكن بتلوين الدموع تباخت فغدت مطوقة بما بخلت به

قال الشيخ علاء الدين الوداعي من قصيدة يصف مليحاً من المغل:

وما يبيري هوى المشتى ق إلا ذلك المغلي^(٢)

قال الشيخ جمال الدين من قصيدة:

من المغل أشكو نحوه ألم الجوى وطب الهوى عندي كما قيل بالمغلي

قال الشيخ علاء الدين الوداعي:

يا نديمي والذي عاهدني أنه عن شربها لن يقصرا
اسقني صرفاً ودع عذالنا يضربون الماء حتى يخصرا^(٣)

أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة وقال:

اسقني صرفاً من الرا ح تحت الهم حتا^(٤)
ودع العذال فيها يضربون الماء حتى

قال الشيخ علاء الدين الوداعي، من مطلع قصيدة:

باللوى صعده عليها لواء كل طعنات نصلها نجلاء^(٥)

(١) المطوقة الحمامة، وفي البيت إشارة إلى قوله تعالى: ﴿سيطوقون ما بخلو يوم القيامة﴾.

(٢) المغلي: نسبة إلى المغل وهم جيل من الناس (المغول). ونوع من الحلوى.

(٣) يخصرا: أي يختصر ويقبل.

(٤) حتّ: أزال.

(٥) اللوى: مكان - الصعده: الطويلة المستقيمة كالرمح - نجلاء: الطعنة الواسعة.

وقال بعد المطلع :

لا تخل عندها سماعاً لشكوى فلماذا قالوا لها صماء^(١)
قال الشيخ جمال الدين بن نباتة في مطلع قصيدة:

وعدت بطيف خيالها أسماء إن كان يمكن مقلتي إغفاء
وقال بعد المطلع :

يا من يطيل من الجوى لقوامها شكواه وهي الصعدة الصماء
قال الشيخ علاء الدين الوداعي :

يا ربوة أطربتني وحسنت لي هتكي
إذ لست أبرح فيها ما بين دف وجنك^(٢)
أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة وقال :

بالجنك من مغنى دمشق حمائم في دف أشجار تشوق بلطفها
فإذا أشار لها الشجي بكأسه غنت عليه بجنكها وبدفها
وتطفل أيضاً الشيخ صلاح الدين الصفدي على الوداعي، في جنكه ودفه، فقال :

انهض إلى الربوة مستمتعاً تجد من اللذات ما يكفي
فالطير قد غنى على عوده في الروض بين الجنك والدف^(٣)

وتطفل على الوداعي أيضاً، الشيخ زين الدين بن الوردي، وتزاحم هو والصفدي على العود:

دمشق قل ما شئت في وصفها واحك عن الربوة ما تحكي
فالطير قد غنى على عوده في الروض بين الدف والجنك

قال الشيخ علاء الدين الوداعي، من قصيدة يصف نار شوقه لمحبوبه مع كتمان سره:
في حشاه للشوق نار تلظى وبفيه حفظاً لسرك ماء^(٤)

(١) تخل: نهي من خال: ظن - الصماء: التي لا تسمع، والقوية.

(٢) الجنك: من آلات الطرب، الطنبور.

(٣) العود: الغصن، وآلة موسيقية.

(٤) بفيه ماء: أي بفيه الماء، فلا يستطيع الكلام.

أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة، بالقافية، وقال من قصيدة ولكن زاده حسناً:
فيا عجباً مني لإنسان مقلتي يحدث أخباري وفي فمه ماء
ومن لطائف الوداعي ونكته، في العود الذي أخذه منه الشيخ صلاح الدين
الصفدي، والشيخ زين الدين بن الوردي واستعملاه بلا أوتار، قوله:

والروض يهدي مع نسيم الصبا نشر خزاماه وريحانه
وراسل القمري ورقاءه شدواً على أوتار عيدانه^(١)

ويعجبني من هذه القصيدة قوله، مشيراً إلى رأس العين بعلبك:

يا حادي الأظعان إن شارفت من بعلبك سفح لبنانه^(٢)
فاقرأ تحياتي على نازل في محجر العين كإنسانه

قال الشيخ علاء الدين الوداعي من قصيدة:

يا جيرة بالغوير قد نزلوا الله من جيرة ونزال
ما عطل الطرف بعد فرقتكم من دمعه واكشفوا عن الحال

أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة وقال:

حلوا بعقد الحسن أجسادهم وحاولوا صبري حتى استحال
فآه من عاطل صبر مضى والحمد لله على كل حال

قال الشيخ علاء الدين الوداعي، وأجاد إلى الغاية:

قالت الورق إذ شدا فشجاها وشوقا
ما رأينا مقرطقاً قبل هذا مطوقاً^(٣)

ومثله في تورية المطوق:

يا جنة كوثرها رضا به المروق
وفوق غصن قده عذاره مطوق

(١) القمري: نوع من الحمام، وكذلك الورقاء. وكما يبدو هو ذكر الورقاء.
(٢) الحادي: الذي يسوق الإبل بواسطة الحداء وهو نوع من الغناء الشجي تحت بواسطته الإبل على السير - الأظعان: المسافرون جمع ظعن ويعني به الإبل.
(٣) المقرطق: لابس القرطق وهو نوع من الثياب الإيرانية المزركشة.

ومثله قوله:

فديت من مبسمه زهراً لغصن قده
وصدغه مطوق في روضة من خده

النكتة في المطوق من اختراعات الوداعي، وتطفل عليها الشيخ جمال الدين بن
نباتة، حتى في تسمية كتابه، ومن نظمه فيها قوله:

طوق جود الوزير جيدي فلست عن مدحه أعوق
أسجع بالمدح في علاه لا غرو أن يسجع المطوق

قال الشيخ علاء الدين الوداعي:

لي من الطرف كاتب يكتب الشو ق إليه إذا الفؤاد أمله
سلسل الدمع في صحيفة خدي هل رأيتم مسلسلات ابن مقله
هذا المعنى قلبه ابن نباتة، بعد الوداعي، كثيراً وسبكه في قوالب كثيرة، وأظنه
أخذه وزناً وقافية بقوله:

قلت للكاتب الذي ما أراه قط إلا ونقط الدمع شكله
إن تخط الدموع في الخد خطأ ما يسمى فقال خط ابن مقله

قال الشيخ علاء الدين الوداعي من قصيدة:

قلبي مطبع في هواك وأنت لي من بين دوح الحسن غصن خلاف^(١)

أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة، وقال في مطلع قصيدة:

قاسي الجوانح لين الأعطاف أهواه في الحالين غصن خلاف

قال الشيخ علاء الدين الوداعي من قصيدة:

كيف أقوى لحمل سخط وبعد بعدما كان من رضا وتداني
فتكرم بعطفة والتفات مثل ما في الأغصان والغزلان

أخذه الشيخ جمال الدين، فقال من قصيدة:

غزال رمل ولكن غير ملتفت وغصن بان ولكن غير منعطف

(١) الخلاف: شجر الصفصاف.

ومن لطائف الشيخ علاء الدين الوداعي ونكته الغريبة قوله:

قال لي العاذل المفند فيها يوم وافت فسلمت مختاله^(١)
قم بنا ندعي النبوة في العشق فقد سلمت علينا الغزاله

أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة فقال:

يا غزلاً أهدى السلام إلى المغمـرم لا تنكرن حالاً لديه
كيف لا يدعي النبوة في العشق وقد سلم الغزال عليه

وأخذه الشيخ صفى الدين الحلبي، فقال في ثلاثة أبيات تركيبها ضعيف:

تنبأ فيك قلبي واسترابت قلوب صدهم عنه ضلال^(٢)
وردهم الهوى أن يؤمنوا بي وقالوا إن معجزه محال
فمذ سلمت سلمت البرايا إليّ وقيل كلمه الغزال

ومن لطائف الشيخ علاء الدين الوداعي أيضاً ونكته الغريبة، قوله على لسان صديق اسمه عمرو قد هام بمليح في إحدى أذنيه لؤلؤة:

كم قلت لما مرّ بي مقرطق يحكي القمر
هذا أبو لؤلؤة منه خذوا ثأر عمر^(٣)

ومن لطائفه أيضاً في مليح اسمه سعد:

إذا ما كان قتلي يا حياتي مرادك من يردك أو يصد
ففوق سهم طرفك نحو قلبي فذاك أبي وأمي وارم سعد

ومن لطائفه أيضاً في مليح بدوي:

أقبل من حيه وحيها فأشرقت سائر النواحي
فقلت يا وجه من بني من فقال لي من بني صباح

(١) العاذل: اللاتم - المفند: الضعيف الرأي - مختاله: متبختره في مشيها، متكبرة.

(٢) استراب: شك.

(٣) أبو لؤلؤة: غلام فارسي طعن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، فكانت الطعنه سبباً لوفاته

ومن نكته البديعة الغريبة قوله :

تعجبوا لما غدت أدمعي
لا تعجبوا طرفي ربُّ الهوى

بيضا وراحت كالدم القاني
فكل يوم هو في شأن^(١)

ومن نكته البديعة الغريبة أيضاً قوله :

وليلة خلت مجلسنا سماء
فبات الطرف يرعى البدر منهم

وصحبي كالثريا في اجتماع
إلى أن حل منزلة الذراع^(٢)

ومن نكته البديعة الغريبة أيضاً قوله من دو بيت :

يا غصن نقا أينع بالأزهار
ريحان عذارك الذي تيمني

يا ألطف من نُسَيْمة الأسحار
من ولده من قلم الأشعار

ومن لطائفه قوله من دو بيت أيضاً :

لما حجب الكرى عن الأماق
ناديت وقد تزايدت أشواقي

وانقاد مع العدى على العشاق^(٣)
يا غصن رضيت منك بالأوراق

ومن لطائفه الغريبة قوله فيمن يبيع السكر بالدين :

أرى من الواجب أن يصرف العطار بالصد وبالزجر^(٤)
فأي تصريف وذوق لمن يدين السكر بالصبر^(٥)

ومن نكته الغريبة أيضاً من قصيدة :

يا طالباً للكيمياء ولم
زر لائماً عتبات ساحته

يحصل على عين ولا أثر^(٦)
تظفر إذا بمكرم الحجر

وهذا ألمعنى تطفل عليه الشيخ جمال الدين بن نباتة، وكثير من الناس، بعد الوداعي .

(١) هذا تضمن لقوله تعالى: ﴿يسئله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن﴾ الرحمن،

٢٩/٥٥ .

(٢) منزلة الذراع: من منازل القمر، وهو نجم على شكل الذراع.

(٣) الأماق: جمع مؤق وهو مكان خروج الدمع من العين.

(٤) العطار: في الأصل بائع العطر وتطلق على البائع إطلاقاً.

(٥) الصبر: يقصد أنه مرّ المذاق.

(٦) العين: معظم الجسم - الأثر: ما يدل على وجود جسم.

ومن لطائفه قوله:

يا عز والله العزيز الذي
له خطرت من نحوكم نسمة
ولا سرت منا إلى أرضكم
قضى على نفسي بإذلالها
إلا تعرضت لتسألها^(١)
إلا تمسكت بأذيالها

ومن لطائف مجونه قوله:

لنا شاعر قد هذب الطبع شعره
إذا خمس الناس القصيد لحسنه
وأصبح عاصيه على فيه طيعا
يحق لشعر قاله أن يسبعا^(٢)

ومن نكته البديعة الغريبة، قوله مع حسن التضمين:

وشادن مثل الضحى وجهه
حتى بدا ليل عذار له
كتمت عشقي فيه خوف الرقيب
فبحت والليل نهار الأديب

ومن لطائفه التي تقدم بها قوله:

كلما رمت فيك إنكار حبي
عرفته لام العذار غرامي
من عذول يزيد في تعنيفي^(٣)
بك واللام آلة التعريف

ومن نكته التي هي نوع من السحر قوله في مطلع قصيدة:

أعيذ ريم الترك بالروم
والصدغ مع فيه بحم^(٤)

وما أحلى ما قال بعده، ولم يخرج من مطابقة التورية:

وخده المشرق قد صح في
عذاره المعوج تقويمي

ومن نكته البديعة الغريبة المطربة قوله:

وأغنّ ساجي الطرف ذي هيف
والواو في وأغنّ للقسم^(٥)

(١) التسأل: السؤال. ونعتقد أن البيت. يبدأ بـ «لا» بدلاً من «له» لمناسبة المعنى.
(٢) خمس القصيد أو سبعة: من الخمس والمسيح: جعل مقاطع لكل مقطع خمسة أبيات تأتي القافية في آخر البيت الأخير. أو سبعة أبيات والقافية في آخر البيت السابع.
(٣) رام: أراد- العذول: اللائم. والتعنيف: التبكيت واللوم.
(٤) الروم وحم: سورتان من سور القرآن الكريم. وأعيذ: أحمي.
(٥) الأغنّ: الذي في صوته غنّه - ساجي الطرف: ساكنه.

- قالت خلاخله أيمكنني
ومن نكته البديعة الغريبة قوله من قصيدة:
وكأن ريق النحل ريققتها
ومن لطائفه قوله:
- ويوم لنا بالنيرين رقيقة
وقفنا وسلمنا على الدوح بكرة
ومن لطائفه أيضاً قوله:
- وذي دلال أهيف أحور
طاف على القوم بكاساته
ومن نكته البديعة الغريبة قوله:
- روّ بمصر وبسكانها
وارو لنا يا سعد عن نيلها
ومن اختراعاته البديعة الغريبة قوله:
- سقياً لكرم مدامة
خلعت علينا سكرة
ومن نكته البديعة الغريبة قوله:
- رمتني سود عينيه
وما في ذلك من بدع
- نطق وماء الساقِ ملء فمي^(١)
فيها الشفاء لمهجة نحل^(٢)
حواشيه خال من رقيب يشينه^(٣)
فردت علينا بالرؤوس غصونه
أصبح في عقد الهوى شرطي
وقال ساقي قلت في وسطي
شوقي وجدد عهدي الخالي^(٤)
حديث صفوان بن عسال
أنشت لنا النشوات ليلا^(٥)
بدوية كما وذيلا
فأصمتني ولم تبطي^(٦)
سهام الليل لا تخطي

(١) الخلاخل: الخلاخيل، جمع خلخال وهو من الحلبي ما تلبسه الفتاة أو المرأة في ساقها - الساق:
الساق، خففها لإقامة الوزن ولإيهام التورية. بين الساق والساق.
(٢) ريق النحل: العسل - نحل: ضعفت.
(٣) النيرين: الشمس والقمر - ودجلة والفرات - يشينه: يعيبه أو يعكره.
(٤) الخالي: الماضي، البائد.
(٥) النشوة: قمة الفرح والسرور، والسكر.
(٦) أصمى: أصاب وأمات.

أخذه الشيخ جمال الدين بالقافية وقال :

كأنما هو مخلوق على شرطي^(١)
سهامها وسهام الليل لا تخطي

وأغيد كل شيء فيه يعجبني
أجفانه الود ما تخطي إذا رشقت

ويعجبني من نكته الغريبة قوله من قصيدة :

صاده بالغوير ظبي ملول^(٢)
وبها روض خده مطلول^(٣)
قد رواه عن طرفه مكحول^(٤)

أهل نجد هل تنجدون محباً
كم دمء مطلولة في هواه
وحدث عن السقام صحيح

وقال وقد عينه الوزير، لرحبة مالك بن طوق :

لست إليها الدهر بالسالك
ترونها تعزى إلى مالك

حاشاك أن تختار لي رحبة
لأنها نار تلظى أما

ومن نكته التي ما حام فكر غيره عليها قوله :

للعهد يروي صبره عن علقمه
روي حديث دمه عن عكرمه

وفي أسانيد الأراك حافظ
وكلما ناحت به حمامة

التورية في علقمة وفي عكرمة أيضاً فإنه اسم للحمامة .

ومثله في الغرابة أيضاً قوله وقد توجه من دمشق إلى البلقاء، لزيارة صاحب له يلقب بالشمس، فلما وصل إلى البلقاء وجده قد توجه إلى حسابان، فكتب إليه :

فلم أركم فازداد شوقي وأشجاني
لرؤياه قلت الشمس قالوا بحسبان^(٥)

أتيت إلى البلقاء أبغي لقاءكم
فقلت لي الأقوام من أنت قاصد

انتهى ما أورده من ترجمة الشيخ علاء الدين الوداعي . ومن غرائب نكته البديعة في باب التورية، وأبدت سمو رتبته بتطفل مثل الشيخ جمال الدين بن نباتة على موائد

(١) الأغيد: الناعم الممتشي .

(٢) الملول: الذي لا يثبت على حب شيء .

(٣) المطلول: المهذور الدم دون الأخذ بثأره، والذي أصابه الطل وهو الندى .

(٤) مكحول: أحد رواة الحديث النبوي الشريف، والذي وضع الكحل في عينيه .

(٥) حسابان إسم بلد، وفي البيت إشارة إلى قوله تعالى: ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ .

بدائعه وغرائبه. ولكن أقول إن الجزء من جنس العمل. فكما أغار الشيخ جمال الدين على الوداعي ودخل إلى بيوته وابتذل حجاب بنات فكره، قيص الله له الشيخ صلاح الدين الصفدي. فإن الشيخ جمال الدين رحمه الله كان يخترع المعنى الذي لم يسبق إليه، ويسكنه بيتاً من أبياته العامرة بالمحاسن، فيأخذه الشيخ صلاح الدين الصفدي، بلفظه ولم يغير فيه غير البحر، وربما عام به في بحر طويل يفتقر فيه إلى كثرة الحشو واستعمال ما لا يلائم، فلم يصبر الشيخ جمال الدين على ذلك، وصنف كتاباً ألفه من نظمه ونظم الشيخ صلاح الدين الصفدي، وسماه «خبز الشعير» يعني أنه مأكول مدموم، واستهل خطبته بقوله تعالى: ﴿رب اغفر لي ولوالدي وللمن دخل بيتي مؤمناً﴾^(١)، ورتب كتابه المذكور على قوله: «قلت أنا فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال». وكنت أوردت من خبز الشعير نبذة في أوائل هذا الكتاب، ولكن لم يرض باب التورية إلا بإيراده هنا كاملاً، لأنه حق من حقوقها، فمن ذلك قول الشيخ جمال الدين بن نباتة، قلت:

ومولع بفخاخ يمدّها وشباك
 قالت لي العين ماذا يصيد قلت كراك (ي)^(٢)

فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال:

أغار على سرح الكرى عندما رمى الكراكي غزال للبدور يحاكي
 فقلت ارجعي يا عين عن ورد حسنه ألم تنظريه كيف صاد كراك (ي)

قال الشيخ جمال الدين بن نباتة: قلت:

أسعد بها يا قمري برزة سعيدة الطالع والغارب^(٣)
 صرعت طيراً وسكنت الحشا فما تعديت عن الواجب

فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال:

قلت له والطير من فوقه يصرعه بالبندق الصائب^(٤)
 سكنت قلبي فحركته فقال لم أخرج عن الواجب

(١) نوح، ٢٨/٧١.

(٢) كراك (ي): الأولى: بمعنى النعاس. والثانية بمعنى طيور.

(٣) البرزة: المرأة الحسنة التي تجالس الرجال - الطالع: الحظ والطلعة - الغارب: الكاهل والذهاب، أي سعيدة الإقبال والصدود.

(٤) البندق: حبيبات تضرب بواسطة البندقية وهي نوع من السلاح.

وقال الشيخ جمال الدين: قلت:

فكأنه نشوان من شفتيه^(١)
نعست لواحظه فذب عليه^(٢)

وبمهجتي رشاً يميمس قوامه
شغف العذار بخدّه ورآه قد

أخذه الشيخ الصلاح الصفدي وقال:

تميل حمامات الأراك إليه
أتى خده سرّاً فذب عليه

وأهيف كالغصن الرطيب إذا اثني
له عارض لما رأى الطرف ناعساً

قال الشيخ جمال الدين: قلت:

وكان مني مكان السمع والبصر
فجاء ما خلته نقشاً على حجر^(٣)

يا غادراً بي ولم أغدر بصحبته
قد كنت من قلبك القاسي أخال جفا

فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال:

قسمي وأسلمني إلى البلوى وفر^(٤)
لي قلبه فرأيت نقشاً في حجر

ما زلت أشكو حين وفر في الضنى
حتى تأثر من شكايّة لوعتي

وأحسن ما وقع في هذا الباب، للشيخ جمال الدين بن نباتة أنه قال:

مليء الحسن حالي الوجنتين^(٥)
تباع له القلوب بحبتين^(٦)

بروحي عاطر الأنفاس ألمى
له خالان في دينار خدّ

فأخذه الشيخ صلاح الدين الصفدي وقال:

عليه شامة شرط المحبه
فنقطه بدينار وحبه^(٧)

بروحي خدّه المحمر أضحت
كأن الحسن يعشقه قديماً

(١) يميمس: يتمايل في مشيته، والرشاً: الغزال - النشوان: السكران.

(٢) العذار: خط من النخل والشجر والرمل، والمقصود ورد ذلك المكان أو طيبوره، والله أعلم.

(٣) أخال: أظن - والجفاء: القسوة والهجر.

(٤) الضنى: الحزن والمرض.

(٥) الألمى: الأسمر الشفاه - حالي الوجنتين: من الحلا أي أنهما حلوتين أو أنهما حُلَيْتَا فليس عليهما شعر.

(٦) الخال: الشامة - الحبتين: هما حبنا القلب أو مكان الفرح والحزن والحب والنغض منه، أو هما الصمامان والله أعلم.

(٧) نَقْطَه: جعل عليه نقطاً، أو قدم له هدية في يوم عرسه وهذه تسمى «نقطة».

فلما وقف الشيخ جمال الدين على هذين البيتين، قال: لا إله إلا الله سرق الشيخ صلاح الدين، كما يقال، من الحبتين حبه.

قال الشيخ جمال الدين قلت:

يا عاذلي شمس النهار جميلة
فانظر إلى حسنيهما متأملاً
وجمال فاتتني ألد وأزين^(١)
وادفع ملامك بالتي هي أحسن

فأخذه الشيخ صلاح الدين، مع البحر، بل أخذ الكل مع القافية، وقال:

بأبي فتاة من كمال صفاتها
كم قد دفعت عواذلي من وجهها
وجمال بهجتها تحار الأعين
لما تبدى بالتي هي أحسن^(٢)

وهذان البيتان تقدم القول أنهما بنصهما للقاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، ولكن رأيت العز الموصلي نسبهما، في تذكرته، للصلاح الصفدي من جملة «خبز الشعير» والله أعلم.

قال الشيخ جمال الدين قلت:

فديتك أيها الرامي بقوس
لقوسك نحو حاجبك انجذاب
وطرف يا ضنى جسدي عليه
وشبه الشيء منجذب إليه

فأخذه الشيخ صلاح الدين، وقال:

تشرط من أحب فذبت وجداً
عقيق دمي جرى فأصاب خدي
فقال وقد رأى جزعي عليه^(٣)
وشبه الشيء منجذب إليه^(٤)

قلت: أظن أن الشيخ صلاح الدين لما سمع قول الشيخ جمال الدين، ونظم هذين البيتين، ما كان في حيز الاعتدال، وأين انجذاب القوس إلى الحاجب من انجذاب الدم إلى الخد؟ وليته ما تلفظ بالانجذاب، بل قال: عقيق دمي جرى فأصاب خدي.

قال الشيخ جمال الدين: قلت أنا:

يا مشتكي الهم دعه وانتظر فرجاً
ولا تعاند إذا أصبحت في كدر
ودار وقتك من حين إلى حين
فإنما أنت من ماء ومن طين

(١) العاذل: اللائم.

(٢) تبدى: ظهر وبان واضحاً.

(٣) الوجد: شدة الشوق - الجزع: شدة الفزع، الهلع.

(٤) العقيق: حجر كريم لونه لون الدم تقريباً.

أخذه الشيخ صلاح الدين الصفدي، وقال:

دع الأخوان إن لم تلق منهم
أليس المرء من ماء وطنين

صفاء واستعن واستغن بالله
وأى صفاً لهاتيك الجبله^(١)

قال الشيخ جمال الدين بن نباتة، قلت:

أحاول صبراً عن هوى قد كتتمته
وألقى به ثوب المشيب مطبعاً

فلا أجد الصبر المحاول يعذب
فأغسله بالدمع والطبع أغلب^(٢)

فأخذه الشيخ صلاح الدين الصفدي وقال:

يقول الفكر لي دنست ثوب الشــــــــباب وفي غداة الشيب تتعب
وتغسله بدمعك كل وقت وما ينقى لأن الطبع أغلب

قال الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمه الله تعالى رحمة واسعة، قلت:

أسفت لشاشي الذي قد مضى
ووالله ما بي مما جرى

وفاز به سارق حاشه^(٣)
سوى قولهم صفعوا شاشه^(٤)

فأخذه الشيخ صلاح الدين الصفدي وقال:

قد سرق الشاش بليل وما
الحمد لله الذي لم يكن

قدره الله فما يندفع
شاشي على رأسي لما صفع

قال الشيخ جمال الدين بن نباتة: قلت أنا:

أشكو إلى الله ما أكابد من
فالليل عندي من حالها سنة

دمامل مسني بها الضر^(٥)
فما ليلي ولا لها فجر

فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال:

أشكو إلى الله من أمور
تُمرُّ عيشي لما تُمرُّ^(٦)

(١) صفاء: صفاء - الجبله: الخليط، والخلقة والطبيعة.

(٢) مطبعاً: مبقعاً بيقع تشبه طبعه الختم - الطبع أغلب: مثل يضرب في من لا يستطيع ترك ما تعود عليه.

(٣) الشاش: نسيج رقيق يستعمل للجروح ولفافة العمامة - حاشه: سرقة.

(٤) صفعوا: سرقوا، والصفع في الأصل، الضرب بالكف المبسوطة.

(٥) كابد: عانى - الدامل: جمع دمل وهو التهاب بسيط في الجلد والنسج الذي تحته مصحوب بتقيح.

(٦) تمر: تجعله مُراً.

وَدَمَلْ مَعَ دَوَامِ لَيْلٍ مَا لَهْمَا مَا حَيَّتْ فَجْرَ
وَنَظَمَ الشَّيْخُ جَمَالَ الدِّينِ هَذَا الْمَعْنَى أَيْضاً، فِي آيَاتٍ مَعْنَاهَا الْوَعْظُ يَعْجِبُنِي إِلَى الْغَايَةِ،
وَهِيَ:

لَا تَخْشَ مِنْ هَمِّ كَفِيمٍ عَارِضٍ فَلَسَوْفَ يَسْفِرُ عَنْ إِضَاءَةِ بَدْرِهِ (١)
إِنْ تَمَسَّ عَنْ عَبَّاسٍ حَالِكٍ رَاوِيَا فَكَأَنْنِي بِكَ رَاوِيَاً عَنْ بَشْرِهِ (٢)
وَلَقَدْ تَمَرَ الْحَادِثَاتُ عَلَى الْفَتَى وَتَزُولُ حَتَّى مَا تَمَرَ بِفِكْرِهِ
وَلَرَبَّ لَيْلٍ فِي الْهَمُومِ كَدَمَلٍ صَابِرْتَهُ حَتَّى ظَفَرْتِ بِفَجْرِهِ (٣)

وَقَالَ الشَّيْخُ جَمَالَ الدِّينِ بْنِ نَبَاتَةَ: قُلْتُ أَنَا:

بِرُوحِي فَاتَرَ الْأَجْفَانَ سَاجِجٍ كَأَنَّ الْحَسْنَ لَفْظٌ وَهُوَ مَعْنَى
تَفَرَّدَ وَهُوَ فَتَانُ التَّثْنِي فَيَا لَهِ مِنْ فَرْدٍ تَثْنِي (٤)

فَأَخَذَهُ الشَّيْخُ صِلَاحَ الدِّينِ، وَقَالَ:

وَأَهْيَفَ حَازَ قَدَاً قَدْ حَارَ فِيهِ الْمَعْنَى
تَرَاهُ فِي الْحَسَنِ فَرْدَاً لَكِنَّهُ يَتَثْنِي

قَالَ الشَّيْخُ جَمَالَ الدِّينِ بْنِ نَبَاتَةَ: قُلْتُ أَنَا:

بِرُوحِي جِيْرَةَ أَبْقَوْا دَمُوعِي وَقَدْ رَحَلُوا بِقَلْبِي وَاصْطَبَارِي
كَأَنَا لِلْمَجَاوِرَةِ اقْتَسَمْنَا فَقَلْبِي جَارَهُمُ وَالْدَمْعُ جَارِي (٥)

أَخَذَهُ الشَّيْخُ صِلَاحَ الدِّينِ الصَّفْدِيِّ، وَقَالَ:

أَسْكَنْتُ شَخْصَكَ طَرْفِي حَتَّى أُوَارِي أُوَارِي (٦)
فَحِينَ جَاوَرْتُ دَمْعِي جَعَلْتَ جَارَكَ جَارِي

(١) الغيم العارض: الذي يعترض في الأفق فيسده - أسفر: إنكشف.

(٢) عباس: ابن عباس وبشرهما من رواية الحديث النبوي الشريف ومن الصحابة.

(٣) فَجْرِهِ: انفجاره وخروج ما فيه من الصديد وهو القيح.

(٤) تثني: تمايل وأصبح مثني أي اثني.

(٥) جاري: سائل والقريب من منزلي.

(٦) أُوَارِي: الأولى من المواراة وهي الإخفاء. وأواري: الثانية من أوار النار وهو لهيبتها.

وقد تقدم أن ابن بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي أول من سبق إلى هذه النكتة.

قال الشيخ جمال الدين بن نباتة: قلت:

روادف أو أعطاف من زاد صدها^(١)
وقال قضيب البان ما أنا قدها^(٢)

سألت النقا والغصن يحكي لناظري
فقال كثيب الرمل ما أنا حملها

أخذه الشيخ صلاح الدين الصفدي وقال:

وعطفه المتثني
ولا كثيبك وزني

يقول ردف حبيبي
ما أنت يا غصن قدي

قال الشيخ جمال الدين قلت: أنا:

قمري أضحي على الخلق ينهي
ليس تحت الزرقاء أحسن منها^(٣)

لك يا أزرق اللواظ مرأى
يا لها من سوائف وخذود

أخذه الشيخ صلاح الدين الصفدي وقال:

قد روى اللازورد في الحسن عنها^(٤)
ليس تحت الزرقاء أحسن منها^(٥)

ألبسوه عمامة للنصارى
وجلا طلعة كبدر تمام

قال الشيخ جمال الدين بن نباتة: قلت أنا:

من جسمي المضمنى على الأطلال^(٦)
والمسك قال أخي الشقيق وخالي^(٧)

يا مجرباً دمعي وموقف لوعتي
يا من إذا سألوه عن بدر الدجى

(١) النقا: الرمل - الروادف: مفردها الردف وهو الكفل. أو المؤخرة - الأعطاف: جمع عطف وهو الجنب. الصد: الإعراض.

(٢) كثيب الرمل: المرتفع الصغير من الرمل - قدها: أساويها، وقوامها.

(٣) السوائف: جمع سالف وهو ما تدلى من الشعر على جانب الرأس بين العين والأذن وللرجل: الصدغ.

(٤) اللازورد: من الأحجار الكريمة لونها بلون السماء.

(٥) الزرقاء: السماء.

(٦) اللوعة: الحزن - المضمنى: المريض - الأطلال: البقايا والآثار.

(٧) الشقيق: نوع من الأزهار الحمراء (شقائق النعمان).

أخذه الشيخ صلاح الدين وقال:

فديت حبیباً ضرج الحسن خده
فصب على خديه ذوب عقيق^(١)
إذا عاين الروض المدبج خده
يقول لنا هذا أخي وشقيقي^(٢)
قلت: الشيخ صلاح الدين ما شم لمسك الخال رائحة، والله أعلم.

وقال الشيخ جمال الدين: قلت أنا:

هيهات بين ذوي الأسى لا يستوي
دمعي ودمعك أيها المتواجد^(٣)
فحديث دمعي عن تلهب أضلعي
ذاكي اللظى وحديث دمعك بارد^(٤)
فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال:

شكوت حتى لان بعد قسوة
ورحت أبكي وهو لي يساعد
وقال ها نحن سواء في البكا
لا يا حبيبي ما بكانا واحد
لا يستوي دمع حكى جمر الغضى
إذا جرى ودمع عين بارد^(٥)
قال الشيخ جمال الدين بن نباتة، قلت أنا:

هنتم آل الشهيد بنجمكم
من قبل ما عملت لديه عقيقة
فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال:

أيا أندى الورى كفا ووجهاً
لقد جاءتك جوهرة المعاني
وأقومهم إلى العليا طريقه^(٦)
فلا تبخل عليها بالعقيقه

(١) ضرج: لَوْن، خضب - ذوب عقيق: عقيقٌ مذاب. والعقيق نوع من الأحجار الكريمة لونها يشبه لون الدم.

(٢) عاين: نظر بعينه.

(٣) المتواجد: الذي يدعي الوجد. وهو شدة الشوق.

(٤) ذاكي اللظى: مستعر اللهب.

(٥) جمر الغضى: من أشد الجمر حرارة والغضى شجر جمره يدوم طويلاً.

(٦) العقيقة: الطعام الذي يعمل عند حلق شعر المولود لأول مره ويكون ذبيحة على الأكثر.

(٧) أندى الورى: أجود الناس.

قال الشيخ جمال الدين: قلت أنا:

عذول لست أسمع منه عدلاً علي هيفاء مثل البدر تما
له طرف ضرير عن سناها ولي أذن عن الفحشاء صما^(١)

أخذه الشيخ صلاح الدين الصفدي، وغير صيغة المثل بالحشو، فقال:

تعشقتَه مثل القضيب إذا انثنى بوجه حكى البدر المنير إذا تما
وإن كان عدالي عموا عن جماله فلي أذن عن كل ما نقلوا صما

قال الشيخ جمال الدين: قلت أنا:

حربي من مهفهف القد رام أسهم اللحظ ما أسدّ وأرشق^(٢)
كلما قلت يفتح الله بالوصـل رمانى من سحر عينيه يغلق

فأخذه الشيخ صلاح الدين الصفدي وقال:

سهام طرفك أصمت قلبي ولم تترفق^(٣)
ما يفتح الجفن إلا ورهن قلبي يغلق

قال الشيخ جمال الدين: قلت أنا:

تأملت في الحمام تحت مآزر روادف بيض ما سناها بغائب^(٤)
كأنني من هذي وهاتيك ناظر بياض العطايا في سواد المطالب^(٥)

فأخذه الشيخ صلاح الدين الصفدي، وقال:

تبدى حبيبي في السواد فراقني وما راعني لما أتى بالمعجائب
وشبهت ذاك الجيد في طوق برده بياض العطايا في سواد المطالب

قال الشيخ جمال الدين: قلت أنا:

لقد كنت في لذات ثغرك هائماً ليالي لم يمنع علي عاشق ثغر
فأما وستر دونها من شوارب فلا خير في اللذات من دونها ستر

(١) السناء: النور والبهاء - صما: ترخيم صماء. وهي التي لا تسمع.

(٢) ما أسد: ما أحسن تسديده، والتسديد هو التصريب نحو الشيء.

(٣) أصمى: أصاب مقتلاً.

(٤) المآزر: جمع مئزر، وهو ما تلتف به المرأة - الروادف: جمع ردف وهو العجز.

(٥) العطايا: جمع عطية وهي الهبة.

أخذه الشيخ صلاح الدين الصفدي وقال:

ألا فاسقني من خمرة لذ طعمها
وحط لثاماً حجب اللثم عن فمي
بفيك ولا تبخل وقل لي هي الخمر^(٣)
فلا خير في اللذات من دونها ستر

قلت: قد أوردت هنا ما جناه الشيخ صلاح الدين الصفدي، من حدائق الروض النباتي، ومقابلة الشيخ جمال الدين له على ما جناه. فإن نسبي أحد إلى تحامل، راجعته إلى النقل، وإن وافق وتعقل الرتبين فقد اكتفى بشاهد العقل، وإلا فالأقساماء الصفدية بالنسبة إلى القطر النباتي تمجها الأذواق، وها أنا قد أبرزت ثمرات الدوحتين بين هذه الأوراق، والشيخ صلاح الدين رحمه الله تصاغر لذلك وما كابر، ووقف على باب الشيخ وقوف فقير يسأل بر الإجازة، وطال وقوفه على ذلك الباب العالي إلى أن حصل له الفتح وأجازه^(٤). وها أنا أذكر سؤال هذا السائل الذي ودَّ قبل العطاء أن يدفع بالتي هي أحسن، وأشرح كرم المسؤول الذي نثر على سائله الدر جزافاً علماً بأن عطاء الكريم لا يوزن. فسؤال الإجازة من الشيخ صلاح الدين، قوله يخاطب الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمهما الله تعالى: الحمد لله على نعمائه. المسؤول من إحسان سيدنا الشيخ الإمام العالم العلامة، رحلة أهل الأدب. قبلة ذوي التحصين في التحصيل والدأب، الذي تبيت شوارد المعاني صرعى تخوله للطافة تخيله، وتسمي الألفاظ العذبة طوع تحوله في التركيب وتحيله، فأمسى وله النسب الذي يضحك من العباس^(٥) في رفته. ويقيم صريع الغواني^(٦) إلى مقته بعد مقته، والغزل الذي يشيب له فؤد الوليد، ويسترق الحر من كلام عبيد، والتشبيه الذي لو علمه ابن المعتز لما نصب الهلال فخاً لصيد النجوم، ولو تعاطاه حفيد جريح لقليل له ألم تسمع ﴿ألم غلبت الروم﴾، والمديح الذي لو بلغ زهيراً لقال ما أنا من هذه الحدائق، أو اتصل نبؤه بالمتنبي لاشتغل عن ذكر العذيب وبارق^(٧)، والرثاء الذي نقص عنده أبو تمام بعد أن رفع له لواء الشرف والفخر. وقال هذه عذوبة الزلال لا ما تفجر من الخنساء على صخر، والترسل الذي سقى الفاضل كأس الحتوف، لما شبه الغمود بالكمامم والسيوف بالأزهار، وأذهله حتى صحت له القسمة في الخيل والخيال، بين المراقب والمرافد، فأخطأت معه في المراع والمساجد بين الأنواء والأنوار، والكتابة

(١) ومعنى هذين البيتين صاغه أبو نؤاس في بيت واحد، هو قوله:

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهر

(٢) أجازه: سمح له بالشيء.

(٣) العباس: هو ابن الأحنف الشاعر.

(٤) صريع الغواني: هو مسلم بن الوليد الشاعر.

(٥) العذيب وبارق: مكانان صحراويان.

التي تغدو الطروس بها وكأنها رياض محبرة، أو سماء بالنجوم زاهره، إن لم ترض أن تكون في الأرض رياضاً مزهره:

أدب على الحصري يعلو تاجه وله ابن بسام بكى ألوانا
وترسل سبحان من قد زاده منه وأعطى الفاضل النقصانا
وكتابة لعلوها في وضعها ليس ابن مقلة عندها إنسانا
فلكم أخي فضل رأت عيناه في الأوراق لابن نباتة بستانا

جمال الدين أبي عبد الله، محمد ابن الشيخ الحافظ شمس الدين محمد بن نباتة، جمع الله به شتات أهل الأدب في درجة هذه الدولة، ولمَّ به شعث أبنائه الذين لا صون لهم ولا صولة، وأقام به عماد أبيات الشعر التي لولاها لما عرفت دارمية من أطلال خولة^(١)، إجازة كاتب هذه الأحرف فسح الله له في مدته برواية المصنفات في الأحاديث النبوية، والتأليفات الأدبية، على اختلاف أوضاعهما وتباين أجناسهما وأنواعهما، بحسب ما يؤدي ذلك إليه واتصل به من سماع أو إجازة، أو وصية أو وجازة، من مشايخ العلم الذين أخذ عنهم وإجازة ماله أحسن الله إليه من مقول، نظماً أو نثراً أو تاليفاً أو وضعاً، إجازة خاصة، وإثبات ما له من التصانيف إلى هذا التاريخ بخطه الكريم، وإجازة ما لعله يقع بعد ذلك إجازة عامة على أحد القولين في المسألة، فإن الرياض لا ينقطع زهرها، والبحار لا ينفد درها، وإثبات ما يحسن إيراده في هذه الإجازة من المقاطيع الرائقة، والأبيات اللائقة، وذكر نسبه ومولده ومكانه متفضلاً، في ذلك، وكتب كتبه خليل بن أيبك عبد الله الأيبكي بالقاهرة المحروسة، في مستهل شعبان المبارك سنة تسع وعشرين وسبعمائة، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وكتب الشيخ جمال الدين بن نباتة الجواب مجيباً لسؤال الشيخ صلاح الدين الصفدي، رحمهما الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، حمداً لله الذي إذا توجه إليه ذو السؤال فاز، وإذا استدعى كرمه ذو الطلب أجاب وأجاز، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، كعبة القصد التي ليس بينها وبين النجح حجاز، وعلى آله وصحبه حقائق الفضل والفضل من بعدهم مجاز.

فلو لزم في كل الأحوال تناسب المخاطبة، وكان جواب السؤال بحسب ما بينهما من شرف المناسبة، لما رضي سجع الحمائم لمطارحته نوعاً من الأطيبار، ولا قبل فصحاء الأول مراجعة الصدى من الديار، ولا قنع غمز حواجب الأجنة برد القلوب الهائمة في

(١) خولة: حبيبة لبيد ابن أبي ربيعة التي ذكرها في معلقته بقوله:

لخولة أطلال ببرقة نهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

أودية الأفكار، ولكن نقول: الأكابر والأولياء تبذل من الأجوبة جهدها وتنفق ما عندها، وتجرد الأماثل سيوف المنطق ولا تتعدى الاتباع من الطاعة حدّها، ولما كنت أيها الراقم (١) برود هذا الاستدعاء بينانه، والمنشئ روض هذا السؤال بأثار السحب من بيانه، والسائل الذي بهرت الأفكار فضائله، وسحرت أرباب العقول عقائله (٢)، وأقام المسؤول مقاماً ليس من أهله فليقت الله سائله، فريد فن الأدب الذي لا يبارى، وبحره الذي لا يهدي غائص قلمه الدرّ إلا كباراً، وذا اليد البيضاء فيه الذي طال ما آنس من جانب الذهن نارا، وخليله الذي اطلع على أسراره الدقيقة، ورئيسه الذي لو طارح ابن المعتر وتمت ولايته لكان أمير المؤمنين على الحقيقة، وناظمه الذي يسري الطائيان (٣) تحت علمه المنشور، وكتبه الذي تبجح (٤) العيدان بالدخول تحت رقه المأثور، طالما شافه (٥) منه القلم وجهاً جميلاً وقدراً جليلاً، ولا في من لا يندم على صحبتته فيقول ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً، فهو الغرس الذي يقصر عن أمالي وصفه الشجري، ويفخر الدين والعلم بشخصه ولفظه، فهذا يقول غرسي وهذا يقول ثمري، كم أغنى بمفرد شخصه عن فضلاء جيل، وكم بدا للسمع والبصر من بنات فكره بثينة ومن وجهه جميل، وكم تنزهت الأفكار من لفظه بين آس وورد لا بين إذخر (٦) وجيليل، وكم دام عهده وودّه حتى كاد يبطل قول الأول دليلاً على أن لا يدوم خليل. تودّ الشهب لو كانت حصباء غدير طرسه، وتغار الأفق إذا طرز يراع درجه (٧) بالظلماء أودية شمسه، ويتحاسد النظم والنثر على ما تنتج مقدمات منطقته من النتائج، وينشد كل منهما إذا حاول القول: «خليل الصفا هل أنت بالدار عائج». إن كتب أغضى ابن مقلة من الحسد على قذاه (٨)، وحمل ابن البواب لحجبه عصا القلم قائلاً ما ظلم من أشبه أباه، وإن نحا النحو لباه عشراً، ولانت أعطاف الحروف قسراً. وتشاجرت على لفظه الأمثلة فلا غرو أن ضرب زيد عمراً، يترجل كلام الفارسي بين يديه. ويطير لفظ ابن عصفور حذراً من البازي المطل عليه. وإن شعر هامت الشعراء بذكره في كل واد، ونصبت بيوت نظمه على بقاع الشرف كما نصبت بيوت الأجواد،

(١) الراقم: الموشي المزخرف.

(٢) العقائل: الكرائم جمع عقيلة وهي المصونة.

(٣) الطائيان: حاتم وحبيب (أبو تمام).

(٤) تبجح: افتخر بما فعل وإن كان قليلاً.

(٥) شافه: حكى مشافهة، وطالع.

(٦) الإذخر: الثمين المدّخر.

(٧) الدّرج: جارور المكتب، أو ما توضع فيه أدوات الكتابة.

(٨) القذى: الضرر والأذى.

طالما بلد ليبدأ، وولى منه شعر ابن مقبل شريداً، وقالت الآداب لبحثري لفظه ألم نربك فينا وليداً، وإن نثر فما الدر اليتيم إلا تحت حجره، ولا الزهر النضير إلا ما ارتضع من أخلاف قطره، ولا المترسلون إلا من تصرف في ولاية البلاغة تحت نهيه وأمره. وإن تكلم على فنون الأدب روى الظما، وجلا معاني الألفاظ كالدمى، وقالت الأعاريض لابن أحمد وله: «خليلي هبا بارك الله فيكما».

هذا وكم أننى قديم علم الأوائل على فكره الحكيم، وشهدت رواية الحديث النبوي بفضلته، وما أعلى من شهد بفضلته الحديث والقديم.

بدأتني أعزك الله، من الوصف بما قل عن مكاني، وكاد من الخجل يضيق صدري ولا ينطلق لساني. وحملت كاهلي من المنن ما لم يستطع، وضربت لذكري في الأفاق نوبة خليلية لا تنقطع، وسألتني، مع ما عندك من المحاسن التي لها طرب من نفسها، وثمر من غرسها، أن أجيبك وأجيزك وأوازن بمثقال كلمي الحديد إبريزك^(٣)، وأقابل لسانك المطلق بلساني المحصور، وأثبت استدعاءك على بيت مال نطقي المكسور، فتحيرت بين أمرين أمرين، ووقع ذهني السقيم بين داءين مضرين: إن فعلت ما أمرت به فما أنا من أرباب هذا القدر العالي، والصدر الحالي، ومن أنا من أبناء مصر حتى أتقدم لهذا الملك العزيز، وكيف أطلب مع إقتار علمي بأن أمدح وأجيز. وإنني لمقيد خطوي هذه الوثبات، وأننى يماثل قوة هذا الغرس ضعف هذا النبات.

وإن منعت فقد أسأت الأدب والمطلوب حسن الأدب مني، وأهملت الطاعة التي أقرع بعدها برمح القلم سني، وفاتني شرف الذكر الذي امتلأ به حوض الأفق وقال قطني^(٤). ثم ترجح عندي أن أجيب السؤال، وأقابل بالامثال، صابراً على تهكم سائلي، معظماً قدرتي كما قيل بتعاقلي^(٥)، منقاداً إلى جنة استدعاءك من السطور بسلاسلي، وأجزت لك أن تروي عني ما تجوز لي روايته من مسموع ومأثور، ومنظوم ومنثور، وإجازة ومناولة ونقل وتصنيف، وتنضيد وتفويف^(٦)، وماض ومتردد، وآت على رأي بعض الرواة ومتجدد، وجميع ما تضمنه استدعاؤك فاجمع ما يكون من لفظه المتبدد، كاتباً لك بذلك خطي، مشترطاً عليك الشرط المعبر فليكن قبولك يا عربي البيان جواب شرطي، ذاكرةً من لمع خبري ما أبطأت بذكره وأرجو أن أبطىء ولا أخطي.

(١) الإبريز: الذهب.

(٢) قطني: حسي.

(٣) التعاقل: اصطناع التعقل.

(٤) تنضيد: ترتيب - تفويف: تزيين، وهو من المحسنات البديعية.

فأما مولدي فبمصر المحروسة، في ربيع الأول سنة ست وثمانين وستمائة، بمنزلنا بزقاق القناديل، وأما شيوخ الحديث الذين رويت عنهم سماعاً وحضوراً، فمن أقدمهم الشيخ شهاب الدين أبو الهيجاء غازي بن أبي الفضل بن عبد الوهاب المعروف بالرادف، والشيخ عز الدين أبو نصر عبد العزيز بن أبي الفرج الحصري البغدادي، والشيخ شهاب الدين أحمد بن أبي محمد إسحق الأبرقوهي. وأما ذوو الإجازة في مصر وغيرها من الأمصار فكثير، وأما الفضلاء والأدباء الذين رويت عنهم ورأيت منهم، فمنهم القاضي الفاضل، محيي الدين أبو محمد عبد الله ابن الشيخ رشيد الدين عبد الظاهر بن نشوان الكاتب المصري، والشيخ الإمام بهاء الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن النحاس الحلبي النحوي، والأمير الفاضل، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الصاحب شرف الدين بن إسماعيل بن المتنبى اقترح عليّ أن أنظم له في زيادة النيل، فقلت:

زادت أصابع نيلنا وطمت فأكدت الأعادي^(١)
وأنت بكل جميلة ما ذي أصابع ذي أيادي

والشيخ العالم علم الدين قيس بن سلطان المصري من أهل منية ابن خصيب، قرأت عليه كثيراً من الكتب الأدبية، وكان كثيراً ما يستشديني إلى أن أشدته قولي:

يا غائبين تعللنا لغيبتهم بطيب عيش ولا والله لم يطب
ذكرت والكأس في كفي ليايكم فالكأس في راحة والقلب في تعب^(٢)
فقال: أتعب والله جزعك القدح.

والشيخ العالم شهاب الدين أحمد بن محمد المعروف بابن المفسر أشدني لنفسه:

لا أرى لي في حياتي راحة ذهبت لذة عيشي بالكبر
بقي الموت لمثلي سترة يا إلهي أنت أولى من ستر
فأنشدته لي:

بقلت وجنة المليح وقد ولي زمان الصبا الذي كنت أملك^(٣)
يا عذار الحبيب دعني فإني لست في ذا الزمان من خل بقلك

(١) طمى: النهر فاض وزاد ماؤه حتى حمل الطمي وهو عبارة عن الأتربة والأحجار وأغصان الشجر- أكدد: أحزن.

(٢) الراحة: باطن الكف، والإرتياح.

(٣) بقلت وجنته: نبت شعرها، والبقل نبات عشبي يغتذي به الإنسان.

والشيخ الأديب الفاضل سراج الدين عمر الوراق المصري، سمعته ينشد لنفسه:

واخجلتي وصحائف مسوذة وصحائف الأبرار في إشراق
وتوقفي لموبخ لي قائل أكذا تكون صحائف الوراق

والأديب الفاضل نصير الدين المناوي الحمّامي أنشدني لنفسه:

أحب من الدنيا إليّ وما حوت غزال تبدى لي بكأس رحيق^(١)
وقد شهدت لي سنة اللهو أنني أحب من الصهباء كل عتيق^(٢)

فأنشدته لي:

إني إذا آنست همأ طارقاً عجلت باللذات قطع طريقه
ودعوت ألفاظ المليح وكأسه فنعمت بين حديثه وعتيقه^(٣)

وجماعة يطول ذكرهم، ويعز عليّ أن لا يحضرني الآن شعرهم.

وأما مصنفاتي التي هي كالياسمين لا تساوي جمعها، ولولا الخزائن الشريفة السلطانية الملكية المؤيدية تجبرها، ما استخرت نصبها ورفعها، فهي: كتاب مجمع الفرائد، القطر النباتي، سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، منتخب الهدية من المدائح المؤيدية، الفاضل من إنشاء الفاضل، زهر المشور، أبرار الأخيار، شعائر البيت، التقوى لم تكمل إلى الآن، الأرجوزة المسماة فرائد السلوك في مصائد الملوك.

أجزت لك أعزك الله روايتها عني، ورواية ما أدونه وأجمعه بعد ذلك حسبما اقترحه استدعاؤك ونمقه، ونسخه وحققه، وتضمنه سؤالك الذي تصدقت به، فمك السؤال ومنك الصدقة، والله تعالى يشكر عهدك الجميل، وكلماتك الجزلة وكرمك الجزيل، ويمتع بك فنون الفضائل الملتجئة إلى ظل قلمك الظليل، ولا يعدم الأحباب والآداب من اسمك وسميك خير صاحب وخليل.

قال ذلك وكتبه محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن أبي الحسن بن صالح بن علي بن يحيى بن طاهر بن محمد بن الخطيب بن يحيى بن عبد الرحيم بن نبانة الفارقي الحذاقي ثم المصري، عفا الله عنه.

انتهى ما أوردته من استدعاء الشيخ صلاح الدين وسؤاله، وجواب الشيخ جمال

(١) الرحيق: ما تفرزه الأزهار لجذب الحشرات، ومنه يكون العسل.

(٢) الصهباء: الخمرة - وعتيق: معتق وهو أجود الخمرة.

(٣) حديثه: تحديته، كلامه، وجدیده.

الدين وإجازته، بعد أن علمت دقائق الدرجتين في النظم والشر، واتضح الفرق بينهما وثبت أن الشيخ جمال الدين بن نباتة سقى الله نباته ورعاه، وتمتع أهل الذوق السليم بحلاوة ذلك النبات وجناه، فإنه وإن تأخر في السبق عن فحول المتقدمين عصرًا، فقد تقدم عليهم ببديعه وغريبه بيانًا وسحرًا، وتفقه في الطريق الفاضلية لمذاهب ما سلكها المتقدمون وها نحن نستجدي من حواصلها نظامًا ونثرًا، وكم سألنا عالم في سلوك هذه الطريقة فقال له إنك لن تستطيع معي صبرًا، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبيرًا.

وإن قيل إن الفاضل أجل من تمذهب بهذا المذهب فمذهبي، وأنا أستغفر الله، أنه وصل فيه إلى درجة الاجتهاد، وهذا القول يقول به من رفع الخلاف وتأدب، فإن هذه الطريقة ما أمها^(١) ناظم ولا ناثر في الأيام الأموية، ولا ابتسمت لهم ثغورها في الخلافة العباسية، ولما انتهت الغاية إلى الفاضل أتى بهذه الفضيلة الغريبة وأظهر منها الزيادة المستفادة، واعتادت بلغاء المتأخرين بها بعد ما شهدوا بسبقه فأكرم بها عادة وشهادة، ولما اتصلت بالشيخ جمال الدين بن نباتة أهل غربتها، وشرف بأصل شجرته النباتية نسبتها، وأسكن في أبياته من بديع النظم كل قرينة سالحة، وأمست سواجع إنشائها على فروعه النباتية صادحه. وقد عن لي أن أورد نبذة من مفرداته التي حصل الإجماع في الغرابة عليها، وأشار المصنف بقوله إليها:

أصغ لما قال أخو وقته وخلّ عنك اليوم ما قिला
واسمع مقاطيعاً له أطربت ولا تقل إلا مواصيلا

فمن ذلك قوله:

حملت خاتم فيه فصاً أزرقاً من كثرة اللثم الذي لم أحصه^(٢)
لولاه ما علم الرقيب فيا له من خاتم نقل الحديث بفصه

ومنه قوله:

لله خال على خد الحبيب له في العاشقين كما شاء الهوى عبث^(٣)
ورثته حبة القلب القليل به وكان عهدي أن الخال لا يرث

(١) أمها: قصدها.

(٢) هذا البيت هكذا ورد: برفع أوجر خاتم ونصب فصاً أزرقاً، وهذا مما لم نعرف أو نتبين له وجهاً اعرابياً. وكان حقه النصب في خاتم والرفع في فص أزرق فيكون: حملت خاتماً فيه فص أزرق - والفص: قطعه صغيرة من حجر كريم توضع في وسط الخاتم.

(٣) الخال: شامه سوداء تعلقو الجلد - حبة القلب: مركز العواطف منه.

ومنه قوله:

وأغيد جارت في القلوب لحاظه
أجل نظراً في حاجبيه وطرفه

وقوله:

بروحي مشروط على الخد أسمر
وقال على اللثم اشترطنا فلا تزد

وقوله:

وا حرباً من هوى رشيق
عذاره لا يجيب دمعي

ومن نكته البديعة في هذا الباب قوله:

وضعت سلاح الصبر عنه فما له
وسال عذار فوق خديه جائر

ومن السرقات الفاحشة قول ابن الوردي، غفر الله له:

تعجبت من نهديه لو أن لامسا
وسال عذار لو نحا نفس صبه

ومنه قوله:

لا تخف عيلة ولا تخش فقراً
لك عين وقامة في البرايا

ومنه قوله:

قبلته عند النوى فتمررت
ولثمته عند القدوم فحبذا

- (١) الأغيد: الناعم المتمايل في مشيه - جارت: ظلمت - الوسنى: الذابذة الناعسة.
- (٢) سائل: الأولى بمعنى: الريق - والثانية بمعنى: الذي يسأل أو يطلب.
- (٣) النهدي: الثدي - الانقباض: التجمع عكس الانبساط - الأنامل: أطراف الأصابع.
- (٤) نحا: ينحو اتجاه ناحية - الصب: المغرم به.
- (٥) الرطب: ثمر البلح إذا حلي وصار رطباً - النوى: البذرة.

وقوله :

يسل من مقلتيه سيفين^(١)
نومك أيضاً فقلت من عيني

أفديه لذن القوام منعطفاً
وهبت قلبي له فقال عسى

ومنه قوله :

وهو من الحسن مليء غني^(٢)
فيسرق الكحل من الأعين

يا رُبَّ لص ناهب سالب
يرنو إلى سرب الظبي لحظة

ومنه قوله :

فقال لي في جها عاتبي^(٣)
قلت ولا عن أخضر الشارب^(٤)

مبقل الخد أدار الطلا
عن أحمر المشروب ما تنتهي

ومنه قوله :

إيه برغم العاذل الحاسد^(٥)
في الحب يفتاظ على البارد

كم قلت باللمم ويرد اللمى
رؤ صدى قلبي ودع عاذلي

ومنه قوله :

إذا لم يزر لم يهن عيش ولا إذا
أتانا رقيب يتبع المن بالأذى

بروحي معسول اللمى متحجب
وإن ذقت منا من حلاوة ريقه

ومنه قوله :

بيني وبينك للجفاء حجاز^(٦)
يثني لقاهها كاشح هماز^(٧)

يا كعبة الحسن الممنع لا تطل
حاشى لها من قامة ألفية

(١) اللدن: الطري.

(٢) اللص والناهب والسالب: السارق.

(٣) مبقل الخد: الذي نبت شعر خده - الطلا: الخمره - عاتبي: لاثمي.

(٤) أحمر المشروب: النبيذ - أخضر الشارب: الشاب الأمرد الذي لم ينبت شارباه.

(٥) اللمى: سمرة أو سواد في باطن الشفة السفلى يعد من عناصر الجمال في المرأة - إيه: اسم فعل أمر بمعنى الزجر.

(٦) الجفاء: الهجر والابتعاد - حجاز: حجاز.

(٧) الكاشح: المبغض - الهمّاز: المغتاب، ومنه قوله تعالى: ﴿ولا تطع كل حلافٍ مهين﴾ * همّاز مشاء بنميم.

ومنه قوله :

يا واصف الخيل بالكميت وبالنهد
لا نهد إلا من صدر غانية
أرحني من طول وسواسي^(١)
ولا كميت إلا من الكاس

ومن هنا أخذ الصاحب فخر الدين بن مكاس، وقال :

وإن ذكرت الخيل في الميدان
فاشرب كميتاً واعل فوق نهد

ومنه قوله :

قلت ولي في هوى حبيبي
بالجفن والصدغ يا عنائي
قلب رقيق عليه يدهش
هذا سقيم وذا مشوَّش^(٢)

ومنه قوله :

نقطة خال في وجنة جعلاً
فيا لها وجنة معشقة
في اللهولي بعد نوبتي غبطه^(٣)
صرت عليها أقول بالنقطة

ومنه قوله :

إذا سألوني عن هوى قد كتمته
وجاب عني سائل من مدامعي
سكت أراعي واشياً ورقياً^(٤)
فلله دمعي سائلاً ومجيباً

ومن اختراعاته الغريبة مع بديع التضمين قوله :

لما رأيت نهودها قد أقبلت
قالت وقد رأيت اصفراري من به
ورأت لقلبي عشقه يتجدد
وتنهدت فأجبتها المتنهد

ومنه قوله :

وتاجر قلت له إذ رنا
ومقلة تنهب طيب الكرى
رفقاً بقلب صبره خاسر
منها على عينك يا تاجر^(٥)

(١) الكميت : ذات اللون الأحمر المائل إلى السواد - النهد : المستعدة دائماً .

(٢) مشوَّش : غير مرتب .

(٣) النوبة : دورة من الجنون تصيب الإنسان وتسمى ب النقطة أيضاً - الغبطة : الفرح والانبساط .

(٤) الواشي : النمام الذي ينقل الكلام بين المحبين بقصد إفساد ما بينهما .

(٥) على عينك يا تاجر : هذا مثل يضرب في الإنسان الفاجر الوقح .

وهذه النكتة زاحمه فيها الشيخ زين الدين بن الوردى، وزناً وقافية ومعنى، وقال:

وتاجر شاهدت عشاقه والحرب فيما بينهم دائر
قال علام اقتتلوا هكذا قلت على عينك يا تاجر

واتصلتُ بالشيخ شمس الدين الرئيس الدمشقي العصري الشهير بالمزين،
فاستعملها أحسن من الشيخ زين الدين بن الوردى، وزاد المثل قوّة وإيضاحاً بقوله:

وتاجر أسكرني طرفه والكاس فيما بيننا دائر
وقال لي سرّك قلت اسقني جهراً على عينك يا تاجر

ومنه قوله:

أفنى جفاكم كثير دمعى لكن بقي في القليل نشطه^(١)
وكنت أروي عن ابن بحر فصرت أروي عن ابن نقطه

ومنه قوله وتلطف كثيراً:

خف خصر الحبيب ثم ابتلاني بعذول يزيدني تعنيفا
ليت لو كان في الملامة مثلي في هوى الخصر يؤثر التخفيفا

ومنه قوله:

وكت أظن العشق يترك مهجتي إذا زاحم الشيب الشباب بمفرقي
فلما بدا مع أسود الشعر أبيض أتى العشق يغزوني على ألف أبلق^(٢)

ومنه قوله:

يا حبذا خد الحبيب وقد أضاء شقيقه^(٣)
إن لم يكن في الحسن نفس الروض فهو شقيقه

أخذه الشيخ صلاح الدين الصفدي، وقال:

فديت حبيباً ضرج الحسن وجهه وصب على خديه ذوب عقيق
إذا أبصر الروض المديح خده يقول لنا هذا أخي وشقيقي

(١) النشطة: واحدة النشاط، وفي الأصل: العضة أو اللدغة.

(٢) الأبلق: الحصان، وهو ذو اللونين الأبيض والأسود.

(٣) الشريق: الإشراق.

ومنه قوله:

وفرحتي مع الغزال الحالي
مرتشفاً لآخر الخلخال^(٤)

يا حبذا يومي بوادي جلق
من أول الجبهة قد قبلته

ومنه قوله:

يقول في الحب من لي^(٢)
ما أنت من خل بقلي^(٣)

أهاً لحاذق ذهن
قال العذار لحذقي

ومنه قوله مع التضمين للمثل:

يزال في هجر وشوق يبطنه^(٤)
ذا يشتهي التين وذا يقطنه^(٥)

في الناس من يشتاق للمرد ولا
وأخر شاخوا وما يتركهم

ومنه قوله:

كمعدني لا كيد للقميرين
قسماً لقد أخطأت من وجهين

يا من يقول البدر أو شمس الضحى
أبوجه ذاك ووجه تلك تقيسه

ومنه قوله:

للظبي تنسب لا رميت بينه^(٦)
وإذا رنا فهو الغزال بعينه

نسبوه حسناً للهِلال وعينه
فإذا بدا فيإلى هلالٍ أصله

ومثله ومن خطه نقلت:

في ناظري ولهانه^(٧)
ل بعينه وعيانه^(٨)

يرنوا ويشرق حسنه
فهو الغزاة والغزا

(١) ارتشف: شرب بملء فمه، وعلى مهل - الخلخال: ما تضعه المرأة من زينة في ساقها.

(٢) الذهن: الذكي.

(٣) الخل: عصير العنب المخلل - البقل: نبات معروف.

(٤) المرء: جمع أمرد وهو من الشباب الذي لم ينبت شارباه بعد ولا شعر لحيته - أبطن: ستر.

(٥) يقطن التين: يجعله كالقطن مكبوساً وملفوفاً.

(٦) البين: الفراق والهجر.

(٧) اللهان واللهنة: ما يهدى للمسافر عند عودته أو ما يهديه هو عند عودته.

(٨) العيان: الأثر المادي للجسم.

وضاقت عين الشيخ صلاح الدين الصفدي عن هذه النكتة، فأخذها بعينها وقال:

بسهم أجفانه رماني وذبت من صده وبينه (١)
إن مت ما لي سواه خصم لأنه قاتلي بعينه

ومنه قوله:

دعوني في حلي من العيش مائساً ومرتقباً بعده عفو راحم (٢)
أمد إلى ذات الأساور مقلتي وأسأل للأعمال حسن الخواتم

ومنه قوله:

لما تبدي في الحنيب من تحاربت كبدي وعيني
فاعجب لها من وقعة جاءت ببدر في حنين (٣)

ومن هنا أخذ الشيخ برهان الدين القيراطي، فقال:

بدت روادف حبي تحت الحنين بعين
فقلت يا بدر هذي حقاً جبال حنين

ومن لطائف الشيخ جمال الدين قوله:

دعوا شبيه الغزال يرمي في مهجتي بالنفار جمرا (٤)
تالله لا فاتني لقاها وعين كيسي عليه حمرا

ومنه قوله:

بأبي نائم على الطرق راحت في هواه وليس يعلم روعي
فاتح في الكرى فما سكريا يا له من مسكر مفتوح

ومنه قوله:

ملأت إنسان عيني عسجداً من حدود قد ملاها الحسن صبغاً

(١) الصد: الإعراض.

(٢) المائس: المتبختر أو الماجن.

(٣) بدر وحنين: من حروب المسلمين الشهيرة.

(٤) النفار: أيام معينه من وقت الحج وبالتحديد اليومين الثاني والثالث من أيام التشريق، ورمي الجمار:

من مناسك الحج.

ثم قالت هكذا الإنسان يطغى (١)

قلت والردف أريني فانشنت

ومنه قوله:

لا ينتهي هذا وذاك إلى طرف
يوماً ولا دينار وجنته انصرف

ومن الشقا أن الجفا وتشوقي
ما مال غصن قوامه عن فكرتي

ومنه قوله:

فلا آخذ الله الأسى بصدوعها (٢)
عفا الله عما قد جرى من دموعها

سلت مهجة قد كان صدعها الأسى
وعين على حالي بعاد وجفوة

ومن لطائفه قوله:

صواب وأفتي فيه وهو من الخطأ
ولا بت في رمان صدر مفرطاً (٣)

من الترك أنني سلوتي مع أنها
أما والهوى لا حلت عن عطف أغيد

ومن نكته البديعة في المدائح قوله:

فنثر العطا منه ونظم الثنا منا (٤)
فننشي له لفظاً وينشي لنا معنى (٥)

لنا ملك قد قاسمتنا هباته
يذكرنا أخبار معن بجوده

وقال في صدر مطالعه:

في الحمد واعذر مقتضى أقوالها
بعثت دروج الحمد من أوصالها (٦)

خذ من عبيدك مقتضى نياتها
قسماً لو استطاعت إليك جسومهم

وقوله:

جارياً للعفاة بالأرزاق (٧)

لا عد منا لابن الأثير يراعاً

كلمة ماس في المهارق كالغصن رأيت الندى على الأوراق (٨)

كلمة ماس في المهارق كالغصن رأيت الندى على الأوراق (٨)

(١) يطغى: يجاوز الحدود التي وضعها الله في كل الأمور.

(٢) صدع: شقق، وأضعف - الأسى: الحزن.

(٣) مفرط: مكثراً، متجاوز الحد.

(٤) العطا: العطاء - الثنا: الثناء وهو المدح.

(٥) معن: هو معن بن زائدة، من الأجواد.

(٦) دروج: صنديق - الأوصال: المفاصل.

(٧) اليراع: القلم - العفاة: طالبو المعروف.

(٨) ماس: مال وتحرك - المهارق: الصحائف التي يكتب عليها.

وقوله في كمال الدين بن الزمكاني:

يفديه قوم تشبهوا حسداً به وليسوا له بأشباه
إن نطقوا بالجميل أو فعلوا فللريا والكمال لله (١)

ومنه قوله:

لعمري لقد أفحمت بالفضل منطقي وحركت ميزاني فأنتي لسانه
وقد كنت ذا نطق وفضل بيان (٢) فلا زلت مشكوراً بكل لسان

وقال، وقد كتب إليه الملك المؤيد صاحب حماة:

فديتك من ملك يكاتب عبده بأحرفه اللاتي حكته الكواكب (٣)
ملكك بها رقي وانحلني الأسى (٤) فها أنا ذا عبد رقيق مكاتب (٥)

وقال يهنئ القاضي جمال الدين، وقد عاد من غزوة سيس:

بقيت مدى الدنيا جمالاً لدولة لها منك شهم في اللقا ورئيس
يسوق لها عند الفتوح جنائباً وأول هاتيك الجنائب سيس (٥)

ومنه قوله في جواد:

وأدهم اللون حندي في جريه للورى عجائب (٦)
يقصر سعي الرياح عنه فكلها خلفه جنائب

ومنه قوله وقد كتب بها إلى الصاحب شرف الدين يعقوب:

قالت العليا لمن حاولها سبق الصاحب واحتل ذراها
فدعوا كسب المعالي إنها حاجة في نفس يعقوب قضاها

(١) الريا: الرياء وهو الكذب والنفاق والخداع.

(٢) أفحمت: أسكت بالحجة، ومنعه النشاط...

(٣) المكاتب: هي أن يكتب عهد بين العبد والسيد أنه يصير العبد حراً مقابل مبلغ معين من المال.

الرق: العبودية - أنحل: أضعف - الأسى: الحزن.

(٤) الخلع: جمع خلعة وهي الهدية من الثياب.

(٥) الجنائب: النواحي والجهات.

(٦) الأدهم: من الخيل الأسود اللون - الحندي: لونه لون الحندس وهو الظلام.

ومنه قوله:

وأزجي من العسر داء دفيناً^(١)
سوى أن مددت إليك اليميناً^(٢)

قصدت معاليك أرجو الندى
فما كان بيني وبين اليسار

وقوله يهنىء محتسباً:

بأيام فضلك ما ترتقب
وترزق من حيث لا تحتسب^(٣)

تهناً بها حسبة أدركت
فإنك من أسرة تصطفي

ومنه قوله يهنىء بعيد النحر:

بأمثاله سامي العلا نافذ الأمر^(٤)
وأحسن ما تبدو القلائد في النحر

تهناً بعيد النحر وابق ممتعاً
تقلدنا فيه قلائد أنعم

وقوله:

غواذي الندى من راحتك غزار
فمني أوراق ومنك ثمار

كذا أبداً يا أرفع الناس همة
أقدم أطراساً وتمنح أنعماً

ومنه قوله، وكتب بها إلى القاضي بهاء الدين بن أبي البقاء على يد طالب شفاعته:

أورثتها عن سادة أنجاب
فأبو البقاء أحق بالإعراب

أرسلته لك واثقاً بمكارم
لا غرو أن أعربت عن أحسابهم

ومنه قوله، وكتب بها إلى القاضي شمس الدين البهنسي:

في يومه يهب الجزيل وفي غده
والسحب جارية تصب على يده

يا رب أمدد بالغنى يد سيد
فالبحر يسعى خادماً في بابه

ومنه قوله، وكتب بها إليه:

فيا عجباً في ازديادي من الفضل
وها أنا منها حيثما كنت في ظل

عليّ ديون من ثنا لم أقم بها
وأعجب من ذا أنك الشمس أشرقت

(١) الندى: العطاء - العسر: الفقر والضيق.

(٢) اليسار: الغنى والثراء.

(٣) تصطفي: تختار.

(٤) عيد النحر: هو عيد الأضحى سمي بذلك لأن الحجيج ينحرون فيه الأضاحي تقرباً إلى الله تعالى

سامي: عالي - نافذ الأمر: مطاع.

ومنه قوله، وقد أرسل إليه شرف الدين خالد القيسراني هدية جلييلة في وقتها:

لك الله ما أزكى وأشرف همة
فأنت الذي قرت برؤيته العلا
وأحمد صنعاً حيث تبلى المحامد^(١)
وهنت الدنيا بأنك خالد

قال وقد وصلت إليه هدية على يد الكمال:

قبضت من الكمال نداه عفواً
فينا لله من عادات بر
بريئاً من سؤال أو مطال^(٢)
أتتني بالتمام وبالكمال

وكتب إلى صاحب تقي الدين بن هلال:

هنت ما أوتيته من رتبته
في مقلة الإنسان نمت فقل لنا
حملتك في العينين من إجلالها
أنت ابن مقلتها أم ابن هلالها

وقوله:

فدينك يا ابن المحسنين مجوداً
فحاتم عند الجود في بطن كفه
بأقلامه أو جائداً بمكارمه^(٣)
وياقوت عند الخط في فص خاتمه

وقوله يهنئ بالعيد:

تهن بعوذه عيداً سعيداً
نحرت به جميع عداك فانحر
وعش ما شئت يا كهف البرايا
قروناً آخرين من الضحايا^(٤)

ومنه قوله:

قف بيباب العلا وقل يا كتابي
أنا عبد مكاتب غير أني
عن لساني قول الخويدم حقا
لست أبغي من مالك الرق عتقا^(٥)

(١) تبلى: تجرّب وتختبر - المحامد: الأعمال التي يحمد عليها فاعلما.

(٢) النداء: العطاء والهدية - المطال: إخلاف الوعد والتسويق.

(٣) مجوداً: بالقلم: متأنقاً - جائداً: متكرماً، معطياً.

(٤) قرون: أجيال.

(٥) المكاتب: العبد يتفق مع سيده على أن يكون حراً مقابل مبلغ معين من المال - العتق: التحرر.

وقال وقد أنعم عليه بنصيفة:

سور الذكر سهلت لي نصيفة علت^(١)
فبياسين عوذت وبحاميم فصلت^(٢)

وتلطف بكتابه إلى من أنعم عليه بالنصيفة، بقوله:

يا سيدي نصيفتي قد فصلت وعجزت لما غبت عن تبطينها
ما حلت فيها عن ندى نعماً يديك ولا اتخذت بطانة من دونها^(٣)

وكتب إلى القاضي شمس الدين البهنسي:

شكر الله أياديك التي أنعشت حالي بشمس الهبات
أنت بالمعروف قد أحيتته وكذا الشمس حياة للنبات

وقال يهنىء قادماً من الحجاز:

قالوا سررت زائداً بقادم تقصد منه ماله أو جاهه
حج شهاباً ثم عاد بدرا قلت نعم كلاهما وتمرا

وكتب إلى من أهدى إليه تمراً رديئاً غالبه نوى:

أرسلت تمراً بل نوى فقبلته وإذا تباعدت الجسم فودنا
بيد الوداد فما عليك عتاب باق ونحن على النوى أحباب^(٤)

ومنه قوله:

قال فتح الدين إذ حدثنا كيف أثمار حديثي عندكم
يتلافى قصة تفضي لمنحى^(٥) قلت فصي أولاً فهو فتحي

وقال يهنىء ولد الأمير ناصر الدين بن فضل الله العمري بإمرة عشرة:

-
- (١) الذكر: القرآن الكريم - النصيفة: العمامة. أو أي عطاء للرأس.
(٢) ياسين: سورة يس - عوذت: حميت - حاميم: سورة حم السجدة من القرآن الكريم.
(٣) البطانة: قطعه من القماش الناعم تخطط على داخل الثوب، والحاشية من الأتباع والأعوان.
(٤) النوى: السفر والبعء، والبذور من الشمار.
(٥) تلافى: تحاشى وابتعد - أفضى: إلى الأمر أو إلى المكان: أوصل إليه.

يا ابن السراة الأكابر البررة^(١)
وجدتم من أكابر العشرة

هشتها إمرة مجددة
أقسم من ذا وذا بأنكم

ومن لطائفه في هذا الباب قوله:

قدر على باغي مداه بعيد^(٢)
في هذه الدنيا وأنت وحيد

والله ما عجبي لقدرك إنه
إلا لكونك لست تشكو وحشة

وكتب على شرح مختصر ابن الحاجب لشمس الدين الأصفهاني:

فسر بسناها حيثما أنت سائر
هو القطب قد دارت عليه الدوائر

أخا العلم إن الشمس باد ضياؤها
وخل فتى شيراز عنك فإنما

ومن لطائفه قوله:

وفارقت ذلي إذ وصلت إلى العز
ولا بدُّ للجندي من طلب الخبز

وصلت إلى باب المعز وظله
وأصبحت من جند المحامد والثنا

وقوله في الجامع الأموي بدمشق:

وفي صدره معنى الملاحاة مشروح
فقل لهم باب الزيادة مفتوح^(٣)

أرى الحسن مجموعاً بجامع جلق
فإن يتغالي بالجوامع معشر

ومن مداعباته ومجونته وإعراضه ونكته اللطيفة، في باب التورية، قوله:

تثق به واتركه مع نفسه
إنك محتاج إلى فلسه

يا أير لا تركزن لعلتي ولا
ولا ترج الود ممن يرى

ومن مداعباته اللطيفة مع الشيخ بدر الدين حسن الزغاري، مضمناً قوله:

ندماه واشتعلت عليه الأكؤس
واستب بعدك يا كليب المجلس^(٤)

يا غائباً عن مجلس قد شامت
نبئت أن النار بعدك أوقدت

(١) السراة: الأشراف والسادة.

(٢) الباغي: المريد والطالب.

(٣) يتغالي: يتباهى.

(٤) استب: تشاتم - كليب: هو كليب وائل الذي قتله جساس بن مرة لأجل ناقة البسوس، وتصغير كلب، للتحقير.

ومنه قوله في مليح اسمه إلياس:

أفدي مليحاً في البرايا لم أزل طول الزمان عليه في وسواس
قالوا أنقطعه كثيراً قلت من راحت قلب المرء قطعُ إلياس

وقوله:

لهفي على فرسي الذي أضحي قريح المقلتين^(١)
يكبو وأملك رقه فمعثر في الحاليتين^(٢)

ومنه قوله:

سافرت للساحل مستبعضاً قصداً وحمداً حسن الجملة^(٣)
فياله من متجر رابح ما نفقت فيه سوى بغلتي^(٤)

وقوله:

ميزاني العاطل المحلى قال له الفقر قف مكانك
لا تذكر المال عند هذا ولا تحرك به لسانك

ومنه قوله يداعب صديقاً له يروم ولاية القضاء:

رب إن ابن عامر هائم الفكـــــر معنى في صبحه والمساء^(٥)
يتمنى القضا فلا تعطينه واجعل الموت سابقاً للقضاء

ومثله قوله:

لقد أصبحت في حال يرق لمثلها الحجر
مشيب وافتقار يد فلا عين ولا أثر^(٦)

(١) قريح: مجروح - المقلّة: معظم العين.

(٢) كبا الجواد: تعثر - والمعثر: الذي يتعثر ويكبو أو الذي لاحظ له.

(٣) هكذا في الأصل: مستبعضاً، ونعتمد أنها: مستبعضاً: أي طالباً للبضاعة لمناسبة المعنى.

(٤) نفقت الدابة: ماتت، أو بيعت.

(٥) المعنى: الكثير الإهتمام والاعتناء لدرجة الوسواس.

(٦) يرق: يصبح رقيقاً ويشفق ويعطف - لا عين ولا أثر: لا ملك مادي ولا ملك معنوي، وهذا مثل يقال للفقير المعدم.

ومنه قوله يداعب بعض أصحابه :

وكأنه من جملة الغياب
سبحان رازقه بغير حساب (١)

بفلان في الديوان صورة حاضر
لم يدر ما محزومه وجريده

ومن لطائفه قوله يهنئ شارب دواء :

وطب بالرواح به والغدو (٢)
ولكن على رغم أنف العدو

أمط بالدواء ثياب الأذى
وكرر أحاديث بيت الخلا

وكتب إلى صفي الدين الحلبي مداعباً له :

بيخل بالذُّرج وبالوصل (٣)
ولا جعلت الوذ في حل (٤)

أوقعني وذي مع هاجر
والله لا غررت من بعدها

ومنه قوله :

ووجدك لا ينفك يذكر حسنه
أعظم مشواه وأكرم ذقنه

وقالوا أحاطت ذقنه بخدوده
فقلت نعم ضيفي بقلبي نازل

وقوله :

قالوا وقد أصبح ذا ذقن
قلت من الأذن إلى الأذن

رب مليح حسن صوته
لحيته قد قطعت حلقه

وكتب، وقد أهدى إليه بعض أصحابه ديوكاً :

بوجوه جميلة مستجاده (٥)
أرتجي أن تكون عرفاً وعاده (٦)

وصلتنا ديوك برك تزهر
كل عرف يروق حسنا وإني

(١) الجريدة: دفتر أرزاق الجيش في الديوان.

(٢) أماط: أزاح وخلع.

(٣) الذُّرج: الطاعة.

(٤) في حل: أي بغير عهد.

(٥) برُّك: جودك.

(٦) العرف: القطعة القرمزية التي تعلق رأس الديك، وما تعارف عليه الناس - راق: أعجب.

وكتب إليه في المعنى :

هباته ذات تأسيس وإيناس^(١)
لن يذهب العرف بين الله والناس

قل للرئيس جمال الدين لا برحت
واصل رجاي بعرف الديك مقبلاً

ومن لطائفه في هذا الباب قوله :

فلا والله ما وافيتمونا^(٢)
فإن عدنا فإننا ظالمونا

لقد عُدناكم لما ضعفتم
أقيموا في ضناكم أو أفيقوا

ومنه قوله. وقد صرف عن مباشرته :

وزلت وزالت قوى همتك
فلا أوحش الله من خدمتك

أيا ابن نباتة جار الزمان
وقد كنت ذا خدم وانقضت

ومن نكته اللطيفة قوله في هذا الباب :

أحمد الله كم أجود في الخلق مقالاً وما يفيد المقال
أنا والسحر باطل بطل

كلمي في الأنام سحر ولكن

وقوله :

أقضي فيه بالإنكاد وقتي
فوا حرباه من خمس وست^(٣)

لقد أصبحت ذا عمر عجيب
من الأولاد خمس حول أم

ومن لطائفه قوله :

تخرج ألقابهم عن العادة
فصح أن العجوز قواده^(٤)

قد لقبوا الراح بالعجوز وما
ألانت الغادة التي امتنعت

وقال يداعب كبير الأنف :

من أي أرضيك نلت إشارا
خيراً ولكن رأيت منقارا

أقبل عند القوم يسألني
قلت من النيك ما رأى بصري

(١) التأسيس والإيناس : من المصطلحات العروضية.

(٢) عاد الضعيف : زار المريض - وافى : زار أو جاء.

(٣) ست : العدد والسيدة.

(٤) الغادة : الحسنة الناعمة - القوادة : التي تقود إلى الفجور والفحش ..

ومن لطائف مجونه :

أرى أيري تكبر في جلوسي وفي عمر وأعطى اللؤم قومه
فأمسى لا يقوم لزازيره وإن زار العزيز فنصف قومه^(١)
وقال في صديق باع مملوكاً وتزوج امرأة جميلة :

لي صاحب ترك المليح وعاد في حب المليحة من ذوي الأقدار
قد كان عبد الأشهب المنسوب في حسن فأضحى وهو عبد الدار
ومن لطائفه قوله في هذا الباب :

لقد أضحت سعاد تعاف أيري وتمعكه بلا قلب لديها
فتمعكه بلا قلب لديها وتأخذه بأطراف الأنامل^(٢)
ومنه قوله مع التضمين المخترع، وهو :

دنوت إليها وهو كالفرخ راقد فإنا خجلتي لما دنوت وإدلاي
وقلت امعكيه بالأنامل فالتقى لدى وكرها العناب والحشف البالي
ومنه قوله :

محبوتي دنيا جفت بعدما جادت وكانت نزهة الهائم
كانت مع الأير زمان الصبا وهكذا الدنيا مع القائم
ومن لطائفه قوله :

باع صديقي لجام بغلته ليشتري الخبز منه والأدما^(٣)
واها عليه راحت جرايته فهو على ذلك يعلك اللجما^(٤)
ومن لطائف مجونه قوله :

يا ملاذي الغوث من عائلة ليس من تكليفهم لي مهرب
طلبوا في أرجلي شيئاً وقد نقبوا رأسي بما قد طلبوا

(١) العزيز : عزيز مصر والمحبوب .

(٢) تمعكه : تدلكه وتفركه .

(٣) الأدم : ما يؤكل مع الخبز من الطعام .

(٤) الجراية : الصبا . علك : مضغ - اللجم : جمع لجام وهو حديدة رضع في فم الحصان للسيطرة على سرعته .

ومنه قوله:

قد طيبت لذاتها وقتي
فالتين من فوقي ومن تحتي

جنينة التين وجيرانها
وكثرت عندي ما أشتهي

وقال يداعب صديقاً له طلق زوجة تسمى دنيا:

كرته بين الوري خاسره
ورحت لا دنيا ولا آخره

قل لابن بغلان الذي أصبحت
ظلمت دنياك وفارقتها

وقوله:

يوجب سح الدمع من جفنه
أن يضحك الشيب على ذقنه

تبسم الشيب بذقن الفتى
حسب الفتى بعد الصبا ذلة

ومن أغراضه اللطيفة في إهداء كتاب قوله:

أرسلته نعم الجليــــــــس إذا تغيرت البشر
يبقى على سنن الوفا أبداً ويقنع بالنظر

أرسلته نعم الجليــــــــس إذا تغيرت البشر
يبقى على سنن الوفا أبداً ويقنع بالنظر

وقوله:

كروثق الحبات في عقدها
تموت للهيبة في جلدها

لله تصنيف له رونق
كادت تصانيف الوري عنده

وقال وقد عتب عليه القاضي بدر الدين، لأمر:

لذ لسعي وهو صعب شديد
وسرني أني ببدر شهيد

أهلنتي للعتب حتى لقد
هذا ولو قطعني لذلي

وقال يداعب جندياً من أصحابه عرض ولم يقبل:

ليوم العرض أو يرضي
وراح الطول في العرض

ظننا طوله يجدي
فلا والله ما أجدي

ومن لطائف مجونه قوله:

فيا عجباً للشيب من كدر صافي
فأهاً له شيئاً يقطع أكتافي

صفا لون شبي ثم كدر عيشتي
وصار على الأكتاف يضحك من يرى

ومن أغراضه اللطيفة قوله:

كانت للفظي رقة
فصرفتها عن قدرتي

ومن لطائف مجونه قوله:

قالت أريد من طبيخ قدرة
فقلت هذي قدرة يا ستنا

ومن لطائف مجونه قوله:

دعاني صديق لحاجاته
كلام يزيد وماء يقل

ومنه قوله:

ما زلت ألقع شيبة نسخت بها
حتى غدت صفحات وجهي آية

ومن مراثيه البديعة قوله يرثي الملك المؤيد صاحب حماة:

ألا في سبيل الله ملك مؤيد
على الرغم منا إن أتى منه لامع
قوله وقد توفي له ولد ولم يبلغ حولاً:

يا راحلاً من بعد ما أقبلت
لم تكتمل حولاً وأورثتني

ومثله قوله في ولده عبد الرحيم:

يا لهف قلبي على عبد الرحيم ويا
في شهر كانون وافاه الحمام لقد
شوقي إليه ويا شجوي ويا دائي
أحرقت بالنار يا كانون أحشائي^(٤)

(١) قدرة: قدر صغير يطبخ فيه - أوغل في الشيء: زاد فيه.

(٢) الست: السيدة.

(٣) الناسخ والمنسوخ: من آيات القرآن: الناسخ التي تبطل حكم المنسوخ وهو الآيات التي بطل حكمها.

(٤) الحمام: الموت.

ومنه قوله فيه :

وكان ذا در بعبد الرحيم
وعاش ذاك الدر درا يتيم

آهأ لشمل قد وهي سلكه
فليتني لاقيت عنه الردى

وقال يرثي جارية له :

نعم إن جفني بالبكاء حقيق^(١)
فإني عدمت الدمع وهو شقيق

يقولون قد أخلقت جفك بالبكي
دعوا الدمع للجفن القريح مؤاخياً

وقال يهنئ بالعشر بعد تعزية بميت :

لأمرين في يوم من الدهر وافد
أهني بعشر إذ أعزي بواحد

أيتك يا أركى البرية جامعاً
هنا وعزا لا عيب فيه لأنني

وقال يرثي الملك الأفضل صاحب حماة :

وصحت على رغم العداة وفاته
وماتت بأحزان البلاد حماته

مضى الأفضل المرجو للباس والندى
وما مات إذ ماتت بحزن نساؤه

وقال في رثاء طفل :

فيالها طلعة شريقه
دموع عيني لها عقيقه^(٢)

بدا رفي حاله توارى
جوهرة ما عملت إلا

وقال في رثاء ولده أيضاً :

نظم القريض فلا يكاد يجيبه
سكن التراب وليده وحبيبه

قالوا فلان قد جفت أفكاره
هيهات نظم الشعر منه بعدما

انتهى ما وقع عليه الاختيار ووعدت بإيراده من غرائب الشيخ جمال الدين بن نباتة، وبدائعه في باب التورية على اختلاف أنواعها، وقد تقدم قولي إن الراية الفاضلية هو عرابة مجدها، وواسطة عقدها، وقائد زمامها، ومسكة ختامها. وقدمت أيضاً من مشى تحت الراية الفاضلية، من ابن سنا الملك إلى الوداعي، ولما رفع العلم النباتي كانت هذه الفرقة التي مشت تحت هذا العلم أكثر عدداً وأشهر ذكراً، وأعلى رتبة نظماً ونثراً.

(١) أخلق: أبلى - حقيق: جدير.

(٢) العقيقة: ما يعمل من الطعام عند ولادة المولود.

وقد عنَّ لي أن أذكر هنا لكل من عاصره ومشي تحت علمه النباتي، وتحلى بنكته الأدبية، نبذة من مختار مقاطيعه التي حلاوتها في الأصل نباتية، ليظهر صدق قولي في تفضيل الصحابة المحمدية، وأشرع بعد ذلك في إيراد نبذة من نظم التابعين لهم بإحسان، وأدير هذا الكاس بحيث يتسلسل دوره إلى أهل هذا العصر والأوان، والعصابة التي مشت تحت العلم النباتي، وتحلت بقطر نباته هم: الشيخ صلاح الدين الصفدي، والشيخ زين الدين بن لوردي، والشيخ برهان الدين القيراطي. ومذهبي أنه أقرب الناس إلى الشيخ جمال الدين، نظماً ونثراً، والشيخ شمس الدين بن الصائغ، والشيخ بدر الدين ابن الصاحب، والشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة، والشيخ إبراهيم المعمار، والشيخ بدر الدين حسن الزغاري، والشيخ يحيى الخباز الحموي، والشيخ شهاب الدين الحاجبي.

وممن أدرتهم وعاصرهم المصنف، وكتبوا إليه وكتب إليهم، وأنشدوه وأنشدهم من أهل مصر والشام: الشيخ زين الدين بن العجمي عين كتاب الإنشاء الشريف بالديار المصرية، والقاضي فتح الدين بن الشهيد صاحب دواوين الإنشاء الشريف بدمشق المحروسة، وناظم السيرة النبوية نور الله ضريحه، والشيخ عز الدين الموصلي والشيخ علاء الدين بن أيبك الدمشقي والشيخ جلال الدين ابن خطيب دارياً، والشيخ شمس الدين الرئيس الشهير بابن المزين، والصاحب فخر الدين بن مكانس وولده الجناب المخدومي المجدي، وسيدي أبو الفضل بن أبي الوفاء قدس الله روحه، ولكن ما رأيته، والشيخ شرف الدين عيسى الشهير بعويس، والشيخ شهاب الدين بن العطار، ولكن ما حضرته، والشيخ جمال الدين، ولكن ما رأيته، وصاحبنا الشيخ شمس الدين المتنبى المصري، والفرقة التي أطال الله بقاءها وأمست قواعد الأدب بها قائمة، وختمت بهم هذه الطريقة البديعة وأخلصوا في العمل ففازوا في الحالتين بحسن الخاتمة، وهم: القاضي بدر الدين ابن الدماميني المالكي المخزومي، فسح الله في أجله، والشيخ الإمام الحافظ العلامة شهاب الدين بن حجر العسقلاني الشافعي، رحمه الله تعالى، والشيخ بدر الدين البشتكي رحمه الله تعالى.

ونبدأ بمن تقدم ذكره أولاً فأولاً. فمن محاسن الشيخ صلاح الدين الصفدي في باب التورية، رحمه الله قوله:

أفديه ساجي العيون حين رنا	أصاب مني الحشا بسهمين ^(١)
أعدمني الرشد في هواه ولا	أفلح شيء يصاب بالعين

(١) ساجي العيون: ساكنها - رنا: نظر.

ومثله قوله:

كما أن رأسي شاب من موقف البين^(١)
تلقيت ما ترصاه بالرأس والعين

لقد شب جمر القلب من فيض عبرتي
فإن كنت ترضى لي مشيبي والبكى

ومثله في تورية العين قوله:

وقد براه جفا وبين
ولم يقع لي عليه عين

سألتم عن منام عيني
واليوم قد غاب حين غبتم

ومثله قوله:

يأمر السعد في كراها وينهى
لا تسل ما جرى على الخد منها^(٢)

إن عيني مذ غاب شخصك عنها
بدموع كأنهن الغوادي

ومنه قوله:

فالبكى قرح عيني
هو دون القلتين^(٣)

وفقيه قلت صلني
قال لا تفخر بشيء

ومن لطائفه قوله:

يصغ إلى الشكوى ولم يقبل
ويا دموع العين لا تسألني

قلت وقد أعرض عني ولم
لا تطمعي يا نفس في وصله

ومن لطائفه قوله:

ليزورني فيه الخيال الزائل
أجري وقل للدمع قف يا سائل

إن لم تصدقني تصدق بالكري
وانظر إلى فقري لوصلك واغتنم

وقوله أيضاً:

الحبيب ويدعي صوناً وعفه
يمر مع النواسم ألف عطفه

يقول الناس كيف يميل عنه
أليس لقدمه في كل يوم

(١) العبرة: الدمعة - البين: الفراق.

(٢) الغوادي: من السحاب التي تنشأ غدوة وهي أكثره مطراً.

(٣) القلتين: من القليل.

وقوله أيضاً:

وأحور أحوى فاطر الطرف قد غدا
كستني ضنى جسمي سهام جفونه
به قلب صب بالجوى يتضم (١)
فبرد سقامي في هواه مسهم (٢)

وقوله مع حسن التضمين:

مقلته السوداء أجفانها
ويقطع الطرق على سلوتي
ترشق في وسط فؤادي نبال
حتى حسبنا في السويدا رجال (٣)

والم الشيخ زين الدين بهذه النكتة، ولكن سبكها في غير هذا القالب بقوله:

من قال بالمرء فإني امرؤ
ما في سويدا القلب غير النسا
ميلي إلى النسوة ذات الجمال (٤)
ما حيلتي ما في السويدا رجال (٥)

ومنه قوله:

بجفنه سيف فرى حده
ومن عجيب نصر الحاظه
قلوب قوم في الهوى أسرى (٦)
وجفنها المكسور قد فرأ

ومنه قوله:

وظبي معانيه بيان بديعها
قرأت مقامات الحريري كلها
له حار فكري إذ رأى كل معجز
بعارضه مشروحة للمطرزي

وتزاحم الشيخ صلاح الدين والشيخ زين الدين بن الوردى، في هذا المعنى والنكتة، بقوله:

شبهت خد حبيبي
مقامة للحريري
تشبيهه فكر مبرز
وشرحها للمطرز

-
- (١) الأحور: شديد بياض العينين وسواد سوادهما - الأحوى: الأسمر أو الأحمر الذي يميل إلى السواد - الصب: المغرم - يتضم: يشتعل ويحترق.
(٢) الضنى: الضعف - المسهم: الذي فيه صور السهام.
(٣) حسبك في السويدا رجال: مثل يضرب في الفرارين الجبناء.
(٤) المرء: جمع أمرء وهو الغلام لم تنبت لحيته وشارباه بعد.
(٥) سويداء القلب: مركز العواطف منه.
(٦) فرى: كلّ وعاد لا يقطع.

والذي يشهد به الذوق أن تركيب الصفدي أحسن وأقعد، ومنه قوله:

كن كيف شئت فإن قد رك قد علا عندي وعزا
مات السلو تعيش أننت أما رأيت الصبر عزا^(١)

ومن لطائفه في هذا الباب قوله:

قالوا حكى بدر الدجا وجه الذي تهوى فقلت لهم قفوا وتربصوا
أنا ما أصدق ما عليه كلفة فإذا حكى شيئاً يزيد وينقص

ومنه قوله:

من شافعي يوماً إلى مالك في أمر روعي القبض والبسط
صوب رأي الناس في حبه وشعره في الأرض قد خطا

ومنه قوله:

يقول إذ أنكرته قبلة غصبتها في زورة الطيف
هذا عذاري وجفوني فقم واحلف على المصحف والسيف^(٢)

ومنه قوله:

يقولون حاكاه الهلال فلا تزغ عن الحق واعرف ذاك إن كنت تنصف^(٣)
فقلت إذا ما صار بدرأً مكملأ وحكاه ومع هذا عليه تكلف^(٤)

وقوله:

إذا قلت قد أسرفت في التيه قال لي تقل في جمالي في الورى غير ماجرى^(٥)
وابيض طرفي واقف عند حده واسود شعري قد تواضع للثرى.

وقوله:

محياه له حسن بديع غدا روض الخدود به مزهر
وعارضه رأى تلك الحواشي مذهبة فزمكها وشعر^(٦)

(١) عز الصبر: ندر وقل.

(٢) العذار: الشعر في مؤخر الرأس ما بين الأذنين.

(٣) زاغ: مال وحاد.

(٤) حكاه: شابهه - التكلف: الكلف وهو ما يعتري وجه الحامل من النمش.

(٥) التيه: التكبير.

(٦) زمكها: ملأها.

وقوله:

أقول وحر الرمل قد زاد وقده
أظن نسيم الجو قد مات وانقضى
وما لي إلى شمّ النسيم سبيل
فعهدي به في الشام وهو عليل
النسيم العليل تلاعبوا به كثيراً، ولكن قول الصفدي: فعهدي به في الشام وهو
عليل، في غاية اللطف.
ومنه قوله:

كؤوس المدام تحب الصفا
ودعها سواذج من نقشها
فكن لتصاويرها مبطلا
فاحسن ما ذهب بالطلا
وقوله:

قلت لما شوى أوزاً حبيبي
لو يعيش الجزار مات غراماً
واكتسى باللهيب ثوب ثناء
في معاني محاسن الشواء
وقوله:

كلفني ببدر صائغ
سكر المحب بريقه
كالبدر في جو السماء
وغدا يمؤه بالطلا
ومنه قوله:

شوى الأوز فأضححت
فقلت تشوى إوزاً
في حمرة الخد بسطه
أم كنت تشرب بطه^(٢)
ومنه قوله:

قل للعدول يسترح من عدلي
وارتدّ قلبي عن سيوف لحظه
ما أصبح المعشوق عندي مشتهي
وكل شيء بلغ الحد انتهى
ومن نكته البديعة قوله:

أقول له ما كان خدك هكذا
ولا الصدغ حتى سال في الشفق الدجا^(٣)

(١) الطلا: الخمر والدهان.

(٢) البطة: الباطية وهي وعاء من أوعية الخمر.

(٣) الصدغ: الشعر بين العين وشحمة الأذن - الدجا: الظلام.

فمن أين هذا الحسن والظرف قال لي
تفتح وردي والعدار تخرجا^(١)
وقوله:

أصبحت نابغة الغرام لصبوة
في غادة بجمالها متفرده
كم قد جلت من خدها وسيوف مقلتها إلى النعمان والمتجرده
وقوله أيضاً:

أنفقت كنز مدائحي في ثغره
وطلبت منه جزاء ذلك قبلة
وجمعت فيه كل معنى شارد
فأبى وراح تغزلي في البارد
وقوله:

قالت وقد ماتت كغصن النقا
فقلت منهوم الهوى لم يكن
أسرفت في العشق بلا فائده^(٢)
يشبع إن مدت له المائده^(٣)
وقوله:

سكن البدو من أحب فقالوا
قلت بالله هل سمعتم بيذر
زاد أهل الغرام في البعد بعدا
غاب عن عاشقيه لما تبدى
ومن نكته الغريبة قوله:

سال العذار فسل سيف جفونه
يا صدغه والله كنا في غنى
حتى غدت مهج الورى أفلاذا^(٤)
عن أن نراك السائل الشحاذا^(٥)
وقوله:

أقول لقاض سهم مقلته غدا
وإن كان قلبي عنده غير تائب
يصيب الحشا لا تبغ قتلي ولا توذي
فدعه ولا تحكم عليه بتنفيذ

(١) تخرجا: صار له خرجاً وهو من التخريج وهذا نوع من التطريز في طرف الثوب.

(٢) ماد: مال.

(٣) منهوم: من النهم وهو شدة الجوع والعطش.

(٤) العذار: الشعر بين الأذنين من مؤخر الرأس - أفلاذ: جمع فلذة وهي القطعة.

(٥) الصدغ: الشعر بين العين والأذن - الشحاذا: المستعطي.

- وقوله: أملت أن تتعطفوا بوصالكم
وعلمت أن بعادكم لا بدّ أن
- وقوله: لئن سمح الدهر البخيل بقربكم
جعلت ابتذال الروح شكران وصلكم
- وقوله: بدا في الخد عارضه فأضحى
وحاول أن يرى مني سلواً
- وقوله: تقول له الأغصان إذ ماس قدّه
فقم نحتكم في الروض عند نسيمه
- وقوله: تنائي الذي أهوى فمت صباية
صبرت لطرفي إذ رمتك سهامه
- وقوله: أتاني وقد أودى السهاد بناظري
فناديته يا طيب الأصل هكذا
- وقوله: بأسياف الجفون قتلت نفساً
فما أقوى جفونك وهي مرضى
- وقوله: جاء بقدّ قد ثنته الصبا
ومذ غدا في لينة واحداً
- وقوله: وفي القلب من هاجري لوعة
فيا شعره بعض هذا الجفا
- وقوله: يا قلب صبراً على الفراق ولو
وأنت يا دمع إن أبحت بما
- فرايت من هجرانكم ما لا يرى
يجري له دمعي دماً وكذا جرى
- وسكن مني أنفساً وخواطرا
وقلت لدمع العين يعمل ما جرى
- عليه معنفي باللوم يغري
وقال لقد تعذر قلت صبري
- أترعم أن اللين عندك قد ثوى^(١)
ليقضي على من مال منا مع الهوى
- فقال عجيب كل أمرك في الهوى
ولم تتصبر إذ رمتك يد النوى^(٢)
- يمزق جنح الليل بارق فيه
أخذت الكرى مني وعيني فيه
- مبرة عن الشكوى زكيه
وأقدرها على قتل البريه
- ورنحت أعطافه الساميه^(٣)
كانت له ريح الصبا ثانيه
- بغير تلافيه ما تندمل^(٤)
ويا ردفه أنت ما تتحمل
- روعت ممن تحب بالبين
تخفيه وجداً سقطت من عيني

(١) ماس: مال واهتز - ثوى: أقام وسكن.

(٢) النوى: السفر والهجران.

(٣) الصبا: ريح ناعمه صحراويّه - رنح: أسكر وأنشا - السامي: العالي. الأعطاف: الأطراف والجناب.

(٤) تلافى: احتراز واجتناب - اندمل الجح: طاب وشفي.

وقوله: لولا شفاعته شعره في صبه
لكن تطاول في الشفاعه عنده
وهذه النكتة تزاحم هو والشيخ زين الدين بن الوردی علیها، والله أعلم من
المخترع، فإنهما كانا متعاصرين فقال:

كيف أنسى لشعر حبي يوماً
شعر الشعر أنه رام قتلي
وهو كان الشفيح فيّ لديه
فرمى روحه على قدميه

وقوله: إن قلت زرنبي قال لا
فما يرى جوابه
بحاجب ما أظلمه
إلا بنون العظمه^(١)

والشيخ صلاح الدين تزاحم هو والشيخ برهان الدين القيراطي على هذه النكتة،
وزناً وقافية والله أعلم من المخترع منهما، بقوله:

وتائه حدثته
أجابني بحاجب
فلم يفه بكلمه
لكن بنون العظمه

ويعجبني قوله:

أضحى نسيم دمشق حياها الحيا
فكأنه من مائها وهضابها
يمشي الهوينا في ظلال رباها
ما داس إلا أعيناً وجباها

ومثله قوله:

تقول دمشق إذ تفاخر غيرها
جرى ليباهي حسنه كل معبد
بمعبدها الزاهي الرفيع المشيد
وما قصبات السبق إلا لمعبد^(٢) (ي)

وقوله:

لما زها زهر الربيع بروضه
قام الحمام له خطيباً بالهنا
وغدا له فضل ينير لديه
وجرى الغدير فخر بين يديه

(١) نون العظمة: النون التي تصاحب كل كلمة من كلمات المتكلم المفرد- وتدل على تعظيمه نفسه.
(٢) معبد الأولى: مكان العبادة، ومعبد الثانية؛ إسم المغني المشهور، ومع إضافة الياء إليها وهي ياء
المتكلم، تصير بمعنى مكان العبادة، وإذا كانت الياء النسبة تصير بمعنى: ذلك الذي ينتسب إلى
معبد المغني أو الذي يسير على خطه أو غنائه.

وقوله: قالوا علا نيل مصر في زيادته
فقلت هذا عجيب في بلادكم
حتى لقد بلغ الأهرام حين طمى^(١)
أن ابن ستة عشر يبلغ الهرما

ومن أغراضه قوله: رب طباخ به نضجت
سلوتي عنه مزورة
مهجات غير مرحومه
أبدأ والنفس مغمومه

وقوله: أحببت باباً حسنه بارع
أغلق في وجهي باب الرضى
سبى من النساك ألبابا
فهل تراني أفتح البابا

وقوله: إن اللطافة لم تزل
أرأيت عمرك في الورى
بين الأكابر فاشيه
طرفاً رقيق الحاشيه

وكتب على لسان صاحب له طلب من صاحب سرجاً فلم يجهزه له، قوله:

عجباً كيف لم تجد لي بسرج وحده واللجام دأب النفوس
وإذا لم تبعثه في أول الأملر اختياراً فابعثه بالدبوس^(٢)

وكتب إلى من أهدى له صحن قطائف قوله:

أتاني صحن من قطائفك التي غدت وهي روض قد تبت بالقطر
فلا غرو إن صدقت حلو حديثها وسكرها يرويه لي عن أبي ذر

الجماعة تجاروا في هذه الحلبة وأجادوا، منهم الشيخ زين الدين بن الوردى، بقوله:
بعثت قطائفاً حلت جناها قطرها الغامر
فسكرها أبو ذر ومرسل صحنها جابر

وأجاد الشيخ جمال الدين بن نباتة هنا، وجمع بين التورية وحسن التضمين وبديع
الاكتفاء، والحلاوة، بقوله:

أقول وقد جاء الغلام بصحنه عقيب طعام الفطر يا غاية المنى
بعيشك قل لي جاء صحن قطائف وبع باسم من تهوى ودعني من الكنا^(٣)

(١) طمى النهر: إذا فاض.

(٢) الدبوس: المقمعة وهي عصا من حديد أو من خشب في رأسها كرة من حديد. والمعنى: ابعثه بالقوة بعد أن لم تبعثه اختياراً.

(٣) الكنافة: نوع من الحلوى.

وقوله مع بديع التضمين:

رعى الله نعماك التي من أقلها
قطائف من قطر النبات لها قطر
أمد لها كفي فأهتز فرحة
كما انتفض العصفور بلله القطر

ويعجبني هنا قول الشيخ برهان الدين القيراطي، مع بديع التضمين:

لقد قطفت زهر النبات قطائف
تقول اسمعوا مني مدائح مرسلي
تخيرتها فاخترت للنفس ما يحلو
فكلي إن حدثتكم ألسن تتلو

وأما تورية القطر فالقطر النباتي معروف، فمن ذلك قوله:

شكراً لبرك يا غيث العفاة ولا
قد جدت بالقطر حتى زدت في طمع
زالت مدائحك العلياء تنتخب^(١)
وأول الغيث قطر ثم ينسكب

وقوله:

لجود قاضي القضاة أشكو
والقطر أرجو ولا عجيب
عجزي عن الحلو في صيامي
القطر يرجى من الغمام

ويعجبني هنا قول أبي الحسين الجزار:

أيا علم الدين الذي جود كفه
لئن أمحلت أرض الكنافة إنني
براحته قد أخجل الغيث والبحرا
لأرجو لها من سحب راحتك القطرا^(٢)

قلت الشيء بالشيء يذكر ذكرت هنا لغزاً في لوزينج كتب به مولانا قاضي القضاة صدر الدين بن الأدمي، رحمه الله، إلى علامة العصر القاضي بدر الدين بن الدماميني رحمهما الله:

يا من له في عروض الشعر أي يد
ما اسم دوائره في لفظه اثتلفت
أجزاؤه من زحاف الحشو قد سلمت
تصحيف معكوسه لفظ يرادفه
والعبد منتظر من حله فرجاً
فاق الخليل بها فضلاً وتمكينا
والثلم في صدرها مستعمل حيناً
وقد تقطع مطوياً ومخبوناً^(٣)
يا فرد يا رحلة قوم مقيمونا
لا زال سعدك بالإقبال مقروننا

(١) العفاة: طالبوا المعروف.

(٢) الكنافة: نوع من الحلوى. السحب: واحدها سحابة وهي الغيمة.

(٣) الزحاف والحشو والمطوي والمخبون: مصطلحات عروضية.

فأجابه المشار إليه بقوله:

يا مرسلًا من شهبي النظم لي كلما
لله درك صدرًا من حلاوته
حليت لغزك إذ أبهمته فلذا
هذا وكم قد رأينا في دوائره
وليس إضماره مستحسنًا فأدم
وكن لنا هاديًا صوب الصواب ودم

منه ابن سكرة قد راح مغبونا
وجوهر النظم لم يبرح يحلينا
يا فاتني رحت بالإعجاب مفتونا
للكف قبضاً يزيد العقل تمكيننا
بالكشف عنه لمن وافاك تحسينا
فينا أمينا رشيد الرأي مأمونا

وقد آن الرجوع إلى ما كنا فيه، مما اختاره من نظم الشيخ صلاح الدين الصفدي
في باب التورية، فمن لطائف مجونه قوله فيمن سرق شيئاً من بعض شعره:

إن كان يا مولاي لا بد أن
قافية البيت اطرح لفظها
أدير بلحيتي البيضاء كاسي
ألم ترني وعفو الله راج
وقوله:
وجرة قدّموها
شممت طينة فيها
وقوله:
قلت له إذ هز لي ذقنه
تذكر إذ غنت فنادى نعم
وقوله:
وعاذل بارد المقالة لا
وقال ذقن الحبيب باردة
وقوله:
ملككت كتاباً أخلق الدهر جلده^(٤)
يقولون لا تهلك أسي وتجلد^(٥)

تأخذ شعري جملة كافيه
وقم خذ الكل بلا قافيه
بكّيس زائد مني وفطنه^(١)
ومن شرهي أصفها بقطنه^(٢)
والراح فيها كمينه^(٣)
فرحت سكران طينه
ولام فيمن همت في عشقها
فقلت واشوقاً إلى حلقها
يعي صواباً وزاد في نكدي
فقلت يا بردها على كبدي
يقولون لا تهلك أسي وتجلد^(٥)

(١) الكّيس: اللباقه وحسن التصرف.

(٢) الشره: النهم وهو شدة العطش والجوع.

(٣) الكمين: المختبىء.

(٤) أخلق: أبلى.

(٥) الأسي: الحزن - تجلد: تصبر، والشطر لطفة بن العبد من معلقته:

وقوفاً بها صحي علي مطيهم يقولون لا تهلك أسي وتجلد

ومن نكت المجون التي توارد هو والشيخ جمال الدين عليها، وزناً وقافية، قوله:

إذا ما قام أيرك في الدياتي وعندك من تحب فلا تحابي (١)
ومل نحو الطواشي واعتنقه فمثلك لا يدل على صواب (٢)

وقول الشيخ جمال الدين:

أرى الصواب يا أيري صفات تحث على التعشق والتصابي
فبادره فأنت به خبير ومثلك لا يدل على صواب

ويحسن أن نختم هذه المجونات بقول الشيخ صلاح الدين، وهو:

يا ساحباً ذيل الصبا في الهوى أبليت في الغي وهو القشيب (٣)
فاغسل بدمع العين ثوب التقى ونقه من قبل وقع المشيب

الشيخ صلاح الدين سامحه الله كان من المكثرين، وكان هو والشيخ شهاب الدين ابن أبي حجلة يرضيان، لرغبتهما في الكثرة بالأشياء الرخيصة، ولم أورد للشيخ صلاح الدين هنا غير الغالي من نظمه واختياره واختياري، ومن محاسن الشيخ زين الدين بن الوردي في باب التورية، ومقاطيعه التي هي أحسن من مقطعات النيل، وأحلى في الأسماع من نغمات المواويل:

إن قلت قدك غصن قالت لي الغصن ساجد
أو قلت ريقك ثلج قالت تشبه بارد

ومن ذلك قوله:

يا سائلي تصبراً عن لثم فيه لا تسل
ما تستحي تبدلني بالصبر عن ذاك العسل

ومن ذلك قوله:

ومليح إذا النحاة رأوه فضلوه على بديع الزمان
برضاب عن المبرد يروي ونهود تروى عن الرماني

(١) حابي: فاضل بين شيئين أو فضل أحدهما على الآخر.

(٢) الطواشي: الخصي، الذي لا يمكنه الجماع.

(٣) القشيب: الجديد.

وقوله:

ولكن في اعتدال كالقضيب
وقال ختمت قلت على القلوب

امام في الركوع حكى هلالاً
وقال تلوت قلت الشمس حسناً

ومن لطائفه في هذا الباب قوله:

إذ مال عن قبوله
ممدد بطوله

يشفع فيّ شعره
فهو على أقدامه

ومنه قوله:

بديعة الحسن إلا أنها ابتدعت
كيف السحور. وهذي الشمس قد طلعت

عجبت في رمضان من مسخرة
قامت تسحرنا ليلاً فقلت لها

ومن لطائفه قوله:

فخله يتعذر
والجيد لا يتغير

إذا تعذر حبي
فجيده حصل ما بي

ومنه قوله:

لأجتليه قال ما أمطلك^(١)
فقال هات المال والجيد لك

وتاجر ماطلته دينه
قلت له جيدك لي أو لمن

وقوله:

أنسي وتخشي نفوري
أجور ناديت جوري

قالت إذا كنت تهوى
صف ورد خدي وإلا

ومنه قوله:

وقال هذا من هوى
أصاب عيني بنوى

أنكر حبي مدمعي
فقلت لا بل من فتى

ومن نكته اللطيفة في تضمين المثل السائر قوله:

في القلب منزلة ترقى
وقطعتها من حيث رقت

وسمينه كانت لها
رقت فعفت وصالها

(١) ماطل: سوّف ولم يف بالوعود.

- وقوله: سألتها أي ناه
قالت نهاني زوجي
ومن أغزاه قوله: أقول إذ قال لي حبيبي
خدك كان الصفا ولكن
- وقوله: رامت وصالي فقلت لي شغل
قالت كأن الخدود كاسدة
- وقوله: أبصروا دمعي فخافوا
ما عليكم من دموعي
- ومنه قوله: سل الله ربك من فضله
ولا تسأل الترك في حاجة
- وقوله: لما شئت عيني ولم
أذنيته من خده
- وقوله: ضممتها عند اللقا ضمة
قالت تمسكت وإلا فما
- وقوله: شكى من الخط ضعفاً
قلت استعن بمثال
- ومنه قوله: وأغيد يسألني
مثلهما لي مسرعاً
- ومن نكته مع حسن التضمين قوله:
كبنيان القصور على الثلوج
فقد عزم الغريب على الخروج

(١) نوجك: مرءاتك، النوج: المرءاة.

(٢) رام: أراد وطلب - الخود: الحسناء.

(٣) كاسدة: ليس عليها طلب - القاني: المحترف والمترين.

(٤) الكلف: الشديد العشق المتلهف على اللقاء.

(٥) الأغيد: الممشوق القد المتمايل في مشيته.

ومن نكته اللطيفة قوله:

مهفهف القدّ إذا ما انثنى
ما أنت حملي يا كئيب النقا
لو نلت من خديه تقبيلة
وقوله:
رومية الأصل لها مقلة
قد فضحتني وجنتاها فقل
وقوله من دو بيت:

يا روضة حسن ليها لي وحدي
ما ضرك أن تسقي بماء فرد
ومنه قوله: هويت أعرابية ريقها
رأسي بنو شيبان والطرف من
قلت وقد عانقته
قال وهل يحسدنا
عندي من الصبح فلق^(٢)
قلت نعم حتى انفلق

در يقصّر دونه التقويم^(٣)
والثغر يضحك منه وهو يتيم
ومنه قوله: تقويم قدّك مال يا من ثغره
إني لأبكي من جفاك ولي أب

ومن اختراعاته قوله:

رام ظبي الترك ورداً
عندك الورد المربي
وقوله:
رب فلاح مليح
كفلي أضعف خصري
قلت أقصر خاب ضدّك
قال قاني قلت خدك
قال يا أهل الفتوّه
فأعينوني بقوّه^(٤)

(١) بنو شيبان ونهان وكلاب: قبائل عربية.

(٢) الفلق: الضوء ينشق من ظلمة الليل.

(٣) تقويم: الأولى بمعنى الاستقامة والثانية بمعنى التثمين.

(٤) الكفل: فلكتنا المؤخرة أو الردف.

وقوله: قلت لفرّا فرى أديمي
قد فر صبري وفر نومي
وقوله: رغيف خباز كم قد حكى
إذا رأى ميزانه المشتري

وزاد صدّاً وطال هجرا^(١)
قال نعم مذ عشقت فرا
من وجهه التدوير والحمرة
قال هنا الميزان والزهره^(٢)

ومنه قوله في مליح عبري:

أغيد عبري له عمّة
لقد سبى بالنور شمس الضحى

حكّت من العشاق ألوانا
فهل أتى من آل عمراننا

ومنه قوله: ووعدت أمس بأن تزور ولم تزر
لي مهجة في النازعات وعبرة

فغدوت مسلوب الفؤاد مشتتاً
في المرسلات وفكرة في هل أتى^(٣)

وقوله: أعور كالبدر له مقلة
قد سرق الرقدة من ناظري

واحدة قامت مقام اثنتين
وقال ما جئتك إلا بعين

وقوله: بأبي أعور عين فاتن
طرفه الواحد غضب ذكر

مثل بدر التم والتم بعين
فله في الحسن حظ الأنثيين^(٤)

ومنه قوله: رأيت رشيقي القد أعور فاتنا
إذا قال غصن البان أنت ابن قامتي

له مقلة أغنته عن حسن ثنتين^(٥)
يناديه بدر التم أنت أخو عيني

وقوله: جنكية شاهدت عشاقها
قالت أما تعشق جنكية

وهم بها في الجهد والضنك
قلت كذا يا ليتني جنكي

وقوله: تغسل عيني وجنتي
فوجنتي قائلة

بدمعة غاسلتي
غاملتي

(١) فرى: يفري، شق - والأديم: الجلد.

(٢) الميزان والمشتري والزهرة: من الكواكب والأبراج بالإضافة إلى معناها الحقيقي.

(٣) هل أتى، والنازعات: سورتان من سور القرآن الكريم.

(٤) العضب: الحاد القاطع - الأنثيين: الخصيتين.

(٥) الجنكية: التي تضرب بالجنك وهو من آلات الطرب - الضنك: التعب.

وقوله: ناديت صالحه إلى
قالت نزحت لأنكم

كم أنتِ عنا نازحه
لا تصلحون لصالحه (١)

هويت حصاداً حكمت قامتي
أقول والسنبيل من حوله

من طول ما يهجرني منجله (٢)
مولاي أنت الشمس في السنبله (٣)

وقوله: أنا في حالي نقيض
هزم الصبر عليكم

يا شموساً في البزوغ
والمنى دون البلوغ

ومن لطائفه قوله:

قال لي بند خصره
قلت لا تنفرد به

كم كذا ترجع البصر
لك شد ولي نظر

ومن أغراضه اللطيفة قوله في صديق له بالمعرة يقال له شمس:

لي بالمعرة شمس
فلا تدموه إنني

رضاه غير مرادي
أدرى بشمس بلادي

وكتب إليه في زفة له:

يا شمس أشعلت شمعاً
رغمأ لمن قال قبلي

عليك عشر الأصابع
الشمع في الشمس ضائع (٤)

ومنه قوله في آل النصيبي بحلب:

فؤادي إلى آل النصيبي مائل
فبيني وبين القوم نوع تجانس

وودي لهم في محضري ومغيبني
إذا طاب أصل الورد كان نصيبي (٥)

وقوله: للمقدسي بقلبي
فمن يكن ذا خليل

حب خليّ الدليل
فالمقدسي خليلي

(١) نزح: هاجر- صالحه: إسم علم وعمل الخير.

(٢) المنجل: آلة الحصاد البدائية.

(٣) السنبله: أحد أبراج الشمس.

(٤) ضائع: لا يظهر ضوءه.

(٥) نصيبي: نسبة إلى آل النصيبي ومن الحظ.

ومن لطائف أغراضه قوله:

فألزهد بالشيخ أليق^(١)
فإن فردك أبلق^(٢)

يا شيخ خلّ التصابي
ولا تحت كميّتا

يقول أتدري كيف أصنع بالخلق
أزرّق لهم رجلي ولو خضروا عنقي^(٣)

ولي صاحب بالمدح والهجو كسبه
إذا حمّروا وجهي وما بيّضوا يدي

ما قرّ لي عنده قرار
إن لسان السراج نار

ومثله قوله: لي صاحب واسمه سراج
لسانه محرق لقلبي

ومن أغراضه اللطيفة قوله:

أم الخلاف أم ورد القطاف^(٤)
وقد حصل الوفاق على الخلاف

تجادلنا أماء الزهر أزكى
وعقبى ذلك الجدل اصطلحنا

ومن لطائف مجونه:

هذا قضاء أم قدر
إن القضا يعمي البصر

يا من تولى قاضياً
غدروك في بستاننا

ومن أغراضه البديعة قوله:

بحر به أو سلمه
فقد قضى بعلمه

قد مات شيخي فآظهوروا
عيشوا بجهل بعده

ومن أغراضه البديعة قوله:

فالجاه يحكي خيال طيف
عين عدوي وجفن سيفي

لا تحملوني على انتقام
عفوت عن مذنب فقرت

(١) خلّ: أترك - التصابي: عمل الصبيان.

(٢) حتّ: أسقط - الكميّت: من صفات الخمرة - الفود: الشعر النابت فوق جانب الرأس مما يلي الأذن - الأبلق: الذي خالط سواده بياض.

(٣) حمّروا وجهي: أخجلوني - بيّضوا يدي: بالعتاء أزرّق لهم رجلي: أهيتها للرحيل إليهم - خضروا عنقي: دقوها.

(٤) الخلاف: الصفصاف.

ومن أغراضه قوله :

هم الأنام فقابلهم بتقبييل
مصر مقدمة والشرح للنيل

ديار مصر هي الدنيا وساكنها
يا من يباهي ببغداد ودجلتها

ومن لطائف مجونه قوله :

هربت منه وأنا صارخ^(١)
يا قوم هذا أسود سالخ^(٢)

حمامكم قيمه أسود
قد سلخت جسمي أظفاره

ومن لطائف أغراضه قوله :

لم يثنه عنه لا مال ولا ولد
أيرتضي رتبة التقليد مجتهد^(٣)

يا من غدا في طلاب المجد مجتهداً
لا تبسطن لتقليد القضاء يداً

وكتب إلى قاضي القضاة شرف الدين بن البارزي :

وكفيتنا مرضين مختلفين
فلك التصرف في دم الأخوين

جنبتي وأخي تكاليف القضا
يا حيّ عالم دهرنا أحييتنا

وقوله مع تضمين المثل السائر :

قد كان يعرف قدري
يا صاح أحرف وأدري^(٤)

إني عدمت صديقاً
دعني لقلبي ودمعي

ومن لطائف أغراضه وقد ولي قضاء شيراز قوله :

وبها القاضي مخلد
أنا من حزب محمد

إنما شيراز نار
قلت لا أمكث فيها

ومن أغراضه قوله :

وأقام تذكاري وصبري نازح
يا أيها الإنسان إنك كادح^(٥)

مرض الفؤاد وصح وديّ فيهم
إنسان عيني كم سهادكم بكى

(١) القيم : المسؤول عن الشيء والمعنى به .

(٢) الأسود السالخ : من الحيات أشرسها وأشدّها سماً .

(٣) المجتهد : الذي يستطيع استنباط الحكم الإلهي في أي قضية .

(٤) أحرف وأدري : أي أعرف وأنكر .

(٥) كادح : عامل عملاً شاقاً ، وهذا الشطر من آية قرآنية هي قوله تعالى : ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح

إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾ .

ومن نكته البديعة مع تضمين المثل قوله في آل البيت عليهم السلام:

يا آل بيت النبي من بذلت
من جاء عن بيته يحدثكم
ومن نكته الغريبة قوله في محتسب:

من ولي الحسبة يصبر على
فليس يحظى بالمنى والغنى
وقوله: قد عجبنا لأمير
فهو كالجزار فيهم
تعرض الواقف والسائر
فيهم سوى المحتسب الصابر^(٢)
ظلم الناس وسبح
يذكر الله ويذبح
وقوله في مدينة حلب:

عليك بصهوة الشهباء تلقى
فللعرفان في الفردوس ربح
ومن مجونه فيمن رتبوا له أربعة دراهم قوله:
كل يوم رتبوا أربعة
فلو استفتيت في سيدنا
ومن لطائفه قوله:

ناعورة مذعورة
الماء فوق كتفها
ولهانة وحائره^(٦)
وهي عليه دائره
ومن نكته الغريبة قوله:

زوجة مجد الدين والداها
إن أباهما وأبا أباهما
قد أخذ عرض المجد أشبهاتها
قد بلغا في المجد غايتها

(١) عُين: يُخس حقه.

(٢) المحتسب: الذي يعمل العمل في سبيل الله.

(٣) الجوشن: الصدر - الصهوة: أعلا الشيء.

(٤) الصعصعة: الجلبة والصباح.

(٥) استفتى: طلب الفتوى، وهي الحكم الشرعي - الأربعة: اليدين والرجلين..

(٦) الناعورة: دولاب يستقى بواسطته الماء - المذعورة: الهاربة التي تبدو وكأنها ملاحقة.

وقوله: مליحة مصطولة
تقول كل ظبية إن لمتها فيما أرى^(١)
ترعى الحشيش الأخضر

ومن أغراضه البديعة مع حسن التضمين قوله:

كرهت وضوءاً من قناة تساق من
سشرق في يوم الحساب ندامة
دماء الرعايا أو بسخرة مسلم^(٢)
كما شرقت صدر القناة من الدم

ومما تخيرته هنا من تأليفي الذي وسمته بتحرير القيراطي رحمه الله تعالى قوله:

البدر طلعة وجهه
وخفوق قلبي في هوا
وعذاره هالاته^(٣)
ه سعيده حركاته

وقوله: أجريت دمعي فمذ أفنيت أبحره
إن ملت عني برمح القدّ يا أملي
أجريت مني بأسياف الجفون دمي
لتقرعن عليّ السنّ من ندم

وقوله: أسدي ثم اللحم تحت طاق
وكم يوم عبرت له زقاقاً
له والدمع يجري كل وقفه^(٤)
أحاول غفلة وأروم عطفه

وقوله: لما تبدى قوام قامته
رأيت موتي بسيف ناظره
وحاجباه لناظر العين
من قيد رمح وقاب قوسين

وقوله: تنفس الصبح فجاءت لنا
واطربت في العود قمرية
من نحوه الأنفاس مسكيه
وكيف لا تطرب عوديه^(٥)

وقوله: ارتاح للأقمار وهي طوالع
ويهزني زجل الطيور بلحنها
وشموس راحي للمغارب تنجح
والروض بالزهر النظيم موشح

(١) مصطولة: بلهاء.

(٢) السخرة: التسخير وهو التشغيل دون مقابل.

(٣) العذار: الشعر ما بين الأذنين من مؤخر الرأس - الهالات: جمع هالة، وهي دائرة من النور تحيط بالقمر في أيام القيظ عادة.

(٤) أسدي ثم اللحم: من السدي واللحمة وهما الخياطة والتبطين.

(٥) القمرية: نوع من الحمام المطوق.

فالمراسيم تستمع لك قلبي غدا تبع	يا أمير الجمال قل أنا مملوكك الذي	وقوله:
يا صاح اسبق لي من العذل قد سار بين السهل والجبل	في جفنه سيف مضاربه وبخذه والردف لي خبر	وقوله:
من لقتلي بين الأنام استحلا حدنا دون ذاك حاشي وكلا ^(١)	شبه السيف والسنان بعيني فأبى فالسيف والسنان وقال	وقوله:
نيرانها للقلب جنات ^(٢) لها على الأرواح نصبات	هويت طباحاً له نصبة يكسر أجفاناً إذا ما رنا	وقوله:
وإن هي زادني جفا وتباعدا عليها إذا شاهدتهن موائد	أهيم بأعطاف القدود صبابة ويعجبني بين الأنام تطفلي	وقوله:
في مجلس ما فيه ما نكره أيضاً فقال الكل في الحضرة ^(٣)	أباح لي نرجس الحاظه فقلت ورد الخدّ جد لي به	وقوله:
لم أجد من ظبا الجفون ملاذا ^(٤) قلت جاءت على الحمى فولاذ	قال لي بالحمى غزالي لما كيف جاءت إليك أسياف جفني	وقوله:
تزري بحسن نوادر ابن عتيق ^(٥) هز القوام لنا فما ابن رشيق	في وصف خمر الثغر منك نوادر وإذا وصفت رشيق قدك عندما	وقوله:
وصفين من نيلك يا مصر وجفنه الساجي له الكسر ^(٦)	جفني وجفن الحب قد أحرزا جفني له يوم الوداع الجفا	وقوله:
لما تبدى حسنه الباهر جراية أطلقها الناظر ^(٧)	خدمت بالأغزال أبوابه ولي من الدمع على خدمتي	وقوله:

(١) هكذا في الأصل ونرجح أنه: السيف، بدل: فالسيف.

(٢) النصبة: الموقد المنصوبة.

(٣) في الحضرة: في خدمة صاحب المكانة الرفيعة.

(٤) ظبا: جمع ظبة وهي شفرة السيف وحده.

(٥) ابن عتيق: الناقد الشهير ابن أبي عتيق الأموي.

(٦) الساجي: الساكن الهاديء.

(٧) الجراية: الجريان والمسيل.

- وقوله: الدمع والجفن فيه
فالجفن يسقط دمعي
- وقوله: عبدك يا من جفا وصدّ وما
جرى على الخد من مدامعه
- وقوله: في خد من همت به شامة
والعنبر الرطب غدا قائلاً
- وقوله: ومخايل نبت العذار بخدّه
لما رأني قانعاً بخياله
- وقوله: مال إلى الهيئة ذو هيئة
فخاله في خدّه نقطة
- وقوله: أنظر إلى سطر عذار بدت
صحت به نسخة حسن لمن
- وقوله: جزت النقا فحويت لين غصونه
وأخذت حسن البدر منه وقد بدا
- وقوله: ويوم توالى القطر فيه فجاءني
فعانقت لما مال عسال قده
- وقوله: يا من تبرمك^(٦) صبه في عشقه
بالفضل جد لي إن دمعي جعفر
- وقوله: يا هاجراً أوقعني هجره
أخذت قلبي بالتجني وما
- لي شاهدان بحزني
والدمع يجرح جفني
درى بصب يموت بالكمد^(١)
في الحب ما لا جرى على أحد
ما الند في نفحه ندها^(٢)
لا تدعني إلا بيا عبدها
وله مخايل بالملاحة تشهد^(٣)
نزل العذار بوجنتيه يسود
فاتنة ألبابنا باهره
عذاره أضحي لها دائره
من فوقه الشامات مثل النقط
قد راحت الأرواح فيه غلط
وكثيب واديه وجيد غزاله
في أفقه بتمامه وكماله
بشمس الطلا بدر يفوق على البدر^(٤)
وقبلت معسول اللمي عدد القطر^(٥)
بالروح لا تبخل فعشقي زائد
والوجد يحيى والتشوق خالد
وصده في حالة صعبه
تركت لي منه ولا حبه

(١) الصب: الشديد العشق - الكمد: كبت المشاعر.

(٢) الند: عود يتبخر برائحته الطيبة - ندها: شبيهها.

(٣) المخايل: المختال الفخور - المخايل: العلامات.

(٤) الطلا: الخمرة.

(٥) العسال: المضطرب المهتز - المعسول: الممزوج بالعسل - اللمي: سمرة الشفاه.

(٦) تبرمك: انتسب إلى بني برمك أو تشبه بهم، وهم أسرة علت مكائتها في الحكم حتى كانت نكبتهم على يد أحد الخلفاء العباسيين. ومنهم يحيى البرمكي وخالد وجعفر والفضل.

على بدور التم ما أحسنك
في خده الناعم ما أخشك

مسرى النجوم الزهر في الأفق
تسندها الركبان من طرق

وبالفلك المحيط غدت محيطه^(١)
وفي أوضاعه ملك البسيطة^(٢)

عليك يلقي فيك أقصى مناه
ظهرك للوطء وصب المياه^(٣)

عليه حلوق السبق قلت كذا جرى^(٤)
تجرى عليها معجباً فتقنطرى

في الفقر طول مكثه
زيد له في حرثه^(٥)

لا يرى عن أبي الصفا تحويلا
لا يُراعون في الأنام خليلا^(٦)

وقوله: قلت له لما زها حسنه
وقلت للائم يا لائمي

ومن لطائف مدائحه قوله:

أوصافكم تسرى أحاديثها
كما أحاديث الندى عندكم

وقوله في البجانقي الموقت:

شهاب الدين ذو فكر بسمت
غدا في العصر شيخ الوقت حقاً

ومن أغراضه قوله:

قناطر الجيزة كم قادم
أتاك قوم لاطة فانحنى

وقلت في هذا المعنى:

وقالوا كميث النيل يجري وقد غدا
ولكنه نحو القناطر إذ أتى

ويعجبني من أغراضه اللطيفة قوله:

كم عالم قد اشتكى
وكلّ نور سارح

وكتب إلى الشيخ صلاح الدين:

يا صلاح العلا صفاء ودادي
فدع العتب إنني لست ممن

(١) السميت: الهيئة الخيرة.

(٢) البسيطة: الأرض وما عليها.

(٣) لاطة: يمارسون اللواط وهو إتيان الرجال شهوة من دون النساء.

(٤) الكميث: الحمراء الضاربة إلى السواد - الحلوق: الطرق.

(٥) الحرث: المتاع.

(٦) الخليل: الصديق الملازم.

ومن لطائفه قوله فيما يكتب على طاسة:

وفاق على نقش الغواني التي تسبي^(١)
كأني في الكاسات داخلة الضرب

تأمل فإني طاسة صح نقشها
وواصف حسني أطرب السمع قوله

وقلت في المعنى:

نهر المجرة للنجوم موارد
فقمرته وعليه نقشي قاعد^(٢)

أنا طاسة قدري سما وبروضتي
وتسارح القمر المنير لحسنه

وقلت أيضاً:

وصفاً لكم قلبي بماء رائق
فتنزهوا بين العذيب وبارق^(٣)

أنا طاسة بيضت وجهي عندكم
عذبت موارد ببارق بهجتي

ومن أغراضه اللطيفة في باذهنج قوله مضمناً:

باطفاء ما يلقاه من حرق الجوى^(٤)
على أني راض بأن أحمل الهوى

بروحي أفدي باذهنجاً موكلأ
إذا مدحت أوصافه قال منشداً

ومن أغراضه قوله:

مقامنا يرقص مع صحبه
وكأسنا دار على كعبه

أطربنا العود إلى أن غدا
فشمعنا قام على ساقه

وقوله مضمناً:

قدر المنازل من سواها نازل
لك يا منازل في القلوب منازل

درب الحجاز لقد شرفت منازلأ
كم سرت فيها نحو مكة منشداً

ومما اخترته من الأبيات العامرة، للمعمار رحمه الله قوله:

إن قام يتلو سورة الشمس————س المنيرة في ضحاها

(١) تسبي: تفتن وتأسر، والطاسة وعاء صغير مجوف ومستدير.

(٢) قَمَرٌ: غَلَبَ.

(٣) العذيب وبارق: مكانان في الصحراء.

(٤) باذهنج: لم نعر على هذه اللفظة في ما بين أيدينا ونظنه من الأسماء التي تدل على نوع من النبات.

يا حسنه فكأنه القمر المنير إذا تلاها^(١) (ي)
ونقلت من تذكرة الشيخ عز الدين الموصلي، بخطه، بيتين للمعمار وذكر أنهما
خارجان عن الديوان، وهما من اللطائف في هذا الباب:

رفقاً ومهلاً عليه أيها الجاني
بان يخط عليه عرق ريحان^(٢)

لما تبدي عذار الحب قلت له
ولا تخشن فما في الخد محتمل

ومن لطائفه في هذا الباب قوله:

في خده لكن رأيت العجب
ما أنت يا مشروط إلا رطب^(٣)
من الهند معسول اللمي أهيف القد
خذوا حذرکم قد سل صارمه الهندي

وخادم قبلت مشروطه
من ناعم حلو فناديته
وقوله: تملك قلبي خادم قد هويته
أقول لصحبي حين يرنو بلحظه

فقال تركت لثم الخسد عجا
ورحت تضيع الورد المرابي^(٤)

وقوله: لثمت عذار محبوبي الشرابي
حفظت الأنيسون كما سمعنا

له من الحسن اتصال ونسب
يا عرباً أهل ذمام وحسب
في حبكم ضلت وراحت يا عرب^(٥)

وقوله: صاد فؤادي من بني العرب فتى
فصحت في الحي وقلبي طائر
عساكم أن تشدوا حشاشة

وفراقهم ما كان أصعب
والموت لي من ذاك أقرب
م فلم يلح في الحي مضرب^(٦)

وقوله: رحلوا عريب المنحني
أملتهم أن يرجعوا
جئت الحمى لأرى الخيا

ومنه قوله وأجاد:

ومزاجه للعاشقين يوافق
منه قلوب في الصدور خوافق

كلفني بطباخ تنوع حسنه
لكن مخافي من جفاه وكم غدت

(١) تلاها(هي): الأولى بمعنى: قرأها والثانية، بمعنى اللهو.

(٢) البان: شجر طيب الرائحة - الريحان: كل نبات طيب الرائحة.

(٣) المشروط: المتأق في عمله.

(٤) الأنيسون: اليانسون، نبات عشبي ذو رائحة فواحة يُستعمل في الاستطباب.

(٥) الحشاشة: بقية الروح. ضلت أضاعت الطريق.

(٦) المضرب: الخيمة أو مكانها.

صار لي لحمًا ودما
وامتلا قلبي شحماً^(١)

ولي دم طل على خده
تحقق الفتنة من عنده
قد حبيبي مال مع قده

بلحظه لشقائي
أشكو إلى الحكماء
فقلت من علم دائي
فتلك عين الخطائي

ومنه قوله: رب جزار هواه
فزت بالألية منه

وقوله: حاكت في شرع الهوى قاتلي
فاتهم الحاكم لحظاً له
مال إلى الحق فلما رأى

وقوله: أصاب قلبي خطائي
فرحت من فرط دائي
قالوا أصبت بعين
إن كان هذا صواباً

ومن لطائفه قوله:

حسرة إذ قضى الزمان ببيني^(٢)
أوقف الدمع قلت من بعد عيني

رحت يوم الفراق أجري دموعي
قل كم ذا تجري دموعك تعمي

ومن لطائفه قوله:

وما ألقىه من ضنى جسدي^(٣)
فقلت يا بردها على كبدي

شكوت للحب منتهى حربي
قال تداوى بريقتي سحراً

ومن لطائفه قوله:

مختفياً من حاسد معتدي
أسبل عليّ الستر يا سيدي^(٤)

قلت له لما وفي موعدي
رب كما فرحتني بالوفا

دموع ساكبات مستمره
وفي عيني بعد الهجر قطره

وقوله: وبى غضبان لا يرضيه إلا
فما عطفت معاطفه بوصل

(١) الألية: ذنب الغنم أو العجيزة وما ركبها من شحم ولحم.

(٢) البين: الفراق.

(٣) حربي: غضبي الشديد - الضنى: الضعف والمرض.

(٤) أسبَل الستر: أرخاه وستر به.

ومن لطائفه قوله:

متميم ما قضى من وصلها وطره^(١)
حتى ولا واحد يصفو من العشره
عاذلي في التبسم
قيل في دور درهم
ورد بدا لم أجنيه
حلاوة في صحنه^(٢)

لو أنصفت لأشارت بالسلام على
بأصبع إنما عضت أناملها
ومثله قوله: لو رأى دور ثغره
ذهبت روحه كما
وقوله: في خد من أحببته
وشامة ذقت لها
ومن لطائف قوله مع التضمين:

بأنوار آيات الضحى حين أقبلا^(٣)
بدأت بيسم الله في النظم أولاً

عزمت على رقيا محاسن وجهه
فلما بدا يفتر عن نظم ثغره
ومن بديع مديحه قوله:

غمر الفضل ووفى
علم السر وأخفى
وفضلاً شاع بين العالمينا
فصرت من الكرام الكاتبينا
وجميله ما عشت طول زماني
بالجود إلا كنت أول ثان^(٤)

لابن فضل الله فضل
كيف لا وهو عليّ
وقوله: أيا بدر المحاسن حزت جوداً
وكنت من الكرام فحزت حظاً
وقوله: قسماً بما أوليت من إحسانه
ورأيت من يثني على عليائه
ومن أغراضه قوله:

فاستوطنوه مشرقاً أو مغرباً
فتمموا منه صعيداً طيباً^(٥)

ما مصر إلا منزل مستحسن
هذا وإن كتم على سفر به

(١) الوطر: الحاجة والأرب.

(٢) الشامة: الخال بقعة سوداء تظهر على الجلد وتكون عادة على الخد- صحنه: أي صحن خده
وصحن الخد صفحته.

(٣) الرقيا: التداوي بالرقى وهي التعاويذ والطلاسم.

(٤) ثان: الذي يثني، المادح.

(٥) هذا البيت عبارة عن آيتين قرآنيتين تصرف بهما الشاعر وتيمموا: اقصدوا- الصعيد: الأرض
والتراب.

وقوله: جاء الرخاء وفاض النيل وانفرجت
وراح خزانة للنيل ينظره
عنا الهموم وهان القمح ثم رمى
فاستكثر الماء في عينيه ثم عمى

وقوله: حزن الخزان لما أن رأى
ورأى الأرض لنا قد أخرجت
وبكى إذ رمدت أعينه
نيلنا قد عم سهلاً وجبل
سنبلات ذات حب فاخبيل^(١)
زادها الله عروفاً وسبل^(٢)

وقوله: سمعت يوماً سد مصر يقو
وكان هذا خبراً صادقاً
ل النيل وافى زائداً عندي
فرحت أرويه عن السدي^(٣)

وقوله: لاثمي في الشباب دع عنك لومي
أيها الشيخ هات بالله قل لي
لست ممن تروعه بالعتاب
أي عيش يحلو بغير الشباب

وقوله: وشادن ليس له شارب
كفايتي من ريقه شربة
ولا عذار بل له طره^(٤)
واحسرتي منه على جره

ومن لطائف مجونه قوله:

شهر الصيام تولى
فقبل شيع بست
فراقه يوم عيد
فقلت أيضاً وسيدي^(٥)

وقوله: قلت هلال الصيام ليس يرى
فغالطوني وحققوا ورجوا
فلا تصوموا وارضوا بقول ثقه
وكل هذا من قوة الحدقه^(٦)

وقوله: أيري مع المرد خاب متجره
فضيعوا رأس مال حاصله
مذ عاملوه معشر النصبه
إذ كسروه وقام بالثقبه

(١) اخبيل: جن واختلط عقله.

(٢) عروق العين: مرض يصيبها فلا تقوى على النظر (الظفر). والسبل: العمى والغشاوة.

(٣) السدي: أحد رواة الحديث.

(٤) الشادن: الغزال تشبه به الفتاة - العذار: جانب اللحية أو معظمها - الطرة: الطغراء وهي الشعر الذي يجمع ويرفعه صاحبه فوق جبهته.

(٥) الست: العدد المعروف والسيدة من النساء.

(٦) الحدقه: دائرة العين التي يرى بواسطتها.

- وقوله: أيري إذا ندبته
قام لها بنفسه
- وقوله: تأخرت لعذرها
أيري هذا عصبي
- وقوله: لي أير فيه كبر وجفاء
كلما أغضبني أرضيته
- وقوله: أيري مغرى باللواط الذي
أوقف حالي لا تسل ما جرى
- وقوله: وبخت أيري إذ جاء ملتثماً
بل قال لي حين لمته قسماً
كيف وفيها طهرتي وبها
- وقوله: يا ليلة قضيتها
عمود أيري قائم
- وقوله: وصغيرة كلفتها
ما خلت يحمل ذا العمود
- ومثله: صغير نام على وجهه
قم أدخل العمود يا سيدي
- وقوله: عميرة قام يبتغي نكدي
ها أنت في قبضتي تطاوعني
- وقوله: وقحبة ذات حر يابس
تقول قم طرّقه لي لا تنم
- وقوله: أطعمت أيري كي بنا
بل قام يسعى قائلاً
- وقوله: قد ذبت من كربى لفقد النسا
وقد طغى الماء فمن لي بأن
- لحاجة تختص بي
ما هو إلا عصبي
- قلت لها تقدمي
يدخل معك في الدم
- وهو مني يا لقومي وإليّ
وإذا أرضيته قام عليّ
- يقبح لا سيما على مثله
وصرت خلف الناس من أجله
- بذاك من غفلة فما اكثرنا
ما جزت حمام قعره عبثاً
أقلب ماء وأرفع الحدثا
- فهل تراها عائده
وهي عليه قاعده
- أيري فقالت ويك باعد
د من النسا إلا القواعد
- وقال حكك قلت لا فائده
فقال لا تنخرم القاعده
- جلدته ثم قلت يا ولندي
وإن عصاني خصاه تحت يدي
- يحمل كالسندان رصي الشديد
فقلت ما لي زبرة من حديد
- م وقلت قرّ فما استقر
أنا من إذا طعم انتشر
- أفور كالتنور من ناربه
أحمل بالجود على جاربه

وقوله:	لو رأى فقحة حبي عاذلي لغدا العاذل فيها عاذراً	وهي تجلى في ثياب سندسيه ^(١) وتفاصلنا على بيضا نقيه
وقوله:	سألت وصال حبي قال دعني فقلت له حبيب القلب أدمى	فإنك في افتقار لا تجاب بذي فقر وفي وسطي نصاب
وقوله:	وصاحب أنزل بي صفة فقال في ظهرك جاءت يدي	غضبت إذ ضيع لي حرمتي ^(٢) فقلت لا والعهد في رقبتي
وقوله:	سألته في صفة قال لي صاع من التمر أحلى به	جناية الصفة ما منه بد قلت له أعطيك صاعاً ومد
وقوله:	لج العذول ولامني فهمت ألطم رأسه	فيمن أحب وعنفا لما بليت تأسفا
وقوله:	لكنني زلقت يدي جئت لخل يلاطف الجرحى	وقعت على أصل القفا ^(٣) قلت له يا أخا الرضا صف لي
وقوله:	في عنقي دمل به ورم قالوا عشقت الشباب جهلاً	قال تداو بمرهم الخل فعلك هذا هو القبيح
وقوله:	فقلت قد قيل كل شيء بدا بخد الحبيب شعر	يأتي على وجهه مليح وسفله يا أخي سالم
وقوله:	فكان كالخوخ إذ ينادي ومماجن يهوى الصفا	عليه ذا مشعر وناعم ع ولم يكن إذ ذاك فني ^(٤)
وقوله:	سلمته عنقي الدقيق ما إن أذنت له رضا	لكنه من خلف أذني لولا يد سبقت له
		لأمرته بالكف عني

(١) الفقحة: الزهرة أي كان لونها - السندس: نسيج الديباج أو الحرير.

(٢) الصفة: ضرب القفا.

(٣) زلق: غلط وأخطأ المقصد.

(٤) المماجن: الذي يمارس المجون - الصفاق: ضرب القفا.

(٥) نخل: هزّ ليتبين جودته أو رداءته - الغين: الخفية.

تباسطني لطفاً بطيب مجونها
وقلبي مفتون بسحر عيونها
على صبا المضي بنور جبينها
مددت قفاي فسحة ليمينها

ومثله قوله: ومازحة تهوى المجون ولم تزل
تقول وقد تاهت بلين قوامها
بعيشك هب لي صفة ثم أقسمت
فلما جرى منها اليمين وأكدت
ومن عجائبه وغرائبه قوله:

فقلت ماذا سوى لحيني (١)
كأنه ترعة اللبيني
لجاء مسحاً لراهبين (٢)
أجبتها باسط اليدين
غرقت فيه بجرتين

جاءت بخدين كاللجين
ذات حر واسع عميق
عليه شعر لو نسجته
تقول لم لا تجر ألفا
إن كان قصدي عليه جراً

مكارمه فالبعد عنه غنائم
فليس لهم بين الرجال محاشم (٣)

ومنه قوله: وإن من الخدام من ليس ترتجي
ولا تك ممن يتهمهم بحشمة

وإن أبدى التنسك والزهاده
إلهي لا تمته على الشهادة

وقوله: فلان والجماعة عارفوه
يموت على الشهادة وهو حي

قالوا ليهنك هذا العرس والزينه (٤)
رمانه كتبت يا ليتها تينه

وقوله: لما جلوا لي عروساً لست أطلبها
فقلت لما رأيت النهد منتفشاً

لقد زهدوني العشق قهراً وسلوني (٥)
أحب من الألوان قمحية اللون

وقوله: أبيت من الإفلاس والفقر طاوياً
وقالوا تحب البيض والسمر قلت لا

(١) اللجين: الفضة - الحين: الموت.

(٢) المسح: يجمع على مسح وهي ثياب خاصة برجال الدين.

(٣) الحشمة: الغضب والأذى.

(٤) جلا العروس: زفها إلى عريستها، والجلوه من أعمال العرس وكانت تتم بأن تقوم إحدى النساء بالغناء للعروس بأغانٍ معروفة بينما تقوم العروس بالدوران مادة يديها وفي كل دورة يدفع لها العريس بعض المال حتى تتم عدداً معيناً من الدورات.

(٥) طاوي: جائع، خاوي البطن.

وقوله في المواليا:

أوسق بصدي وسمى الهجر بالتصريح^(١)
دمعي انحدر والعواذل تقذفوا في الريح^(٢)

وقلت آهي على قبلة بصحن الخد
قلت انتهى الأمر يا حبي إلى ذا الحد

وأصبحت: مضى قلقه أخشى حلول الحين^(٣)
سالم من العشق حتى صابني بالعين

ولا ففي كل من في الأرض وأنا الكوم
انفس وأرقد ومثلي لا يرى في النوم
وصلك بكم وارحمي ذا العاشق الناحل
مالي جمال ولكن نخل في الساحل

وأصدقني أعطيك ما خلفي وقدامي
وقد نما قلت أيري لم يزل نامي

يصدحك تعمي وذا شي يعرفوا العميان
قلت يجي إنني لو منحني عريان

ومن لطائف العلامة الشيخ شمس الدين بن الصائغ الحنفي رحمه الله تعالى في باب
التورية قوله:

يقوى لحمل الشوق والهجران
فلقد بدا من قدها مران^(٤)
لما رآته مقبلاً ساجده
فقال ذي مسألة بارده

طرفي لمح حسن رابس قرحوا تقريح
قذف لعرضي وخلاني من التبريح

وقوله: مزحت يوماً مع الحب الرشيق القد
فسل سيفه من الحاظو لقتلي حد

وقوله: رمى أصاب صميم القلب زين الزين
وكنت لم أشك قبل الخل وشك البين

وقوله: يقل لها زوجها لا تختشي من لوم
واتبني واطعميني ابق من ذا اليوم

وقوله: قلت لمن تركتني بالجفا ناحل
قالت بميتين جمل قلت لها أنا راحل

وقوله: قالت لي أخبر وروي قلبي الظامي
عهدي بأيرك رقيق خرط لاقلامي

وقوله: قالوا توك الشتا كم قد صرع أعيان
انهض تحلل ودع لعبك مع الصبيان

من هجر سلمى ما سلمت ومن ترى
لا تغترر يوماً بحلو رضابها
وقوله: وشادن ظلت غصون الربا
سألته من ريقه شربة

(١) رابس: حامض كناية عن صعوبة الوصول إليه - أوسق: عارض.

(٢) القذف: اتهام الإنسان في عرضه - التبريح: الشوق.

(٣) الحين: الموت.

(٤) الرضاب: الريق - المران: الرماح الصلبة اللدنة، ويزيادة الباء منسوب إليها.

- وقوله: ثنى غصناً ومدّ عليه فرعاً
وأسبله على الأرداف منه
- وقوله: ركبت في بحر هواكم مركبا
فانحدرت مدامعي وأقبلت
- وقوله: هجرت فأحشائي توقد جمرها
وتظل تحرقني بنيران الجفا
- وقوله: قد أودعوا القلب لما ودعوا حرقا
راودته يستعير الصبر بعدهم
- وقوله: يقول عدولي للدموع وقد جرت
تأني فقد لاح العذار بخده
- وقوله: قد زاد في التفتيد لي عاذلي
حتى بدا من لحظها صارم
- وقوله: لا تنكروا اني تركت معذرا
لما بدا شعر بصفحة خده
- وقوله: عارضني العذال في عارض
ما آن للعارض أن ينتهي
- وقوله: قاس الورى وجه حبيبي بالقمر
قلت القياس باطل بفرقه
- كحظي حين أطلب منه وصلا
فلم أر مثل ذاك الفرع أصلا
- قذفت فيه بيد التبريح
عواذلي وأقلعت في الريح
- هذا وليست في المحبة فاتره
ومن الذي يقوى لئار الهاجره^(١)
- فظل في الليل مثل النجم حيرانا
فقال إني استعرت اليوم نيرانا^(٢)
- على اثر محبوب برى مهجتي برياً
فقلت له والله قد زدني جرياً^(٣)
- على هوى من لم أطق بينها^(٤)
ففر لما أن رأى عينها^(٥)
- أضنى الفؤاد بلوعة التبريح^(٦)
قابلت ذاك الشعر بالتسريح
- قالوا له بلطف بعدما أطنبوا
قلت ولا للشيب لا تتعبوا
- لجامع بينهما وهو الخفر^(٧)
وبعد ذا عندي في الوجه نظر

(١) الهاجرة: وقت اشتداد الحر من النهار وهو وسطه.

(٢) راود: حاول الخداع.

(٣) الجري: الركض.

(٤) التفتيد: التكذيب - البين: الفراق.

(٥) الصارم: السيف.

(٦) أضنى: أتعب - التبريح: شدة الشوق.

(٧) الخفر: الحياء.

- وقوله: لما ثنى العطف ثنى مهجتي ناديت إذ صرنا بلا ثالث
- وقوله: قال العذول عندما بمن فتنت في الورى
- وقوله: يا باخلين بالسلاام جهدهم لا تمنعوا عني السلاام سادتي
- وقوله: يا مليحاً رروا لنا عنه حسناً طبت لفظاً مع الرواة ولكن
- وقوله: أميل إليه كي يميل فيثني ويطرخني عن باله لا يعدني
- وقوله: وليلة مرت لنا حلوة بت مع المعشوق في روضة
- وقوله: لست أنسى رقة العيش الذي فرعى الله زماناً بالحمى
- وقوله: بدا ليل العذار بخد بدر فلا تطمع عذولي في سلوي
- وقوله: بروحي أفدي خاله فوق خده تبارك من أخلى من الشعر خده
- وقوله: راحت مني روعي فهذي مهجتي فاترك ملامك يا عذول فإنما
- وقوله في القاضي علاء الدين بن فضل الله:

توف بشكره المداح طرا لقد أعطى علاء الدين ما لم

(١) الشح: البخل.

(٢) هذا البيت هكذا ورد في الأصل برفع قبيح. والتقدير: وقبيح هو إن لم يكن تم حسناً، والله أعلم.

(٣)

(٤) طاحت: هلكت.

نحنا نحو الكرام إليّ حتى دخلت مبرداً وخرجت فرّاً

وقوله في القاضي تقي الدين بن صالح مع بديع التضمين:

بجود تقي الدين أصبح دهرنا رقيق الحواشي معلماً بالمدائح^(١)
فيا دهرنا حزت المفاخر فافتخر إذا نحن أثينا عليك بصالح

ومن أغراضه قوله:

أعدى احتراق النيل أكباد الوري وتزايدت نيرانها من نقصه
فغدت تذوب تلهباً وتلهفا فإذا به طاف البلاد وقد طفا^(٢)

ومن نكته اللطيفة، وقد أهدى له بعض الوزراء في عيد الأضحى كبشاً:

وزير الملك عيد ألف عيد لقد منيت في الأضحى بكبش
فأنت الصاحب الخلق الجميل مليّ بالغنى كاف كفيل

ومن لطائف مجونه قوله:

وناحل أضحي يصفى وقد حنت له راووق جريال^(٣)
سألته كأساً أظفي بها نيران أحشائي فصفى لي

وقوله:

قلت لبزاز على خلوة وخلني أصفق ولو صفقة
واصل فتى ينسب للخرقة^(٤) فأنت ما تخسر في صفقتي

وقوله في العنب العاصمي:

وعاصميّ قد غدا طعمه أورت خلي أكله هيضة
أروى من الماء لدى الحائم^(٥) فاعجب له من سهل عاصم^(٦)

(١) معلماً: مشهوراً ومميزاً.

(٢) طفا: تهادى في ارتفاعه.

(٣) الراووق: وعاء الخمر - الجريال: نوع من الشراب أحمر اللون ونظنه النبيذ الأحمر.

(٤) البزاز: بائع الثياب - الخرقة: الحمق.

(٥) الحائم: الشديد العطش.

(٦) هيضة: الإسهال والاستفراغ (الكوليرا).

وقوله: جاء نحوي معذر
قلت ذا الأير ميت
وقوله: تطلبت حجراً في الظلام فلم أجد
فناداني البدر الأديب إلى هنا
بعدما عز مطلبه
ظل يبكي ويندبه
ومن يك مثلي حية دأبه الجحر
وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر^(١)
ومن لطائف مجونه مع الشيخ شهاب الدين أحمد بن أبي حجلة قوله:

يكذب من ينسب البغاء إلى
ما هو بغا كما يقال لنا
شاعرنا الممتي إلى حجله^(٢)
بل هو نور يدور بالعجلة^(٣)
وقوله في الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد:

لعلاء الدين ذقن
فاعمل المنخل منها
تملاً الكف وتفضل
لدقيق العيد وانخل

ومن لطائف الشيخ بدر الدين بن الصاحب في باب التورية قوله وتلطف ما شاء:

حبيب لي طيب لم يزرني
رآني ناحلاً من فرط شوقي
وقوله: وعدتني بخيال
فشاب رأسي انتظاراً
سوى بالطيف في ظلم الليالي
فأهدى لي مزوره الخيالي^(٤)
يزور طرفي مناما
وما بلغت احتلاماً^(٥)
وله الصدغ عمامه
منك مقدار قلامه^(٦)
وقوله: يا هلاًلاً قد تسامي
أشتهي لو نلت حظاً
ومن لطائفه في هذا الباب قوله:

يقبل الأرض لا زالت مقبلة
ويسأل الله جمع الشمل منتظماً
من بعد ثغري بثغر الروض والزهر
ودمعه قائل يا منزل المطر

(١) الشطر الثاني من هذا البيت، لأبي فراس الحمداني من قوله:

سيعرفني قومي إذا جد
البيغاء: ممارسة الفجور.

(٢) العجلة: السرعة.

(٣) ناحل: ضعيف - مزوره: طيفه.

(٤) الاحتلام: العقل والبلوغ.

(٥) القلامة: قصاصة الظفر.

وقوله: جفني عليك ساهر
ودمعتي جارية
بحرقه قد ذقتها
إن زرتني عتقتها^(١)

وقوله في قيم حمّام:

وقيم قيم في حسن صنعه
لو يخدم البدر أنقى البدر من كلف
وقوله: فنتت بنبت من عوارض خده
ولا كان لي بالعشق قط تعلق
وقوله: إذا جلوا لي كأسي
علمت أن زمانني
وقوله: يا أيها العاصر بادر إلى
إياك أن تتركه ساعة
وقوله: يا حابس الكاس لا تزدها
واغنم مزاجاً لها لطيفاً
وقوله: أطربنا مشبب
يا حسن موصول له
ويعجبني قوله:

غنت فأغنت عن كؤوس الطلا
فقلت إذ هيمني صوتها
بالسكر من لذات تلك اللحون
في مثل ذا الحلق تروح الذقون^(٨)

(١) عتقتها: حستها.

(٢) الكلف: شدة العشق والكلف، النمش الذي يعلو وجه الحامل.

(٣) الحجاب: الفقّاقيع التي تعلق وجه السائل عند صبه.

(٤) القطوب: العبوس.

(٥) تزيب: صار زيبياً - النحس: المجدب الذي لا خير فيه: وهذا من الأمثال: يزيب النحس على أمه.

(٦) الدنان: جمع دن وهو وعاء الخمر.

(٧) الجعل: الضريبة.

(٨) الحلق: الحلاقة.

صفرأً حكي طول القنا طولها (١)
فأحسن الأقصاب موصولها
لم أدر ما عناؤها من شوقها
كأنها مخنوقة من طوقها
قوام حسنك في ضمي لمعتنقك
سواد قلبي يا ورقاء في عنقك (٢)

وخفت إسراع دهم خيلك (٣)
دخلت بالليل تحت ذيلك

نهاراً وليلاً ثم بؤساً وأنعماً
وبعد الفنا تحي وتبعث أعظماً

وأسلوه من ناقل الباطل
وتأبى الطباع على الناقل

تقصر الأوصاف عن حدها
تموت منه الشاة في جلدها (٤)

وازددت فيه تعشقاً وتكلفاً
فالراية البيضاء عليه في الوفا

يا مهدي الأقصاب من سكر
إياك أن تقطعها ساعة

وقوله: ناحت حمام البان أم تاهت أسي
عجماء لا تظهر حرفاً من شجي

وقوله: وذات طوق على الأغصان تذكرني
قد سودت وجهها نوحاً فقلت لها

ويعجبني قوله:

يا ليل إن الحبيب وافي
فطل وغش الصباح إنني

ومن نكته البديعة الغريبة في الشطرين قوله:

تأمل ترى الشطرنج كالدهر دولة
محركها باق وتفنى جميعها

وقوله مضمناً:

أميل لشطرنج أهل النهى
وكم رمت تهذيب لعبه

ومن أغراضه:

لعبت في الشطرنج في غاية
إن صاح في الأقران لي بيدق

ومن لطائف مجونه قوله:

شاب الحبيب فقلت أهلاً بالوفا
والأير قام ولم يبيل لمشييه

(١) الأقصاب: جمع قصبه وهي نبات ذو ساق كالأنبوب ومنه ما هو سكري الطعم ويصنع منه السكر-
القنا: الرماح.

(٢) النوح: البكاء - الورقاء: الحمامة المطوقة.

(٣) دهم الخيل: سودها والدّم: المداهمه والمفاجأة.

(٤) البيدق: من أدوات لعبة الشطرنج (الجندي).

وضرني من حيث بي يعتني
قلت له والله عزيتني

وقوله: كم جار صرف الدهر في حكمه
ألبسني من شيبتي حلة
ومن أغراضه البديعة مع حسن التضمين قوله:

كالروض تطفوا على نهر أزاهره
مخلق تملأ الدنيا بشائره^(١)

لله يوم الوفا والناس قد جمعوا
وللوفاء عمود من أصابعه

حمراء في تخليقه
قد ختمت بعقيقه

وقوله: النيل ألبس حلة
وله أصابع زينب

إذ علقوا سترة علامه
فبت في الستر والسلامه^(٢)

وقوله: نادى منادي الوفاء مصراً
من الغلا قد سلمت حقاً

بالنيل مذ ولى خلت
فبعده ترملت^(٣)

وقوله: كانت لمصر سترة
كأنه زوج لها

ومن أغراضه البديعة قوله:

والسعد في الأقسام مكتوب
كلاكما للخط منسوب^(٤)

فاخرت الأقلام سمر القنا
فقلت للخطي لا تستطل

في أسود أشتهيه
فقلت عينك فيه

وقوله: ولائم زاد لوماً
وقال أسود تهوى

ومن لطائف أغراضه في مליح فوال قوله:

كثير رماد القدر للعبء يحمل
ويصبح بالخير الكثير يفول^(٥)

أنا ابن الذي في الليل تسطع ناره
يطوف بأقداح العوافي على الورى

ومما اخترته من نظم الشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة، وقد تقدم قولي إنه كان
يرضى بالرخيص لأجل الكثرة، قوله:

(١) المخلوق: ذو الأخلاق الفاضلة.

(٢) الغلا: الغلاء وهو ارتفاع الثمن.

(٣) ترملت: المرأة، فقدت زوجها فصارت أرملة.

(٤) استطل: تكبر وتعجرف.

(٥) يفول: يملأ أو من الفأل.

ولحظه لحظ ظباء رامة
لي خطه يا كاتب السلامه
يدب الحسن من وجهي إليه
وقام بنفسه يسعى إليه
وقال لما هاج بلبالي^(١)
قلت ولا بالشيب والوالي^(٢)
أمسى بعيد الدار فاقدًا إلفه
قدمت من جور الزمان وصرفه^(٣)
كالواله المصاب
ما كان في حسابي^(٤)
وقد رأى حرقتي وناري
عليك قد جار قلت جاري

بي من غدا ظهري عليه المنحنى
كم قلت من عذاره وقد بدا
يقول لي الحبيب أرى عذارى
تكلم في وظيفة حسن خدي
وقوله:
وعاذل قد زاد في لومه
بعارض المحبوب ما تنتهي
وقوله:
يا سائلي عن حالي ما حال من
بي صيرفي لا يرق لحالي
وقوله:
أصبحت ما بين السورى
من هجر ذي القبطي الذي
يقول جاري من بعد جور
دمعك ما شأنه ومن ذا

وقوله مضمناً:

هو الحب فاسلم بالحشام الهوى سهل
مخالفتي فاختر لنفسك ما يحلو

أقول لصب قلبه يشتكي الأسي
عدلتك في ابن السكري والذي أرى

وقوله مضمناً:

حكيت طلعة من أهواه بالبلج^(٥)
ذكرت ثم على ما فيك من عوج

قل للهلل وغيم الأفق يستره
لك البشارة فاخلع ما عليك فقد

وقوله في غلام يدعى مقبلاً:

ما زال عنه كل حين يسأل
ويقال لي هذا حبيك مقبل^(٦)

يا من تحجب عن محب صادق
من لي بيوم فيه تقبل باللقا

(١) البلبال: شدة الهم أو الحزن الشديد.

(٢) العارض: جانب اللحية - ولا بالشيب: أي ولا أنتهي بالمشيب وما بعده.

(٣) صرف الزمان: تقلبه. والصرف من الصيرفة عملية تبديل العملات.

(٤) القبطي: نسبة إلى الأقباط وهم طائفة من النصارى أكثرهم في مصر.

(٥) البلج: الإضاءة والإشراق.

(٦) مقبل: آتٍ واسم الحبيب.

وقوله في جارية تدعى حكم الهوى:

حكم الهوى صدق فبت لأجل ذا
يا عاذلي لا تلحني في حبها
ولهان من فرط الصباية والجوى
نفذ القضا وكذا جرى حكم الهوى^(١)

ورأيت غالب مقطعات الشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة، في الباذهنج والفانوس، ولكن نختار منها ما يحسن نظمه في هذا السلك، فمن ذلك قوله في فانوس مع حسن التضمين:

وكانما الفانوس نجم نير
أو عاشق أجرى الدموع بحرقه
منع الظلام من الهجوم طلوعه
من حر نار تحتويه ضلوعه
وتقدمه فيه مجير الدين بن تميم، فقال وأحسن التضمين:

أنظر إلى الفانوس تلق متيماً
يدو تلهب قلبه بدموعه
ذرفت على فقد الحبيب دموعه
وتعد من تحت القميص ضلوعه
وقال فيه ابن أبي حجلة وأجاد مع حسن التضمين:

يحكي سنا الفانوس من بعد لنا
فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه
برقاً تآلق موهناً لمعانه^(٢)
والماء ما سحت به أجفانه
ويعجبني قوله مع حسن التضمين:

أنا في الدجا ألقى الهوى وبمهجتي
فكأنني في الليل صب مدنف
حرق يذوب لها الفؤاد جميعه
كتم الهوى فوشت عليه دموعه^(٣)
ويعجبني أيضاً هنا قول مجير الدين بن تميم:

أبدى اعتذاراً لنا الفانوس حين بدا
رأى الهوى مضرماً ما بين أضلعه
في حالة من هواه ليس ينكرها
نار الجوى فغدا بالثوب يسترها^(٤)

ومن نظم الشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة في الباذهنج قوله مع حسن التضمين:

(١) لحا: لام.
(٢) الموهن: قريب من منتصف الليل أو بعده بقليل.
(٣) الصب: العاشق - المدنف: المريض بالعشق - وشى: دَلَّ ونمَّ.
(٤) مضرماً: ملتهباً - الجوى: الشوق والصباية.

من فوق مخبره يبدو على سنن
واستنشق الريح من تلقاه يا سكاني

وباذهنج غدا في الجوّ منظره
فانظر فديتك يا محبوب رفعته

وقوله:

تعلو على بان الحمى
ورفعت رأسك للسمما

يا باذهنجي كم كذا
أبديت حمقاً زائداً

وألف منه قوله مع حسن التضمين:

مثلي على حب الديار مولها
خلعت هواك كما خلعت هوى لها

يا باذهنجي لا برحت من الهوى
داري بحبك لم تزل مشغوفة

وقوله مضمناً:

لأن نسيمه أبداً عليل
إذا صح الهوى دعهم يقولوا

هجا الشعراء جهلاً باذهنجي
فقال الباذهنج وقد هجوه

ومن نكته الغربية في باب التورية قوله، وكتب به إلى ابن الزين المعروف بلييكم:

وتطيعه درر النجوم إذا نظم
وتقول يا ابن الزين لبليكم نعم^(١)

يا شاعراً قد حاز حسن بديهة
وتجييه قبل السؤال لقصده

وقوله وقد قدم الشيخ جمال الدين إلى الشام:

ومديحك فيما يروق ويعذب^(٢)
أقواله بسكينة وتأدبوا

يا معشر الأدبا غدا تشيبيكم
وافاكم ابن نباتة فتفقها

وقوله من أبيات:

أمسيت تمشي في المسرة راكبا^(٣)
لم تلق إلا راغباً أو راهبا

ومتى امتطيت من الكؤوس كميتها
ومتى طرقت عشي أنس ديراها

وممن قصص شوارد التورية بحبائل فكره الشيخ بدر الدين حسن الزغاري، فمن ذلك قوله:

(١) لبليكم: لقب المذكور ومعناها سرعة الإستجابة للطلب.

(٢) التشيب: التغزل.

(٣) الكميت: الحمراء التي يميل لونها إلى السواد - المسرة: السرور.

لم أرد ذا السقم يوم بينك (١)
فقلت لا عين بعد عينك

سياجاً ما له قط انفراج
تجرى الدمع وانخرق السياج

عن بدور السماء للطرف تلهي
فسقامي قد صح من كل وجه

لحظاً حديداً تحت جفن كليل (٢)
شعره عنقود وليل طويل

وسواد قلب الصب من أغراضه (٣)
سهم وما عاينت كشف بياضه

على خديه من شعر العذار
أرى خلل الرماد وميض نار (٤)

لسلوانه الصب لم يستطع (٥)
ودمعي يرق وما ينقطع

قوس كنانتها سهام جفونه (٦)
فنفوسهم مطوية بيمينه

قالت وقد أنكرت سقامي
لكن أصابتك عين غيري

وقوله: حبست الدمع ثم جعلت جفني
فما زلت بجوركم إلى أن

وقوله: قيل لي إذ رأيت أعمار تمّ
أي وجه أضناك قلت دعوني

وقوله: سل لحتفي كالحسام الصقيل
ثقل ردف قادني في دجا

وقوله أيضاً: أفديه في الألكن يرمي دائماً
أطلقت لحظي نحوه فأجابني

وقوله مضمناً، وأجاد:

يقول العاذلون نرى رماداً
فقلت لهم صدقتم غير أني

وقوله: فتننت بأسمر حلو اللمى
يقطع قلبي وما رق لي

ومنه قوله في مليح بيده قوس حلقه:

وبدا العشية أغيد في كفه
فسألته البقيا على عشاقه

(١) السقام: المرض والضعف - البين: الفراق.

(٢) الحسام: السيف - الصقيل: المسنون القاطع - حديد: شديد الإبصار. الكليل: الذي لا حد له فلا يقطع.

(٣) الألكن: الذي يصعب عليه الإفصاح بالعريه للكفة في لسانه أي عجمة.

(٤) الوميض: اللمعان.

(٥) اللمى: سمرة في الشفاه من عناصر الجمال.

(٦) الكنانة: الجعبة التي تحوي السهام.

حكمت عليّ ببعذك الأيام
برداً عليّ وفيه منك سلام

وقوله: وافى كتابك يا خليلي بعدما
لكن أرى نار اشتياقي لم تكن
ومن نكته الغريبة قوله:

ينسل بين الغصون والورق
يشق نحوي مفارق الطرق

أما ترى النهر كالحسام غدا
وليس في الجري مثل صارمه
ومن غاياته البديعة في هذا الباب قوله:

وقد أصبحت حسرى من السير ظالعه^(١)
ومن تعب أنفاسها متابعه^(٢)

سرت من بعيد الدار لي نفحة الصبا
ومن عرق مبلولة الجيب بالندى
ومن لطائفه قوله:

من أدمع الرواق لما انسكبت^(٣)
ما بيننا تضحك حتى انقلبت^(٤)

أعجب ما في مجلس اللهو جرى
لم تزل البطة في قهقهة
ومثله قوله وزاد لطفاً بزيادة نكتة أخرى:

فأذني عن الملام قد نبت^(٥)
أضحكت البطة حتى انقلبت

يا من يلوم في التصابي خلني
تصفية الكاسات في شواربي
وتلاعب بهذا المعنى وقال:

أملكه في كلف المشارب
تصفية الكاسات في شواربي

أنا القليل العقل في صرف الذي
ولم أنل مما أضعته سوى
ومن مجونه قوله:

لثياب راجيه المؤمل رافي^(٦)
ظهر القطوع بها على أكتافي^(٧)

يا صاحباً ما زال من أنعامه
قد قطعت فرجيتي حتى لقد

-
- (١) حسرى: كاشفة - ظالعة: متهمة.
(٢) الجيب: موضع وضع القلادة من العنق.
(٣) الرواق: هكذا وردت في الأصل ونظنها الراووق وهو وعاء الخمر.
(٤) البطة: الباطية وهي وعاء للخمر.
(٥) نبا: أخطأ ولم يصب.
(٦) رفى: يرفى ويرفو: رقع.
(٧) الفرجية: ثوب واسع طويل الأكمام يلبسه رجال الدين عادة (محدثة).

وممن أتى في دقيق التورية بخاص الخاص الشيخ يحيى الخباز الحموي، فمن ذلك قوله:

وقصده في مقاله حيني
وطلق النوم قلت من عيني (١)

قال عدولي والقوم قد رحلوا
أطلق دموعاً ما زلت تحبسها

وقوله:

عني وقلبي بعده يخفق
من خلفه تجري وما تلحق

لم أنس طيفاً زارني وانثنى
وما كفى حتى دموعي غدت

وقوله مضمناً:

فسلها عسى العذر المبين يقوم (٢)
لعل لها عذراً وأنت تلوم

لئن وعدت بالوصل سلمى وأخلفت
ولا تبدها باللوم قبل سؤالها

وقوله:

يبدل الحاضر بالغياب
وراح كل المدح في السائب

لقد تعشقت فتى سائباً
مدحته جهدي فلم يرتبط

وقوله:

ورام وصالي بعدما لم يكن خلقي (٣)
صدقت لهذا عاد يصلح للحلق (٤)

تعذر من أهواه واسودّ وجهه
وقال حكى صدغي نباتاً أجبته

ومن لطائف نكته في هذا الباب قوله:

لا تكره الريحان حول الشقيق
فإنني شيخ أحب العتيق

قلت لمن ينتف أصداعه
وأعتق شعور الذقن من نتفها

ومن لطائف نكته في هذا الباب قوله:

عند ذوي الألباب والفهم
وما كفى حتى أبي أمني

أصبحت في العالم أعجوبة
جدي حموي فاسمعوا واعجبوا

(١) من عيني: كناية عن الاستجابة للطلب.

(٢) أخلف الوعد: نكته ولم يف به.

(٣) رام: طلب وأراد - خلقي: جدير بي.

(٤) الحلق: الحلاقة - الصدغ: الشعر بين العين والأذن حكى: شابه.

ومن لطائفه قوله :

تتقد في الكؤوس كالنيران^(١)
أذكرتنا شقائق النعمان

عاطنيها من عهد كسرى سلاًفاً
وابن ماء السماء زوجه راحاً

ومن رقيق أغزاله قوله :

بافتك فينا عتوّه^(٢)
تزداد بالضعف قوّه

لضعف أجفان حبي
فيا لها من جفون

ومن مجونه قوله :

يسير باللطف على سيري
الأير يكن خيراً على خير

كسبت مملوكاً ومن لطفه
سميته خيراً وإن يدخل

ومن مماجناته مع الشيخ حسن الزغاري المذكور قوله :

يا بش من يوافقه
للكلب إلا خانقه

حسن الزغاري أحق
خنقته هجواً وما

ومثله قوله فيه :

وكمال نظمي بالسفاهة نقصا
فأصبت مصرعه ولم تضع العصا

نبح الزغاري عند نظم موشح
فضربته بعصا الهجا لما عوى

وقوله فيه :

أمسى بأقوال الأكابر هازي
من ذا يجيرك من يد الخباز

قل للزغاري الذي من جهله
هذا ابن قرصة قد سمعت هجاءه

ومن لطائف الشيخ شهاب الدين الحاجبي، تغمده الله برحمته، في باب التورية، ولم أظفر له إلا بما قل من مقاطيعه، مع أنني كثير الفحص عنها، فإنه ما يجارى في انسجامه وسهولته ورقته ولطيف تركيبه في هذا الباب، قوله :

مكحلة ولي عين تباكت
فيا لك مقلّة غزلت وحاكت

لها عين لها غزل وغزو
وحاكت في فعائلها المواضي

(١) عاطاه : الخمرة : شربها معه .

(٢) العتوّ : القوة والشده والهباج .

وقوله:

وصفت خصره الذي
قالوا وصف جبينه
أخفاه ردف راجح^(١)
فقلت ذاك واضح^(٢)

وقوله:

عودوا لصب بكى عليكم
فدمع عينيه عاد بحراً
يا جيرة ودّعوا وساروا
وقلبه ما له قرار

وقوله:

لا تبعثوا غير الصبا بتحية
حفظت أحاديث الهوى وتضوّعت
ما طاب في سمعي حديث سواها
نشراً فيا لله ما أذكاهما^(٣)
ووقفت له على قصيدة لامية امتدح بها الملك الأفضل صاحب حماة، كلها غرر في
باب التورية، مطلعها:

عما جرى من أدمعي لا تسألوا
وما أحلى ما قال بعد المطلع:

وخذوا حديثاً قد ألم بمهجتي
وازداد حتى أهملته العذل
فمدامعي أخبارها تتسلسل

منها:

ثاني المعاطف كنت أول عاشق
يرنو فيحلو للمتيم لحظه
في حبه ولكل ثان أول^(٤)
إذ ذاك لحظ بالنعاس معسل^(٥)
وتميل منه شمائل لم أدر من
مشمولة أو حركتها الشمال^(٦)
متلون الأوصاف سيف لحاظه
ماض ولكن هجره مستقبل

منها قوله، وأظنه سبق ابن نباتة إلى معناه، وهو:

(١) الردف: الكفل والعجيزة - الراجح: الثقيل.

(٢) واضح: بين ظاهر وواضح الجبين عريضه.

(٣) تضوع: فاح - النشر: الرائحة الطيبة.

(٤) ثاني: طاوي من ثنى يثني.

(٥) يرنو: ينظر بعطف - المتيم: العاشق - المعسل: ذو النوم الخفيف.

(٦) المشمولة: الخمرة الباردة - الشمال: الريح الشمالية.

وأظنه برجوع ذلك يبخل
بالفتح من أرق الصباة مقفل^(١)

أبحود لي دهر بطيف خياله
أم كيف يأتي الطيف جفناً بابه

وقول الشيخ جمال الدين:

لصادف باب الجفن بالفتح مقفلاً

وأقسم لو جاد الخيال بزورة

ومن قصيدة الحاجبي قوله:

عن ناظري البدر الذي لا يأفل^(٢)
ما شتم يا أهل بدر فافعلوا
فعلى حجاز الصد ماء لي محمل

يا ساكنين السفح كيف حجبتهم
وفعلتم بي ما يسر عواذلي
لا تحجبوا بيني وبين غزالكم

ومنها وهو المرقص والمطرب قوله:

عن ذكره إن المحب يعلل^(٣)
فهى الشفاء وفي شذاها المندل^(٤)

يا صاح عللني بكأس مدامة
صهباء إن جن الفتى بخمارها

ومن لطائفه في هذا الباب قوله:

لله أيام النجا والنجاح
ظفرت فيه بحبيب وراح^(٥)

لم أنس أيام الصبا والهوى
ذاك زمان مر حلو الجنى

تالله لقد عز علي أن تتحجب عني عرائس الحاجبي في خدور الأوراق، فإني لم
أظفر من منهله العذب بغير هذه النهلة، ومن عروبة الشيخ زين الدين بن العجمي في
باب التورية، قوله:

يوماً جنى وجناته لم يستطع
لا تظمن فكل سهل ممتنع

سهل الخدود عزيز وصل من يرم
كم رمت لثم الخد منه فقال لي

(١) الأرق: عدم استطاعة النوم - الصباة: الشوق.

(٢) أفل: النجم، غاب.

(٣) علل: منى النفس - المدامة: الخمرة اديمت في الدنان.

(٤) الصهباء: الخمرة - الخمار: غطاء الوجه للفتاة أو السكر - الشذا: الرائحة - المندل: العود الطيب

الرائحة وضرب من الكهانة.

(٥) الراح: الخمرة.

وقوله:

فلا تشق منه بزور المقال
قد سلب العشاق روحاً ومال

حيي يمين في يمين الهوى
كم قال ما ملت وولى وكم

وقوله:

حيا به مذ شب تحت لثامه
وجنيت ورد الخد من أكامه

وافى وفي كميته ورد أحمر
فرشفت حلو الراح من خرطومه

وقوله:

أمواجهها فزهت وراقت منظرا
قلم النسيم بلطفه لما انبرى

أنظر إلى الغدران كيف تجعدت
وحكت سطوراً في طروس خطها

ومن نكت مدائحه البديعة قوله في القاضي شهاب الدين بن فضل الله، رحمه الله تعالى:

ونافعي بجوده دون البشر
لنافع لمالك لابن عمر^(١)

يا عمري الأصل أنت مالكي
لذا رفعت سندي في حكمكم

وقال وقد أهدى له حلاوة سكب:

على السحبالا تخفى على من له لب^(٢)
وغيث نذاك الجم أوله سكب^(٣)

لفضلك يا قاضي القضاة مزية
فأول جود الغيث قطر مبدد

ويعجبني من زهدياته قوله:

خيمة من عقاب عقبي التجري^(٤)
فيه أمشي أبغي ثوابي وأجري

عن طريق الذنوب قيدت خطوي
وإذا لاح نهج بر تراني

وقد عن لي أن أورد هنا نبذة له من المواليا، فإنه كان فارس ميدانها وقائد عنانها، فمن ذلك قوله:

جدلو بقبله فعقلو فيك خيلتو
ومات للشرق ما درتو وقبلتو

للحب قالوا معنك الذي إذ بلتو
فقال أقسم لو أن البوس سبلتو

(١) نافع ومالك بن أنس وعبد الله بن عمر: من رواية الحديث.

(٢) اللب: العقل.

(٣) الغيث: المطر والمساعدة - الندى: العطاء.

(٤) التجري: اتخاذ الجواري.

ومن مخترعات معانيه قوله فيها:

في روض وجنتك يحدو للصبابه حدو
إلا لأن حشيشو قد طلع في بدو

حشيش عارضك الأخضر بدا في هدو
والوهم ما ضر خدك يا رخيم الشدو

وقوله:

ملهوف لا حمل يعينني ولا تحميل
لا تكتحل بالكرى إن غبت عنها ميل

شدوا المحامل فصرت ساعة التحميل
والعين قد حلفت يا بدر في التكميل

وقوله:

وقد سلب نوم أجفاني وعننى فر
مالو قرار ودمعي البحر وأنت البر

يا من على الخلق أذيال المكارم جر
يحل لك أن قلبي يا غزير الدر

وممن فتح له هذا الوصيد، القاضي فتح الدين بن الشهيد، رحمه الله تعالى، فمنه قوله:

واهاً لغصن قوامك المياس^(١)
حليّ يوسوس في صدور الناس

بستان حسنك أينعت ثمراته
في صدره رمان نهد زانه

وقوله:

بحسن ساقها لمشتاقها
فقامت الحرب على ساقها

أفدي التي ساق حروب الهوى
جادلت عدالي على حسنها

وقوله:

حبني في زورتي أوفى نصيب
فبودي وعمى عيني رقيب

قال لا تخش رقيبى فلمن
قلت إن زرت وحانت غفلة

وقوله في عين بعلبك:

عين بها روض النعيم منعم
ولأجل عين ألف عين تكرم

ولقد أتيت لبعلبك فشاقتني
فلأهلها من أجلها أنا مكرم

وقوله:

هذا قياس باطل وحياتكم
شتان بين عروسنا وحماتكم

قاسوا حماة بجلق فأجبتهم
فعروس جامع جلق ما مثلها

(١) أبيض الثمر: نضج - واهاً: إسم فعل بمعنى التلهف والتفجع والتعجب.

فأجبتة في ذلك التاريخ عن ذلك بقولي :

والله إن حماة شامة شامكم
ودمشقكم بعدارها الثلجي قد
وعروسها بمحاسن متزايدة
ولت شببتها وأمست بارده

ومن لطائف القاضي فتح الدين بن الشهيد، قوله وقد أحضر له عواد يسمى طائر
بغا، بسفارة الحاجب توكل :

نهاري أنس كله بمنادم
وكنت أراه طائراً عز مطلباً
على عوده يغزو الحشا بتبليل^(١)
ولكنني حصلته بتوكل

وقال وقد حضر عنده من يلعب بالقانون وأطربه :

غني على القانون حتى غدا
داوى قلباً من عليل الأسي
فصاحت الجلاس عجباً به
من طرب يهتز عطف الجليس^(٢)
وكان فيها من هواها رسيس^(٣)
يا صاحب القانون أنت الرئيس

ومن نكته اللطيفة التي هو أحق بها من غيره، لكونه صاحب ديوان الإنشاء الشريف
بالشام، قوله :

كانت فتاتي لنظم بيتي
بكيتهما والحمام قامت
من علم الورق أن سجعي
قرينة برة أمينه
بالسجع في نديها معينه
ليس يؤاتي بلا قرينه

ومن لطائفه، وقد جهز لبعض أصحابه رسالة القلب، وهي ما لا يستحيل بالانعكاس
وجهز بعده قوالب سكر :

رسالة القلب بها خدمتي
وها أنا أرسل من بعدها
ليعلم المخدم أني امرؤ
تقدمت في الزمن الذاهب
قوالب السكر في الواجب
أخدمه بالقلب والقلب

وكتب على عمارة بيته قوله :

بنيت على وفق المكارم والاعلا
سنا الملك يبدو من موشح زيتي
فللفتح أبواي وصدري للضم
ومن أجل ذا دار الطراز على كمي

(١) التبليل : الاضطراب .

(٢) القانون : من آلات الطرب الموسيقية - العطف : الجنب .

(٣) الرسيس : الأثر .

وكتب علي الرفرف:

أزين سمائي بل أزين سماحي (١)
ويمشون في ظلي وتحت جناحي

رفعتك ما شاء الترفه رفرفا
فلا بدع أن الناس يهون بهجتي

وكتب علي مجلس بيته:

اسمع صفات بها قد فقت أمثالي (٢)
ودون قدر مقامي المجلس العالي

يا من ينزه في حسني نواظره
أني مقام مقرر عز جانبه

ومن لطائف الشيخ عز الدين الموصلبي، في باب التورية، قوله رحمه الله تعالى:

حياه حسنه هيفاً بليين
فهذا الطيب من عرق الجبين

يقول وقد بدا قمراً وغصناً
تنشق مسك أصداغي حلالاً

وقوله:

وخده كالورد لما ورد
في الخد تقبيلاً يفك الزرد

كالزرد المنظوم أصداغه
بالغت في اللثم وقبلته

ويعجبي من نكته الغريبة قوله:

من ساق ساقينا بإشفاق (٣)
وحكم الكأس على الساق

وحاجم في الكأس أجرى دماً
لكنه خالف في شرطه

ولعمري إنه تلطف إلى الغاية بقوله:

جفني فأعدمني الكرى (٤)
مثل النسيم إذا سرى

أعدى سقام جفونه
حتى اعتلت بسرعة

ويعجبي قوله في باب التدبيح:

خضرة الصدغ والسواد من العيون بياض المشيب قد أورثاني
واحمرار الدموع صفر خدي كل ذا من تلونات الزمان

(١) الرفرف: الرف تجعل عليه طرائف البيت.

(٢) فاق: تفوق وزاد عليه.

(٣) الحاجم: الذي يشتغل بالحجامة وهي المداواة بكبايات الهواء أو امتصاص الدم بالمحجم.

(٤) أعدمني: حرمني - الكرى: النوم.

- وقوله: حديث عذار الحب باد وساقه
درى أننا نسعى إلى الحسن كلنا
- وقوله: يا مقلّة الحب مهلاً
وأنت يا وجنتيه
- وقوله: حديث عذار الحب في خدّه جرى
فقبلته حتى محوت رسومه
- وقوله: عيني أفاضت دموعي
ووجنة الحب قالت
- وقوله: عاتبت حبي على تأخره
فقال هذا الثقيل أخرنى
- وقوله: لحديث نبت في العذار حلاوة
فإذا تجافى المرد قلت تمهلوا
- وقوله: هجروك البيض لما
كشف الدهر المغطى
- وقوله: ذو حور أصابني
فليس قتل صبه
- ومن لطائف مجونه قوله:

وبي ناتف للعارضين يقول صف
فناديت يا حلو الشمائل ما الذي

نبات عذار زان في الحسن منظري
يقول لساني في النبات المكرر

(١) درى: عرف - وساقه: الحديث حدث به في سياق الكلام. والساق المتصل بالقدم.

(٢) الرسوم: الآثار - جرى: حدث.

(٣) الرجّة: الإهتزاز - تعنى: تعب - الردف: المؤخرة.

(٤) الحديث: الجديد - الطلاوة: الرونق.

(٥) المرد: جمع أمرد وهو الشاب الذي لم تنبت لحيته بعد.

(٦) نصل الصبغ: بهت وبار لونه. والصبغ الخضاب.

وقوله: لما جفا المحبوب ناديته قابلت حبي منك بالبغض
فعندها نام على وجهه وقال وجهي منك في الأرض^(١)

وكنت أظن أن هذه النكتة اختراع الشيخ عز الدين الموصلبي، إلى أن وقفت على
الديوان الكبير من نظم الشيخ جمال الدين بن نباتة، فوجدته قد أخذها منه بنصها، اللهم
إلا أن يكون وقع حافر على حافر، وقول الشيخ جمال الدين في هذه النكتة:

عابت محبوبي وقد نكته بطحا فأضحى خجلاً مغضي
فقلت دربسني وخل الحيا فقال وجهي منك في الأرض^(٢)
ومن لطائف مجون الشيخ عز الدين قوله:

قد لقبوا بالزاع ذا حنكة كواه ذا التلقيب في القلب داغ^(٣)
وهو غراب البين في شؤمه لكن إذا جئنا إلى الحق زاغ^(٤)
وقوله في تمتع الدمشقي:

وذي أدب لطيف الذات جداً طلبت الوصل منه فما تمنع
ودب لأخذ أيري قلت من ذا فناداني بإشفاق تمتع
وقوله: مذ نام أيري قال لي
فقلت فيه قصر أفمه يحظى بالوصول
فقال ذا شيء يطول

وممن عاصر الشيخ عز الدين الموصلبي، ومشى تحت علم التورية، علاء الدين بن
أيك الدمشقي، وكان المتعصبون على الشيخ عز الدين يناظرونه به. ولعمري إن هذه
المناظرة ما صدرت ممن له نظر. فمن نكته البديعة قوله، وقد اجتمع بمليح في منتزه من
منتزهات دمشق يعرف بالسلطاني:

سلطان حسن أفنديه بناظري وأعيذه من نظرة الشيطان
يوماً بزهر اللوز لما زارني قضيت ذاك اليوم بالسلطان

(١) وجهي منك في الأرض: كناية عن الخجل وشدته.

(٢) دربس: قَدَم.

(٣) الزاع: من أنواع الغربان قريب من الحمامة أسود اللون لا يأكل الجيف - الحنكة: الدهاء والحيلة -
داغ: هذه اللفظة لم نعثر على معنى لها في ما بين أيدينا ونرجح أن تكون بمعنى ترخيماً لداغل
وهذه تقال للجرح الخفي، أو أنها تكون بمعنى الأحمق من دُغينة وهي علم على الأحمق.

(٤) زاغ: مال عن الحق وحاد. ويمكن أن تكون ترخيماً «زاغل» وهي بمعنى عاش.

مشرقة حمراء شبه الذهب
فقلت والردف تليل الذهب^(١)

له عرق على ورد الخدود
ولكن لا سبيل إلى الورود^(٢)

وإن أوجعن منك الظهر دقا
فإن الجيد في الدنيا ملقى

مني وإن وداده تكليف^(٣)
خبر رواه الجفن وهو ضعيف^(٤)

مخبرة عن الظبي الجموح
فقلت لها خذي مالي وروحي^(٥)

رأي يزيل الحمق فاستظرفوه^(٦)
ومن تثاقل بينكم خففوه

لديه من السحر الحلال مرامي
ولا تقربي الحلي فهو حرامي^(٧)

وقوله: أحببت من خياله وجنة
قالوا الشهيدية أعطافه

وقوله: أقول وقد ظمئت ووجه حبي
أرى ماء وبي ظمأ شديد

ومن لطائف مجونه قوله:

تلطف واحتمل مزح الغواني
وجيدك إن يُلَقَّ الصفع فاصبر

ومن نظم الشيخ جلال الدين ابن خطيب داريا في باب التورية قوله:

شهدت جفون معذبي بملالة
لكنني لم أفأ عنه لأنه

وقوله: تقول وقد أتني ذات يوم
يسرك أن أروح إليه أجري

ومن لطائف مجونه قوله:

يا معشر الأصحاب قد عنَّ لي
لا تحضروا إلا بأخفافكم

وقوله: تصفحت ديوان الصفي فلم أجد
فقلت لقلبي دونك ابن نباتة

(١) الشهيدية: ونظنها الشهيدية نسبة إلى الشهد وهو العسل ويمكن أن تكون منسوبة إلى الشهيد لطيب أعطافه - تليل الذهب: عنقه وأحسن شيء فيه.

(٢) الورود: شرب الماء وجمع وردة.

(٣) تكليف: واجب.

(٤) فاء عن الشيء: تاه عنه وأضاعه. وفاء إليه: لجأ.

(٥) روعي: من الروح والرواح.

(٦) عنَّ: بان وظهر.

(٧) تقربي: هكذا ورد والأصح: تقرب أو تكون تقربي كما وردت ولكن يكون البيت كما يلي: فقلت

لنفسى: بدل قلبي. - الحرامي: السارق.

الشيخ جمال الدين، رحمه الله تعالى، أراد بالسحر الحلال الذي ما وجدته في ديوان صفي الدين التورية لا غير، وما ذاك إلا أن الشيخ صفي الدين كان أجنبياً منها، ولهذا لم أنظمه في سلك القوم الذين مشوا في نظم التورية تحت العلم الفاضلي والعلم النباتي، وغايته أنه رضي بالشعر الساذج المنسجم، وتعرض للتورية في بعض المواضع، ولكن سبكها في غير قلبها، لأنه لم يكن في طباعه ويأتي الكلام على ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى. ومن نظم الشيخ جلال الدين غفر الله له والمعنى في مراده ومفهوم قوله:

ذكر المصطفى ثلاثين دجاً فيهم أعور وقد صح بالبر ويعجبني قوله، في آثار النبي ﷺ:	لأ يجيئون في قيام الساعه (١) هان أن جا كواحدٍ من جماعه
يا عين إن بُعد الحبيب وداره فلقد حظيت من الزمان بطائل ومن لطائف شمس الدين بن المزين، في باب التورية، ما أنشدني من لفظه لنفسه:	ونأت مرابعه وشط مزاره (٢) إن لم تريه فهذه آثاره (٣)
مدير الكاس حدثنا ودعنا حديثك عن قديم الراح يغني وأنشدني من لفظه لنفسه أيضاً:	بعيشك من كؤوسك والخبيث فلا تسقي الأنام سوى الحديث (٤)
ومليح لالاه يحكيه حسناً قلت قصدي من الأنام مليح ومن نكته اللطيفة قوله:	فهو كالبدر في الدجى يتلالا (٥) هكذا هكذا وإلا فلا لا
قلت للأحذب لما أنا أبقى وبوجدي	أن رأى الوجد علاني (٦) فيك يا أحذب فاني

(١) الدجال: المنافق الكذاب.

(٢) نأى: ابتعد - المراع: جمع مربع وهو الدار - شط: بُعد - المزار: المسكن والمقام.

(٣) الطائل: الخير الكثير.

(٤) الحديث: الجديد والكلام.

(٥) لالاه: للأؤه: فرحه وضحكه أو طلعت.

(٦) الأحذب: منحني الظهر.

وقد تقدم القول أن النكتة في التاجر استحقتها الشيخ جمال الدين بن نباتة على الصلاح الصفدي، وعلى زين الدين الوردى، وهي:

وتاجر أسكرني طرفه والكاس فيما بيننا دائر
وقال لي سرّك قلت اسقني جهراً على عينك يا تاجر

ومن نكته المخترعة قوله:

شاب ورد الرياض من ورد خديك وانفرك^(١)
فله الناس أثبتوا وانتفى الورد للكرك^(٢)

ورسم الجوباني، وهو إذ ذاك كافل المملكة الشامية لفضلاء دمشق، أن ينظمو له ما يكتب على أسنة الرماح، فنظم القاضي فتح الدين بن الشهيد:

إذا الغبار علا في الجو عثيره فأظلم الجو ما للشمس أنوار^(٣)
هذا سناني نجم يستضاء به كأنه علم في رأسه نار^(٤)
إن الرماح لأغصان وليس لها سوى النجوم على العيدان أزهار

ونظم مولانا قاضي القضاة صدر الدين بن الأدمي، نور الله ضريحه، وكان إذ ذاك في عنفوان شبابه ومبادي نظمه:

النصر مقرون بضرب أسنة لمعانها كوميض برق يشرق
سبكت ما لتسبك كل خصم مارق وتطرفت لمعانده يتطرق
زرق تفوق البيض في الهيجاء إذ يحمر من دمها العدو الأزرق^(٥)
ينسجن يوم الحرب كل كتيبة تحت الغبار فنصرهن محقق

(١) انفرك: صار قريباً من النضوج.

(٢) الكرك: مدينة.

(٣) العثير: الناعم من الغبار.

(٤) الشطر الثاني من هذا البيت مضمن وهو للخنساء ترثي أخاها صخرأ في قولها:

وإن صخرأ لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار
والعلم: الجبل العالي سمي بذلك لأنهم كانوا يوقدون في رأسه ناراً علامة للضالين من المسافرين في الصحراء ليهتدوا إلى مكان معمور.

(٥) الزرق والبيض: الخيول - الهيجاء: الحرب - العدو الأزرق: الأجنبي من أبناء الروم.

ولعمري إن الشيخ شمس الدين بن المزين تناول برمحه على أقرانه في ذلك العصر،
بقوله:

أنا أسمر والراية البيضاء لي لا للسيوف وسل من الشجعان
لم أحل في عيش العداة لأنني نوديت يوم الجمع بالمرآن^(١)
وإذا تعانقت الكمأة بجحفل كلمتهم فيه بكل لسان^(٢)
فتخالهم غنما تساق إلى الردي قهر المعظم سطوة الجوباني

وكتبت من حماة المحروسة حسب ما رسم لي به قولي:

أنا في الخط إن تحمر نقطي فكتابي مقاتل الفرسان
وقوامي إذا تثنى ففرد ما له في تفرق الجمع ثاني
وسناني كالبرق بل صار منه قلب سيف البروق في خفقان
رمحه للردين ينسب لكن صاح لما علاه بالسنان^(٣)

ومن أغراض الشيخ شمس الدين المزين اللطيفة قوله:

حمل الدواة فرمتها منه مراماة عاشق^(٤)
قالت إذاً ما أنت يا قلم الديار بلائق

ومن لطائف مجونه قوله:

سلماني أضافنا
بيض الله وجهه
لبناً ما له ثمن كلما جاء بالبن

ومن مقاطيعه التي سارت لديها الركبان قوله:

أنا دواة يضحك الجود من بكاء يراعي جلّ من قد براه^(٥)
دلّنا على جودي من مسه داء من الفقر فإني دواه^(٦)

(١) المرآن: الرماح الصلبة اللدنة. مفردها مرآنة.

(٢) الكمأة: الفرسان الأبطال - كلمتهم: جرجتهم ومن الكلام.

(٣) الردين: امرأة كانت تقوم الرماح فنسبت إليها فيقال: رماح ردينية وهي أصلب الرماح وأقومها.

(٤) رام: طلب - مراماة: مطلب.

(٥) بكاء: بكاء - يراعي: قلم.

(٦) الداء: المرض.

ومن أغراضه اللطيفة قوله:

نزلنا بالقصير فرام قلبي مليحاً بالعداري الغيد أزرى^(١)
فلما أن تعذر مال عنه فؤادي والجوانح نحو عذرا^(٢)

ومن مدائحه المخترعة ما أنشده لشيخنا ومولانا، قاضي القضاة علاء الدين بن القضامي الحنفي، نور الله ضريحه، وقد مرَّ على دمشق متوجهاً إلى الحجاز الشريف في محفة، قوله:

محفة المجلس العلائي تنشر جدواه في المشاهد
تقول هذا قنئ وأعطى وحج بالناس وهو قاعد^(٣)
وأمر ابن المزين أن يكتب على قبره من نظمه، ما قرأته على القبر وحفظته، وهو قوله رحمه الله:

بقارعة الطريق جعلت قبري لأحظى بالترحم من صديقي
فيا مولى الموالي أنت أولى برحمة من يموت على الطريق

ومما قررته للشيخ شرف الدين عيسى العالية في باب التورية، قوله رحمه الله تعالى:

لما رأوه مضاجعي تحت الدجا حجبوه عن عيني حتى أسهرا
قبلت خالاً فوق كعبة خده قبل الوداع وما أتيت المشعرا^(٤)

وقوله:

ومليحة راودتها فتعلت بالحیض وهي تقول كالمذعور
هل موضع خال فقلت لها اسكتي فمواضعي ليست تعد ودوري
ومن لطائف مجونه قوله وهو حكاية لحاله:

قالت لي الفروة قم دفني حتى أدفيك بقلبين
قلت لها بالله ما تشتهي قالت غشا قلت على عيني^(٥)

(١) أزرى به: أظهر بشاعته.

(٢) عذرا: عذراء وهي الفتاة لم يمسها بشر.

(٣) قنئ: جعله يقتني ويملك أي وهب ما يقتني.

(٤) المشعر: المشعر الحرام وهو من مناسك الحج.

(٥) غشا: جُماع - على عيني: كناية عن الإستجابة.

ومن مجونه مع الشيخ بدر الدين البشتكي :

ذو أبنة ليس تخفى (١)
وللخلائق كفا
مقالي وكس أم من ينتكي (٢)
ويولوا على شارب البشتكي
كلحية الراهب مشعوره (٣)
قلنا له فاستعمل النوره (٤)

البشتكي المكدي
قد مد لليك رجلاً
وقوله: أيا معشر الصحب مني اسمعوا
ألا فالعنوا آكلين الحشيش
وقوله: البشتكي البدر له لحية
قال أنا أشعر هذا الورى
ويعجبني من مدائح قوله:

وجد لي بفضل لا يضيع ثوابه
قرباب وأرجو أن يحلى قرابه (٥)

تهناً بنصف كم به من حلاوة
فإن لساني صارم وفمي له
ومن شعر عيسى في مؤلفه من قصيدة:

ويخطيء في القول لا يشعر
فلم أدر أيهما أحمر (٦)

صبيغ دعاويه ما تنقضي
تفكرت فيه وفي ذقنه

وكثر في العطاء ولا تقلل
نهار العيد كبر أو فهلل (٧)

وقوله: أيا رب الجناب الرحب جد لي
وما تعطيه لي من خشكنان

برأسي البرد في نومي وأمسي
أروم الفوز من برد بشمس (٨)

وقوله: لفضلك يا ابن فضل الله أشكو
وأرجو أن يكون الشاش شمساً

(١) المكدي: الشحاذ - الأبنة: العيب.

(٢) ينتكي: يشاكس ويعمل بالصد (نكاية).

(٣) مشعوره: المغطاة بالشعر الكثيف.

(٤) النورة: أخلاط من الأملاح تستعمل لإزالة الشعر - أشعر: أكثر شعراً وأحسنهم شعراً.

(٥) القرباب: للسيف غمده أو موضعه.

(٦) أحمر: أفعل تفضيل من جمار - واللون المعروف.

(٧) الخشكنان: نوع من الحلوى يصنع من دقيق الحنطة والسكر واللوز أو الفستق (فارسية) - كبر: قال الله أكبر - هلل: قال لا إله إلا الله.

(٨) الشاش: نسيج رقيق من القطن تضمد به الجراح ويستعمل لفافة للعمامة.

الشيخ شرف الدين عيسى، وعصريه الشيخ شهاب الدين بن العطار الآتي ذكره، رحمهما الله تعالى، والشيخ بدر الدين البشتكي، لم أجد في أغزاليهم من المقاطيع ما يغازل بغزله عيون التورية، ولكن وقفت لهم على أغراض هي فوق الغرض، فمن ذلك قول الشيخ شهاب الدين بن العطار:

أصبحت بطلال والأولاد أربعة
فإن تحيل في رزق بمدحك
ومن إيهامه في هذا الباب قوله:

طلبت رزقاً قيل رح ناظرا
لو أن ذي الحكام في سلطة
جيوش سيس قلت رأي تعيس^(١)
ما طلبوا أني أبقى بسيس

وقال في الشيخ شرف الدين عيسى المذكور:

عيسى ومن مدحوه
وما رأيت أناساً
ما شمت فيهم رئيساً^(٢)
لكن حميراً وعيساً^(٣)

وقوله في طاهر بن حبيب:

تجادل شافعي مع مالكي
فقال الشافعي الكلب نجس
وهذا البحث بين الناس ظاهر
وقال المالكي الكلب طاهر

ومن لطائف مجونه قوله:

هيا البلان موسى
قلت ما أصنع فيها
خلوة تحيي النفوسا^(٤)
قال تستعمل موسا

ومن محاسن الشيخ جمال الدين عبد الله السوسي، في باب التورية، قوله:

أهوى غزلاً عليه صبري
قد أسرت مقلته قلبي
قد بان في الحب وهو عذري
فرحت مملوكه بأسري^(٥)

(١) بطلال: بدون عمل.

(٢) سيس: إسم بلد.

(٣) شام: رأى أو وجد وأنس.

(٤) العيس: الإبل مفردها أعيس.

(٥) البلان: الحمام.

(٦) بأسري: بكل جوارحي.

وقوله: تهاون شمس الدين بي وهو صاحب
نزلت به أبغي الندى وهو طالع

وقوله: زجرت النفس عن نذل لئيم
وقد ذكّرته عنه مراراً

وقوله: تجنب أقطعاً لصاً جريئاً
وما قطعوه بعد الوصل إلا

ومن محاسن الصاحب فخر الدين بن مكاس، في باب التورية، قوله:

بأبي عقيقة مرشفتها
فلثمتها ورشفتها

برت وكانت قبل عقت^(٣)
وقطعتها من حيث رقت

ومنه قوله:

يقول مفندي إذ همت وجداً
أيعرف خده للعشق أهلاً

بخذ خلت فيه الشعر نملاً^(٤)
فقلت لهم نعم أهلاً وسهلاً

وقوله: زارت معطرة الشذا ملفوفة
يا معشر الأدباء هذا وقتكم

كي تختفي فأبى شذا العطر
فتناظموا في اللف والنشر^(٥)

وقوله: علقتهام معشوقة خالها إذ عمها
يا وصلها الغالي ويا جسمها

إذ عمها بالحسن قد خصصا^(٦)
لله ما أغلى وما أرخصا

وقال وأجاد:

إن الهوائين يا معشوق قد عبثا
فالروح تفديك بالمدود قد تلفت

بالروح والجسم في سر وفي علن
والجسم حوشيت بالمقصور في كفن^(٧)

(١) الندى: الثانية بمعنى الرذاذ الذي يكون صباحاً على الأزهار والأولى بمعنى العطاء.

(٢) الأقطع: الذي حُدَّ حَدَّ القَطْع فقطعت يده لأنه سرق - اللص السارق - الجنابة: العمل المشين.

(٣) العقيقة: واحدة العقيق، حجر كريم يميل لونه إلى الدم تشبه به الشفاه - المرشفت: مكان الرشفت أي الشفاه - برت: أطاعت - عقت: عصت.

(٤) المفند: المتهم والمكذب ومضعف الرأي.

(٥) اللف والنشر: من المصطلحات البلاغية.

(٦) علقتهام: عشقتها.

(٧) المقصور: من الأسماء الذي ينتهي بألف أصلها ياء، ومكان العبادة حوشيت: حاشاك.

وقوله مضمناً:

ولكنه رشق يزال به الهم
وليس له منها نصيب ولا سهم
ق صفاء الخد فاتن
حول ماء غير آسن^(١)

ومقلة ظبي يرشق القلب سهمها
على نفسه فليك من ضاع عمره
وقوله: عارض المحبوب من فو
شبه ورد زاد لطفاً

وقوله في مجونه مضمناً:

في هوى الحب دع كلام الفشار^(٢)
لا على درهم ولا دينار
مراهق فيه حلا هتك^(٣)
وكلما سليتته يبكي^(٤)

قلت يا لاثمي على بذل مالي
فعلى فلس ذا يناح ويبكي
وقوله: شكى إليّ اليتيم إذ نكته
بت أسليه على يتمه

واشتهى الشيخ شبابا
وجد الراح شرابا^(٥)

سکر الشيخ وطابا
حسب الخمرة صابا

وقوله يمازح السراج السكندري، وقد انقطع عنه:

قل للسراج إذا تكبّر حيث بالقوم احتمي
أنت السراج بعينه لو شلت انفك للسمما^(٦)

ومثله قوله فيه:

أولى وذلك للحق الذي وجبا
مثل المنار إذا ما قام وانتصبا

يا ذا السراج اشترى أيري فأنت به
سكندري وتدعى بالسراج وذا

وقال في الصاحب بن النشو الوزير، وقد أنشأ سبيلاً بالجامع العمري:

(١) آسن: فاسد ومتغير اللون والطعم والرائحة.

(٢) الفشار: الأحمق.

(٣) المراهق: الذي لم يبلغ الحلم من الصبيان - الهتك: المجون والفحش.

(٤) سليتته: من التسلية، والسّل.

(٥) الصاب: عصارة شجر مرّ المذاق - الراح: الخمرة.

(٦) شال بأنفه: تكبر وتعجرف.

وزارة زادته في وزره (١)
قال لنا عنه بنو مصره
وزيره يرشح من قعره (٢)

أنشأ القطيم النشو لما ارتقى
بالجامع العمري سبيلاً وقد
هذا سبيل حاله فاسد

ومن أغراضه البديعة قوله:

ما سلسلوا مطلق كل جدول
يقول بالدور وبالتسلسل (٣)

لولا الزمان للمحال قابل
وأصبح الدولاب في رياضه

ومن أغراضه الغريبة قوله في ولده مجد الله بن فضل الله، رحمهما الله تعالى:

وكملة في الخلق والخلق مذ نشأ
وذلك فضل الله يؤتيه من يشأ

أرى ولدي قد زاده الله بهجة
سأشكر ربي حيث أوتيت مثله

ومن بدائع أمداحه قوله في الشهيد فخر الدين نقيب الأشراف، رحمه الله تعالى:

دامت له النعماء لا تنقضي
وخلقه ذاك الشريف الرضي (٤)

جناب فخر الدين كهف الورى
فهو الشريف الحسن المرتضى

وقال يمدح الإمام المرتضى، علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:

قد توالوك بالسعادة فازوا
يا إماماً وما سواك مجاز

يا ابن عم النبي ان أناساً
أنت للعلم في الحقيقة باب

ويعجبني من حسن خواتمه قوله:

ما مخلصي فيه سوى الإقرار (٥)
وتطلعي فيها شبيه القار (٦)

وا سواتاه إذا وقفت بموقف
وسواد وجهي عند أخذ صحيفتي

(١) القطيم: الصقر - الوزر: الحمل الثقيل والمسؤولية.

(٢) يرشح: يتسرب منه الماء - قعره: إسته.

(٣) الدولاب: ما يستقى به ويوضع فوق البئر (الناغورة).

(٤) الشريف الرضي: الشاعر المعروف وأخو الشريف المرتضى صاحب الأمالي.

(٥) الإقرار: الاعتراف.

(٦) القار: الزيت.

ومن محاسن ولده مجد الدين بن فضل الله، تغمده الله برحمته، قوله:

وأغيد بت منه رمى من اللحظ سهماً
بنار عشقيه ألقى^(١) به نموت ونبلى
وقوله: قالوا وقد عشت بنا إن رمت تلفانا فلج
قاماتهم والأعينا بين السيوف والقنا^(٢)
وقوله: يقولون هل من الحبيب بزورة فقالوا لنا غوصوا على قده وما
ومنا كم المطلوب قلنا لهم منا^(٣) يحاكي إذا ما اهتز قلنا لهم غصنا
وقوله: حق الله دع ظلم المعنى وكف الصد يا مولاي عمن
بك قد أضحي معنى مغرماً قال هل يولم إن واصلته
قلت إن فاز بشفر أولما^(٤)
وقوله: يا لاثمي إن فقدت الصبر في قمر كلت سيوف اصطباري عنه حين بدا
أصداغه سلبت أهل الهوى وسبت آس العذار على وجناته ونبت^(٥)
وقوله: من مجيري من سادة ألفوا الهجر سأل الدمع أن يجيروه قالوا
لعشاقهم وزادوا النفارا مثل هذا في حيناً لن يجارا^(٦)

ومن اختراعاته اللطيفة:

تساومنا شذى أزهار روض فقلت نبيعك الأرواح حقاً
تحير ناظري فيه وفكري بعرف طيب منه ونشر^(٧)

(١) أولم: أقام وليمة - لما: سمرة في الشفاه.
(٢) كَلَّ السيف: لم يعد قاطعاً - الآس: نبات ذو ثمار كروية بيضاء ورائحة زكية - نبت: أخطأت الهدف ومن النبات.

(٣) ألقى: احترق بالزيت الساخن أو أكره وأهجر.
(٤) لج: أمر من ولج: أدخل - القنا: الرماح.
(٥) من: جاد وتفضل - منى: علل.
(٦) أجار: حمى - لن يجارى: لن يسبقه أحد ولن يعينه أحد.
(٧) العرف: الشذا - النشر: الرائحة الطيبة.

: ومن أغراضه اللطيفة قوله:

ويشير في هجو الكرام عجاجاً^(١)
ومنعته أيري فدم وهاجاً^(٢)

سحقاً لذي نظم يهيج من البغا
أقصيته عني فظل يسبني

ومن مدائح يهنئ والده بعوده من السفر:

وبقيت ما طرد الظلام نهار
حتى لقد عظمت بك الأسفار

هنت يا أبتى بعودك سالماً
ملت بطون الكتب فيك مدائحاً

وقال فيه أيضاً، وقد أهدى له هدية حسنة:

ولولاك كنت الدهر في الغي سادياً^(٣)
فلا زلت في الحالين للعبد هادياً

تناهيت في بري إلى أن هديتني
وأهديت لي ما حير العقل حسنه

ويعجبني من زهدياته قوله:

دعاني لما يرضى الإله وحرصاً
وأمسكت لما لاح لي الخيط أبيضاً

جزى الله شيبى كل خير فإنه
فأقلعت عن ذنبي وأخلصت تائباً

ومن كلام الشيخ أبي الفضل بن أبي الوفاء العارف، الذي دخل بحسن سلوكه إلى زوايا الأدب فأخرج منها الخبايا وأظهر البرهان، تغمده الله برحمته قوله:

عرف الفقير وذاقه
جأ شكاً فقراً وفاقه

عبدك الصب المعنى
فلكم فاخر محتاً

ومن مخترعاته، في باب التورية مع بديع التضمين، قوله:

إلا أغن غضيض الطرف مكحول^(٤)
كأنه منهل بالراح معلول^(٥) (مع لولو)

ما خادم واسمه في در مبسمه
وريقه مع ثناياه التي انتظمت

(١) البغا: البغاء وهو الفحش - العجاج: الغبار المتصاعد فوق أرض المعركة.

(٢) هاج: اضطرب وصاح. وهاجى من الهجاء بادله إياه.

(٣) سادياً في الغي: متمادياً في الضلال.

(٤) أغن: في صوته غنّه، غضيض الطرف: ذابله.

(٥) الثنايا: الأسنان - معلول: ممزوج.

ومن اختراعاته قوله:

ترى لعيون الناس فيها تزاخما
فياحسن ريحان العذار حماحما^(١) (حمى حمى)

بين يدي من قد تمادى جفاه
فلم يملاه ولم يعطفاه (يعطٍ فاه)
مستعذب الطعم حلوا
فقلت بعد التروي^(٢)

فازداد قلبي حبا
فيه فصار مربى^(٣)

إذا انحدرت من كأسها الراح في حلقي
أحط المراسي عنده فأمل لي واسقي (وسقي)^(٤)
واللوم عندي غير مستحسن
إن جئت نحوي قط لا تلحن (ني)^(٥)

فقال توازعهو يا صحابي^(٦)
أكف القوم هان على الرقاب

على وجنتيه جنة ذات بهجة
حمى ورد خديه حماة عذاره

ومثله قوله: أرسلت عينيّ بدمعيهما
أسأله في فمه قبلة
ومثله قوله: سألتها رشف ريق
قالت فصفني ارتجالاً

ومن لطائف نكته في هذا الباب، قوله:

ازداد خدك شعراً
إذ كان وردك جمري

ومن لطائفه قوله:

ألا لا تلوموني فليست بمقلع
سأوي إلى بحر من الخمر مترع
وقوله: ذكرك لي في اللوم مستحسن
كم قلت للمعرب في لومه

ومن لطائف مجونه مع حسن التضمين:

وخلّ سمته صفعاً بمال
إذا الحمل الثقيل توازعته

(١) الحماحم: الحبق، نبات طيب الرائحة.

(٢) التروي: الشبع والتأني.

(٣) مربى: من الحلويات وذو تربية.

(٤) الوسق: مكيال مقداره ستون صاعاً والصاع خمسة أرتال وثلث والرطل كيلوين ونصف وعلى هذا يكون الوسق سبعمائة وخمسون كيلو أو ليترًا. وتجمع على أوسق

(٥) تلحن: تخطيء في النحو وتلومني.

(٦) سام: طلب الشراء.

ومن أغراضه قوله:

تعت دهر لـح فينا بـخطبه
قسا وانثنى يـختال في جـبروته
وأنشدني، من لفظه لنفسه، الشيخ شمس الدين المتنبى، قوله في مـليح اسمه حمزة:
ترى يبدو لحمزة بعض ما بي
وأشفي بالمبرد من لمـاه
وذللنا من بعد عز وأنـكانا^(١)
وجرر أذيالاً علينا وأردانا^(٢)
ويرثي لي وينظر في بلائي
واجمع بين حمزة والكساء (ي)^(٣)

ومن لطائف علامة الوجود فريد الدهر بدر الدين بن الدماميني البـمـخزومي المالكي، قوله:

قلت له والدجا مؤل
قد عطس الصبح يا حبيبي
وقوله: يقول بديوان المحبة وردوا
فوردت في الديوان عامل قدّه
ونحن في مجلس التلاقي
فلا تـشمته بالفراق^(٤)
محاسن حبي فهو في الحسن مفرد
فقال وذاك الخد قلت مورد
وقوله: وبـي وجنة حمراء زاد صفاؤها
فدع لائمي ينهى عن الحب جهده
وأبدت صفات أبداع الحسن كونها
فما أنا بالسالي صفاها ولونها (نهي).
وقوله: يا عدولي في مغن مطرب
كم تهز العطف منه طرباً
حرك الأوتار لما سفرا^(٥)
عندما تسمع منه وترى (أ)^(٦)
قلت له والقلب رهن لديه
فهل ترى يقعد نقشي عليه
وقوله: أذاب أحشائي هوى صائغ
إنني على فيك أرى خاتماً

(١) الخطب: الأمر الجلل والمصيبة - أنكانا: عاندنا.

(٢) يـختال: يتبخر في مشيته - أردانا: أكمام أو قتلنا أو أوردنا الردى وهو الموت.

(٣) حمزة والكسائي: من رواة الحديث.

(٤) عطس الصبح: طلع وبان ضوءه - شمت العطس: قال له: يرحمكم الله.

(٥) سفر: انكشف.

(٦) وترى (أ): الوتر الخيط في الآلة الموسيقية. والرؤية.

وقد زاد النكتة حسناً بقوله:

وخاف من مراقبه
بعينه وحاجبه^(١)

بدا وقد كان اختفى
فقلت هذا قاتلي

ما مثله في الزمان ثاني
وأنت في غاية الأمان (ني)

أمنيته أنت يا مليح : وقوله:

وهواه عليّ أصبح فرضاً
صرت يا صاح منه بالذل أرضاً (ضى)

وعزيز الجمال أوجب ذلي
فهو في الحسن والجمال سماء : وقوله:

ينفي عن القلب جميع الكرب^(٢)
يطيب للصب ارتشاف الضرب

تناسبت أوصاف من وصله
في الخد تسهيل ومن ثغره : وقوله:

قلب المحب الصب في الحين^(٣)
ففيك قد هام بلامين^(٤)

لا ما عذاريك هما أوقعا
فجدله بالوصل واسمح به : وقوله:

محمودة والصبر لا يستطاب
ذبت ومن فيك براني الشراب

قلت لعطار به صبوتي
أسقيتني كأس غرام به : وقوله:

قد طاب فيه العشق للمغرم^(٥)
طيب الهوى ما زال في المثلث

لله منه ملثم أشنب
قلت لعذالي لا تعجبوا : وقوله:

حبي فقرت مقلتي
فقلت هذه ليلتي

في ليلة البدر أتى
وقال لي يا بدر قم : وقوله:

اللهو سيقاً للمدام^(٦)
لكميت ولجام^(٧)

قم بنا نركب طرف
واثن يا صاحي عناني : وقوله:

(١) بعينه: نفسه وذاته والعين أداة النظر.

(٢) الكرب: الضيق.

(٣) الحين: الحيرة والقلق المميت.

(٤) المين: المراهنة والرياء.

(٥) المثلث: الفم - الأشنب: الأبيض الأسنان رقيقها.

(٦) سيقاً: هكذا في الأصل وهي من السياقة. ونظنها سقياً: وهي بمعنى شرباً. وهي أنسب في المعنى - والمدام: الخمره.

(٧) العنان: المقود - الكميت: من الخمره التي يميل لونها الأحمر إلى السواد - الجام: وعاء للشراب. واللجام: المقود.

ومن أغراضه اللطيفة قوله:

أقول لخل جن من فرط ماله وراي فأسق الناس كأس عذاب
صفاتك يا هذا لعمرى تناقضت فإنك ذو مال وأنت تراي

ومن مدائحه، ما كتب به إلى قاضي القضاة ناصر الدين التنيسي، قوله:

قد نلت يا قاضي القضاة مطالبي بكنوز ود منك أورثت الغنى
وأخافني الدهر الظلوم فمذراً ني داعياً لجناب جودك أمناً

ومن مدائحه فيه قوله، وقد ولاه وظيفة العقود في مبادي العمر:

يا حاكماً ليس يلفى نظيره في الوجود (١)
قد زدت في الفضل حتى قلدتني بالعقود (٢)

وكتب إلى برهان الدين المحلي:

يا سر يا معروفه ليس يحصى ورئيساً ذكاً بفرع وأصل
مذ علا في الورى محلك عزا قلت هذا هو العزيز المحل (ي) (٣)

وكتب إلى شهاب الدين الفارقي:

قل للذي أضحي يعظم حاتماً ويقول ليس لجوده من لاحق
إن قسته بسماح أهل زماننا أخطا قياسك مع وجود الفارق (ي)

ويعجبنى من أغراضه البديعة قوله:

لئن عقدت بنت الكروم عقودها على حمل نفى الهم والهم زائد
فنحن شهود في المقام لعقدتها على أولياء اللهو واللوز عاقد (٤)

ومن لطائف مجونه قوله:

أمنت صدوده فدنوت منه على مهل بشيء زاد حسنا
وعاجلني الرقيب فخاف أيري وأنزل إذ رأى خوفاً وأمناً (ي)

(١) يلفى: يوجد - النظير: المثل والشبيه.

(٢) قلد: ألبس قلادة وهي عقد ثمين يلبس في العنق.

(٣) العزيز: عزيز مصر، واشتهر عهده بالرخاء.

(٤) عقد اللوز: إذا صار زهره ثمرأ. والعقد: عقد الزواج.

ومما اختاره سيدنا الشيخ العالم العلامة، أبو الفضل أحمد بن حجر العسقلاني، روى الله من سحاب الرحمة ثراه، من نظمه لنفسه رحمه الله تعالى، في باب التورية، ورسم لي أن يكون واسطة لهذا العقد، وكتب ذلك بخطه الكريم في كراسة، وأتحف بها العبد لأنظمتها في عقود هذه الأسلاك، وكتب في ديباجة الكراسة قوله:

يا سيداً طالعه	إن راق معناه فعد
وافتح له باب الرضا	وإن تجد عيباً فسد
وقوله: سألت من لحظه وحاجبه	كالقوس والسهم موعداً حسنا
ففوق السهم من لواحظه	وانقوس الحاجبان واقرنا ^(١) (وقت رنا)
وقوله: سألوا عن عاشق في	قمر باد سنه
أسقمته مقلته	قلت لا بل شفته
وقوله: أتى من أحبائي رسول فقال لي	ترفق وهن واخضع تفرز برضانا
فكم عاشق قاسى الهوان بحبنا	فصار عزيزاً حين ذاق هواناً ^(٢)
وقوله: ضنيت جوى فواصلني حبيبي	وعاد إلى الجفاء فعاد ما بي
فقلت أعد وصلاً قال كلا	فها أنا ذبت من رد الجواب (بي)

وقوله، مع بديع الاقتباس:

خاض العواذل في حديث مدامعي	لما رأوا كالبحر سرعة سيره
فحبسته لأصون سر هواكم	حتى يخوضوا في حديث غيره ^(٣)
وقوله: يا عاذلي وسهام اللحظ ترشقني	عن قوس حاجب بدر خذّه قسي
إن تستطع لنجاتي في الهوى سبياً	فاستنبط السلم لي من أسهم وقس (ي)
وقوله: ولم أنس إذ زار الحبيب بروضة	فغارت من المعشوق أعينها المرضى
ولاحت بخد الورد حمرة خجلة	حياء رأينا طرف نرجسها غضا

(١) فوق السهم: صوّبه - انقوس: صار منحنياً كالقوس.

(٢) هوانا: حبنا، والذل.

(٣) حتى يخوضوا في حديث غيره، تضمين للآية الكريمة: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا

فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ الأنعام، ٦٨/٦.

(٤) قس: أمر من قاس: قَدَّر المسافة. وقسي: جمع قوس.

- وقوله: يا مبدعاً في حسنه واصل أخا
فقال هل صيف في مشتاته
- وقوله: محبوبتي واصلتني
وذاب قلب حسودي
- وقوله: أحب بوقاد كنجم طالع
وأنا الشهاب فلا تعاند عاذلي
- وقوله: نحن أهل الهوى بلوناه قدما
وشربنا خمر الهوى كل حين
- وقوله: ورشا مذ نشا وعينا التصابي
وجهلنا الغرام حتى أرانا
- وقوله: سرت وخلفتني غريباً
أغث حشا أحرقت غراماً
- وقوله: وبدر تمّ جميل
إذا هممت بأني
- وقوله: نهاني حبيبي أن أطيع عواذلي
فقلت فدتك النفس سمعاً وطاعة
- وقوله: وأهيف حياني بطيب وصاله
أدار لي الكأسين خمراً وريقة
- وقوله: تجرد من أحب فقال لي من
أجاد لك الحبيب بلمس جسم
- همّ له عام وما واصلنا
قلت نعم وفي هموم شتى
- والهم عني تشتت
لما وقت وتفتت
- أنزلته برضا الغرام فؤادي
إن ملت نحو الكوكب الوقاد
- بين خوف من أهله وأمان
بكؤوس قد أترعت وأوان^(١)
- بعدما كان ذا اشتباه علينا^(٢)
منه تحت اللثام خدأً وعينا
- في الربيع أصلى جوى بنارك^(٣)
في ربعمك المعتلي ودارك
- محجب بالدلال
أسلو هواه بدا لي
- لكي أتھني بالوصال الذي سرا
فلم أر نهياً منه أهني ولا أمراً^(٤)
- ومن ريقه الخمر الحرام حلال
ونزهني عن جفوة وملال (لني)
- يلوم وأظهر الحسد المكتم
له كالحز قلت نعم وأنعم

(١) أترع الكأس: امتلأ - أوان: وقت وأنية وهي الأوعية.

(٢) الرشأ: الغزال - اشتباه: التباس.

(٣) أصلى: أحترق.

(٤) أمراً: من الأمر وأمراً: أي أسهل وأهون.

أقوى دليل أنه جاهل^(١)
قعاقع ما تحتها طائل^(٢)

وقوله: تيه فلان الدين مع فقره
لثوبه بالصقل من فوقه

ومن أغراضه اللطيفة قوله:

وما حوته ضلوعي
بنزلة وطلوع

أشكو إلى الله ما بي
قد طابق السقم جسمي

وقوله، وهو مما كتبه على مجموع الكرمانى:

لها الفضل إذ وافت محاسنها يعزى
فلم يكف طرفي منه شيء ولا أجزاء^(٣)

نظرت لما سطرته من فوائد
فلله ما سطرت منها لخاطري

علم الفروع بخالص الإبريز^(٤)
أزي بالإحسان والتبريز (ي)

وقوله: قد جئت في علم الأصول لنا وفي
وبرزت في هذا وفي هذا على الر

ويعجبني من وعظياته قوله:

هذي الدعاية قد أتى داعي الردى^(٥)
ثوب التصابي فهي ما خلقت سدى^(٦)

يا أيها الشيخ المطيع هواه دع
وخيوط هذا الشيب لا تنسج بها

ونسوي فعال الصالحين ولكننا
وأعمارنا منا تهد وما تبني (تبنا)

وقوله: خليلي ولي العمر منا ولم نتب
فحتى متى نبنى بيوتاً مشيدة

ومن نظم الشيخ بدر الدين البشتكي، رحمه الله، في هذا النوع قوله:

قد شرف الحسن قدره
يود يبذل بدره

بدا بوجه جميل
في شمسه كل صب

(١) التيه: التكبر والخيلاء.

(٢) قعاقع: أصوات وجلبة.

(٣) أجزاء: أجزاء أي كفى أو قام مقام.

(٤) الإبريز: الذهب.

(٥) الردى: الموت.

(٦) سدى: عبثاً بدون طائل.

هذا الذي ظفرت به من أغزاله في هذا الباب . ومن مجونه قوله :

وافى بذقن بعد أن قاسيته حلواً ومرأً
فقبضت لحيته وأبـري في استه وهلم جرا^(١)

وقال من كتابه المسمى «برفع شان العمشان» :

أقول لناطف خديه مهلاً أترضى اللائطين مدى الدهور^(٢)
فدع نتف العوارض عنك كيما تناك بلحية مثل الحرير (ي)

ومثله قوله في الشيخ بدر الدين بن الدماميني المخزومي :

تباً لقاضٍ جارٍ في أحكامه حتى على المثور والمنظوم
خان الشريعة مذ أطاع بني وفا وانقاد للفساق كالمخزوم^(٣) (ي)

ومن مدائحه قوله :

وقاس الوري بالنيل نائلك الذي حلا وصفا والنيل يبدو مرتقا^(٤)
فقلت وهل ينقاس من خلقه الوفا بمن بالوفا في العام يوماً تخلقا

وكتب إليه سيدنا ومولانا قاضي القضاة شهاب الدين بن حجر العسقلاني ، في رمضان :

أليس عجيباً بأنا نصوم ولا نشتكى من أذى الصوم غما
ونسغب والله في نسكنا إذا نحن لم نرو نثرا ونظما^(٥)

فأجابه بقوله :

ألا يا شهاباً رقي في العلا فأمطرنا نوؤه العذب قطرا^(٦)
إلى فقرة منك يا فقرنا ونستغن إن قلت نظماً ونثرا^(٧)

(١) الإست: مكان خروج الفضلات من جسم الإنسان .

(٢) اللائطين: الذين يأتون الرجال شهوة من دون النساء .

(٣) المخزوم: الذي جعل في جانب منخره الخزام أو الخزامة وهي حلقة يشد فيها الزمام وهو الرسن .

(٤) المرتق: المكدر .

(٥) نسغب: سغباً وهو الجوع .

(٦) النوء: المطر .

(٧) نثرا(ي): النثر الكلام العادي غير الموزون ونثرى: نستغني .

ومما فضل لي من صبايات هؤلاء الفضلاء في مناهل التورية قولِي :

لامية عوذتها أحرف القسم
وطال شرحي في لامية العجم

من تحت عارضه كسرٍ غامض
فغدا مقامي تحت ذيل العارض

فجاءتني عوارضه تعارض
ولكن ما سلمت من العوارض

برشقة من جفنه مشتقة
قتلت بين دورة ورشقة

وجانب ذاك الصدغ وهو مطرف
فقلت لهم هذا الجناس المحرف

سبيلاً إلى برد الحشايا أخوا الصفا
ألم تره من برده قد تفرقفا^(١)

بر الجميل فلم أطق أن أصبرا
في العشق قلت أما تراه تعذرا

هويته أعجماً فوق وجته
في وصفها ألسن الأقلام قد نطقت

وقولي: خال الحبيب يقول لي لما بدا
أنا فارضي في الغرام بخده

وقولي: عزمت على السلو لطول هجري
وكان العذر يقبل في سلوي

وقولي: دويرة العارض عني حميت
فاترك ملامي يا عدولي إنني

وقولي: ولما رأني الشعر وهو مذيّل
بدا بخمار من خمار بزيقه

وقولي: أقول لثغر الحب مت ولم أجد
فقال ارتشف من خمر ريقني نهلة

وقولي: لما تعذر من أحب تعذر الصبر
قال العذول الصبر أعظم مسعد

وقولي، مع بديع الاقتباس:

تلوين دمعي بعد فرقة جبه
فغدت مطوقة بما بخلت به^(٢)

ناحت مطوقة الرياض وقد رأته
لكن به لما سمحت تباخلت

وقولي في مدح حماة:

فقوت أدمعي نيران وهجي
وكل الناس في هرج ومرج^(٣)

ذكرت أحبتي بالمرج يوماً
وبت أكابد الأحزان وحدي

(١) تفرقفا: برد كثيراً.

(٢) في مطوقة بما بخلت به تضمن لقله تعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ آل عمران،

١٨٠/٣.

(٣) كابد: عانى - الهرج والمرج: كناية عن الفرح وعدم المبالاة.

وقولي فيه أيضاً:

مرج حماة بنواعيره زاد على المقياس في روضته
واغتاظ نمروذ دمشق لذا فقلت لا أفكر في غيظته^(١)

وجلست يوماً في قطاف السفرجل على عين الغيضة الموصوفة بست الشام، مع
جماعة من أهل العلم والأدب، فنظم كل منهم ما يليق بذلك المقام على قدر مقامه،
فنظمت قولي:

تقول ست الشام لما غازلت بعينها فأنعشت حياتي
وانتقشت بمرجها وأبرزت نهداً حلاً لأنه نباتي
خذني بغير ضرةٍ فلأنني بديدة في الحسن والصفات
واستجلني عروسة يتيمة شامية وعش بلا حماة

وقولي في وادي رشعين وعينه، بظاهر مدينة طرابلس:

أرض وادي رشعين مفتوحة العيون لها نقطة على النيرين^(٢)
ما حللنا هناك إلا وقالت أجلسوهم على محاجر عيني

وقولي بوادي المنافس، بظاهرها أيضاً:

وادي المنافس من مغنى طرابلس بطيب أنفاسه أبدى نفائسه
وكاد يلحق بالشقرا وأبلقها فلا تلوموا إذ أقوى منافسه^(٣)

وقولي برأس العين ببعلك:

ولما نزلنا ببعلك تفككت عيوني وأذواقي وصلت على البين
وطالبتها يوماً برؤية مرجها وخضرتها قالت على الرأس والعين^(٤)

ومن أغزالي البديعة قولي:

ماس في الروض وانثنى بخدود مورده
فراينا غصونه وهي خشب مسنده

(١) النمروذ: نوع من الأزهار.

(٢) النيرين: الشمس والقمر.

(٣) أقوى: ضعف وبلي.

(٤) على الرأس والعين: تعبير عن الإستجابة للطلب.

وقلت مورياً ومقتبساً ومكتفياً:

وما برى بوصله سقاما
قلت لهم يا حسرتا على ما^(١)
عشراً وفرق الفجر فيهم يسري
لما بدا بين ليال عشر^(٢)

قالوا وقد فرطت في تصبري
اصبر عسى تسقى بماء ريقه
وقولي: أرخت لنا ذوائباً من شعرها
فصرت بالفجر لها معوذاً

وقولي مورياً مع بديع التضمين:

وقد غدا بنومنا مضمفراً^(٣)
عند الصباح يحمد القوم السرى^(٤)

سرننا وليل شعره منسدل
فقال صبح ثغره مبتسماً

باتت معانقتي ولكن في الكرى
أترى درى هذا الرقيب بما جرى

وقولي: قف واستمع طرباً فليلي في الدجا
وجرى لدمعي رقصة بخيالها

ويلاه من نومي المشرد
أواه من شملي المبدد

وقولي: كم صحت في ظلمة الليالي
والدمع في وجنتي ينادي

سواي فقلت قد عز اصطباري
عليك لشقوتي وقع اختياري

وقولي: يقول معذبي حسن تخير
وكم في الناس من حسن ولكن

وخصره يلتوي من الدقه
أهيم بين الفرات والرقه^(٥)

وقولي: ارشفني ريقه وعانقني
فصرت من خصره وريقته

عقدتها وهو مفرط
برح الشوق وأفرط^(٦)

وقولي: أبصروا عند وداعي
لمتها في ذاك قالت

(١) يا حسرتا على ما: على ماء ريقها أو على ما أؤمل.

(٢) الفجر: سورة الفجر - معوذاً: حامياً من التعويد وهو الاحتماء بآيات القرآن الكريم وبالطلاسم.

(٣) مضمفراً: بشكل صفائر واحدتها ضفيرة وهي الجديدة من الشعر أو غيره.

(٤) السرى: السير ليلاً.

(٥) الرقه: مدينة سورية.

(٦) أفرط: زاد.

وقولي: سجدت جفوني هية لما بدا
الله أكبر وهو يغزو مهجتي

محراب حاجبه بغير حجاب
حرباً ولم أخرج عن المحراب (١)

وقولي: طلبت منه قبلة فقال لي
نسيت فعل سيف لحظي قلت لا

وقد بدا يشرع في الإعراض
يا قاتلي وكيف أنسى الماضي

وقولي: قيل لي لما عرنتي شدة
يا أخوا الأشواق ماذا تبتغي

وتناءى فرج عني مده
قلت أبغي فرجاً من بعد شدة

وقولي: مذ جفاني ممرض القلب ولم
قلت للعارض يا آسي إذا

ألق في الضعف وفي الكسر انجارا
درت داري ممرض القلب فدارا

وقولي: طلبت تقبيل من أحب وقد
فرق لي قلبه وقال إذا

أنكرت في الخد نقطة حسنه
قبلت خدي لا تنكر الحسنه

وقولي مورياً ومضمناً:

حثت عزمي شوقاً إليكم
وحيث لم أحظ بالتلاقي

فلم أطق مكثه بأرض
فغاييتي أن ألوم حظي

وقولي: جاء بصبح ثغره مبتسماً
قلت له دمت لقلبي هكذا

يمشي بليل الشعر في دلال
ما دامت الأيام والليالي

وقولي مرتجلاً في جبهة دمشق، من دو بيت:

لما ملأ الجبهة بالأنوار
قال انصرفوا سئمت من بلدتكم

لمناه على ذلك خوف العار
والجبهة من منازل الأعمار

وقولي: مذ أظهر ورده لنا ريحانه
قد دب عذاره على وجنته

ناديت لتلك المقلة الكسلانه
قومي انتبهي قالت أنا نعسانه

وقولي: أحببته متأدباً ونظمت في
وأشار في حسن الختام أجبته

حسن ابتدائي فيه نظم المرقص
حسن الختام يكون بعد تخلصي

(١) المحراب: مكان العبادة.

يعيرني إذا طال اجتماعي
يطارحني بأبيات الوداع (عي)

في نقا جیده السعيد
أنا عبد لكل جيد

بغصن قدي إذا جفاكا
والله ما أشتهي أراكا

ليرى من بعده حالي وضعفه
يا معنى ما لعيد الفطر وقفه^(١)

قاعداً في الصدر بالتصدير يجهر
أنت بالتحقيق والله مصدر

لما تعدت حدها
قلت استحي فردّها^(٢)
لا بد أن أحدها^(٣)

لأن دمعي من طول البكى نشفا
حسيك الله يا بدر الدجا وكفا

تصبو إلى غيري وتخلص من يدي
يا هند خوضي في دمي وتقلدي^(٤)

وخضرة الشارب يا عاتي
وقلت بالمشروب والشارب

وقولي: يحاضرني بأبيات ولكن
فإن أنشدت أشعار السلام

وقولي: قلت للخال إذ بدا
فزت يا عبد قال لي

وقولي: قال أراك الحمى تعوض
فقلت من بعد قد حبي

وقولي: رمت يوم العيد منه وقفة
فطر القلب وولى قائلاً

وقولي: قال نهذ الحب صفني مذ غدا
قلت إذ برز في تحقيقه

وقولي: أسياف لحظ قاتلي
وعربدت من سكرها
وقال لي مورياً

وقولي: عاتبته ودموعي غير جارية
فقال لم أر وكف الدمع قلت له

وقولي: قالت وقد قبلتها في جيدها
فأجبت حين تقلدت بمدامعي

وقولي: بنقطة الخال وطعم اللمي
قد ملت للنقطة بعد التقى

(١) الوقفة: اليوم الذي يسبق عيد الأضحى وفيه يقف الحجيج بعرفة.

(٢) عربد: تكلم بكلام ماجن فاحش.

(٣) أحدها: أعاقبها والحد العقاب المعروف كحد السرقة: القطع وحد الزنى الجلد إلخ...

(٤) وكف الدمع: انصبابه.

(٥) خاض في دمه: قتله - تقلدي: البسي فلادة وهي العقد.

لما تجافى الشعر يوم البين
وساقه والله ذو وجهين

تخشى الأسود مرامه
بين العذيب ورامه

قوامه في رياض الوجد تغريد
بيض الضبا قلت أنتم أعين سودوا^(١) (د)

يشبه سهماً بجعبة رشقه^(٢)
سابقني مدمعي جري ملقه^(٣)

لحظه وهو يقنص الأسد صيدا^(٤)
فأنا اليوم من رجال السويدا

يحق له بروحي أن يفدى
بوصل منه ثم جفا وصدا

وقولي: أرداد من أهواه قد ثاقلت
وبعد ذا وجنته تلونت

وقولي: برامة لي ظبي
كم هام قلبي فيه

وقولي: هويت غصناً لأطيار القلوب على
قالت لواحظه أنا نسود على

وقولي: قلت له إن جفن مقلته
خفت من الفتك رحى أملكه

وقولي: في سويداء مقلة الحب نادى
لا تقولوا ما في السويدا رجال

وقولي: بروحي أفتدي ظيباً نفورا
جلا لصدا قلبي فرد يوم

وقولي مورياً مضمناً:

شكوت إليها قصتي وهي تسم^(٥)
ولم تر قبلي ميتاً يتكلم

بندی يديه وقال لي
وكما علمت شمائلي^(٦)

ولم أدر ما بين الغدير وبينه
إلى وجهه قصداً وخضر عينه

ومذ كلمت جسمي سيوف لحاظها
فلم أر بديراً ضاحكاً قبل وجهها

وقولي: جاد النسيم على الربا
أنا ما أقصر عن ندى

وقولي: رأيت مع المنثور بعض وقاحة
تلون منه ثم مدّ أصابعاً

(١) سودوا: كونوا سادة، تزعموا.

(٢) الجعبة: مكان وضع السهام.

(٣) ملق: كذب واحتال - ملقة: أملس.

(٤) قنص: صاد بغته.

(٥) كلم: جرح.

(٦) هذا البيت مأخوذ من بيت لعنترة بن شداد يفخر فيه بشربه الخمر فيقول:

وإذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلي وتكرمي

والندى: العطاء والكرم - والشمائل: الصفات الحسنة.

- وقولي: حيا بها عاصرها في كأسها
وقال هذي تحفة في عصرنا
- وقولي: لما غدا حباب كأسى شاعراً
أوقفت ساقينا على نظامه
- وقولي: لما غدا راحي نحيلاً بالياً
وجاز بالماء إلى بحرانه
فجثته مستقصياً أعراضه
- وقولي: في حب كأسى لامني
فقلت دعني إنني
- وقولي مماجناً: أعنابكم إن حرموا ماءها
لا تحرموني التين إني امرؤ
- وقولي: أدخلت أيري فيه
فقلت كيف تراه
- وقولي: العلم ابن الكوير قال معي
وقامتي بانه مهفهفة
- وقولي: قالوا صفي الدين أشعاره
وهكذا إنشاؤه مسكر
- وقولي: ديوان نظمي جاء وهو محرّر
فإذا بدى لا تستقلوا حجمه
- مشرقة باسمه كالشفر
قلت اسقنيها يا إمام العصر
لنظم خمرياته يحرّر^(١)
فقال لي والله هذا جوهر
- وكاد أن لم يك في الزجاج
ورق قالوا صنه بالعلاج
وجدته معتدل المزاج^(٢)
- من ليس يدري حالتي
وجدت فيها راحتني
وحرّفوا فيها على الشارب
أعشقه بالقلب والقلب
- أصبت منه المقاتل
فقال والله داخل
- لطف وظرف حواهما الكرم
فقلت لا بانه ولا علم
- ما للورى في طرفها ممشى
قلت لهم والله ما أنشا
- برقيق نظم لفظه يستعذب
وحياتكم فيه الكثير الطيب

انتهى ما أوردته في باب التورية من كتاب الله وحديث نبيه ﷺ، وكلام أصحابه رضي الله عنهم أجمعين، ومن نظم فحول العرب والمولدين، إلى أن ارتفع العلم الفاضلي وأوردت محاسنه، ومحاسن من مشى تحت علمه المحمدي، إلى أن اتصل هذا السند بأعيان أهل العصر.

قلت: ولولا الحياء من العصابة النباتية، وأنا منها، لعزت العلمين من الوداعي

(١) حرّر: كتب.

(٢) مستقصياً: متبعاً ومتبيناً. وأعراض المرض: مظاهره وعلاماته.

بثالث، فأوردت هنا من مطرب عطر مفرداته ما يغني عن المثاني والمثالث، فإنه أحد أئمة هذا المذهب، وإذا ذكرت التورية فهو عذيقها المرجب، وعلى كل تقدير ففرسان العلمين المشهورين الفاضلي والنباتي هم الذين أبرزوا عروس التورية من خدرها، وحققوا للناس من تساذج عن نقوش القاعدة وسفل عن علو قدرها، ولم أخل بذكر الشهاب محمود، وكان محمود الحشمة في ألفاظه على كل ناظم وناثر، إلا أن التورية كانت غير مذهبه، ووقوعها في نظمه ونثره من النوادر، وتمذهب بها القاضي شهاب الدين بن فضل الله، ولكن ما تفقه في هذا المذهب ولا حرره، ولا أبدر فيها بدر الدين بن حبيب، وكانت ليالي سطورها بنظمه غير مقمرة، ولهذا خدمها حذاق الأدب وحافظوا على الخدمة وثابروا، وأنشدوا من رضي بالشعر الموزون:

إذا كنت لا تدري سوى الوزن وحده فقل أنا وازن وما أنا شاعر^(١)

قلت: ومما تخيرته من نظم القاضي شهاب الدين بن فضل الله، رحمه الله، من النكت التي وقعت له عفواً من غير كد ولا تكلف، قوله:

جاؤوا بأنواع من الطيب لنا تحملها معشوقة ممشوقه^(٢)
قلت خذوا الطيب لكم جميعه بشرط أن لا تأخذوا المعشوقه

ومما اخترته من نظم بدر الدين بن حبيب، رحمه الله تعالى، قوله:

وجنته الحمراء لما اكتست خضرة أذئاب الطواويس
عابوا لفرط الحسن دينارها فقلت خلوه على كيسي

قلت: وقد عنّ لي أن أورد هنا نبذة من نظم من كانت التورية غير مذهبه، لأجعلها في مهالك الأشكال وموانع العقادة جل مطلبه، وما عليّ ممن تأخر عصراً أو تقدم، فإن الغرض أن يصير عقد التورية وهو بنظم من شعر بها منظم، وما خفي أن من حذاق الأدب من وقعت له التورية عفواً، وصار العفو محلاً عند القدرة، ومنهم من نقب عنها وعسعس عليه ظلام التكليف، فلم يبرزها نيرة، كالشيخ صفي الدين، فإنها كانت غير مذهبه، وحاولها مراراً فأتى بها مغمصوبة، ولم يبلغ من اقتناص شواردها بحبائل فكره مطلوبه، كقوله:

(١) وازن: هكذا في الأصل ونظنه من التحريف فالييت غير قائم الوزن والأصح: وزان: وهو الذي ينظم الشعر الموزون حسب التفعيلات.

(٢) ممشوقة: طويلة القوام.

وساق من بني الأتراك طفل
أتيه به على جمع الرقاق^(١)
أملكه قيادي وهو رقي
وأفديه بعيني وهو ساق^(٢)

قلت: لا شك أن مراده بالمعنى الواحد من التورية ساقى الراح، وهو ظاهر صحيح، وبالمعنى الآخر أن يكون هذا الساقى ساقاً للشيخ صفي الدين، وهو غير ممكن. ولعمري إن هذا مسلك من ليس له في باب التورية مدخل، وهذه النكتة أبرزتها معلمة الطرفين، وأنا إذ ذاك مبتدئ لم أبلغ من البلاغة أشدي، ولا ثبت عند قضاة الأدب رشدي، بقولي مورياً ومضمناً:

يا حسن ساق يقول إن ذهبت
مدامكم تكيفوا بأحداقي
شمر عن ساقه لنا وسقى
قامت حروب الهوى على ساق

قلت: ومما عقده الشيخ صفي الدين، في هذا الباب، بيت بديعته الذي نظمه شاهداً على هذا النوع، وهو قوله في مدح النبي ﷺ:

خير النبيين والبرهان متضح
في الحجر عقلاً ونقلًا واضح اللقم^(٣)

قلت: ومن تواريه التي يستشهد بها على رفضه، ولا بد أن الله تعالى يقابله فيها على قبج سريرته وقلة أدبه، قوله:

إذا شاهدت عينك وجه معذبي
وقد زارني بعد القطيعة والهجر
رأيت بقلبي من تلقيه مرحباً
وسيف عليّ في لحاظ أبي بكر

وكذلك الشيخ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر الأندلسي، ناظم البديعية، كان عن نظم التورية بمعزل، ولم ترض أن تنزل من أبياته بمنزل، وبيت نظمه في بديعته، شاهداً على هذا النوع، في غاية العقادة والسفالة، وهو قوله:

لا يرفع العين للراجين يمنحهم
بل يخفض الرأس قولاً هاك فاحتكم

وهذه البديعية غالبها سافل على هذا النمط، والتورية تجل عن أن تكون من مخدرات هذا البيت. ولكن أورد له الشيخ أبو جعفر، في شرحه الذي كتبه على بديعته، ما هو منقول في هذا الباب، وهو قوله:

(١) أتيه: أفتخر.

(٢) ساقى: الساق المعروفه وساقى الخمر.

(٣) اللقم: الطريق والنهج الواضح.

وقفت للوداع زينب لما رحل الركب والمدامع تسكب
مسحت بالبنان دمعي وحلو سكب دمعي على أصابع زينب

قلت: ورتبة الشيخ صفي الدين بالنسبة إلى ابن جابر معلوم أنها عالية، ولكن التورية ما دخلت إلى بيت من بيوته إلا خرجت غير راضية.

ومن التواري التي وقعت لناظمها عفواً، بل سحراً من غير كد، قول القائل:

قاسوك بالغصن في الشني قياس جهل بلا انتصاف
فذاك غصن الخلاف يدعى وأنت غصن بلا خلاف^(١)

ومن ذلك قول جلال الدين شاعر ماردين قديماً:

ويوم برد يد أنفاسه تخمس الأوجه من قرصها^(٢)
يوم توذّ الشمس من برده لجرت النار إلى قرصها

ومثله قول شرف الدين بن منقذ:

ولرب ليل تاه فيه نجمه وقطعته سهراً فطال وعسعسا^(٣)
وسألته عن صبحه فأجابني لو كان في قيد الحياة تنفّسنا

ومثله قول ابن نبيه؛ وكانت التورية غير مذهبه:

تعلمت علم الكيمياء بحبه غزال بجسمي ما بعينيه من سقم
فصعدت أنفاسي وقطرت أدمعي فصح بذأ التدبير تصفية الجسم

ومثله قول ظهير الدين بن البارزي:

يا لحيّة الحب التي طال لها تلفتي
هل أنت مسك الترك أو هل أنت مسك تبت

ومثله قول أمين الدين السلیماني:

أضيف الدجا معنى إلى لون شعره فطال ولولا ذاك ما خص بالجر
وحاجبه نون الوقاية ما وقت على شرطها فعل الجفون من الكسر

(١) الخلاف: الصفصاف. وبلا خلاف: بلا شك.

(٢) تخمش: تلطم وتخدش - القرص: شدة البرد.

(٣) تاه النجم: غاب - عسعس الليل: انتشر.

ومثله قول محاسن الشواء :

ولما أتاني العاذلون عدمتهم
وقد بهتوا لما رأوني ساهياً

ومثله قول سعد الدين الفارقي :

قف بي على نجد فإن قبض الهوى
وإذا دجا ليل الفراق ففاده

ومثله قول شهاب الدين بن أبي الحوف :

أقول لعقد أذهل الطرف حسنه
أخذت نظاماً راق معنى فقال لي

ومثله قول إبراهيم بن عبد الله الغرناطي :

يا رب كأس لم تشج شمولها
لما رأينا السحر من أشكالها

ومثله قول مجير الدين بن حبان الشاطبي :

تؤمنون الحجاز وما علمتم
وألفاظي العذيب وأضلعي المنحني

ومثله قول الشريف محمد بن قاضي الجماعة بغرناطه، وهو :

حدائق أنبتت فيها الغوادي
فما يبدو بها النعمان إلا .

ضروب النور رائقة البهاء
نسبناه إلى ماء السماء^(٧)

(١) قارض: جائر قاطع من قرض إذا جاز وقطع.

(٢) العين: صيبة العين - والعارض: المس.

(٣) الجيد: العنق - الخود: الفتاة الحسناء.

(٤) تشج الكأس: يمزج ما فيها من الخمره بالماء لكسر سورتها.

(٥) الزجاج: أحد النحويين العرب.

(٦) العذيب والمنحني والعقيق: أودية بظاهر المدينة المنورة.

(٧) النعمان: الزهر المعروف بشقائق النعمان والنعمان بن المنذر بن ماء السماء الملك.

ومنه قول لسان الدين بن الخطيب:

ولفضل البرد في الجو احتكام
قلت هذا اليوم برد وسلام

جلس المولى لتسليم الورى
فإذا ما سألوا عن يومنا

ومنه قول الشيخ شمس الدين الأدفوي:

وفضيلة بين الورى لن تجحدا^(١)
إلا وهز لها الشمائل بالنندا^(٢)

كم للنسيم على الربا من نعمة
ما زارها وشكت إليه فاقّة

ومثله، في الحسن والल्पف، قول الشيخ موفق الدين الحكيم:

نظماً به خاطر التفريق ما شعرا
قطعت مجموعته المختار مختصرا

لله أيامنا والشمل مجتمع
وا لهف قلبي على عيش ظفرت به

ومنه قول عبد العزيز الأمدى:

حفت بمكروه من العذل
أرملة تأكل بالفضل

إن الذي في وجهه جنة
مقلته في وسط قلبي غدت

ومنه قول القائل وأجاد:

دلت عى ضعف النسيم بخطها
فيد الغمامة صححته بنقطها

ويد الشمال عشية مذ أرعشت
كتبت سقيماً في صحيفة جدول

ومثله، في الحسن، قول علاء الدين بن البطريق ناظر الجيش ببغداد:

فيها تصاوير بمكنه
فمتى أراها وهي دمنه^(٣)

دار السراج بديعة
تحكي كتاب كليله

ويعجبني في هذا الباب قول القائل في حمام:

أي ماء لها وأية نار
ورويانا عنه صحيح البخار (ي)

إن حمامك التي نحن فيها
قد نزلنا فيها على ابن معين

(١) جحد: أنكر.

(٢) الفاقّة: الحاجة - الشمائل: المكرمات - النداء: العطاء والكرم.

(٣) دمنة: أخو كليله الثعلب الذي ورد اسمه في عنوان كتاب لابن المقفع «كليله ودمنة» والدمنة آثار الدار أو الخربة.

ومن المخترعات في هذا الباب، قول الشيخ شمس الدين الواسطي يهجو عواداً وزامراً:

شبهت ذا العواد والزامر إذ ضاقت علينا بهم المناهج
بعقرب يضرب وهو ساكت وأرقم ينفخ وهو خارج^(١)

ويعجبي قوله، من دو بيت:

إن ضرمني بجذوة التذكار حبي وبرى عظمي شكرت الباري
فالعاذل في هواه لا عقل له ما أبلد عاذلي وأذكي ناري
ومنه قول القاضي علاء الدين بن الجويني صاحب الديوان ببغداد:

يا طيب ميبتنا بواد السمر في بهجة ليلة بضوء القمر
وافى بفراقنا نسيم سحرأ ما أبرد ما جاء نسيم السحر

ومن الغيات في هذا الباب، قول الشيخ صدر الدين بن الوكيل:

كم قال معاطفي حكتهما الأسل والبيض سرقن ما حوته المقل^(٢)
والآن أوامري عليهم حكمت البيض تحدُّ والقنا تعقل^(٣)

ومثله قوله:

يا غاية منيتي ويا معشوقي من بعدك لم أمل إلى مخلوق
يا خير نديم كان لو يؤنسي من بعدك صليت على الراووق^(٤)

ويعجبي، من نظم المواليا في هذا الباب، قول القائل:

حبي ومحبوتي مذ بان يوم البين زاروا عشا ليلة الاثنين قبل الحين
فصرت أنظر إلى زينه وألمح زين وأقول يا قلب ما أحلى ليلة الاثنين

ومثله، في اللطف، قول الآخر:

سمعتها وهي داخل دارها في الصحن تنشدرمل صحن قلبي المعنى صحن^(٥)
يا ليتها مع تغنيها وطيب اللحن ترفع أجر ودع يدخل على اللحن^(٦)

(١) الأرقم: ذكر الحية.

(٢) الأسل: الرماح - والبيض: الخوذ.

(٣) تحدُّ: تقاصص بالحد وهو قصاص محدد.

(٤) الراووق: إناء الخمرة.

(٥) صحن: ضربت.

(٦) اللحن: الموسيقى والخطأ النحوي.

ومثله قول الآخر:

قالت لها أختها قصدي يسمعنا
للرفع والنصب أنا وأنتى ومن معنا
ما النحو قالت لها نحن بأجمعنا
للجر والزوج حرف جاء للمعنى

ومنه قوله:

ستي الكبيرة لها الخدام والحرمة
جاها الطواشي أفشخت لوناك من كلمه
تحلف على النيك بالمصحف وبالختمه
راحت يمين القواقية على قرمه

ومثله في اللطف قول القائل:

يا منيتي زدت لهواتي تشفها
تحب بيضا وأجفانك تحشفها
واحرمتني الشفة الحمراء أرشفها
بالله أنظر ظلاماتي وكشفها

ويعجبني قول الشيخ حامد الحكاك:

ثار الغرام الذي في مهجتي خامد
وأنا ببغداد والمحبوب في آمد
وسال دمعي الذي كنت أعهده جامد
مصيبتي عظمت وأنا لها حامد

وقد طال الشرح، وأوردت في باب التورية من المحاسن ما يكفي، قديماً وحديثاً، وأوردت بعد ذلك ما وقع فيها من النظم، عفواً وتكليفاً. وقد تعيّن عليّ إيراد ما وعدت به في ديباجة هذا الباب، من فقه التورية والكلام على أنواعها وأقسامها، فإن القول على اختلاف عبارات الحدود قد تقدم، والكل راجع إلى مقصود واحد، إذ القصد من لفظ التورية أن يكون مشتركاً بين معنيين، أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفية، فيريد المتكلم المعنى البعيد، ويوري عنه بالقرب، فيوهم السامع أول وهلة أنه يريد القريب وليس كذلك، ولهذا سمي هذا النوع إيهاماً.

أنواع التورية:

والتورية أربعة أنواع: مجردة، ومرشحة، ومبينة، ومهيأة.

النوع الأول التورية المجردة: وهي التي لم يذكر فيها لازم من لوازم المورى به، وهو المعنى القريب، ولا من لوازم المورى عنه، وهو المعنى البعيد. وأعظم أمثلة هذا النوع قوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾^(١) لأن الاستواء على معنيين: أحدهما الاستقرار في المكان، وهو المعنى القريب، والثاني الاستيلاء والملك، وهو المعنى

(١) طه، ٥/٢٠.

البعيد المورى عنه، وهو المراد، لأن الحق سبحانه منزه عن المعنى الأول، ولم يذكر من لوازم هذا شيئاً، ولا من لوازم ذلك، فالتورية مجردة بهذا الاعتبار. ومنه قول النبي ﷺ، في خروجه إلى بدر، وقد قيل له: ممن أنتم؟ فلم يرد أن يعلم السائل، فقال: من ماء. وأراد أنا مخلوقون من ماء، فورى عنه بقبيلة من العرب يقال لها ماء. ومن ذلك قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه، في الهجرة، وقد سئل عن النبي ﷺ فقيل: من هذا؟ فقال: هاد يهديني. أراد أبو بكر هادياً يهديني إلى الإسلام، فورى عنه بهادي الطريق الذي هو الدليل في السفر. ومنه قول القاضي عياض، في سنة كان فيها شهر كانون معتدلاً فأزهت فيه الأرض:

كأن نيسان أهدى من ملابسه لشهر كانون أنواعاً من الحلل
أو الغزاة من طول المدى خرفت فما تفرق بين الجدي والحمل^(١)

فالتورية هنا مجردة، والشاهد في الغزاة والجدي والحمل، فإن الناظم لم يذكر قبل الغزاة ولا بعدها شيئاً من لوازم المورى به، كالأوصاف المختصة بالغزاة الوحشية، من طول العنق وسرعة الالتفات وسرعة النفرة وسواد العين، ولا من أوصاف المورى عنه، كالأوصاف المختصة بالغزاة الشمسية، من الإشراق والسمو والطلوع والغروب. فإن قيل إن الغزاة قد رشحت بذكر الجدي والحمل، وهما مرشحان بالغزاة، فالجواب إن لازم التورية من شرطه أن يكون لفظه غير مشترك، والغزاة هنا مشتركة وكذلك الجدي والحمل.

ومنه قول القاضي محيي الدين بن زيلاق، وقد أهدى لصاحب الموصل حملاً:

يا أيها المولى الذي ببابه كل أمل
لو لم تكن بدرأً لما أهدى لك الثور حمل

فالتورية وقعت بين البدر والثور والحمل، ولم يذكر لواحد منهما لازماً، فالبدر مشترك بين اسم الممدوح وبدر السماء، والثور مشترك بين الحيوان والبرج في السماء، وكذلك الحمل. ومنه قول بعضهم، من كان وكان:

لو سنبله خلف ظهرو ناظر إليها المشتري^(٢)
ولو ذنب ما يقارن حتى يرى الميزان^(٣)

-
- (١) الغزاة: الشمس والحيوان المعروف - خرفت: فقدت قدرتها على التفكير والتمييز بين الأشياء - الجدي والحمل: منزلتين من منازل الشمس والمدارين المعروفين وحيوانين معروفين.
(٢) سنبلة: الشمس في منزلة تدعى السنبلة - المشتري: الكوكب المعروف.
(٣) ذنب: مذنب وهو مجموعة من الكواكب - الميزان: مجموعة من الكواكب.

ومنه قول القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر يصف وادياً:

وبطحاء من واد يروقك حسنه ولا سيما إن جاد غيث مبكر^(١)
به الفضل يبدو والربيع وكم غدا به العيش يحيى وهو لاشك جعفر^(٢)

فالتورية وقعت هنا في الفضل والربيع ويحيى وجعفر، والاشتراك في كل من الأربعة ظاهر.

النوع الثاني: التورية المرشحة: وهي التي يذكر فيها لازم المورى به، سميت بذلك لتقويتها بذكر لازم المورى به، ثم تارة يذكر اللازم قبل لفظ التورية، وتارة بعده، فهي بهذا الاعتبار قسمان: فالقسم الأول منها، هو ما ذكر لازمه قبل لفظ التورية، وأعظم أمثله قوله تعالى: ﴿والسماء بئيناها بأيدي﴾^(٣) فإن قوله بأيدي يحتمل الجارحة، وهذا هو المعنى القريب المورى به، وقد ذكر من لوازمه على جهة الترشيح، البنيان، ويحتمل القوة وعظمة الخالق، وهذا المعنى البعيد المورى عنه وهو المراد، فإن الله سبحانه منزّه عن المعنى الأول.

ومنه قول يحيى بن منصور من شعراء الحماسة:

فلما نأت عنا العشيرة كلها أنخنا فحالفنا السيوف على الدهر
فما أسلمتنا عند يوم كربيهة ولا نحن أغضينا الجفون على وقر^(٤)

الشاهد في الجفون فإنها تحتمل جفون العين، وهذا هو المعنى القريب المورى به، وقد تقدم لازماً من لوازمه على جهة الترشيح، وهو الإغضاء لأنه من لوازم العين، وتحتمل أن تكون جفون السيوف أي أغمادها، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه، وهو مراد الناظم.

ومن أطف ما وقع في هذا القسم قول شمس الدين الحكيم بن دانيال الكحال:

يا سائلي عن حرفتي في الورى وصنعتي فيهم وإفلاسي
ما حال من درهم إنفاقه يأخذه من أعين الناس

الشاهد هنا، في أعين الناس، فإنها تحتمل الحسد وضيق العين، وهو المعنى

(١) البطحاء: الأرض المنبسطة - جاد الغيث: المطر إذا تساقط.

(٢) الفضل والربيع ويحيى وجعفر: من البرامكة والزيادة وفصل من فصول السنة، ويعيش والنهر.

(٣) الذاريات، ٤٧/٥١.

(٤) الوقر: الذل.

القريب المورى به، وقد تقدم لازمه على جهة الترشيح، وهو درهم الإنفاق لأنه من لوازم الحسد، ويحتمل العيون التي يلاطفها بالكحل، وهذا هو المعنى المورى عنه، وهو مراد الناظم الكاحل.

انتهى القسم الأول من التورية المرشحة، والقسم الثاني منها، هو ما ذكر لازمه بعد لفظ التورية، ومن أمثله اللطيفة قول الشاعر:

مذ همت من وجدي في خالها ولم أصل منه إلى اللثم
قالت قفوا واستمعوا ما جرى خالي قد هام به عمي

الشاهد في الخال، فإنه يحتمل خال النسب، وهذا هو المعنى القريب المورى به، وقد ذكر لازمه بعد لفظ التورية على جهة الترشيح وهو العم.

ومنه قول الشاعر:

أقلعت عن رشف الطلا واللثم في ثغر الحبيب^(١)
وقلت هذي راحة تسوق للقلب التعب

الشاهد هنا في الراحة التي هي ضد التعب، وقد ذكر التعب بعدها على جهة الترشيح لها، وهذا هو المعنى القريب المورى به، ويحتمل الراحة التي هي من أسماء الخمر، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه، وهو مراد الناظم.

النوع الثالث: التورية المبيته: وهي ما ذكر فيها لازم المورى عنه، قبل لفظ التورية أو بعده، فهي بهذا الاعتبار أيضاً قسمان: فالقسم الأول: هو ما ذكر لازمه من قبل، واستشهدوا عليه بقول البحري:

ووراء تسدية الوشاح مليه بالحسن تملح في القلوب وتعذب

الشاهد هنا في تملح، فإنه يحتمل أن يكون من الملوحة التي هي ضد العذوبة، وهذا هو المعنى القريب المورى به، ويحتمل أن يكون من الملاحه التي هي عبارة عن الحسن، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه، وهو مراد الناظم، وقد تقدم من لوازمه على جهة التبيين مليه بالحسن.

قلت: هذا الشاهد الذي استشهدوا به من نظم البحري فيه نظر، ولكن يأتي

(١) أقلع عن العادة: تركها - الرشف: الشرب على مهل - الطلا: الخمرة.

الكلام عليه في موضعه. ومن أحسن الشواهد على هذا القسم قول الشيخ شرف الدين ابن عبد العزيز شيخ شيوخ حماة رحمه الله تعالى:

قالوا أما في جلق نزهة تنسيك من أنت به مغرى
يا عاذلي دونك من لحظه سهماً ومن عارضه سطرأ

الشاهد هنا في موضعين، وهما السهم وسطرأ، فإن المعنى البعيد هما الموضوعان المشهوران بمنتزهات دمشق، وذكر النزهة بجلق قبلهما هو المبين لهما، وأما المعنى القريب فسهم اللحظ وسطر العارض.

القسم الثاني من التورية المبينة: هو الذي يذكر فيه لازم المورى عنه بعد لفظ التورية، ومن أمثله البديعة قول الشاعر:

أرى ذنب السرحان في الأفق ساطعاً فهل ممكن أن الغزاة تطلع^(١)

الشاهد هنا في موضعين^(٢): أحدهما ذنب السرحان، فإنه يحتمل أول ضوء الفجر، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه وهو مراد الناظم، وقد بينه بذكر لازمه بعده بقوله ساطعاً، ويحتمل ذنب الحيوان المعروف، وهذا هو المعنى القريب المورى به. واستشهدوا على هذا القسم بقول ابن سناء الملك، وهو:

أما والله لولا خوف سخطك لهان عليّ ما ألقى برهطك
ملكك الخافقين فتحت عجباً وليس هما سوى قلبي وقرطك

الشاهد هنا في الخافقين، فإنه يحتمل أن يريد قلبه وقرط محبوبه، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه وهو مراد الناظم، وقد بينه بالنص عليه فإنه صرح بعد الخافقين بذكر القلب والقرط، ويحتمل أن يريد ملك المشرق والمغرب وهذا هو المعنى القريب المورى به.

النوع الرابع: التورية المهيأة: وهي التي لا تقع فيها التورية ولا تتهياً إلا باللفظ الذي قبلها، أو باللفظ الذي بعدها، أو تكون التورية في لفظين لولا كل منهما لما تهيأت في الآخر. فالمهيأة، بهذا الاعتبار، ثلاثة أقسام: القسم الأول من التورية المهيأة: وهو

(١) السرحان: الذئب والفجر.

(٢) يبدو أن ابن حجة نسي أن يذكر الموضع الثاني من الشاهد وهو قول الشاعر: الغزاة: التي يحتمل أن تكون ذلك الحيوان المعروف الذي تشبه به الفتاة الحسنة كما يحتمل أن تكون الشمس.

الذي تنهياً فيه التورية من قبل، وقد استشهدوا على ذلك، بقول ابن سناء الملك يمدح الملك المظفر صاحب حماة:

وسيرك فينا سيرة عمرية فروحت عن قلب وأفرجت عن كرب^(١)
وأظهرت فينا من سميك سنة فأظهرت ذاك الفرض من ذلك الندب

الشاهد هنا في الفرض والندب، وهما يحتملان أن يكونا من الأحكام الشرعية، وهذا هو المعنى القريب المورى به، ويحتمل أن يكون الفرض بمعنى العطاء، والندب صفة الرجل السريع في قضاء الحوائج الماضي في الأمور، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه، ولولا ذكر السنة لما تهيأت التورية فيهما، ولا فهم من الفرض والندب الحكمان الشرعيان اللذان صحت بهما التورية.

القسم الثاني من التورية المهيأة: وهو الذي تنهياً فيه التورية بلفظة من بعد، ومن أمثله نثراً قول الإمام علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، في الأشعث بن قيس: إنه كان يحوك الشمال باليمين. فالشمال يحتمل أن يكون جمع شملة، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه، ويحتمل أن يراد بها الشمال التي هي إحدى اليدين، وهذا هو المعنى القريب المورى به، ولولا ذكر اليمين بعد الشمال لما تنبه السامع لمعنى اليد.

ومنه نظماً قول الشاعر:

لولا التطير بالخلاف وأنهم قالوا مريض لا يعود مريضاً
لقضيت نجباً في جنابك خدمة لأكون مندوباً قضى مفروضاً^(٢)

فالمندوب هنا يحتمل الميت الذي يبكى عليه، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه، وهو المراد، ويحتمل أن يكون أحد الأكام الشرعية، وهو المعنى القريب المورى به، ولولا ذكر المفروض بعده لم يتنبه السامع لمعنى المندوب، ولكنه لما ذكر تهيأت التورية بذكره. ومثله قول أبي الحسين الجزار:

يا عدولي دعني من العذل إن النصح في مذهب الهوى تحريض
مت لما نأى فها أنا مندو ب فراق وحبه مفروض

الكلام على هذا الشاهد كالكلام على الذي قبله.

(١) روح عن القلب: فرحه من بعد حزن - الكرب: الشدة والهم.

(٢) النجب: النحيب وهو أشد البكاء والعمر أو المدة منه.

القسم الثالث من التورية المهيأة: وهو الذي تقع التورية فيه في لفظين، لولا كل منهما لما تهيأت التورية في الآخر، واستشهدوا على ذلك بقول عمر بن أبي ربيعة المخزومي، وهو:

أيها المنكح الثريا سهيلاً عمرك الله كيف يلتقيان
هي شامية إذا ما استقلت وسهيل إذا استقل يمانى

الشاهد، في البيت الأول، في الثريا وسهيل، فإن الثريا يحتمل أن يكون أراد بها بنت علي بن عبد الله بن الحرث بن أمية الأصغر، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه، وهو المراد، والقريب ثريا السماء، وهذا هو المعنى القريب المورى به، وسهيل يحتمل أيضاً سهيل بن عبد الرحمن بن عوف، وقيل كان رجلاً مشهوراً من اليمن، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه، ويحتمل النجم المعروف بسهيل، وهذا هو المعنى القريب المورى به، ولولا ذكر الثريا التي هي النجم لم يتنبه السامع لسهيل، وكل واحد منهما صالح للتورية.

والتورية هنا، لا تصلح أن تكون مرشحة ولا مبينة، لأن الترشيح والتبيين لا يكون كل منهما إلا بلازم خاص، والفرق بين اللفظ الذي تهيأ به التورية واللفظ الذي تترشح به واللفظ الذي تبين به، أن اللفظ الذي تقع به التورية مهيأة، لو لم يذكر لما تهيأت التورية أصلاً، واللفظ المرشح والمبين إنما هما مقويان للتورية، فلو لم يذكر لكانت التورية موجودة.

وسبب نظم هذين البيتين أن سهيلاً المذكور تزوج الثريا المذكورة، وكان بينهما بون بعيد في الخلق، فإن الثريا كانت مشهورة في زمانها بالجمال، وسهيل بالعكس، وهذا مراد الناظم بقوله: عمرك الله كيف يلتقيان. وأيضاً هي شامية الدار، وسهيل يمانى. انتهى الكلام على التورية المهيأة وهي آخر أنواع التورية.

وهنا تنبيه فيه فائدة: وهو أن مشايخ هذا العلم قالوا: ليس كل لفظ مشترك بين معنيين تتصور فيه التورية، كاللغات التي تدور على الألسنة، وإنما تتصور حيث يكون المعنيان ظاهرين، إلا أن أحدهما أسبق إلى الفهم من الآخر.

وقد عن لي أن أختم باب التورية بفائدة تكون مسكاً لختامها وبدراً لتمامها، وهي أن بعض علماء هذا الفن قالوا: إن التورية، إذا جاءت بلازمين فتكافأ ولم يترجح أحدهما على الآخر، فكأنهما لم يذكرنا وصار المعنى القريب والمعنى البعيد بذلك في درجة

واحدة، وتلحق هذه التورية بالمجردة وتعد فيها قسماً ثانياً، وتصير مجردة بهذا الاعتبار، واستشهدوا على ذلك بقول الشاعر:

غدوت مفكراً في سرّ أفق أرانا العلم من بعد الجهاله
فما طويت له شبك الدراري إلى أن أظفرته بالغزاله

وقالوا: إن الشبك من لوازم الغزاة الوحشية، والدراري من لوازم الغزاة الشمسية. قلت: أما قوله في تقريره: إن اللازمين إذا تكافأ ولم يترجح أحدهما على الآخر تصير التورية كالمجردة، فقريب. وأما الشاهد ففيه نظر، فإنه صدر بقوله: غدوت مفكراً في سرّ أفق فالتفكر في سر هذا الأفق الذي أراه العلم من بعد الجهالة؛ لازم خاص يرجح جانب الغزاة الشمسية، وأما الشبك فاستعارة مرشحة بالحسن لنجوم الدراري، وهي أيضاً مما يرشح جانب الشمس عند طيها، الذي أراد به الناظم غيابها، ولو كانت الشمس مجردة من الدراري، ربما كان للغزاة الوحشية بعض مقاربة، وعين الشمس هنا ما تغطي على الترجيح، والله أعلم.

واستشهدوا أيضاً على هذا بقول مجير الدين بن تميم:

وليلة بت أسقى في غياهبها راحاً تسل شبابي من يد الهرم^(١)
ما زلت أشربها حتى نظرت إلى غزاة الصبح ترعى نرجس الظلم

وقالوا أيضاً: إن الصبح من لوازم الغزاة الشمسية، والرعي من لوازم الغزاة الوحشية. قلت: أما الصبح فمن لوازم الغزاة الشمسية، كما قالوا، وأما رعي نرجس الظلم فليس من لوازم الغزاة الوحشية، وإنما هو استعارة مرشحة بالحسن للنجوم، وهي مثل استعارة الشباك والدراري، والغزاة الوحشية ليس لها هنا مرعى، فإنها أجنبية من رعي نرجس الظلم الذي هو عبارة عن النجوم، والله أعلم.

وقد تقدم قولي على الشاهد الذي أوردوه للبحثري، في التورية المبينة، بذكر لازم المورى عنه من قبل وقلت: فيه نظر، وهو قوله:

ووراء تسدية الوشاح ملية بالحسن تملح في القلب وتعذب

هذا الشاهد تعارض فيه اللازمان وتكافأ، وهو أقرب إلى المجردة، وما ذاك إلا أن الشاهد في قوله: تملح، يحتمل أن يكون من الملوحة، ولازمه تعذب، وهو المعنى

(١) الغياهب: الظلمات - الراح: الخمرة - سل: سحب بسرعة.

القريب، ويحتمل أن يكون من الملاحظة، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه، ولازمه
ملية بالحسن، وقد تعارض اللزمان، وهذا هو الشاهد على هذا القسم الذي اختاروه أن
يكون قسماً ثانياً للتورية المجردة، وأقرب منه قول الشيخ زين الدين بن الوردي:

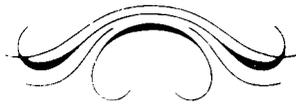
قالت إذا كنت تهوى أنسي وتخشى نفوري
صد ورد خدي وإلا أجور ناديت جوري

ومثله قول الشيخ جمال الدين بن نباتة:

حملت خاتم فيه فصاً أزرقاً من كثرة اللثم الذي لم أحصه
لولاه ما علم الرقيب فيا له من خاتم نقل الحديث بفصه

والأشباه والنظائر من هذا القسم كثير، والغرض أن اللزمين، إذا تعارضا وتكافأ في
التورية، يلحق هذا القسم بالتورية المجردة.

انتهى الكلام على التورية، وقد قدمت من نظم الجماعة الذين مشوا تحت العلمين
المشهورين ما هو أشهر من الأعلام، فالمتأمل إذا جمع بين طرفي هذا الباب، وعرف
الأنواع والأقسام، وضع كل شيء في محله فإني كشفت له اللثام عن وجه التورية، وأما
آيات البديعيات فقد تقدم ذكرها، والله أعلم بالصواب.



ذكر المشاكلة

من اعتدى فبعدوان يشاكلة لحكمة هو فيها خير منتقم

المشاكلة: في اللغة هي المماثلة، والذي تحرّر في المصطلح؛ عند علماء هذا الفن، أن المشاكلة هي ذكر الشيء بغير لفظه، لوقوعه في صحبته، كقوله تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾^(١)، فالجزاء عن السيئة في الحقيقة، غير سيئة، والأصل: وجزاء سيئة عقوبة مثلها، ومثله قوله تعالى: ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾^(٢) والأصل: تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما عندك، فإن الحق، تعالى وتقدس، لا يستعمل في حقه لفظ النفس، إلا أنها استعملت هنا مشاكلة لما تقدم من لفظ النفس، ومنه قوله تعالى: ﴿ومكروا ومكر الله﴾^(٣) والأصل: أخذهم بمكرهم، ومنه قوله تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾^(٤) أي: فعاقبوه، فعدل عن هذا لأجل المشاكلة اللفظية.

وفي الحديث، قوله ﷺ: فإن الله لا يمل حتى تملوا. الأصل: فإن الله لا يقطع عنكم فضله حتى تملوا عن مسألته، فوضع لا يمل موضع لا يقطع الثواب، على جهة المشاكلة، وهو مما وقع فيه لفظ المشاكلة أولاً.

ومنه قول عمرو بن كلثوم في معلقته:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

(١) الشورى، ٤٢/٤٠.

(٢) المائدة، ١١٦/٥.

(٣) آل عمران، ٥٤/٣.

(٤) البقرة، ١٩٤/٢.

أي فنجازيه على جهله، فجعل لفظه نجهل موضع فنجازيه، لأجل المشاكلة. ومثله قول الشاعر، وتلطف ما شاء:

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه قلت اطبخوا لي جبة وقميصا

أراد خيطوا، فذكره بلفظ اطبخوا، لوقوعه في صحبة طبخه.

قلت: قد تقرر أن هذا النوع، أعني المشاكلة، اللفظية، أن يأتي المتكلم في كلامه باسم من الأسماء المشتركة في موضعين، فتشاكل إحدى المشاكلتين اللفظيتين الأخرى في الخط واللفظ ومفهومهما مختلف. ومن إنشادات التبريزي في هذا الباب، قول أبي سعيد المخزومي:

حذق الآجال آجال والهوا للمرء قتال

فلفظة الآجال الأولى: أسراب البقر الوحشية، والثانية: منتهى الأعمار، وبينهما مشاكلة في اللفظ والخط. قال الشيخ زكي الدين بن أبي الأصعب، في كتابه المسمى «بتحرير التحبير»، هذا الشاهد وأمثاله داخل في باب التجنيس. قلت: قول الشيخ زكي الدين ظاهر ليس في صحته سقم، وهذا البيت الذي أنشده التبريزي من أحسن الشواهد على الجنس التام، ولو اعتمد البديعيون على المشاكلة المعنوية لخلصوا من هذا الاعتراض. وعلى كل تقدير، فالمعارضة تعدت حكم الالتزام في نظم هذا النوع، أعني المشاكلة اللفظية. وبيت الشيخ صفي الدين في بديعته، على هذا النوع، قوله عن النبي ﷺ:

يجزي إساءة باغيهم بسيئة ولم يكن عادياً منهم على إرم^(١)

وبيت العميان:

سقاها الغيث ماء إذ سقى ذهباً فغير كفيه إن أمحلت لا تشم^(٢)

وبيت الشيخ عز الدين:

يجزي بسيئة للضد سيئة معنى مشاكلة من خير منتقم

وبيت بديعتي أقول فيه عن النبي ﷺ:

من اعتدى فبعدهوان يشاكله لحكمة هو فيها خير منتقم

(١) إرم: مدينة قوم عاد الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم في قوله: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم

ذات العماد﴾ الفجر- ٧/٨٩.

(٢) شام: طلب.

ذكر الجمع مع التقسيم

جمع الأعادي بتقسيم يفرّقه فالحى للأسر والأموات للضرم^(١)
هذا النوع، أعني الجمع مع التقسيم، هو أن يجمع الناظم بين شيئين فأكثر، ثم
يقسم. كقول أبي الطيب المتنبّي:

الدهر معتذر والسيف منتصر وأرضهم لك مصطاف ومرتبّع
للسبي ما نكحوا والقتل ما ولدوا والنهب ما جمعوا والنار ما زرّعوا

وقد يتقدم التقسيم ويتأخر، كقول حسان بن ثابت:

قوم إذا حاربوا ضرّوا عدوهم أو حالوا النفع في أشياهم نفعوا^(٢)
سجية تلك منهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرها البدع^(٣)

فالأول أحسن وأوقع في القلوب، وعليه مشى أصحاب البديعيات.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته قوله:

أبادهم فلبيت المال ما جمعوا والروح للسيف والأجساد للرخم^(٤)

(١) الضرم: الاحتراق.

(٢) أو حالوا: هكذا وردت في الأصل، ونظن أنه سقط منها حرف الواو وهي: حاولوا. أشياهم: أتباعهم.

(٣) السجية: العادة - المحدث: الجديد الذي كان بعد أن لم يكن - البدع: الافتراءات وهي ما يستحدث في الدين زوراً وبهتاناً.

(٤) الرخم: طير من الجوارح كبير الجثة وحشي الطباع.

وبيت العميان في بديعيتهم:

هذا لراج وذا للجيش حين ظمي

والمال والماء في كفيه قد جريا

وبيت الشيخ عز الدين في بديعته قوله:

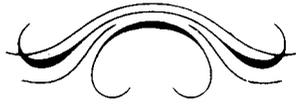
هذا لغمر وهذا نفع مغترم^(١)

علم ومال على جمع تقسمه

وبيت بديعتي:

فالحى للأسر والأموات للضرم

جمع الأعداي بتقسيم يفرقه



(١) الغمر: الجاهل غير المجرب للأمور - المغترم: الأثم.

ذكر الجمع مع التفريق

سناه كالبرق إن أبدوا ظلام وغي والعزم كالبرق في تفريق جمعهم
هذا النوع، أعني الجمع مع التفريق: هو أن يجمع الشاعر بين شيئين في حكم
واحد، ثم يفرق بينهما في ذلك الحكم، كقوله تعالى: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين
فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة﴾^(١) فكأنه يقول: الشمس والقمر كوكبان، فهذا
نهارى، وهذا ليلي، فجمع بينهما إذ هما كوكبان، ثم فرق بأن هذا يضيء نهاراً وهذا
يضيء ليلاً، فوقع الفرق في الشيء الذي وقع به الجمع.

واستشهدوا على هذا النوع بقول الفخر عيسى:

تشابه دمعانا غداة فراقنا مشابهة في قصة دون قصة
فوجنتها تكسو المدامع حمرة ودمعي يكسو حمرة اللون وجنتي
هذا الناظم جمع بين الدمعين في الشبه، ثم فرق بينهما بأن دمعها أبيض، فإذا
جرى على خدها صار أحمر بسبب احمرار خدها، وأن دمعها أحمر، لأنه يبكي دماً وجسده
من النحول أصفر، فإذا جرى عليه الدمع حمرة.

ومنه قول البحري:

ولما التقينا والنقا موعده لنا تعجب رائني الدر منا ولاقطه^(٢)
فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

(١) الإسراء، ١٧/١٢.

(٢) لاقط الدر: جامعه.

وبيت الصفي الحلبي :

سناء كالبرق يجلو كل مظلمة والعزم كالنار يفني كل مجترم^(١)
وبيت العميان في تركيبه قلق، حيث قالوا:
فلذ بمن كفه والبحر ما افترقا إلا بكف وبحر في كلامهم^(٢)
وبيت الشيخ عز الدين، شن فيه الغارة على بيت الشيخ صفي الدين الحلبي، بقوله:
وعزمه النار في جمع يفرقه ووجهه النور يجلو ظلمة الغشم^(٣)
وبيت بديعيتي أقول فيه، عن النبي ﷺ:
سناء كالبرق إن أبدوا ظلام وغى والعزم كالبرق في تفريق جمعهم



(١) المجترم: مرتكب الجريمة.

(٢) لاذ: احتفى.

(٣) الغشم: الظالمون. والليالي المظلمة.

ذكر الإشارة

ومن إشارته في الحرب كم فهم آل أنصار معنى به فازوا بنصرهم هذا النوع، أعني الإشارة، مما فرعه قدامة من ائتلاف اللفظ مع المعنى، وشرحه بأن قال: هو أن يكون اللفظ القليل مشتملاً على المعنى الكثير، بإيماء ولمحة تدل عليه، كما قيل في صفة البلاغة، هي لمحة دالة. وتلخيص هذا الشرح: إنه إشارة المتكلم إلى المعاني الكثيرة بلفظ يشبه، لقلته واختصاره، بإشارة اليد. فإن المشير بيده يشير دفعة واحدة إلى أشياء، لو عبر عنها بلفظ لاحتاج إلى ألفاظ كثيرة. ولا بد في الإشارة من اعتبار صحة الدلالة، وحسن البيان مع الاختصار، لأن المشير بيده، إن لم يفهم المشار إليه معناه، فأشارته معدودة من العبث.

وكان النبي ﷺ سهل الإشارة، كما كان سهل العبارة وهذا ضرب من البلاغة يمتدح

به.

والإشارة قسمان: قسم للسان، وقسم لليد. ومن شواهد الإشارة في الكتاب العزيز قوله: ﴿وغيض الماء﴾^(١) فإنه سبحانه أشار بهاتين اللفظتين إلى انقطاع مادة الماء من نبع الأرض ومطر السماء، وذهاب الماء الذي كان حاصلًا على وجه الأرض قبل الإخبار، ولو لم يكن كذلك لما غاض الماء. ومنه قوله تعالى: ﴿وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين﴾^(٢) فالمرح أيها المتأمل كل ما تميل النفوس إليه من اختلاف الشهوات، وملاذ الأعين في اختلاف المرثيات، لتعلم أن بلاغة هذا اللفظ القليل جداً، عبرت عن المعاني

(١) هود، ٤٤/١١.

(٢) الزخرف، ٧١/٤٣.

التي لا تنحصر عدا. ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾^(١). ومن المنظوم قول زهير في هذا النوع:

فإني لو لقيتك فاتجهنا
لكان لكل منكرا لقاء
يعني قابلت كل منكرا بمثلها.

ومن أمثلة هذا النوع قول امرئ القيس:

بعزهم عززت فإن يذلوا
فذلهم أنالك ما أنالا

فانظر كم تحت قوله: أنالك ما أنالا، من أنواع الذل ومثله قوله:

فلاشكرن غريب نعمته
حتى أموت وفضله الفضل
أنت الشجاع إذا هم نزلوا
عند المضيق وفعلك الفعل

فالحظ كم تحت قوله: وفضله الفضل، بعد إخباره بأنه يشكر غريب نعمته حتى يموت، من أصناف المدح وترجيح فضله على الشكر، وفي قوله: غريب نعمته، غاية المدح، إذ جعل نعمته غريبة لم يقع مثلها في الوجود، وكم تحت قوله: وفعلك الفعل، بعد إخباره بنزول القوم عند المضيق الدال على صبرهم وشجاعتهم، وما في ذلك من ترجيح شجاعته عليهم. ومنه قوله في صفة الفرس:

على هيكل يعطيك قبل سؤاله
أفانين جري غير كز ولا واني^(٢)

فإنه أشار بقوله: أفانين، إلى جمع صنوف عدو الخيل المحموده، والذي يدل على ذلك قوله: قبل سؤاله، فإن الأفانين المحموده كانت منه عفواً من غير طلب ولا حث، وهذا كمال الوصف. ولو عدت هذه المعاني بألفاظها الموضوعه لها، لاحتاجت في العبارة إلى ألفاظ كثيرة.

وبيت الشيخ صفي الدين في بديعته:

يولي الموالين من جدوى شفاعته
ملكاً كبيراً عدا ما في نفوسهم

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعته:

ما تشتهي النفس يهدى في إشارته
يعطي فنوناً بلا من ولا سام

وبيت بديعيتي:

ومن إشارته في الحرب كم فهم
الأنصار معنى به فازوا بنصرهم

(١) النجم، ١٠/٥٣.

(٢) الهيكل: الحصان الضخم الجثة الغليظ العظام - الكز: السريع - الواني: البطيء.

ذكر التوليد

توليد نصرتهم يبدو بطلعته ما السبعة الشهب ما توليد رملهم

قلت: هذا النوع أعني، التوليد: ليس تحته كبير أمر، وهو على ضربين من الألفاظ والمعاني، فالذي من الألفاظ تركه أولى من استعماله، لأنه سرقة ظاهرة، وما ذاك إلا أن الناظم يستعذب لفظه من شعر غيره، فيقتضبها ويضمنها غير معناها الأول في شعره، كقول امرئ القيس في وصف الفرس:

وقد أغتدي والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل^(١)

فاستعذب أبو تمام قيد الأوابد فنقلها إلى الغزل فقال:

لها منظر قيد الأوابد لم يزل يروح ويغدو في خفارته الحب^(٢)

والتوليد من المعاني، هو الأجل والأستر^(٣)، وهو الغرض ههنا، وذلك أن الشاعر ينظر إلى معنى من معاني من تقدمه، ويكون محتاجاً إلى استعماله، في بيت من قصيدة له، فيورده ويولد منه معنى آخر، كقول القطامي:

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل^(٤)

وقال من بعده، ونقص الألفاظ، وزاد تمثيلاً وتوكيداً وتذييلاً:

(١) الوكنات: جمع وكنة وهي العش والمخبأ - المنجرد: الذي يسهل قياده قيد الأوابد: يعني أنه لسرعته لا تفلت منه الوحوش - الهيكل: الضخم.

(٢) الخفارة: الحراسة.

(٣) «الأستر»: هكذا وردت ونعتقد أنها «الأسير» أي الأكثر وجوداً في النظم.

(٤) المتأني: المتمهل - الزلل: الخطأ.

فمعنى صدر هذا البيت معنى بيت القطامي بكماله، ومعنى عجزه نوع التذييل، وما تقدم ذكره، وهو مولد.

قال ابن أبي الأصبغ في «تحرير التحبير»: أغرب ما سمعت في التوليد قول بعض العجم:

كأن عذاره في الخد لام ومبسمه الشهي العذب صاد
وظرة شعره ليل بهيم فلا عجب إذا سرق الرقاد^(١)

فإن هذا الشاعر ولد من تشبيه العذار باللام، وتشبيه الفم بالصاد لصاً، وولد من معناه ومعنى تشبيه الطرة بالليل ذكر سرقة النوم، فحصل في البيت توليد وإغراب وإدماج.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته على هذا النوع:

من سبق لا يرى سوط لها سملاً ولا جديد من الأرسان واللجم^(٢)

بيت صفي الدين هنا غير صالح للتجريد، وقد تكرر عليه هذا النقد في كثير من الأبيات، فإن بيته لم يظهر له معنى إن لم ينشد البيت الذي قبله، وهذا العيب سماه علماء هذا الفن التضمنين، ويأتي الكلام عليه في موضعه، ولكن هو أقيح ما يكون في البديعيات، لأن المراد من بيت البديعيات أن يكون بمجرد شاهد على النوع المذكور، ليس له تعلق بما قبله ولا بما بعده.

وبيت صفي الدين مولد من قول أبي عبد الله بن الحجاج:

خرقت صفوفهم بأقب نهد مراح السوط متعوب العنان^(٣)

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين:

ما لي بتوليد مدحي في سواه هدى لمعشر شهبوا الهندي بالجلم^(٤)

وبيت عز الدين هنا صالح للتجريد، فإن ضميره عائد إلى النبي ﷺ، وأما قوله:

(١) بهم: شديد السواد.

(٢) السبق: الخيل السابقة - السوط: الكرياح - سمل: البالي من كثرة استعماله أي هي خيول تسبق دون أن تضرب - اللجم جمع لجام وهو حديدة توضع في فم الخيل ليسهل قيادها والسيطرة عليها.

(٣) الأقب: من الخيل الضامر - النهد: السريع القفز - مراح السوط: مدهونه وذلك ليصير أشد لسعاً - متعوب العنان: عنانه تعب لسرعته.

(٤) الهندي: السيف - الجلم: المقص.

لمعشر شبهوا الهندي بالجلم، فإنه ذكر في شرحه أنه ولده من قول أبي الطيب المتنبي:
فالعيس أعقل من قوم رأيتهم عما أراه من الإحسان عمياناً^(١)
ثم قال في الشرح ما شبه السيف بالمقص إلا أعمى. قلت: ومن أين لنا أن تشبيه
السيف بالجلم مولد من بيت المتنبي، وألفاظها ومعانيها ظاهرة للمتأمل.

وبيت بديعيتي أقول فيه عن النبي ﷺ:

توليد نصرتهم يبدو بطلعته ما السبعة الشهب ما توليد رملهم
معنى هذا البيت ولدته من قول أبي تمام:
والنصر من شهب الأرماع لامعة بين الخميس علا في السبعة الشهب^(٢)

ولكن ذكر التوليد هنا، وهو اسم النوع البديعي، مع النصر لا تخفى محاسنه على
حذاق الأدب، فإنه التوليد في التوليد، وذكر الرمل هنا توليد آخر، وقد جمعت في صدر
هذا البيت وعجزه بين التوليد الذي هو المراد من التورية في تسمية النوع، وبين التذييل
بقولي، بعد تنمة الفائدة: ما توليد رملهم، وبين مراعاة النظر، بذكر التوليد والرمل
والسبعة الشهب والنصرة، وجمعت بين قسمي التوليد في اللفظ والمعنى، والذي بينهما
من توليد المحاسن الظاهرة الزائدة على بيت أبي تمام غير خاف على المتأمل انصاف،
والله أعلم.



(١) العيس: الإبل جمع عيس.

(٢) الخميس: الجيش.

ذكر الكناية

قالوا طويل نجاد السيف قلت وكم لنساره ألسن تكني عن الكرم^(١)

الكناية: هي الإرداف بعينه، عند علماء البيان، وإنما علماء البديع أفردوا الإرداف عنها. والكناية هي أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو ردفه في الوجود فيوميء إليه، ويجعله دليلاً عليه، مثال ذلك قولهم: طويل النجاد، كثير الرماد، يعنون بذلك أنه طويل القامة، كثير القرى^(٢). فلم يذكروا المراد بذكره الخاص به، ولكن توصلوا إليه بمعنى آخر هو ردفه في الوجود، ألا ترى أن القامة إذا طالت طال النجاد، وإذا كثرت القرى كثرت الرماد؟ ومن أحسن الأمثلة على هذا النوع قول الشاعر:

بعيدة مهوى القرط أما لنوفل أبوها وأما عبد شمس وهاشم^(٣)

أراد أن يذكر طول جيدها فأتى بتابعه وهو بعد مهوى القرط. ومثله قول ليلى الأخيلية:

ومخرق عنه القميص تخاله وسط البيوت من الحياء سقيما

كنت عن الإفراط في الجود بخرق القميص، لجذب العفاة له عند ازدحامهم عليه لأخذ العطاء.

والأبلغ في هذا الباب والأبدع، أن يكني المتكلم عن اللفظ القبيح باللفظ الحسن.

(١) نجاد السيف: حمائله وطويل نجاد السيف كناية عن طول قامته.

(٢) القرى: إطعام الضيوف.

(٣) بعيدة مهوى القرط: كناية عن طول عنقها - والمهوى الموضع والقرط: ما تترين به المرأه في أذنيها.

والمعجز في ذلك قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾^(١) كناية عن الحدث، وقوله جل جلاله: ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾^(٢) يريد بذلك ما يكون بين الزوجين. وعلى الجملة لا تجد معنى من هذه المعاني في الكتاب العزيز إلا بلفظ الكناية، لأن المعنى الفاحش متى عبر المتكلم عنه بلفظه الموضوع له كان الكلام معيباً، من جهة فحش المعنى، ولهذا عاب قدامة على امرئ القيس قوله:

فألهيتها عن ذي توائم محول^(٣) فمثلك جبلى قد طرقت ومرضع
إذا ما بكى من تحتها انصرفت له بشق وتحتي شقها لم يحول

قال، أعني قدامة: عيب هذا الشعر من جهة فحش المعنى، والقرآن منزّه عن ذلك. ولو استعار امرؤ القيس لمعناه الفاحش لفظ الكناية لسلم من العيب، وهذا القدر ينتقد على مثله. وفي السنة النبوية من الكنايات ما لا يحصى، كقوله ﷺ: لا يضع العصا عن عاتقه كناية عن الضرب، أو كثرة السفر. وحكى ابن المعتز أن العرب كانت تقول لمن به أبنة^(٤) أنت تحت العصا وأنشد:

زوجك زوج صالح لكنه تحت العصا

ومن نخوة العرب وغيرتهم كانت كنايتهم عن حرائر النساء بالبيض، وقد جاء القرآن العزيز بذلك، فقال سبحانه: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾^(٥). وقال امرؤ القيس في معلقته:

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهواتها غير معجل^(٦)

أي بيضة خدر يعني امرأة كالبيضة في صيانتها لا يرام خباؤها لعزتها. ومن لطائف الكنايات قول بعض العرب:

ألا يا نخلة من ذات عرق عليك ورحمة الله السلام

(١) المائدة، ٧٥/٥.

(٢) النساء، ٢١/٤.

(٣) طرق: زار ليلاً - ذو التوائم: الولد - المحول: الذي له حول من العمر.

(٤) الأبنة: العيب.

(٥) الصافات، ٤٩/٣٧.

(٦) بيضة الخدر: المرأة المصونة في خدرها وهو الخباء - لا يرام: لا يمكن الوصول إليه - لهواتها: واحدها لهوة وهي قطعة من اللحم مدلاة في سقف الفم. وهذا البيت يروى كما يلي: وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل. وغير معجل: غير مستعجل، دليل على عدم الخوف.

سألت الناس عنك فخبروني هناة ذاك تكرهه الكرام^(١)
وليس بما أحلَّ الله بأس إذا هو لم يخالطه الحرام
فإن هذا الشاعر كنى بالنخلة عن المرأة، وبالهناة عن الرفث، فإن العرب كانت
تكني بها عن مثل ذلك. وأما الكناية بالنخلة عن المرأة فمن أَلطف الكنايات.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته عن الكناية قوله:

كل طويل نجاد السيف يطربه وقع الصوارم كالأوتار والنغم^(٢)
والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي:
داع كثير رماد القدر إن وصفت كناية بطنها والظهر بالدمسم
قول الشيخ عز الدين: كثير رماد القدر، معلوم أنه أراد بذلك الكرم، وأما تنمة
البيت، فالدمسم الظاهر من القدر في ظاهرها تعافه النفس، ولفظة الدمسم سافلة بعيدة عن
حشمة الألفاظ.

وبيت بديعيتي:

قالوا طويل نجاد السيف قلت وكم لناره ألسن تكني عن الكرم
تقدم القول إن الناس كنوا بطول النجاد عن طول القامة؛ وبكثرة الرماد عن كثرة
القرى، ولكن الكناية بألسن النار عن كثرة الكرم والقرى لا تخفى استعارتها التي كادت
تقوم مقام الحقيقة من المحاسن الظاهرة، والله أعلم بالصواب.



(١) الهناة: واحدتها هنة وهي الضعف والعيب.

(٢) الصوارم: السيوف.

ذكر الجمع

آدابه وعطاياه ورأفته سجية ضمن جمع فيه ملتئم
هذا النوع، أعني الجمع: هو أن يجمع المتكلم بين شيئين فأكثر في حكم واحد،
كقوله تعالى: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾^(١) جمع سبحانه وتعالى المال والبنون
في الزينة. ومنه قوله تعالى: ﴿الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان﴾^(٢)
فجمع بين الشمس والقمر في الحسبان، وجمع بين النجم والشجر في السجود. ومنه قوله
ﷺ: من أصبح آمناً في سربه معافاً في بدنه - ويروى في جسده - عنده قوت يومه، فكأنما
حيزت له الدنيا بحذافيرها، فجمع الأمن ومعافاة البدن وقوت اليوم في حوز الدنيا
بحذافيرها، وهي النواحي والواحد حذفار، ومنه قول الشاعر:

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة
فجمع بين الشباب والفراغ والجدة في المفسدة.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في الجمع قوله:

آراؤه وعطاياه ونقمته وعفوه رحمة للناس كلهم
وبيت العميان في بديعيتهم:

قد أحرز سبق والإحسان في نسق والعلم والحلم قبل الدرك للحلم

(١) الكهف، ٤٦/١٨.

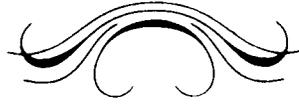
(٢) الرحمن، ٥/٥٥ و٦.

وبيت الشيخ عز الدين:

للفصل والفضل والألطف منه يرى والعلم والحلم جمع غير منخرم^(١)
قلت: حشوا لفظة يرى، في بيت الموصلي، أذهب طلاوة الانسجام.

وبيت بديعيتي:

آدابه وعطاياه ورأفته سجية ضمن جمع فيه ملتئم



(١) المنخرم: المنقطع، والمثقوب والمثلثم.

ذكر السلب والإيجاب

إيجابه بالعطايا ليس يسلبه ويسلب المنّ منه سلب محتشم
هذا النوع، أعني السلب والإيجاب، ذكر ابن أبي الأصعب في «تحرير التحبير»: أنه
من مستخرجاته. ولكن رأيت لأبي هلال العسكري تقريراً حسناً على هذا النوع، وهو أن
يبني المتكلم كلامه على نفي شيء من جهة، وإثباته من جهة أخرى، والذي قرره ابن
أبي الأصعب، هو أن يقصد المادح أفراد ممدوحه بصفة لا يشركه فيها غيره، فينفيها في
أول كلامه عن جميع الناس، ويثبتها لممدوحه بعد ذلك، كقول الخنساء في أخيها:

وما بلغت كف امرئ متطاولاً من المجد إلا والذي نلت أطول
ولا بلغ المهدون للناس مدحة وإن أطنبوا إلا الذي فيك أفضل

قال الشيخ زكي الدين بن أبي الأصعب: ويروى متناولاً، ونصبها على أنها مفعول
به، وما هنا أبلغ، وعلى هذه الرواية رسمنا هذا الشاهد. وأخذ أبو نواس معنى البيت
الثاني، ولكن لم يتمكن منه إلا في بيتين، ومع ذلك قصر عنه تقصيراً زائداً، فقال:

إذا نحن أثينا عليك بصالح فأنت كما نثني وفوق الذي نثني
وإن جرت الألفاظ منا بمدحة لغيرك إنساناً فأنت الذي نعني

هذا كله عين كلام الخنساء، ولكن فاته وإن أطنبوا في بيت الخنساء، وقولها: وما
بلغ المهدون، وكل هذه المبالغات قصر عنها أبو نواس، والفرق بين فأنت الذي نعني،
وبين الذي فيك أفضل ظاهر وأعظم الشواهد على هذا النوع قوله تعالى: ﴿فلا تقل لهما
أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً﴾^(٢) ومنه قول امرئ القيس:

(٢) الإسراء، ٢٣/١٧.

هضم الحشا لا يملأ الكف خصرها ويملاً منها كل حجل ودملج^(١)
وبيت الشيخ صفي الدين في بديعته على هذا النوع:
أغرّ لا يمنع الراجلين ما طلبوا ويمنع الجار من ضيم ومن حرم
والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم . وبيت الشيخ عز الدين قوله:
لم ينف ذماً بإيجاب المديح فتى إلا وعاقدت فيه الدهر بالسلم
وبيت بديعيتي:
إيجابه بالعطايا ليس يسلبه ويسلب المن منه سلب محتشم



(١) هضم الحشا: دقيقة الخصر - الحجل والدملج: الأساور والمجوهرات .

ذكر التقسيم

هذه تقسيمه حالي به صلحت حياً وميتاً ومبعوثاً مع الأمم

التقسيم: أول أبواب قدامة، وهو في اللغة مصدر قسمت الشيء إذا جزأته، وفي الاصطلاح اختلفت فيه العبارات والكل راجع إلى مقصود واحد، وهو ذكر متعدد ثم إضافة ما لكل إليه على التعيين، ليخرج اللف والنشر، هذه عبارة صاحب التلخيص وذكر بعضها في الإيضاح.

وقال السكاكي: هو أن يذكر المتكلم شيئاً ذا جزأين أو أكثر ثم يضيف إلى كل واحد من أجزائه ما هو له عنده.

ومنهم من قال: هو أن يريد المتكلم متعدداً، أو ما هو في حكم المتعدد، ثم يذكر لكل واحد من المتعددات حكمه على التعيين.

وتعجبني بلاغة زكي الدين بن أبي الأصعب؛ فإنه قال: التقسيم عبارة عن استيفاء المتكلم أقسام المعنى الذي هو آخذ فيه، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً﴾^(١) ليس في رؤية البرق غير الخوف من الصواعق، والطمع في الأمطار، ولا ثالث لهذين القسمين. ومن لطيف ما وقع في هذه الجملة من البلاغة، تقديم الخوف على الطمع، إذ كانت الصواعق لا يحصل فيها المطر في أول برقة، ولا يحصل إلا بعد تواتر البرقات، فإن تواترها لا يكاد يكذب، ولهذا كانت العرب تعد سبعين برقة ثم تتجمع، فلا تخطيء الغيث والكلأ، وإلى هذا المعنى أشار المتنبي بقوله:

وقد أرد المياه بغير هاد سوى عدي لها برق الغمام

(١) الرعد، ١٢/١٣.

فلما كان الأمر المخوف، من البرق، يقع في أول برقة، أتى ذكر الخوف في الآية الكريمة أولاً، ولما كان الأمر المطمع إنما يقع من البرق بعد الأمر المخوف، أتى ذكر الطمع في الآية الكريمة ثانياً، ليكون الطمع ناسخاً للخوف، لمجيء الفرج بعد الشدة. ومنه قوله تعالى: ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾^(١) فاستوفت الآية الكريمة جميع الهيئات الممكنات. ومنه قوله تعالى: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله﴾^(٢) فاستوفت الآية الكريمة جميع الأقسام التي يمكن وجودها، فإن العالم جميعه لا يخلو من هذه الأقسام الثلاثة. ومنه قوله تعالى: ﴿له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك﴾^(٣) فالآية الشريفة جامعة لأقسام الزمان الثلاثة، ولا رابع لها، والمراد الحال والماضي والمستقبل فله ما بين أيدينا المراد به المستقبل، وما خلفنا المراد به الماضي، وما بين ذلك الحال.

وفي الحديث النبوي قوله ﷺ: ما لك من مالك إلا ما أكلت فأفريت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت. ومنه قوله ﷺ: من أقام الصلاة كان مسلماً ومن أتى الزكاة كان محسناً ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصاً. فإنه صلوات الله عليه استوعب الوصف الذي من الدرجات العليا والوسطى والسفلى. ومنه قول علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: أنعم على من شئت تكن أميره، واستغن عن من شئت تكن نظيره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره. فإنه استوعب أقسام الدرجات، وأقسام أحوال الإنسان بين الفضل والكفاف والنقص.

ويحكى أن بعض وفود العرب قدم على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وكان فيهم شاب فقام وتقدم في المجلس وقال: يا أمير المؤمنين أصابتنا سنون. سنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة أنقت العظم، وفي أيديكم فضول أموال، فإن كانت لنا لا تمنعوننا، وإن كانت لله ففرقوها على عباده، وإن كانت لكم فتصدقوا إن الله يجزي المتصدقين. قال عمر بن عبد العزيز: ما ترك لنا الأعرابي في واحدة عذراً.

ووقف أعرابي على حلقة الحسن البصري فقال: رحم الله من تصدق من فضله، أو واسى من كفاف، أو آثر من قوت. قال الحسن: ما ترك الأعرابي في واحدة عذراً.

(١) آل عمران، ١٩١/٣.

(٢) فاطر، ٣٢/٣٥.

(٣) مريم، ٦٤/١٩.

ومن النظم قول زهير بن أبي سلمى في معلقته:

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله
ولكنني عن علم ما في غد عم^(١)
ونقل أبو نواس جد زهير إلى الهزل، فقال:

أمر غدٍ أنت منه في لبس
فإنما الشأن شأن يومك ذا
وقال ابن حيوس، وأجاد في تقسيمه:

ثمانية لم يفترقن جميعها
ضميرك والتقوى وكفك والندی
فلا افترت ما ذب عن ناظر شقر^(٣)
ولفظك والمعنى وسيفك والنصر

ومنه قول الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض، قدس الله روحه:

يقولون لي صفها فأنت بوصفها
صفاء ولا ماء ولطف ولا هوى
خير أجل عندي بأوصافها علم
ونور ولا نار وروح ولا جسم

وأشدد سيويه بيتاً بديعاً على هذا الباب، وهو قوله:

فقال فريق القوم لا وفريقهم
ويعجبني قول الحماسي في هذا الباب:

وهبها كشيء لم يكن أو كنازح
ويعجبني قول، أبي تمام في مجوسي أحرق بالنار:

صلى لها حياً وكان وقودها
ومنه قول عمرو بن الأهتم:

اشربا ما شربتما فهذيل
وبيت صفي الدين مأخوذ من قول عمرو بن الأهتم:

أفنى جيوش العدا غزواً فلست ترى
سوى قتيل ومأسور ومنهزم

(١) عم: جاهل.

(٢) ابنة الشمس: من أسماء الخمرة.

(٣) ذب: دافع وحامي - الشقر: الأمر المهم.

وبيت العميان في بديعيتهم:

غيثان أما الذي من فيض أنمله فدائم والذي للمزن لم يدم

وبيت الشيخ عز الدين:

تقسيمه الدهر يوماً أمسه كغد في الحلم والجود والإيفاء للذمم

قلت: قد تقدم شرح هذا النوع، وتقرر أن الاثنين في التقسيم لا يمكن أن يكون لهما ثالث، والثلاثة لا يجوز أن يكون لها رابع. وقد تقدم في الاثنين قوله تعالى: ﴿هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً﴾^(١) وليس في رؤية البرق إلا الخوف من الصواعق والطمع في المطر. وتقدم في تقسيم الثلاثة قول النبي ﷺ: ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأنتيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت. ولا رابع لهذه الثلاثة.

ورأيت باب الزيادة في بيت الشيخ عز الدين مفتوحاً، فإنه يحتمل الحلم والجود وإيفاء الذمم والشجاعة والصبر والقناعة والدين وهلم جراً. وتقدم أن بيت صفي الدين الحلبي مأخوذ من بيت عمرو بن الأهم:

إشربا ما شربتما فهذيل من قتيلا أو هارب أو أسير

فهذه الثلاثة لا تحتمل رابعاً. وكذلك بيت صفي الدين، فإنه مأخوذ من هنا. وبيت بديعيتي أقول فيه عن النبي ﷺ:

هداه تقسيمه حالي به صلحت حياً وميتاً ومبعوثاً مع الأمم

وهذه الثلاثة أيضاً لا يمكن أن يكون لها رابع، وهذا النوع ليس في تحصيله على واضعه مشقة زائدة على حذاق الأدب، لا سيما مثل الشيخ عز الدين. والذي أقوله إنه لم تضق عليه المسالك إلا بالتزام التورية في تسمية النوع، والله أعلم.



(١) الرعد، ١٢/١٣.

ذكر الإيجاز

أوجز وسل أول الأبيات عن مدح فيه وسل مكة يا قاصد الحرم
هذا النوع، أعني الإيجاز، اعتنت به فصحاء العرب وبلغاؤها كثيراً، فإنهم كانوا إذا
قصدوا الإيجاز أتوا بالفاظ استغنوا بواحدتها عن ألفاظ كثيرة، كأدوات الاستفهام والشروط
وغير ذلك. فقولك: أين زيد؟ مغن عن قولك أزيد في الدار أم في المسجد، إلى أن
تستقري جميع الأماكن. وقولك: من يقيم أقم معه، مغن عن: إن يقيم زيد أو عمرو أقم
معه. وما بالدار من أحد، مغن عن قولك: ليس فيها زيد ولا عمرو. فغالب كلام العرب
مبني على الإيجاز والاختصار، وأداء المقصود من الكلام بأقل عبارة.

وهذا النوع على ضربين: إيجاز قصر، وإيجاز حذف. فإيجاز القصر: اختصار
الألفاظ، وهو كقوله تعالى: ﴿ولكم في القصص حياة﴾^(١) فهذا اللفظ الوجيز المعجز
المختصر، غاية في الإيجاز والإيضاح والإشارة والكناية والطباق وحسن البيان والإبداع
ومنه قوله تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء
والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون﴾^(٢) وعظ في ذلك بالطف موعظة، وذكر بالطف
تذكرة، واستوعب جميع أقسام المعروف والمنكر، وأتى بالطباق اللفظي والمعنوي،
وحسن النسق والتسليم، وحسن البيان والإيجاز، واثتلاف اللفظ ومعناه، والمساواة وصحة
المقابلة وتمكين الفاصلة. ومن ذلك قول الشاعر:

يا أيها المتحلي دون شيمته إن التخلق يأتي دونه الخلق

(١) البقرة، ١٧٩/٢.

(٢) النمل، ٩٠/١٦.

وإيجاز الحذف: عبارة عن حذف بعض لفظه، لدلالة الباقي عليه، كقوله تعالى: ﴿وسئل القرية التي كنا فيها﴾^(١) وكقول الشاعر:

ورأيت زوجك في الوغى متقلداً سيفاً ورمحاً
أي ومعتقلاً رمحاً. ومثله قول الشاعر: علفتها تبناً وماء بارداً.
أي وسقيتها ماء بارداً.

وبيت الشيخ صفي الدين في بديعته على الإيجاز:

واستخدم الموت ينهاه ويأمره بعزم مغتتم في زي مغترم
تقديره بعزم رجل مغتتم، ومثله في زي مغترم، ولكنه ما تحته في بلاغة الإيجاز
كبير أمر.

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وقول الشيخ عز الدين:

وسل زمانك تلف الكتب راوية إيجاز معنى طويل الذكر مرتسم^(٢)

الشيخ عز الدين إيجازه: وسل زمانك، أي أهل زمانك، وأما بقية البيت فلا أفهم له معنى، فإن البيت الذي قبله متعلق بمدح النبي ﷺ، ماشٍ في أثر الأبيات التي قبله، وأما رواية الكتب لإيجاز هذا المعنى الطويل المرتسم، فإنه نوع من المعميات، والله أعلم.

وأما بيت بديعيتي فهو قولِي عن النبي ﷺ:

أوجز وسل أول الأبيات عن مدح فيه وسل مكة يا قاصد الحرم

الضمير في لفظة فيه عائد إلى النبي ﷺ، والإيجاز البديع البليغ الغريب في قولِي: وسل أول الأبيات، فإنه إشارة إلى أول بيت وضع للناس، والإيجاز الثاني في قولِي: وسل مكة أي وسل أهل مكة، فهذا البيت المبارك فيه إيجازان بليغان، وفيه التورية بتسمية النوع، وفيه المناسبة البديعة بين مكة والبيت والحرم، ومراعاة النظير أيضاً بين الإيجاز والمدح والإثبات، وفي الأبيات تورية أخرى، ونوع التمكين في القافية ظاهر.

(١) يوسف، ٨٢/١٢.

(٢) تَلَف: تجدد.

ذكر المشاركة

بالحجر ساد فلا ند يشاركه حجر الكتاب المبين الواضح اللقم^(١)

هذا النوع، أعني الاشتراك، جعله ابن رشيق وابن أبي الأصبع ثلاثة أقسام: قسمان منها من العيوب والسرقات، وقسم من المحاسن: وهو أن يأتي الناظم في بيته بلفظة مشتركة بين معنيين اشتراكاً أصلياً، أو فرعياً، فيسبق ذهن سامعها إلى المعنى الذي لم يرد الناظم، فيأتي في آخر البيت بما يؤكد أن المقصود غير ما توهمه السامع، كقول كثير عزة:

وأنت الذي حببت كل قصيرة إليّ ولم تعلم بذاك القصائر^(٢)

عنيت قصيرات الحجال ولم أرد قصار الخطا شر النساء الحباتر^(٣)

فإنه أثبت في البيت الثاني ما أزال به وهم السامع من أنه أراد القصار مطلقاً، وقد يلتبس الاشتراك بالتوهم على من لا يحققه، والفرق بينهما أن الاشتراك لا يكون إلا باللفظة المشتركة، والتوهم يكون بها وبغيرها من تحريف أو تصحيف أو تذييل، والفرق بينه وبين الإيضاح أن الإيضاح في المعاني خاصة، لا تعلق له بالألفاظ، وهذا نوع اشتراك اللفظة. وبيت الشيخ صفي الدين على هذا النوع قوله:

شيب المفارق يروى الضرب من دمهم ذوائب البيض بيض الهند لا اللمم

(١) اللقم: الطريق والنهج.

(٢) القصائر: النساء المقصورات في خدورهن.

(٣) الحَبَاتِر: القصار. مفردها حُبَاتِر وحَبْتِر.

هذا البيت الاشتراك فيه بين البيض، فلولا بيض الهند التي ترشح بها جانب السيوف، بذكر الهند، لسبق ذهن السامع إلى أنه أراد الذوائب البيض، ولكن بيت الشيخ صفي الدين لم يخل من بعض عقادة.

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم وبيت الشيخ عز الدين الموصلبي:

وللغزاة تسليم به اشتركت مع التي هي ترعى نرجس الظلم

هذا البيت يصلح أن يعد من باب الإشارة في الجناس المعنوي، فإن الشيخ عز الدين أضمر أحد الركنين وأظهر الآخر، وهذا حد جناس الإشارة من المعنوي، فإنه ذكر الغزاة في أول البيت وأضمر الغزاة الشمسية في الشطر الثاني، وهذا النوع تقدم تقريره، ولو صرح الشيخ عز الدين في الشطر الثاني بلفظة الغزاة، وذكر معها الإشراق والنور بحيث يزيل وهم السامع أن المراد الغزاة الوحشية، ويتحقق أن المراد الغزاة الشمسية، أو بالعكس، كان نوع الاشتراك في بيته خالصاً، مع ما فيه من النظر، وهو أن كلاً من الغزالتين سلم على النبي ﷺ، ولكنه أظهر لفظ الغزاة الثانية، فتحتم أنه صار جناساً معنوياً، ولعمري إنه أحسن من بيته الذي استشهد فيه على الجناس المعنوي في أول بديعته:

وكافر نعم الإحسان في عدل كظلمة الليل عن ذا المعنوي عمي

فإنه أظهر في أول البيت لفظة كافر، والليل يسمى كافراً، فأضمر لفظة كافر الذي هو الليل، وتالله إن بيته الذي نظمه شاهداً على نوع الاشتراك يستحق الجناس المعنوي، استحقاقاً ذوقياً وهو أسجَم من هذا البيت وأرق للمعنى وأوقع في الأسماع. وبيت بديعيتي أقول فيه عن النبي ﷺ:

بالحجر ساد فلا ند يشاركه حجر الكتاب المبين الواضح اللقم

هذا البيت يجب أن يعتمد عليه في هذا النوع، ولا يخفى على أهل الذوق السليم ما في تركيبه. والعميان ما نظموا في بديعيتهم. وبيت عز الدين تقرر أن الجناس المعنوي أحق به، واشتراك بيتي في لفظة الحجر، فأني قلت في أول بيتي بالحجر ساد وهذه اللفظة مشتركة بين العقل وسورة الحجر، فلما قلت في الشطر الثاني: حجر الكتاب المبين، زال الالتباس عن السامع وعلم المراد، وترشح عنده جانب السورة المنزلة على الممدوح فيه ﷺ.

ذكر التصريح

تصريح أبواب عدن يوم بعثهم يلقاه بالفتح قبل الناس كلهم
هذا النوع، أعني التصريح: هو عبارة عن استواء آخر جزء في صدر البيت، وآخر
جزء في عجزه في الوزن والروي والإعراب، وهو أليق ما يكون بمطالع القصائد، وفي
وسطها ربما تمجه الأذواق والأسماع. وهذا وقع في معلقة امرئ القيس فإنه صرع
المطلع بقوله:

قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل^(١)
وقال في أثناء هذه القصيدة:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الإصباح منك بأمثل
قلت: وعلى كل تقدير، ليس في نوع التصريح كبير أمر حتى يعد من أنواع البديع،
ولكن القوم كلما تغالوا في الرخص رغبوا في الكثرة. وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي:

لاقاهم بكماة عند كرههم على الجسم دروع من قلوبهم^(٢)
والعميان ما نظمهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي:

لا زال بالعزمات العز والهمم يصرع الضد بالتشطير في القمم

(١) سقط اللوى والدخول وحومل: أسماء أماكن في الصحراء.

(٢) الكماة: الأبطال الشجعان.

وبيت بديعيتي أشير فيه إلى النبي ﷺ:

تصريح أبواب عدن يوم بعثهم يلقاه بالفتح قبل الناس كلهم

أنظر أيها المتأمل المنصف إلى بديع التورية وترشيحها، عند ذكر الأبواب بالفتح،
هو فتوح في هذا الباب، مع سهولة التركيب، وحسن الانسجام، وتمكين القافية.



ذكر الاعتراض

فلا اعتراض علينا في محبته وهو الشفيق ومن يرجوه يعتصم
هذا النوع، أعني الاعتراض، هو عبارة عن جملة تعترض بين الكلامين، تفيد زيادة
في معنى غرض المتكلم. ومنهم من سماه الحشو، وقالوا في المقبول منه: حشو
اللوزينج، وليس بصحيح، والفرق بينهما ظاهر، وهو أن الاعتراض يفيد زيادة في غرض
المتكلم والناظم، والحشو إنما يأتي لإقامة الوزن لا غير. وفي الاعتراض من السحاسن
المكملة للمعاني المقصودة ما يتميز به على أنواع كثيرة، ومن معجزه في القرآن: ﴿فإن
لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة﴾^(١). ومنه قوله تعالى:
﴿فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾^(٢) ومن الشواهد الشعرية قول
بعضهم:

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان
فقوله: وبلغتها، من الاعتراضات التي زادت المعنى فائدة في غرض الشاعر، وهو
الدعاء للمخاطب، وأمثله كثيرة، وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي يقول فيه عن النبي
ﷺ:

فإن من أنفذ الرحمن دعوته وأنت ذاك لديه الجار لم يضم^(٣)

(١) البقرة، ٢٤/٢.

(٢) الواقعة، ٧٦/٥٦.

(٣) أنفذ: جح - يضم: يصاب بالضميم وهو الضيق والهوان.

فقله: وأنت ذاك ، هو الاعتراض بعينه ، فإنه زاد المعنى . وسماه قدامة التفاتاً ، وهو قريب .

والعميان ما نظموه . وبيت الشيخ عز الدين :

فلا اعتراض علينا في السؤال به أعني الرسول لكي ننجو من الضرم^(١)

فقول الشيخ عز الدين : أعني الرسول ، هو الاعتراض الذي أراده . وبيت بديعيتي أقول فيه عن النبي ﷺ :

فلا اعتراض علينا في محبته وهو الشفيح ومن يرجوه يعتصم

فقولتي ، بين الكلامين : هو الشفيح ، هو الاعتراض البديع المتمكن ، فإن في قول عز الدين : أعني الرسول ، ركة تدل على ضعف التركيب ، وكذلك قول الشاعر في مخلص مديحه : أعني فلاناً ، يدل على ضعف رويته وقلة تصرفه ، فإنهم عدوا ذلك من المخالص الواهية ، ولم يجنح إليه إلا عوام أهل الأدب ، ومثل الشيخ عز الدين ينتقد عليه ذلك والله أعلم .



(١) الضرم: النار والاحتراق بها.

ذكر الرجوع

وما لنا من رجوع عن حماه بلى لنا رجوع عن الأوطان والحشم^(١)
هذا النوع، أعني الرجوع، ذكره ابن المعتز وأبو هلال العسكري، وسماه بعضهم
استدراكاً واعتراضاً، وليس بصحيح. قال القاضي جلال الدين القزويني في «التلخيص
والإيضاح»: هو العود على الكلام السابق بالنقض لنكته، كقول زهير:

قف بالديار التي لم يعفها القدم بلى وغيرها الأرواح والديم^(٢)
والنكته فيه، كأنه لما وقف بالديار عرته روعة ذهل بها عن رؤية ما حصل لها من
التغير، فقال لم يعفها القدم، ثم رجع إلى عقله وتحقق ما هي عليه من الدروس، فقال
بلى عفت، وعليه بيت الحماسة:

أليس قليلاً نظرة إن نظرتها إليك وكل ليس منك قليل
ويعجبني هنا قول أبي البيداء:

وما لي انتصار إن غدا الدهر جائراً عليّ بلى إن كان من عندك النصر
وأما من سمى هذا النوع استدراكاً واعتراضاً، فتسميته غير صحيحة، والذي أقول:
إن هذا الرجوع لا فرق فيه بين السلب والإيجاب، وقد تقدم قول أبي هلال العسكري:
إن السلب والإيجاب هو أن يبني المتكلم كلامه على نفي شيء من جهة، وإثباته من جهة

(١) الحشم: العيال والأهل والتابعون.

(٢) يعفها: يبلها - القدم: العتق - الأرواح: الرياح - الديم: الأمطار.

أخرى. وقال القاضي جلال الدين: الرجوع هو العود على الكلام السابق بالنقض، وكل من التقريرين لائق النوعين، وللمأمل أن ينظر في ذلك ليحسن ذوقه.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي:

أطلتها ضمن تقصيري فقام بها عذري وهيهات إن العذر لم يتم
وبيت العميان:

قلوا ببدر ففلوا غرب شائهم به وما قل جمع بالرسول حمي^(١)
وبيت الشيخ عز الدين:

رمت الرجوع عن الأمداح أنظمها سوى مديح سديد القول محترم^(٢)
قلت: ليس في بيت الشيخ عز الدين رجوع، إلا عن حشمة الألفاظ وفخامتها في مديح النبي ﷺ، فإن قوله: سديد القول، دون من أنزل الله القرآن في أوصافه.
ويعجبني قول ابن نباتة في لاميته:

ماذا عسى الشعراء اليوم مادحة من بعد ما مدحت حم تنزيل^(٣)
وأيضاً، فإنه كان يجب على الشيخ عز الدين أن يقول في النوع البديعي، الذي هو الرجوع: رجعت عن الأمداح، حتى يصح النقص في الشطر الثاني، وإنما قال: رمت، كأنه يرى أن يرجع. وعلى الجملة، فالبيت قاصر من كل وجه.

وبيت بديعيتي أشير فيه إلى النبي ﷺ بقولي:

وما لنا من رجوع عن حماه بلى لنا رجوع عن الأوطان والحشم
هذا البيت لم يحتج إلى إطلاق عنان القلم في ميادين الطروس، بوصف ما فيه من المحاسن، إذ في مدح أهل الذوق، من علماء هذا الفن، ما يغني عن ذلك والله أعلم.

(١) فلوا: قطعوا والغرب: العزيمة والقوة - الشانئ: العدو المبغض - حمي: إحتمى.

(٢) رام: طلب وأراد - سديد القول: صائبه.

(٣) حم تنزيل: من سور القرآن الكريم وفيها مدح للنبي محمد ﷺ.

ذكر الترتيب

ترتب الحيوانات السلام له والنبت حتى جماد الصخر في الأكم^(١)

هذا النوع، أعني الترتيب، من استخراجات التيفاشي، ذكره في كتابه وسماه بهذا الاسم، وقال: هو أن يجنح الشاعر إلى أوصاف شتى في موضوع واحد، أو في بيت وما بعده على الترتيب، ويكون ترتيبها في الخلقة الطبيعية، ولا يدخل الناظم فيها وصفاً زائداً عما يوجد علمه في الذهن أو في العيان، كقول مسلم بن الوليد:

هيفاء في فرعها ليل على قمر على قضيب على حقف النقا الدهس^(٢)

فإن الأوصاف الأربعة على ترتيب خلقة الإنسان، من الأعلى إلى الأسفل.

وبيت صفي الدين الحلبي:

كالنار منه رياح الموت إن عصفت روى صرى مائه أرض الوغى بدم^(٣)

ترتيب بيت صفي الدين على العناصر الأربعة، وهي الماء والنار والهواء والتراب.

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين:

له الملائك والإنسان أجمعهم والجن والوحش في الترتيب كالخدم

(١) الأكم: التلال والأمكنة المتكاثفة الأشجار.

(٢) حقف النقا: كتيب الرمل - الدهس: غير الصافي. أي الممزوج بالتراب وغيره.

(٣) الصرى: المحبوس والمجتمع في مكان ما - الوغى: الحرب.

هذا البيت، ذكر الشيخ عز الدين في شرحه أنه على ترتيب المخلوقات: الملائك والإنس والجن والوحش، ولكن وضع هذا الترتيب غير منتظم على ما قرره التيفاشي.

وبيت بديعتي أقول فيه عن النبي ﷺ:

ترتب الحيوانات السلام له والنبت حتى جماد الصخر في الأكم

معلوم أن الموجودات ثلاثة، وهي حيوان ونبات وجماد، والثلاثة على ترتيب خلقة الإنسان من الأعلى إلى الأسفل، فإذا قلنا: جسم نام، خرج الجماد لأنه لا ينمو، وإذا قلنا: جسم نام متحرك بإرادته، خرج النبات، وإذا قلنا: جسم نام متحرك بإرادته ناطق، خرج باقي الحيوان وبقي الإنسان، وهذا حده. والله أعلم بالصواب.



ذكر الاشتقاق

محمد أحمد المحمود مبعثه كل من الحمد تبين اشتقاقهم

هذا النوع، أعني الاشتقاق، استخرجه الإمام أبو هلال العسكري، وذكره في آخر أنواع البديع من كتابه المعروف «بالصناعتين»، وعرفه بأن قال: هو أن يشتق المتكلم من الاسم العلم معنى، في غرض يقصده، من مدح أو هجاء أو غيره، كقول ابن دريد في نبطويه:

لو أوحى النحو إلى نبطويه ما كان هذا العلم يعزى إليه
أحرقه الله بنصف اسمه وصير الباقي صياحاً عليه (١)

وهذا النوع، ما ذكره القاضي جلال الدين القزويني في «التلخيص» ولا في «الإيضاح»، ولا ذكره الشهاب محمود في «حسن التوسل»، ولا نظمته العميان ولا غيرهم من أصحاب البديعيات، غير الشيخ صفي الدين الحلبي، وبيت بديعته، التي ذكر أنه جمعها من سبعين كتاباً، قوله:

لم يلق مرحب منه مرحباً ورأى ضد اسمه عند هذ الحصن والأطم (٢)

الشيخ صفي الدين اشتق من اسم مرحب، الترحاب، حتى يقابله بضده، وهذا هو الغرض الذي أراد الناظم، وبيت الشيخ عز الدين في المعارضة قوله:

(١) ذلك أن النصف الأول لاسمه هو: نبط ومعناه البترول تلك المادة المشتعلة. والنصف الآخر: وبه وهي للندبة.

(٢) الأطم: الحصون - ومرحب هو الفارس اليهودي الذي قتله الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام يوم فتح حصن خيبر

ميم وحا في اشتقاق الاسم محو عدا والميم والبدال مد الخير للأمم

هذا البيت يشق عليّ أن أشرح اشتقاقه، وأذكر ما فيه من التعسف والزيادة، وعدم القبول للتجريد، فإنه أراد أن يمشي على طريق ابن دريد في الاشتقاق، فلم يأت بغير الشقاق، وما ذاك إلا أن اسم نفظويه سداسي، قسمه الناظم في الاشتقاق نصفين: جعل النصف الأول نفظاً، والثاني صياحاً، وهذا الاشتقاق صحيح على هذا التفصيل، وقالوا هو في محمد رباعي من أين للشيخ عز الدين، غفر الله له، هذا حتى تصح معه لفظة محو، مع أنني راجعت شرحه فوجدته قال: الميم والحاء، من اسم محمد ﷺ، فيهما محو لأعدائه، وأيضاً فلم نجد أحداً استشهد، في بيت من بيوت بديعته وصدّر بيته، بقوله: ميم وحا في اشتقاق الاسم محو عدا، إلا الشيخ عز الدين، فإن المراد من بيت البديعية أن يكون صالحاً للتجريد خالياً من العقادة، ليصح الاستشهاد به على ذلك النوع.

وبيت بديعيتي أقول فيه عن النبي ﷺ :

محمد أحمد المحمود مبعثه كل من الحمد تبين اشتقاقهم

قد تقدم تقرير أبي هلال العسكري، في هذا النوع، وهو أن يشق المتكلم معنى لغرض يقصده. والغرض هنا، إن كلاً من محمد وأحمد وصفتهما المحمودة مشتق من الحمد، وشرف هذا المدح ظاهر. والله أعلم.



ذكر الاتفاق

ووصفه لابنه قد جاء تسمية فإنه حسن حسب اتفاهم
الاتفاق: عزيز الوقوع جداً، وهو أن تتفق للشاعر واقعة وأسماء مطابقة لتلك الواقعة
تعلمه العمل في نفسها، إما بالمشاهدة؛ أو بالسماع، فإن السبق إلى معاني الوقائع،
يشارك الناس في مشاهدتها وفي سماعها فضل لا يجحد، وإن حصل للشاعر في ذلك
قران سعادة، سارت الركبان بقوله، وترنم الحادي والملاح به، كما اتفق للرضي بن أبي
حصينة المصري، في حسام الدين لؤلؤ صاحب الملك الناصر، يوسف، حين غزا
الفرنج الذين قصدوا الحجاز من بحر القلزم، فظفر الحاجب بهم فقال ابن أبي حصينة
يخاطب الفرنج:

عدوكم لؤلؤ والبحر مسكنه والدر في البحر لا يخشى من الغير

وأحسن من ذلك وأبدع، ما اتفق للشيخ شمس الدين الكوفي، الواعظ، في الوزير
مؤيد الدين العلقمي حيث قال:

يا عصابة الإسلام نوحى والطمي حزناً على ما حل بالمستعصم
دستُ الوزارة كان قبل زمانه لابن الفرات فصار لابن العلقمي^(١)

فاتفق أن المذكورين كانا وزيرين، وأن المورى بهما [الفرات والعلقمي] نهران
معروفان، وقد طابق الناظم بينهما بالفرات الحلو والعلقم المر.

(١) دست الوزارة: منصبها.

ومنه قول ابن الساعاتي، وقد حضر الملك الناصر بيت يعقوب من حصون الشام، يخاطب الفرنج: دعوا بيت يعقوب فقد جاء يوسف.

ومنه قول ابن أبي الأصبغ، وقد اجتمع الملك الأشرف موسى بالملك الظاهر، وهو الخضر بن يوسف بن أيوب:

غدا مجمع البحرين شاطي فراتنا ألم تر موسى فيه قد لقي الخضر
واتفق لي مع الملك ما يناسب هذه الاتفاقات البديعية، فإني أنشدته، وقد كسر
النيل في شهر مسرى، وبلغه في يوم الكسران نوروز قد وصل من الشام إلى غزة، وقصد
الديار المصرية، فقلت:

أيا ملكاً بالله أضحي مؤيداً ومنتصباً في ملكه نصب تمييز
كسرت بمسرى نيل مصر وتنقضي وحقك بعد الكسر أيام نيروز^(١)

الاتفاق البديع الغريب، في هذا البيت، أن كسر نوروز بعد كسر مسرى، ويسميه
المصريون: الكسر النيروزي، ولم يبق بعده كسر. واتفق لي نظير ذلك بالحضرة المؤيدية
وهو أن المقر التاجي، نائب السلطنة الشريفة، نقل عنه إلى المسامع الشريفة كلام، فثبت
فيه براءته فأنشدته الحضرة الشريفة المؤيدية ما حصل به للخواطر الشريفة الرضا الزائد،
وهو قولي:

سبع وجوه لتاج مصر تقول ما في الوجوه شبيهي
عندنا ذو الوجوه يُهجي وأنت تاج بفرد وجه

وبيت الشيخ صفى الدين في بديعته على هذا النوع:

ومن غدا اسم أمه نعتاً لأمته فتلك آمنة من سائر النقم
اتفاق هذا البيت في اشتراك لفظي آمنة وآمنة. والعميان ما نظموا هذا النوع في
بديعيتهم.

وبيت الشيخ عز الدين الموصللي في بديعته قوله:

محمد واسمه بالاتفاق له وصف يشاكلة في اسمه العلم

وبيت بديعيتي، أقول فيه عن النبي ﷺ، وأذكر فيه وصفه الشريف لابنه الحسن^(٢)

(١) المسرى: المجرى - النيروز: عيد الربيع عند الإيرانيين ويصادف رأس السنة الفارسية.

(٢) الحسن والحسين عليهما السلام هما ابنا علي بن أبي طالب عليه السلام ولكن النبي محمداً ﷺ

رضي الله عنه:

ووصفه لابنه قد جاء تسمية فإنه حسن حسب اتفاقهم
اتفاق هذا البيت في اشتراك لفظي: حسن وحسن الوصف، هو أن النبي ﷺ أشار
إلى الحسن رضي الله عنه، وقال: إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين
من المسلمين. اهـ.



= كان يقول إنهما إبناه إشعاراً للمسلمين بقربهما له وبأنهما من ورثته فهما ابنا بنته فاطمة الزهراء
عليها السلام والتي كان يقول فيها: فاطمة بضعة مني، ... وفاطمة أم أبيها.. من أغضبها فقد
أغضبني ومن أغضبني فقد أغضب الله.

ذكر الإبداع

إبداع أخلاقه إبداع خالقه في زخرف الشعر فاسجع بها وهم^(١)

الإبداع: هو أن يأتي الشاعر في البيت الواحد بعدة أنواع، أو في القرينة الواحدة من النثر وربما كان في الكلمة الواحدة ضربان من البديع، ومتى لم يكن كذلك فليس بإبداع، كقوله تعالى: ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾^(٢). هذه الآية الشريفة استخرج منها زكي الدين بن أبي الأصعب أنواعاً كثيرة من البديع منها: المناسبة التامة بين ابلعي وأقلعي، والمطابقة اللطيفة بين الأرض والسماء، والمجاز في قوله: ويا سماء، ومراده مطر السماء، والاستعارة في قوله: أقلعي، والإشارة في قوله تعالى: وغيض الماء، فإنه بهاتين اللفظتين عبر عن معان كثيرة، والتمثيل في قوله تعالى: وقضي الأمر، فإنه عبر عن هلاك الهالكين ونجاة الناجين بغير لفظ الموضوع له، والإرداف في قوله تعالى: واستوت على الجودي، فإنه عبر عن استقرارها في المكان بلفظ قريب من لفظ المعنى، والتعليل، لأن قوله تعالى: غيض الماء، علة الاستواء، وصحة التقسيم، إذ قد استوعب سبحانه أقسام أحوال الماء حالة نقصه، والاحتراس، في قوله تعالى: وقيل بعداً للقوم الظالمين، إذ الدعاء عليهم مشعر بأنهم مستحقون الهلاك، احتراساً من ضعيف يتوهم أن الهلاك شمل من يستحق ومن لا يستحق، فأكد بالدعاء على المستحقين، والمساواة، لأن لفظ الآية الشريفة لا يزيد على معناها، وحسن النسق، لأنه سبحانه وتعالى قص القصة،

(١) هم: أمر من هام بهيم أي أحب حباً شديداً.

(٢) هود، ٤٤/١١.

وعطف بعضها على بعض، بحسن ترتيب، وائتلاف المعنى، لأن كل لفظة لا يصلح معها غيرها، والإيجاز، لأنه سبحانه وتعالى قص القصة بأقصر عبارة، والتسليم، لأنه من أول الآية إلى قوله: أقلعي، يقتضي آخرها، والتهذيب، لأن مرادات الألفاظ موصوفة بصفات الحسن، وعليها رونق الفصاحة لسلامتها من التعقيد والتقديم والتأخير، والتمكين، لأن الفاصلة مستقرة في قرارها مطمئنة في مكانها، والانسجام، وهو تحدر الكلام بسهولة، كما ينسجم الماء، وباقي مجموع الآية الشريفة هو الإبداع الذي هو المراد هنا، مع تكرار الأنواع البديعية.

وسهوت عن تقديم حسن البيان، وهو أن السامع لا يتوقف في معرفة معنى الكلام، ولا يشكل عليه شيء من هذه النظائر، وهذا الكلام تعجز عنه قدرة البشر.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلي في بديعته على الإبداع قوله:

ذل النضار كما عز النظر لهم بالفضل والبذل في علم وفي كرم^(١)

الشيخ صفي الدين في بيته من أنواع البديع: التجنيس، والتسجيع، واللف والنشر، والكناية عن الكرم، في قوله: ذل النضار، وائتلاف المعنى مع المعنى.

والعميان ما نظموا هذا في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي ذكر فيه ستة عشر نوعاً، ما أمكن العبد استيعابها، وتركته لحذاق الأدب، وهو قوله:

كم أبدعوا روض عدل بعد طولهم وأترعوا حوض فضل قبل قولهم

وبيت بديعيتي، أقول فيه عن النبي ﷺ:

إبداع أخلاقه إبداع خالقه في زخرف الشعر فاسجع بها وهم

الشرط الأول من هذا البيت مشتمل على: التورية، وعلى جناس التصحيف، وعلى الجناس المطلق، وعلى الترصيع، والمماثلة، والتسجيع، وائتلاف المعنى مع المعنى، والسهولة. والشرط الثاني فيه: التورية، ومراعاة النظر، والاعتراض، والانسجام ظاهر في البيت بكماله، والإبداع الذي هو المراد هنا، والله أعلم.

(١) النضار: الجود والكرم.

ذكر المماثلة

فالخير مائله والعضو جاوره والعدل جانسه في الحكم والحكم
هذا النوع، أعني المماثلة: هو أن تتماثل ألفاظ الكلام، أو بعضها، في الزنة دون
التقفية، كقوله تعالى: ﴿والسما والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب إن كل نفس
لما عليها حافظ﴾^(١) وقد تأتي بعض ألفاظ المماثلة مقفاة من غير قصد، لأن التقفية في
هذا الباب غير لازمة، كقول امرئ القيس:

كان المدام وصبوب الغمام وريح الخزامى ونشر العطر
وأما الشاهد الذي هو على أصل هذا الباب في الزنة دون التقفية، فكقول الشاعر:

صفوح صبور كريم رزين إذا ما العقول بدا طيشها^(٢)

والفرق بين المماثلة والمناسبة توالي الكلمات المتزنة وتفرقها في المناسبة، قلت:
هذا النوع، أعني المماثلة، ما تستحق عقود أنواع البديع، بسموها، أن يتنظم النوع
السافل في أسلاكها، وما أعلم وجه الإبداع فيه ما هو، ولا نرى من استخراجها وعده بديعا
غير الكثرة، وقد حسن أن أنشد ههنا:

* وكثر فارتابت ولو شاء قللا *

وبالله ما اختلج في فكري من حين تأدبت أن أرصعه في قصيدة من قصائدي،
ولكن حكم المعارضة أوجب ذلك.

(١) الطارق، ٣١/٨٦.

(٢) الصفوح: المتسامح المتساهل - الرزين: الوقور العاقل.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي :

سهل خلأئقه صعب عرائكه جم غرائبه في الحكم والحكم^(١)

والعميان ما نظموا. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي :

بيدي مماثلة يعطي مناسبة يجزي مجانسة في الكلم والكلم

وبيت بديعيتي :

فالخير مائله والعمو جاوره والعدل جانسه في الحكم والحكم



(١) العرائك: جمع عريكة وهي العشرة والمعاملة - جم: كثير.

ذكر حصر الجزئي وإحاطه بالكلي

الحق بحصر جميع الأنبياء به فالجزء يلحق بالكلي للعظم

هذا النوع الغريب اخترعه الشيخ زكي الدين بن أبي الأصعب، وهو أن يأتي المتكلم إلى نوع فيجعله، بالتعظيم له، جنسا، بعد حصر أقسام الأنواع فيه والأجناس، كقوله تعالى: ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر﴾^(١) فإنه سبحانه وتعالى يعلم ما في البر والبحر، من أصناف الحيوانات والجماد حاصر الجزئيات المولدات، فرأى الاقتصار على ذلك لا يكمل به التمدح، لاحتمال أن يظن ضعيف أنه جلّ جلاله بعلم الكلّيات دون الجزئيات، فإن المولدات وإن كانت جزئيات بالنسبة إلى جملة العالم، فكل واحد منها كلي بالنسبة إلى ما تحته من الأجناس والأنواع والأصناف، فقال، لكمال التمدح: ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها﴾^(٢). وعلم سبحانه وتعالى أن علم ذلك يشاركه فيه كل ذي إدراك، فتمدّح بما لا يشاركه فيه أحد فقال عز من قائل: ﴿ولا حبة في ظلمات الأرض﴾^(٣) ثم ألحق هذه الجزئيات بالكلّيات فقال: ﴿ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾^(٤) وأمثاله من النظم قول الشاعر:

قصارى المطايا أن يلوح لها القصر
ثلاثة أشباه كما اجتمع السنر
ودار هي الدنيا ويوم هو الدهر

إليك طوى عرض البسيطة جاعل
فكنت وعزمي في الظلام وصارمي
فبشرت آمالي بملك هو الوري

(١) الأنعام، ٥٩/٦.

(٢) الأنعام، ٥٩/٦.

(٣) الأنعام، ٥٩/٦.

(٤) الأنعام، ٥٩/٦.

المراد من النوع، البيت الثالث، فإن الشاعر قصد تعظيم الممدوح وتفخيم أمر داره التي قصد فيها، ومدح يومه الذي لقيه فيه، فجعل الممدوح جميع الوري، وجعل داره الدنيا، ويومه الدهر، فجعل الجزء كلياً بعد حصر أقسام الجزئي، أما جعله الجزئي كلياً فلأن الممدوح جزء من الوري، والدار جزء من الدنيا، واليوم جزء من الدهر. وأما حصر أقسام الجزئي، فلأن العالم عبارة عن أجسام وظروف زمان وظروف مكان، وقد حصر ذلك، وهذا النوع صعب المسالك في نظمه، عزيز الوقوع والتحصيل، وقد فر العميان من نظمه.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي فيه:

شخص هو العالم الكلي في شرف ونفسه الجوهر القدسي في عظم

الشيخ صفي الدين جعل الجزئي كلياً فقط، وهو القسم الأول، لكون الواحد لا يسع جميع القيود. وبيت الشيخ عز الدين:

فألحق الجزء بالكلي منحصرأ إذ دينه الجنس للأديان كلهم

هذا البيت ما وجدت فيه للكلام فسحة لأمر، وبيت بديعيتي:

ألحق بحصر جميع الأنبياء به فالجزء يلحق بالكلي للعظم

النبي ﷺ صالح أن يكون هنا كلياً، العلو مقداراه وعظمه، فقولي عن الأنبياء: فالجزء يلحق بالكلي للعظم، لا يخفى ما فيه من المبالغة والمغالاة في وصف الممدوح ﷺ، هذا مع تحرير هذا النوع الذي يدق عن أفهام كثيرة، وإيضاحه مع التورية باسمه، وسهولة تركيبه وانسجامه، وما أعلم له في هذا الباب نظيراً، وما أوضحه وزاده طلاوة وحسناً إلا تشريفه بالمديح النبوي.



ذكر الفرائد

وشم وميض بروق من فرائده وانظم حنانيك عقداً غير منفصم

الفرائد: نوع لطيف مختص بالفصاحة دون البلاغة، لأن المراد منه أن يأتي الناظم، أو الناثر، بلفظة فصيحة من كلام العرب العرباء تنزل من الكلام منزلة الفرائد من العقد، وتدل على فصاحة المتكلم بها، بحيث أن تلك اللفظة لو سقطت من الكلام لم يسد غيرها مسدها، كقوله تعالى: ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائك﴾^(١) قوله تعالى: الرفث، فريدة لا يقوم غيرها مقامها، وكقوله تعالى: ﴿هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي﴾^(٢) فقوله سبحانه وتعالى: أهش بها على غنمي، فريدة يعز على الفصحاء أن يأتوا بمثلها في مكانها، ومنه قول عنترة في معلقته:

يا دار عبلة بالجواء تكلمي وعمي صباحاً دار عبلة واسلمي

فعمي صباحاً، فريدة في مكانها. وروي أن أبا ذر أتى النبي ﷺ فقال: عم صباحاً، فقال النبي ﷺ: إن الله قد أبدلني ما هو خير منها. فقال: ما هي؟ قال: السلام.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلي:

ومن له جاور الجزع البييس ومن بكفه أورقت عجزاء ذي سلم^(٣)

(١) البقرة، ١٨٧/٢.

(٢) طه، ١٨/١٠.

(٣) الجزع: الخرز الأسود والأبيض من العقيق - العجزاء: العصا أو بقية الشجرة - وذو سلم: في نسخة: من سلم.

الفريدة في بيت الحلبي هي العجاء، والعجاء هي العصا المعقدة.

والعميان ما نظموا هذا النوع. وبيت الشيخ عز الدين:

كم حصحص الحق إذ وافت فرائده وفي الوطيس بدا ثبناً بلا برم^(١)

الفريدة في بيت الشيخ عز الدين هي لفظة الوطيس، وأما برم فما أبرم فيها أمراً.

وبيت بديعيتي أقول فيه، وأنا مستمر على خطابي لمن رام مديح النبي ﷺ، فإني قلت في البيت الذي قبله:

الحق بحصر جميع الأنبياء به فالجزء يلحق بالكلي للعظم

وقلت بعده في الفرائد:

وشم وميض بروق من فرائده وانظم حنانيك عقداً غير منقصم^(٢)

الفرائد في هذا البيت ثلاثة وهي شم وحنانيك ومنقصم والوميض صالح لذا، والله

أعلم بالصواب.



(١) حصحص الحق: ظهر وبان - الوطيس: احتدام المعارك - الثبت: الشجاع الذي يثبت في المعركة -

البرم: التذمر.

(٢) شم: أمر من شام: طلب - الوميض: اللمعان - حنانيك: رحمتك الله - منقصم: منتقطع

ذكر الترشيح

يس زادت على لقمان حكمته وبان ترشيحه في نون والقلم

هذا النوع، أعني الترشيح: هو أن يأتي المتكلم بكلمة لا تصلح لضرب من المحاسن، حتى يؤتى بلفظة ترشحها وتؤهلها لذلك، كقول التهامي في مرثيته المشهورة:

وإذا رجوت المستحيل فإنما تبني الرجاء على شفير هار (١)

فلولا ذكر الشفير، لما كان في الرجاء تورية برجا البشر، ولكان من رجوت الأمر، لقوله أولاً: وإذا رجوت المستحيل. قلت: وهذا النوع تقدم ذكره، في باب التورية المرشحة، وقد تقدم أيضاً أن التورية أربعة أنواع: مجردة ومرشحة ومهيأة ومبينة، فالمرشحة هي التي يذكر فيها لازم من لوازم المورى به قبل لفظ التورية أو بعده، وسميت مرشحة لترشيحها وتقويتها بذكر لازم المورى به، وتقدم هذا في باب التورية المرشحة، ولكن ذكروا في تكرير الترشيح هنا فائدة لم يكن لمكررها حلاوة، وهي إذا قيل: ما الفرق بين التورية والترشيح، وقد جعلت مثاليهما واحداً؟ قلت: الفرق بينهما من وجهين: أحدهما من أنواع البديع ما لا يحتاج إلى ترشيح، وهي التورية المجردة المحضة، والثاني أن الترشيح لا يختص بالتورية دون بقية الأبواب، بل يعم المطابقة والاستعارة وغيرهما، في كثير من الأبواب، ألا ترى إلى قول أبي الطيب المتنبي:

وخفوق قلب لو رأيت لهيبه يا جنتي لرأيت فيه جهنما

(١) الرجاء: للبشر، الناحية. والأمل - الشفير: الحرف، والجنب، والناحية - الهار: الموشك على السقوط والخراب.

فإن قوله: يا جتتي، رشحت لفظة جهنم للمطابقة، ولو قال مكانها: يا منيتي، لم يكن في البيت مطابقة البتة، وأما ترشيح الاستعارة، فكقول بعض العرب:

إذا ما رأيت النسر عزي ابن داية وعشش في وكره طارت له نفسي

فإنه شبه الشيب بالنسر لاشتراكهما في البياض، وشبه الشعر الأسود بابن داية، وهو الغراب، لاشتراكهما في السواد، واستعار التعشش من الطائر للشيب، لما سماه نسرأ، ورشح به إلى ذكر الطيران الذي استعاره لنفسه من الطائر، فقد ترشح باستعارة إلى استعارة، ولولا خشية الإطالة لذكرت ترشيح التشبيه، وترشيح غيره من الأنواع.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي يقول فيه عن النبي ﷺ:

إن حل أرض أناس شد أزهم بما أباح لهم من حط وزهم^(١)

لفظة شد، في البيت، للشيخ صفي الدين، رشحت لفظة حل، للمطابقة، ولو أبقاها على حالها في معنى الحلول، لم يكن في البيت مطابقة البتة.

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين في بديعته

قوله:

في الفتح ضم من الأنصار شملهم جبراً لكسر بترشيح من الرحم

الترشيح في بيت الشيخ عز الدين ظاهر، فإنه رشح الفتح للتورية بصريح الضم، ورشح الضم للتورية بذكر الكسر.

وبيت بديعيتي أقول فيه عن النبي ﷺ:

يس زادت على لقمان حكمته وبان ترشيحه في نون والقلم

فذكر لقمان رشح يس للتورية، وذكر نون والقلم رشح لقمان للتورية، والفرق بين قولي: وبان ترشيحه في نون والقلم، وبين قول الشيخ عز الدين: بترشيح من الرحم، ظاهر، وأما سهولة التركيب وعذوبة الانسجام وتمكين القافية، فلم أحتج معهما إلى إقامة دليل، والله تعالى أعلم.

(١) الأزرق: القوة والظهر - الوزر: الحمل الثقيل.

ذكر العنوان

به العصا أثمرت عزاً لصاحبها موسى وكم قد محت عنوان سحرهم
هذا النوع، أعني العنوان: هو أن يأخذ المتكلم في غرض له، من وصف أو فخر
أو مدح أو ذم أو عتاب أو غير ذلك، ثم يأتي لقصد تكميله بالفاظ تكون عنواناً لأخبار
متقدمة وقصص مبالغة، كقول أبي تمام لأحمد بن أبي داود:

تثبت أن قولاً كان زوراً أتى النعمان قبلك عن زياد
فأثر بين حي بني جلاح لدى حرب وبين بني مصاد
وغادر في صدور الدهر قتلي بني بدر على ذات الأصاد
فأتى بعنوان يشير إلى قصة النابغة، حين وشى به الواشون إلى النعمان، فجر ذلك
حروباً انطوت عليها قطعة من الدهر، وذكر في البيت الثالث عنواناً آخر أشار فيه إلى ما
جرى بين بني عبس وبين بني بدر، على غدير ذات الأصاد.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته: :

والعاقب الحبر في نجران لاح له يوم التباهل عقبى زلة القدم^(١)
الشيخ صفي الدين أشار بعنوانه إلى عبد المسيح، عالم النصارى، حين قال لهم

(١) العاقب: الذي يأتي بعد الحبر في الرتبة الدينية، والحبر هو الرئيس الديني للنصارى الذي يعتبرونه
نائباً للسيد المسيح عليه السلام - نجران: دير في المدينة المنورة - التباهل: الحلف بالأبناء
والتباهل هو الذي دعا إليه النبي محمد ﷺ المسيحيين إثباتاً لصحة دعوته وإظهاراً لضعف
دعواهم.

النبي ﷺ يوم التباهل. ﴿تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾^(١) وكان قد خرج النبي ﷺ، محتضناً الحسين آخذاً بيد الحسن عليهما السلام، وفاطمة تمشي خلفهما سلام الله عليهم أجمعين، فحين رآهم العاقب قال للنصارى: لا تباهلوا محمداً فإني أرى معه وجوهاً لو أقسم على الله أن يزيل بها الجبال لأزالها، فانصرفوا وقبلوا الجزية.

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعته قوله:

بشرى المسيح أتت عنوان دعوته وقبله كل هاد صادق القدم

وبيت بديعيتي أقول فيه عن النبي ﷺ:

هبه العصا أثمرت عزاً لصاحبها موسى وكم قد محت عنوان سحرهم

هذا البيت عنوانه ظاهر لم يحتج فيه إلى شرح، ولكن التورية في العنوان وترشيحها، بلفظة محت، لا يخفي ما فيها من المحاسن، لأنها اسم النوع الذي هو القصد هنا، وأما قولي: به العصا أثمرت، فهي مناسبة ليس لها في الحسن مناسب.



(١) آل عمران، ٣/٦١.

ذكر التسهيم

كذا الخليل بتسهيم الدعاء به أصابهم ونجا من حر نارهم
هذا النوع مأخوذ من الثوب المسهم، وهو الذي يدل أحد سهامه على الآخر الذي
قبله، لكون لونه يقتضي أن يليه لون مخصوص به، لمجاورة اللون الذي قبله. ومن
المؤلفين من جعل التسهيم والترشيح شيئاً واحداً، والفرق بينهما: أن الترشيح لا يدل
على غير القافية، والتسهيم تارة يدل على عجز البيت، وتارة يدل على ما دون العجز،
وتعريفه أن يتقدم من الكلام ما يدل على ما يتأخر، تارة بالمعنى وتارة باللفظ، كأبيات
أخت عمرو ذي الكلب، فإن الحذاق بمعاني الشعر وتأليفه يعلمون معنى قولها:

فأقسم يا عمرو لو نبهاك. يقتضي أن يكون تمامه: إذا نبها منك داء عضالا، دون
غيره من القوافي، لأنه لو قال، مكان داء عضالاً: ليثاً غضوباً، أو أفعى قتولاً، أو ما
ناسب ذلك، لكان الداء العضال أبلغ، إذ كل منهما ممكن مغالته والتوقي منه، والداء
العضال لا دواء له، هذا مما يعرف بالمعنى، وأما ما يدل على الثاني دلالة لفظية فهو
قولها بعده:

إذا نبها ليث عريسة مقيتاً مفيداً نفوساً ومالا^(١)

وكذلك قولها:

وخرق تجاوزت مجهولة بوجناء حرف تشكي الكلالا^(٢)

فكنت النهار به شمسه

(١) العريسة: الأكمة، أو الشجر الملتف يكون مأوى للأسد.

(٢) الخرق: الأحرق - الوجناء: من النوق، الشديدة القوة - الحرف: من النوق: المهزولة.

يقتضي أن يتلوه: وكن دجا الليل فيه الهلالا. ومنه قول البحري:

أحلت دمي من غير جرم وحرمت بلا سبب يوم اللقاء كلامي
فليس الذي قد حللت بمحلل

ومن هنا يعرف المتأدب أن تمامه: وليس الذي قد حرمت بحرام.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته قوله:

كذاك يونس ناجى ربه فنجى من بطن حوت له في اليم ملتقم^(١)

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي، في

بديعته يقول فيه عن النبي ﷺ:

تسهيمة في الوغى حسم لمتصل تسليمه في الرضا وصل لمحتشم

قلت: الشيخ عز الدين رماه التسهيم في العكس، فتشوش إذ صار كل من النوعين

يتجادبه، وبيت بديعيتي أقول فيه عن النبي ﷺ:

كذا الخليل بتسهيم الدعاء به أصابهم ونجا من حر نارهم

لفظة التسهيم، في هذا البيت، انحصر فيها ثلاثة أنواع أحدها تسمية النوع، والثاني

الاستعارة البديعية، والثالث التورية المرشحة، فإن لفظة التسهيم رشحت التورية، بذكر

الإصابة، وتحريم النوع ظاهر في دلالة الأول على الثاني.



(١) اليم: البحر - ملتقم: مبتلع.

ذكر التطريز

شملي بتطريز مدحي فيه منتظم يا طيب منتظم يا طيب منتظم
هذا النوع، أعني التطريز: هو أن يتدّى المتكلم، أو الشاعر، بذكر جمل من
الذوات غير منفصلة، ثم يخبر عنها بصفة واحدة من الصفات مكررة بحسب العدد الذي
قرره وقدره، في تلك الجملة الأولى، وعدد الجمل التي وصفت بالذوات عدد تكرر
واتحاد لا عدد تغير، كقول ابن الرومي:

قرون في رؤوس في وجوه صلاب في صلاب في صلاب
ومثله قوله:

كأن الكأس في يدها وفيها عقيق في عقيق في عقيق^(١)
ومثله قول ابن المعتز:

فثوبي والمدام ولون خدي شقيق في شقيق في شقيق
وأبدع من الجميع والطف، قولي من قصيدتي المصغرة:

لفيظك والمقيلة مع نظمي سحير في سحير في سحير
وبيت الشيخ صفى الدين الحلبي في بديعته على التطريز:

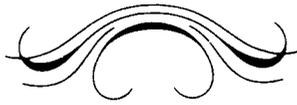
فالجيش والنقع تحت الظل مرتكم في ظل مرتكم في ظل مرتكم

(١) فيها: فمها.

قلت: هذا البيت لا يخلو أن يكون للعقادة فيه بعض تراكم.
والعميان ليس في بديعيتهم تطريز. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي، رحمه الله
تعالى، في بديعته قوله:

الدين والنقع تطريز لمحترم في نصر محترم في نصر محترم
هذا البيت لم أفهم منه غير لفظة التطريز، الذي هو اسم النوع.
وبيت بديعيتي أقول فيه عن النبي ﷺ:

شملي بتطريز مدحي فيه منتظم يا طيب منتظم يا طيب منتظم
هذا البيت بهجة التطريز ظاهرة على أركانه، وقد جمعت فيه بين التطريز الذي هو
المراد، والتورية، واللف، والنشر، والترشيح، والاستعارة، ومراعاة النظير، والسهولة،
والانسجام، والجناس التام، والله أعلم.



ذكر التنكيت

وآله البحر آل إن يقس بندى كفوفهم فافهموا تنكيت مدحهم^(١)

هذا النوع، أعني التنكيت، يستحق لغرابته أن ينتظم في أسلاك البديع، ويغار عليه أن يعد مع المماثلة والموازنة ومع التطريز والترصيع، وقد تقدم الكلام على سفالة هذه الأنواع.

والتنكيت: عبارة عن أن يقصد المتكلم شيئاً بالذكر دون أشياء كلها تسد مسده، لولا نكته في ذلك الشيء المقصود، ترجح اختصاصه بالذكر. وعلماء هذا الفن أجمعوا على أنه لولا تلك النكته التي انفرد بها، لكان القصد إليه دون غيره خطأ ظاهراً عند أهل النقد، وجاء من ذلك في الكتاب العزيز قوله تعالى: ﴿وأنه هو رب الشعري﴾^(٢) فإنه سبحانه خص الشعري بالذكر، دون غيرها من النجوم، وهو رب كل شيء لأن من العرب من عبد الشعري، وكان يعرف بابن أبي كبشة، ودعا خلقاً إلى عبادتها، فأنزل الله تعالى: ﴿وأنه هو رب الشعري﴾ التي ادعيت فيها الربوبية دون سائر النجوم، وفي النجوم ما هو أعظم منها. ومنه قوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾^(٣) فإنه سبحانه وتعالى خص تفقهون دون تعلمون، لما في الفقه من الزيادة على العلم، والمراد الذي يقتضيه معنى هذا الكلام: الفقه في معرفة كنه التسبيح من

(١) آله: أهله وأقاربه - آل: سراب - إن: لا.

(٢) النجم، ٤٩/٥٣.

(٣) الإسراء، ٤٤/١٧.

الحيوان البهيمي والنبات والجماد، الذي تسبيحه بمجرد وجوده الدال على قدرة موجهه ومخترعه. ومن الأمثلة الشعرية قول الخنساء:

يذكرني طلوع الشمس صخراً وأذكره بكل غروب شمس
فخصت هذين الوقتين بالذكر، وإن كانت تذكره كل وقت، لما في هذين الوقتين
من النكتة المتضمنة للمبالغة، في وصفه بالشجاعة والكرم، لأن طلوع الشمس وقت
الغارات على العدا، وغروبها وقت وقود النيران للقرى.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته، على التنكيت:

وآله أمناء الله من شهدت لقدرهم سورة الأحزاب بالعظم

الشيخ صفي الدين خصص سورة الأحزاب هنا بالذكر، لأن فيها تصريحاً بمدح آل
البيت عليهم السلام، بقوله تعالى: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت
ويطهركم تطهيراً﴾^(١) ولولا هذا الاختصاص كانت كغيرها من السور.

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي،
رحمه الله:

ففي براءة تنكيت بمدحته معناه في الشرح يشفي داء ذي البكم^(٢)

ذكر الشيخ عز الدين، في شرحه، أن النكتة المقصودة في بيته، في سورة براءة،
هي قوله تعالى: ﴿ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾^(٣)
وبيت بديعيتي أشير فيه إلى النبي ﷺ:

وآله البحر آل إن يقس بندي كفوفهم فافهموا تنكيت مدحهم

التنكيت، في هذا البيت بديع وغريب في بابه، فإنني خصصت الندي بالذكر عند
مقايسته بالبحر، في قلبي: إن البحر عند ندي كفوفهم كالآل، والآل هو الذي يحسبه
الظمان ماء، ولو قلت: انهار كفوفهم أو جداول كفوفهم لسد كل واحد منهما مسده بزيادة
زائدة، ولكن في الندي نكتة ليست فيهما، وهي الغلو في أن البحر يصير عند هذا الندي
سراباً، وهذا الذي أوجب تخصيص الندي بالذكر دون غيره، وقد اجتمع في هذا البيت
التنكيت الذي هو القصد هنا، والتورية، والغلو، ومراعاة النظر، والجناس، والله أعلم.

(١) الأحزاب، ٣٣/٣٣.

(٢) البكم: العجز عن التكلم خلقة.

(٣) التوبة: ٤٠/٩.

ذكر الإرداف

وفي الوغى رادفوا لسن القنا سkena من العدا في محل النطق بالكلم

نوع الإرداف: قالوا إنه هو والكناية شيء واحد. قلت: وإذا كان الأمر كذلك كان الواجب اختصارهما. وإنما أئمة البديع، كقدامة والحاتمي والرماني، قالوا: إن الفرق بينهما ظاهر، والإرداف: هو أن يريد المتكلم معنى، فلا يعبر عنه بلفظه الموضوع له، بل يعبر عنه بلفظ هو رديفه وتابعه، كقوله تعالى: ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾^(١) فإن حقيقة ذلك جلست على المكان، فعدل عن اللفظ الخاص بالمعنى إلى لفظ هو رديفه، وإنما عدل عن لفظ الحقيقة، لما في الاستواء الذي هو لفظ الإرداف، من الإشعار بجلوس متمكن لا زيغ فيه ولا ميل، وهذا لا يحصل من لفظ جلست وقعدت، ومن الأمثلة الشعرية على الإرداف قول أبي عبادة البحرني يصف طعنة:

فأوجرتة أخرى فأحللت نصلها بحيث يكون اللب والرعب والحق

ومراده القلب، فذكره بلفظ الإرداف، والفرق بين الإرداف وبين الكناية أن الإرداف قد تقرر أنه عبارة عن تبديل الكلمة بردفها، والكناية هي العدول عن التصريح بذكر الشيء إلى ما يلزم، لأن الإرداف ليس فيه انتقال من لازم إلى ملزوم، والمراد بذلك انتقال المذكور إلى المتروك كما يقال: فلان كثير الرماد، ومراده نقله إلى ملزومه، وهي كثرة الطبخ للأضياف.

(١) هود، ٤٤/١١.

وبيت الشيخ صفي الدين رحمه الله تعالى على الإرداف قوله :

بقتبه أسكنوا أطراف سمرهم من الكماة محل الضغن والأضم^(١)

الشيخ صفي الدين زاحم البحري في بيته، إلى أن نزع قلبه من صدره، بل جل قصده في إردافه هنا القلب، وكان الواجب العدول عنه لشهرته في هذا الباب عند أهل البديع .

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم . وبيت الشيخ عز الدين الموصلي :

للطعن والضرب إرداف يحل به في موضع العقل يحكيه ذوو الحكم

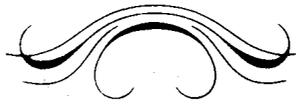
وبيت بديعيتي، قلت قبله عن آل النبي ﷺ، مشيراً إلى الغلو في كرمهم :

وآله البحر آل أن يقس بندي كفوفهم فافهموا تنكيت مدحهم

وأردفته بقولي في الشجاعة :

وفي الوغى رادفوا لسن القنا سكناً من العدا في محل النطق بالكلم

أنظر أيها المتأمل في بديع هذا الإرداف الغريب الذي ميزته على أقرانه من البحري إلى الشيخ عز الدين، بحسن مراعاة النظير الذي أسكنت به الألسنة بالأفواه، بقولي : في محل النطق بالكلم، مع التورية بتسمية النوع، والله سبحانه أعلم .



(١) القتبة : جمع قَيْب وهو الضيق الخلق السريع الغضب من الرجال - الكماة : جمع كمي وهو الفارس المغوار - السمر : الرماح - الضغن : البغض والكره - الأضم : الحقد .

ذكر الإيداع

وأودعوا للثرى أجسامهم فشكت شكوى الجريح إلى العقبان والرخم^(١)
هذا النوع، أعني الإيداع، يغلب عليه التضمين، والتضمين غيره، فإنه معدود من
العيوب، والعيوب المسمى بالتضمين هو أن يكون البيت متوقفاً في معناه على البيت الذي
بعده، كقول النابغة:

وهم وردوا الجفار على تميم وهم أصحاب يوم عكاظ إني
شهدت لهم مواطن صادقات أنبثهم بود الصدر مني

والإيداع الذي نحن بصددده: هو أن يودع الناظم شعره بيتاً من شعر غيره، أو نصف
بيت أو ربع بيت، بعد أن يوطيء له توطئة تناسبه بروابط متلائمة، بحيث يظن السامع أن
البيت بأجمعه له. وأحسن الإيداع ما صرف عن معنى غرض الناظم الأول، ويجوز عكس
البيت المضمن، بأن يجعل عجزه صدرأً أو صدره عجزاً، وقد تحذف صدور قصيدة
بكمالها وينظم لها المودع صدوراً، لغرض اختاره وبالعكس. وقد تقدم وتقرر أن
الأحسن، في هذا الباب، أن يصرف الشاعر ما أودعه في شعره عن معناه الذي قصد
صاحبه الأول، ويجوز تضمين البيتين بشرط أن ينقلهما من معنهما الأول إلى صيغة
أخرى، كما حكى أن الحيص بيص قتل جرو كلب وهو سكران، فأخذ بعض الشعراء
كلبة وعلق في رقبتها قصة وأطلقها عند باب الوزير، فإذا فيها مكتوب:

يا أهل بغداد إن الحيص بيص أتى بخزبة ألبسته العار في البلد

(١) العقبان والرخم: من الطيور الجوارح.

أبدى شجاعته بالليل مجترئاً
فأنشدت أمه من بعد ما احتسبت
أقول للنفس تأساء وتعزية
كلاهما خلف من بعد صاحبه
على جريّ ضعيف البطش والجلد^(١)
دم الأبلق عند الواحد الأحد^(٢)
إحدى يدي أصابتي ولم ترد
هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي

البيتان الأخيران لامرأة من العرب قتل أخوها ابنها، فقالت ذلك تسلية. ومنهم من أودع شعره بيتين، وكل بيت منهما لشاعر، كقول القاضي شهاب الدين محمود:

وبتنا على حكم الصباية مطعمي
وخلي يعاطيني كؤوس ملامة
أتطمع من ليلي بوصول وإنما
فبت كأني ساورتني ضئيلة
زفيري وأشجاني وشربي المدامع
وينشدني والهيم للقلب صادع
تقطع أعناق الرجال المطامع
من الرقش في أنيابها السم نافع

البيت الأخير للنابغة، قلت غاية الأوائل أن ينقلوا المعنى الأول في الإيداع إلى معنى آخر، إن كان في بيتين أو بيت واحد أو نصف بيت، ولكن الفرقة التي مشت تحت العلم الفاضلي، وتحلت بالقطر النباتي وهلم جرأ، لم يرضوا بنقله مجرداً من التورية أو ما يناسبها من أنواع البديع، ومما يؤيد قولي هذا قول القاضي جلال الدين القزويني، في التلخيص، وأحسنه ما زاد على الأصل بنكته، كالتورية والتشبيه، وممن أبدع في نقله إلى التورية علامة هذا الفن، الشيخ جمال الدين بن نباتة، رحمه الله تعالى بقوله:

أتاني عليّ البانياسي منشداً
مكر مفر مقبل مدبر معاً
فيا لك من شعر ثقيل مطول
كجلمود صخر حطه السيل من عل

ومثله قوله في مליح اسمه حبيب وهو:

حبيب حبيب القلب أخلى منيزلاً
فيا صاحبي الذكر قد لذ بالبكا
به كان في عرس المسرة ينجلي
قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل

وما يشك من عنده ذوق أن المقطوعين في الإيداع تميز المحاسن التورية، وغريب النقل إلى غرض كل من الناظرين وكذلك تقطيع أعناق الرجال، في إيداع الشهاب محمود، فإنهم نقلوه إلى الصفع، وجاءت توريته في غاية الحسن، وهذا هو المذهب

(١) جُريّ: تصغير جرو وهو ولد الكلب.

(٢) الأبلق: هكذا في الأصل ونظنها من الأخطاء الطباعية والأصح: الأبلق: وهو تصغير الأبلق الذي في لونه الأسود بقع بيضاء، وكان قد صغر جرو في البيت الذي قبله. فيصير جُريّ أبلق، والله أعلم.

الذي انتهت غايات المتأخرين إليه، ومن ذلك قول الشيخ جمال الدين بن نباتة أيضاً وهو:

أقول لمعشر جلدوا ولا طوا
أستم خير من ركب المطايا
وقولي زمذ كلمت قلبي سيوف لحاظها
فلم أر بداراً ضاحكاً قبل وجهها
وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة:

دنوت إليها وهو كالفرخ راقد
فقلت امعكيه بالأنامل فالتقى
وقولي طاول الليل بالنؤابة قبس
فحلا لي السهاد مذ طال ليلي
وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة:

تصدى إلى أيري فقلت له اتند
رأيت الذي لاكله أنت قادر
وحقك لو عاينته وهو ثائر^(٣)
عليه ولا عن بعضه أنت صابر

وأشدني، من لفظه لنفسه الكريمة، مولانا المقر الأشرف المرحومي القاضي الناصري محمد بن البارزي الجهني الشافعي، صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية المحروسة، كان، تغمده الله برحمته، ما اختلف هو والشيخ جمال الدين بن نباتة في إيداعه واتفقا في معناه، والمعنى في البيتين المذكورين قبل. وأما الترشيح فعندي أن التورية في بيتي المقر الناصري أرجح، وهما قوله:

أقول وقد أبي عن أخذ أيري
إذا لم تستطع شيئاً فدعه
وسالت من محاجره دموع
وجاوزه إلى ما تستطيع

(١) امعكيه: ادلكيه - وكرها: فرجها، شبهه بوكر الطير - العناب: البظر: شبهه بالعناب: الثمر

المعروف - الحشف: الثمر أو التمرة من قضيب الرجل على التشبيه.

(٢) الكيس: اللباقة.

(٣) اتند: تمهل - ثائر: منتصب.

الذي ترجح عندي أن قوله: وجاوزه أعقد من قول الشيخ جمال الدين: لا كله،
والذي أقوله: إن كلا منهما في بابه بديع وغريب، وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة:

لم أنس موقفنا بكازمة والعيش مثل الدار مسود
والدمع ينشد في مسائله هل بالطلول لسائل ردّ

ومثله قولي:

قف واستمع طرباً فليلي في الدجا باتت معانقتي ولكن في الكرى
وجرى لدمعي رقصة بخيالها أترى درى ذاك الرقيب بما جرى

ومن إيداعاتي الغريبة قولي من إعجاز الملحّة:

تنكر الحال علينا عندما سال عليه العارض المسلسل
فعنه سلني إن ترد تعريفه فإنه منكر يا رجل

ومما انفرد به الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمه الله تعالى تضمين أعجاز الملحّة،
والذي يؤيد انفراده حسن تخلصه من الغزل، وهو ماش على التضمين، إلى مدح قاضي
القضاة، ولم يزل مستمراً على غرر المدائح اللائقة بالقاضي إلى حسن الختام.

وضمن الشيخ زين الدين بن الوردي نبذة من اعجاز الملحّة، ولم يفرغها في غير
قوالب الغزل، فإن التخلص من الغزل إلى المدح من المستحيلات في هذا الباب، ولكن
الشيخ جمال الدين بن نباتة كان في ذلك العصر نسيج وحده، ومن المعلوم أن الجماعة
مثل الشيخ زين الدين بن الوردي، والشيخ صلاح الدين الصفدي، والشيخ برهان الدين
القيراطي، وغيرهم ممن عاصره، ما منهم إلا من تطفل على موائد حلاواته النباتية. وقد
عنّ لي أن أورد هنا نبذة من التضمين للشيخين، وأجعل كلاً من أبيات الشيخين وقفاً
محبساً على أصحاب الذوق السليم. قال الشيخ جمال الدين في المطلع:

صرفت فعلي في الأسي وقولي بحمد ذي الطول الشديد الحول^(١)

وقال الشيخ زين الدين رحمه الله تعالى في المطلع:

يا سائلي عن الكلام المنتظم هو الذي في لفظ من أهوى قسم

هذا المطلع من إبداع الذي قصر فيه باع الشيخ زين الدين بن الوردي، فإنه صدر

(١) الحَوْل: القوة.

مطلعه بالصدر وهو جائز، ولكنه غير المراد، فإن الشيخ جمال الدين تقدمه بتضمين الإعجاز ونسج إيداعه على هذا المنوال، ومن أغزال الشيخ جمال الدين البديعة في هذا الباب قوله:

في مثل قد أقبلت الغزاله
كقولهم ربّ غلام لي أبق^(١)
فهي ثلاث ما لهن رابع
وقال قوم إنها اللام فقط
مثاله الدار وزيد وأنا
والأمر مبني على السكون
وقيمة الفضة دون الذهب^(٢)
فما على صارفها ملام
وقف على المنسوب منه بالألف
وإن تكن باللام قد عرّفته
كمثل ما تكتبه لا يختلف
وتارة يأتي بمعنى اللام
مفعوله نحو سقى ويشرب
ولا سكيران الذي لا ينصرف
هن حروف الاعتلال المكتنف^(٣)
أما لا هوان وإما لصغر
قولك يا غلام يا غلامي
ولا تغير ما بقي من رسمه
فاعطف على سائلك الضعيف
في كل ما تأنيشه حقيقي
وجاء في الوزن مثال سكرى
تم الكلام عنده فلتنصب
وعاص أسباب الهوى لتسلما

أفدي غزلاً مثلوا جماله
ما قال مذ ملك قلبي واسترق
للقمرين وجهه مطالع
لأحرف الحسن على خديه خط
منفرد بالوصل في دار الهنا
لا يختشي تلاعب الظنون
في خده التبري هان نشبي
فاصرف عليه ثروة تسام
وإن رأيت قدّه العالي فصف
والعارض النوني ما أنصفته
وأهاله من حرف نون قد عرف
يأتي بنقط الخال في الإعجام
للحظه المسكر فعل يطرب
ولا تلم فيه عويشاً تلف
جسمي وذاك الخصر والجفن الدنف
فيا مليحاً عنه أخرجت القمر
كرر فما أحلى بسمعي السامي
وارفق بمضناك فما سوى اسمه
وقد حكى العذار في الوقوف
وافخر بمعنى لحظك المعشوق
يا لك لحظاً بسعاد أزرى
يا ناصباً أوصاف ذياك الصبي
هيهات بل دع عنك ما أضنى وما

(١) استرق: استعبد - أبق: هرب.

(٢) التبر: الذهب - نشبي: مالي، الثابت والمنقول.

(٣) الدنف: المريض - المكتنف: الذي أصاب. المصيب.

قاضي القضاة الطاهر النقي
 في كلم شتى رواها من روى
 إذا اندرجت قائلاً ولا تقف
 نحو لقيت القاضي المهذبا
 وهكذا أصبح ثم أمسي
 وافزع إلى حام حماه مانع^(١)
 ومثله ادخل وانبسط واشرب وكل
 تقول كم مال أفادته يدي
 وما أحد سيفه إذا سطا
 وقام قس في عكاظ خاطبا
 والكيل والوزن ومذروع اليد
 فما له مغير بحال
 ونوعه الذي عليه يبني
 وارفع ولا رد ولا تقرع^(٢)
 فانصب وقل كم كوكب تحوي السما
 عند جميع العرب العرباء^(٣)
 أو استشرت للرجا يمينه

وكرر الأمداح في علي
 بكل معنى قد تناهى واستوى
 بادر بنا ذاك الحمى العالي وصف
 دونك والمدح زكياً معجبا
 فالجود والعلم عليه أرسى
 واهرع إلى قارٍ قرأه نافع
 يقول للضيف نداه جب وجل
 وإن ظفرت عنده بموعده
 لله ما ألينه عند العطا
 إن قال قولاً بين الغرائب
 وإن سخا أتى على ذي العدد
 معطل السمع عن العذال
 الفضل جنس بيته المهنا
 سام به أهل العلا جميعاً
 وإن ذكرت أفق بيت قد نما
 بيت عظيم المجد والعلاء
 إذا اجتليت في العطا جبينه

منها والبيت مضمن بكماله:

وقد وجدت المستشار ناصحا
 وواقف بالباب أضحي سائل
 واقض قضاء لا يرد قائله
 واسع إلى الخيرات لقيت الرشيد^(٤)
 كان وما انفك الفتى ولم يزل
 وصغر الباب وقل بويب
 فليس يحتاج لها إلى خبر

تقول قد خلت الهلال لائحاً
 كم بالغنى عنه تولى راجل
 قال له الشرع امض ما تحاوله
 وأنت يا قاصده سر في جدد
 ولا تقل كان غماماً ورحل
 باب سواه اهجر عداك عيب
 أود به أنسى أحاديث المطر

(١) قارٍ: الذي يقري الضيوف أي يطعمهم - والقري: إطعام الضيف.

(٢) التقرع: اللوم والتوبيخ.

(٣) العرب العرباء: العرب الخالص، الأقحاح.

(٤) الجدد: نوع من السير السريع ويكون في الأرض المستوية.

وغصت في البحر ابتغاء الدر
وطبت نفساً إذ قضيت الدينا
ممزوجة بملحة الإعراب^(١)
وبات زيد ساهراً لم ينم
وإن تجد عيباً فسد الخلا
جائلة دائرة في الألسن
فليس إلا الكسر والسلام

خذ بحر شعر جبهته للذكر
حتى ملا عيني نداه عينا
دونكها معسولة الآداب
مضى بها الليل مضيّ الأنجم
فافتح لها باب القبول تجتلي
لا زلت مسموع الثنا ذا ممن
ما لعداك راية تقام

وقال الشيخ زين الدين بن الوردي:

في صدغه للحسن آيات تخط
وقال قوم إنها اللام فقط

قلت: الشيخ جمال الدين تقدمه في هذا البيت بالإيداع، وهنا بحث لطيف أبحثه مع حذاق الأدب، قال الشيخ جمال الدين بن نباتة: «لأحرف الحسن على خديه خط» ومراده بذكر الأحرف هنا مخالفة القوم له، على أنها ليست بأحرف وإنما هي حرف اللام فقط. وقال الشيخ زين الدين: «في خده للحسن آيات تخط» فلم يبق لقول من خالفه بقوله. وقال قوم إنها اللام فقط موضع ولا محل، وأين الآيات التي تخط من اللام، ولعمري إن هذا الإيداع، على هذا التقدير، يصير بينه وبين العجز من بيت الملحّة بعض مباينة، وكان الأليق للشيخ زين الدين الإعراض عن إيداع هذا البيت بعد الشيخ جمال الدين، فإنه لم يترك لغيره مجالاً فيه، والله أعلم. وقال الشيخ زين الدين بن الوردي رحمه الله تعالى:

زمانه غض فلا يخشى فرط
بسيف جفنه قتلت نفسي
فيا غزال إن أبت ما اعتدى
قلت لمذكر لحي خلّ الفند
إذ ألف الوصل متى يدرج سقط
فإنه ماض بغير لبس^(٢)
فأسقط الحرف الأخير أبدا
واسع إلى الخيرات لقيت الرشد

وهذا الإيداع أيضاً نسخه الشيخ زين الدين من قول الشيخ جمال الدين، وسبكه في غير قلبه، وأين هذا من قول الشيخ جمال الدين في إشاراته إلى قاصد ممدوحه:

وأنت يا قاصده سر في جدد
واسع إلى الخيرات لقيت الرشد

(١) معسولة الآداب: حلوة الآداب. وكان آدابها مزجت بالعسل لحلاوتها.

(٢) ماض: قاطع - اللبس: الشك والريبة.

قال الشيخ زين الدين:

وإن يكن عدلك في المؤنث فقل لها خافي رجال العبت
منها وأجاد إلى الغاية:
قوامه أشبه شيء بالألف
ومثله في الحسن قوله:

يا خصره من ردفه فز بالمنح ولا تسل أخف وزناً أم رجح
تركيب هذا البيت غاية في هذا الباب، لأنه قدم ذكر الألف في الأول، وقال في
عجز بيت الملحمة كمثل ما تكتبه لا يختلف، بخلاف قوله في ذلك البيت آيات، وقوله في
عجز بيت الملحمة. وقال قوم إنها اللام فقط وقال:

عذاره الرقيم فز بلثمه ولا تغير ما بقي من رسمه (١)
ولكن مرسوم الشيخ جمال الدين أمثل، وأين قول الشيخ جمال الدين: «وارفق
بمضناك فما سوى اسمه»، حتى يقول بعد التوطئة: «ولا تغير ما بقي من رسمه». من قول
الشيخ زين الدين: «عذاره الرقيم فز بلثمه». وقال الشيخ زين الدين بعد بيته الأول:

تقول فيه خضرة يسيره
دينار وجهه به شححت
يا ليته يعطف بالوصال
لا ما حلا لي في هواه العذل
كما تقول ناره منيره
وكم دنينير به سمحت (٢)
والعطف قد يدخل في الأفعال
لشبهه الفعل الذي يستقبل
منها وأجاد:

وعيناه أفنت أكثر العشاق
في ثغره جواهر غوالي
صورته كالبدر فوق الغصن
وخل عنك يا عدول العذلا
وهكذا تفعل في البواقي
جلوتها منظومة اللالي
فانظر إليها نظر المستحسن
وإن تجد عيباً فسد الخلا
وهذا البيت أيضاً منسوخ من إيداع الشيخ جمال الدين، والبون بينهما بعيد، فإن

(١) الرقيم: المنقش. والرقيم، الكتاب أو اللوح نقش فيه.

(٢) شح: بخل.

الشيخ جمال الدين اعتذر للممدوح في آخر القصيدة، عن التقصير، كما جرت عادة الشعراء بقوله:

فافتح لها باب القبول تجتلى وإن تجد عيباً فسد الخللا

هذا، مع مطابقة الفتح بالسد في هذا الباب، وهذا غاية، وأما اعتذار الشيخ زين الدين للعاذل، وقوله له عن محبوبه: «وإن تجد عيباً فسد الخللا» فالمحبوب عند محبه أجل من هذا القدر، والله أعلم، وختم الشيخ زين الدين بن الوردى رحمه الله قوله:

حتى رثى لي وألان القولا والحمد لله على ما أولى

ولعمري إني اختصرت من إيداع الشيخ زين الدين بن الوردى جانباً لم أرضه له.

ومن الإيداعات التي برز فيها الشيخ زين الدين بن الوردى، قصيدته التي امتدح بها النبي ﷺ وضمن فيها أعجاز قصيدة أبي العلاء المعري وبعض صدورها، وهي القصيدة الرائية التي امتدح بها أبو العلاء المعري ابن القصيصي، ونقلها الشيخ زين الدين بن الوردى إلى مستحقها ﷺ، وقد عن لي أن أجمع هنا بين الأصل والفرع، لتظهر مزية الشيخ زين الدين، فإنه أظهر في إيداعه العجائب وأتى بالغرائب، ومطلع الشيخ زين الدين خال من الإيداع، وهو:

أدر أحاديث سلع والحمى أدر والهج بذكر اللوى أو بانه العطر^(١)

ومطلع الشيخ أبي العلاء المعري:

يا ساهر البرق أيقظ راقد السمر لعل بالجزع أعواناً على السهر

قال الشيخ زين الدين بعد المطلع:

وقف على الجزع واذكرني لساكنه لعل بالجزع أعواناً على السهر

وقال في إيداع صدر مطلع أبي العلاء:

إذا تبسم ليلاً قل لمبسمه يا ساهر البرق أيقظ راقد السمر

قال أبو العلاء يخاطب البرق:

وإن بخلت على الأحياء كلهم فاسق المواطر حياً من بني مطر

(١) سلع والحمى واللوى وبانه العطر: أسماء أماكن في الجزيرة العربية.

وقال أبو العلاء، في قصر الليل على العاشق ليلة الوصل:

يود أن ظلام الليل دام له وزيد فيه سواد القلب والبصر
نقله الشيخ زين الدين إلى المديح، وأجاد إلى الغاية، بقوله عن النبي ﷺ:
تشرف الركن إذ قبلت أسوده وزيد فيه سواد القلب والبصر
قال أبو العلاء:

لو اختصرتم من الإحسان زرتكم والعذب يهجر للإفراط في الخصر
فنقله الشيخ زين الدين إلى المديح النبوي، فقال يخاطب النبي ﷺ:
عذبت ورداً فلم تهجر على خصر والعذب يهجر للإفراط في الخصر (١)
قال أبو العلاء يخاطب محبوبته:

قلدت كل مهارة عقد غانية وفزت بالشكر في الأرام والعفر (٢)
نقله الشيخ زين الدين إلى المديح النبوي، وما أحق المادح والممدوح به، فقال:
إن الغزالة لما أن شفعت نجت وفزت بالشكر في الأرام والعفر
قال الشيخ أبو العلاء:

أقول والوحش ترميني بأعينها والظير تعجب مني كيف لم أطر
نقله الشيخ زين الدين وقال:
ضمنت مدح رسول الله مبتهجاً والظير تعجب مني كيف لم أطر
قال أبو العلاء:

في بلدة مثل ظهر الضب بت بها كأنني فوق روق الظبي من حذر (٣)
نقله الشيخ زين الدين وقال:

ولي ذنوب متى أذكر سوافها كأنني فوق روق الظبي من حذر

(١) الإفراط: الزيادة - الخصر: الاختصار.

(٢) المهارة: البقرة الوحشية - الغانية: الفتاة الحسناء - الأرام: جمع رثم وهو الظبي الأبيض - العفر: جمع أعافر وهو نوع من الطباء الضعيفة العدو.

(٣) الضب: من الزواحف شبيه بالحرذون - الروق: القرن - الظبي: الغزال.

قال أبو العلاء يخاطب صاحبيه :

لا تطوبا السير عني يوم نائبة
قال الشيخ زين الدين بعد قوله : ولي ذنوب :
ومطمعي أنها لا شرك [إلا] بشركها
قال أبو العلاء :

يا روع الله سوطي كم أروع به
نقله الشيخ زين الدين وقال :

ولي فؤاد متى تفخر سوى مضر
قال أبو العلاء في المخلص ، بعد روع الوجناء :
لولا القصيصي كان المجد في مضر
باهت بمهرة عدناناً فقلت لها
قال الشيخ زين الدين لله دره :

والله لو أن أهل الأرض قاطبة
قال أبو العلاء مشيراً إلى ممدوحه ، وأساء الأدب :

وقد تبين قدرتي أن معرفتي
نقله الشيخ زين الدين بن الوردي إلى المديح النبوي ﷺ ، وقال بحق :

يا نفس لا تيأسي يوم المعاد فلي
قال أبو العلاء ، وكذب عن القصيصي في قوله :

ولو تقدم في عصر مضى نزلت
نقله الشيخ زين الدين إلى المديح النبوي ، وقال رحمه الله حيث قال :

وأين شعري من الهادي الذي نزلت
في وصفه معجزات الآي والسور

(١) السوط : الكبراج ، قطعة من الجلد تستعمل للضرب - راع : أخاف - الوجناء : من النوق : الشديدة القوة .

قال الشيخ أبو العلاء يخاطب ممدوحه:

وافقتهم في اختلاف من زمانكم
والبدر في الوهن مثل البدر في السحر^(١)
نقله الشيخ زين الدين إلى المديح النبوي، وقال يخاطب النبي ﷺ وسبى العقول
بقوله:

وأنت في القبر حي ما اعتراك بلى
والبدر في الوهن مثل البدر في السحر
قال أبو العلاء يخاطب ممدوحه:

أعاذ مجدك عبد الله خالقه
من أعين الشهب لا من أعين البشر
والبيت نقله الشيخ زين الدين إلى المديح النبوي بكماله، ولكن كان فارس ميدانه
وقائد عنانه، وكأنه كان معداً لقصيدته حتى يبرزه في محله من مديح النبي ﷺ، وهو:
لله قولي لعبد الله والده
قولاً إلى فص علياه على قدر^(٢)
من أعين الشهب لا من أعين البشر
قال أبو العلاء يخاطب ممدوحه:

سافرت عنا فظل الناس كلهم
يراقبون إياب العيد من سفر^(٣)
نقله الشيخ زين الدين إلى المديح، فقال يخاطب النبي ﷺ:

كم راقبت أمم منك القدوم كما
يراقبون إياب العيد من سفر
قال أبو العلاء يخاطب الممدوح:

لو غبت شهرك موصولاً بتابعه
وأبت لانتقل الأضحى إلى صفر^(٤)
قال الشيخ زين الدين يخاطب النبي ﷺ:

سل تعط واشفع تشفع ما ترده يكن
لو شئت لانتقل الأضحى إلى صفر

(١) الوهن: من الليل بُعِدَ منتصف الليل - السحر: قبيل الفجر.

(٢) إلى فص علياه: إلى أصلها.

(٣) الإياب: الرجوع.

(٤) الأضحى: عيد الأضحى عند المسلمين. وهو العيد الذي يقدم فيه الحجيج الأضحيان قربة إلى

الله تعالى.

قال أبو العلاء في ختام قصيدته:

ولا تزال بك الأيام ممتعة
بالآل والحال والعلياء والعمر^(١)

قال الشيخ زين الدين في ختامه:

وارتجي بك من ذي العرش عافية
في الآل والحال والعلياء والعمر
رحم الله الشيخ زين الدين، هذه القصيدة معدودة من محاسنه، ولولا خشية الإطالة
لاستوعبتها بكمالها، فإنها بديعة في باب الإيداع. انتهى.

وأما اعجاز قصيدة امرئ القيس اللامية المعلقة، فإن جماعة من أهل الأدب ثابروا
على تضمينها وتضمن البعض منها، وسبكوها في قوالب مختلفة الأنواع.

كتب إليّ مولانا قاضي القضاة، صدر الدين بن الأدمي الحنفي سقى الله ثراه، من
دمشق المحروسة إلى حماة المحروسة، في صدر رسالته:

أحن إلى تلك السجايا وإن نأت	حنين أخي ذكري حبيب ومنزل
وأهدي إليها من سلامي معطراً	بمسكٍ سحيق لا برياً القرنفل ^(٢)
وأذكر ليلاً بكم قد تصرّمت	بدار حبيب لا بدارة جلجل ^(٣)
شكوت إلى صبري اشتياقي فقال لي	ترفق ولا تهلك أسي وتجمل
وقلت له إنني عليك معول	وهل عند رسم دارس من معول ^(٤)

فأجبتّه وصدرت الرسالة بقولي:

سرت نسمة منكم إليّ كأنها	نسيم الصبا جاءت برياً القرنفل
فقلت لليلي مذ بدا صبح طرسها	ألا أيها الليل الطويل ألا انجل
جنت ما حلا ذوقاً فقلت تقربي	ولا تبعدينا عن جنائك المعلل
ورقت فأشعار امرئ القيس عندها	كجلمود صخر حطه السيل من عل
فقلت قفا نضحك لرقتها على	قفا نبك من ذكري حبيب ومنزل

(١) الآل: الأهل والعشيرة.

(٢) ربا القرنفل: رائحة القرنفل وهو نبات طيب الرائحة.

(٣) تصرّمت: انقضت.

(٤) الرسم: الأثر - الدارس: الممحو، غير الواضح - معول: فائدة.

وتطرح الشيخ جمال الدين، والشيخ صلاح الدين قبلنا، في جانب كثير منها، ولكن الشيخ جمال الدين تنازل فيها إلى الغاية فقال:

رأى فرسي إصطبل عيسى فقال لي قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

وأما الشيخ صلاح الدين فإنه كتب إلى الشيخ جمال الدين، في معنى العتب المفرط:

أفي كل يوم منك عتب يسوءني
وترمي على طول المدى متجنباً
فأمسى بليل طال جنح ظلامه
وأغدو كأن القلب من وقدة الجوى
تطير شظاياها بصدري كأنها
وسالت دموعي من همومي ولوعتي
إذا عاين الأخوان ما بي من الأسى
ترفق ولا تجزع على فائت الوفا
ولي فيك ودّ طال ما قد شددته
ولي خطرات فيك منها جوانحي
كأن أمانيتها كؤوس مدامة
سلوت غوايات الشبية والصبأ
وأجلو محيا الودّ فيك لأهله
فكر على جيش الجناية عائداً
تجد خفرات الأنس منها كواعباً

كجلمود صخر حطه السيل من عل
بسهميك في أعشار قلب مقتل (١)
عليّ بأنواع الهموم ليبتلي
إذا جاش فيه حميه غلي مرجل (٢)
بأرجائه القصوى أنابيش عنصل (٣)
على النحر حتى بل دمعي محملي
يقولون لا تهلك أسى وتجمل
فما عند رسم دارس من معول
بأمراس كتان إلى صم جندل (٤)
صبحن سلافاً من رحيق مفلفل
غذاها نمير الماء غير محلل (٥)
وليس فؤادي عن هواها بمنسلي
متى ما ترق العين فيه يسهل
بمنجرد قيد الأوابد هيكل (٦)
تراثها مصقولة كالسجنجل (٧)

(١) لمتجني: الذي يبدأ الجناية - السهمان: هما النظرتان - الأعشار: الأجزاء.

(٢) جاش: تحرك صعوداً وهبوطاً، نار - المرجل: القدر يطبخ فيها.

(٣) الشظايا: القطع - الأنابيش: جذور الأشجار وبقاياها - العنصل: نبات معمر من الفصيلة الزنبقية له ورق كورق الكراث.

(٤) الصم: الصلاب - الجندل: الصخور.

(٥) نمير الماء: الصافي منه والعذب.

(٦) المنجرد: الحصان القصير الشعر - قيد الأوابد: كناية عن السرعة، الأوابد: الوحوش - الهيكل: الضخم.

(٧) خفرات: شديداً الحياء - الكواعب: جمع كاعب وهي الفتاة نهذ ثديها - التراثب: عظام الصدر - السجنجل: المرأة. رومية معربة.

وخل الجفا وارجع إلى معهد الوفا
 حلا ودك الماضي وإن لم تعد أعد
 فأجابه الشيخ جمال الدين متهكماً في المطلع، والتهكم فيه غاية لا تكاد تخفى
 على حذاق الأدب، بقوله:

فطمت ولائي ثم أقبلت عاتباً
 بروحي ألفاظ تعرض عتبها
 فأحييت ودأ كان كالرسم عافياً
 تعفي رياح العذر منك رقومه
 نعم قوُضت منك المودة وانقضت
 أموالي لا تسلك من الظلم والجفا
 ولا تنس مني صحبة تصدع الدجا
 صحبتك لا ألوي على صاحب عطا
 وحاولت من إثناء ودك ما نأى
 يقلب لي وجدي به سوط سائق
 وكم خدمة عجلتها ومحبة
 وكم أسطر مني ومنك كأنها
 وقلب خليل ينشد الودّ همه

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل
 تعرض أثناء الوشاح المفصل
 بسقط اللوى بين الدخول فحومل^(٣)
 لما نسجتها من جنوب وشمال^(٤)
 فيا عجباً من رحلها المتحمل
 بنا بطن خبت ذي قفاف عقنقل^(٥)
 بصبح وما الإصباح مني بأمثل
 بجيد معم في العشيّة مخول^(٦)
 فأنزلت فيه العصم في كل منزل
 وإرخاء سرحان وتقريب تتفل^(٧)
 تمتعت من لهو بها غير معجل
 عذاري دراري في ملاء مذيل^(٨)
 ألا أيها الليل الطويل ألا انجل

- (١) الصرم: القطيعة - أزعج: نوى وعزم على الأمر.
 (٢) سمرات: جمع سمرة وهي شجرة الطلح - الحنظل: نبات شديد الحرارة. - الناقف: الذي يكسر الحنظل، وناقف الحنظل يبقى سائل الأنف، كثير الدمع لشدة حرارة الحنظل.
 (٣) العافي: الممحو غير الواضح - الرسم: الأثر - سقط اللوى والدخول وحومل: أسماء أماكن في الصحراء العربية.
 (٤) الرقوم: النقوش - الجنوب والشمال: الريح.
 (٥) الخبت: الوادي العميق المحدود - القفاف: التلال والوهدات ويروى: حفاف وهي الرمال المرتفعة - العقنقل: الوادي العظيم المتسع والكثيب من الرمل.
 (٦) المعم: ذي الأعمام - المخول: ذي الأخوال.
 (٧) الإرخاء: السير السريع/السرحان: الذئب - التقريب: السير البطيء - التتفل: ولد الثعلب أو الثعلب عينه.
 (٨) الملاء: الثوب الفضفاض تلتف به المرأة من قمة رأسها إلى أخصص قدميها - المذيل: المطرزة أذياله.

وكم ناصح كذبت دعواه إذ غدت
 ولحية لاح غاؤها ضحكي على
 ترى بعمر الآرام في عرصاتها
 نزعت لسكري ساحباً من صبابتي
 إلى أن تبدى عذره متمطياً
 فلاطفته في حالتيه ولم أقل
 وذن بأسطار كأن يراعيها
 ويقرع سمعي من معاريف لفظه
 وعدنا لود يملأ القلب عوده
 أعدت صلاح الدين عهد مودة
 فدونك عتبي اللفظ ليس بفاحش
 وعادات حب هن أشهر فيك من
 عليّ وآلت حلفة لم تحلل (١)
 أثيث كقنو النخلة المعثكل (٢)
 وقيعانها كأنه حب فلفل
 على إثرها أذيال مرط مرحل (٣)
 وأردف اعجازاً وناء بكلكل (٤)
 فسلي ثيابي من ثيابك تنسل
 أساريع ظبي أو مساويك إسحل (٥)
 مداك عروس أو صلاية حنظل (٦)
 بشحم كهذاب الدمقس المفتل
 بكل مغار الفتل شدت يذبل (٧)
 إذا هي نصته ولا بمعطل (٨)
 قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل

والذي أقوله: المهيح الذي اخترعه الإصاحب فخر الدين بن مكاس، ومشي عليه في تضمين هذه المعلقة، يعد من المعلقات في باب، فإنه ضمنها في مداعبة رجل من أصحابه، كان كبير الأنف وأتى بما لا اختلج في صدر متأذب، ولا سمع بعده المرقص والمطرب، وهو قوله:

تأنف عن وصف الغزال تغزلي بلحية أنف ذي عقاص ومرسل

أنظر أيها المتأذب ما ألطف تأنف هنا، وألطف منه قوله بلحية أنف، فإن العقاص

-
- (١) آلي: حلف.
 (٢) اللاحي: اللائم - الأثيث: الملتف - قنو النخلة: العنقود - المتعثكل: المتشابك.
 (٣) المرط: الإزار - المرحل: الموشى.
 (٤) أردف أعجازاً: أتبع المؤخره - ناء: بعد - الكلكل: الصدر.
 (٥) أساريع الظبي: أصابعه واحداً أسروع - المساويك: جمع مساوك: وهو عود تنظف به الأسنان - الإسحل: الشجر الذي تتخذ منه المساويك.
 (٦) المداك: المسك المدقوق دقاً وتستعمله العرائس عادة أو هو الحجر الذي يسحق به - صلاية الحنظل: الحجر الأملس الذي يكسر عليه، وهو نبات شديد الحرارة.
 (٧) مغار الفتل: محكم الجدل وهو الجبل المتين - يذبل: إسم جبل في الصحراء.
 (٨) نصته: أبرزته وأظهرته - المعطل: الذي لا حلي فيه.

جمع عقيصة وهو ما جمع من الشعر، والمرسل الشعر المسرح، ومراده أن لحية هذا الأنف غزيرة الشعر مسرحية وقال مشيراً إليها:

من البقّ فيها جملة قد تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل^(١)
فيا قبج شعر فوق أنف معرقص أبيض كقنو النخلة المتشكل^(٢)

الأبيض الكثير والمتشكل الذي دخل بعضه في بعض لكثرتة وتدلّى وهكذا قنو النخلة الذي شبه به الصاحب فخر الدين هذا الأنف، ولعمري إن هذا الإيداع من السحر في نقله إلى هذه الصفة الغريبة وقال بعده:

وقالوا اختبا في شعره فكأنه كبير أناس في بجاد مزمل
هذا التشبيه بالنسبة إلى كبر الأنف نوع من الغلو، وهو من المخترعات في بابه، فإن امرأ القيس شبه به جبل ثبير فقال:

كان ثبيراً في عرانيين وبله كبير أناس في بجاد مزمل
والعرانيين جمع عرنين وهو الأنف، والويل ما عظم من المطر، والبجاد كساء مخطط من الشعر الأبيض والأسود، فنقله الصاحب فخر الدين في إيداعه إلى الأنف، لما فيه من الشعر الأبيض والأسود الذي انتسج في أنفه كالبجاد، ولما اختفى في ذلك الشعر، بكبير أناس في بجاد مزمل أي ملتف، وقد تقدم قولي إنه من المخترعات.

مقلص كلتا الجانبين كأنه لدى سمرات الحي ناقف حنظل
وهذا التشبيه أيضاً من العجائب، فإن هذا الأنف لم يبرح سائلاً، فشبهه الصاحب برجل ناقف حنظل، فإن ناقف الحنظل كثير الدمع لشدة حرارته. وقال:

ترى القمل والصبيان في عرصاته وقيعانه كأنه حب فلفل^(٣)
وفي جوفه شعر طويل كأنه بأرجائه القصى أنابيش عنصل
فيا لك شعراً فوق أنف معظم يلوح كهذاب الدمقس المفتل
وكم قلت إذ أرخى ذوائب أنفه علي بأنواع الهموم ليبتلي
ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الإصباح منك بأمثل

(١) البق: نوع من الحشرات التي تشبه القمل ولكنها أكبر منه.

(٢) المعرقص: المجدد كثيراً.

(٣) العرصات: واحدها عرصة وهي ساحة الدار - والقيعان: مفردها قاع: وقاعة الدار ساحتها أيضاً.

الصاحب فخر الدين رحمه الله ضمن هنا عجزاً وبيتاً كاملاً بنصف بيت واحد، وفي هذا من الروية والقوة ما يزيد على الوصف، وأما قوله بعدما أرخى هذا الرجل ذوائب أنفه: ألا أيها الليل الطويل ألا انجل، فإن هذا نوع من السحر بل السحر بعينه، ومن المبالغة المفرطة في هذا الباب قوله:

كأن الفسا إن قيس مع ريح أنفه	نسيم الصبا جاءت برياً القرنفل (١)
ترى شعرات الأنف سدت خدوده	لما نسجتها من جنوب وشمال
وقد درست بالأنف آثار وجهه	فهل عند رسم دارس من معول (٢)
كأنني بمولانا على وصف أنفه	تولى بأعجاز وناء بكل كل
وجرد شعر الأنف منه وجاءنا	بمنجرد قيد الأوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معاً	كجلمود صخر حطه السيل من عل

هذا الذي وقع عليه الاختيار من اختراع الصاحب فخر الدين، تغمده الله برحمته ورضوانه، ولعمري إنه من الاختراع الذي لم يسبق إليه، ولا حام فكر من قبله عليه. انتهى.

وكان الأمير مجير الدين بن تميم يجنح إلى نوع الإيداع كثيراً، وأتى فيه بالعجائب والغرائب، وقال من شغفه بالتضمين:

أطالع كل ديوان أراه	ولم أزجر عن التضمين طيري
أضمن كل بيت فيه معنى	فشعري نصفه من شعر غيري

ومن تضامينه:

أفدي الذي أهوى بفيه شارباً	من بركة راقت وطابت مشرعا
أبدت لعيني وجهه وخياله	فأرتني القمرين في وقت معا

وله أيضاً:

وشبابة قد كنت أهوى سماعها	وقد صرت منها بعدما تبت أنفر (٣)
وها أنا قد فارقتها غير نادم	وكم مثلها فارقتها وهي تصفر

(١) الفسا: الريح الذي يخرج من دبر الإنسان.

(٢) درس: أمحى - المعول: الفائدة أو ما يعوّل عليه.

(٣) الشبابة: آلة موسيقية قديمة يستعملها الرعاة عادة وهي عبارة عن قصبه فيها خمسة ثقوب أو ستة توضع =

وأورد العميان في شرح بديعيتهم بيتين ذكروا أن تضمينهما لبعض المتقدمين من المغاربة، وهما على طريقتهم، ولكن أعجبايي، وهما:

وفرع كان يوعدني بأسر وكان القلب ليس له قرار
فنادى وجهه لا خوف فاسكن كلام الليل يمحوه النهار

ومن التضامين البديعة قول زكي الدين بن أبي الأصبع، وقد جعل مطلع أبي الطيب عجزين لبيتين، فلم يلحق فيهما، فإنه نقلهما من فخامة التحمس إلى زخارف الغزل، بقوله:

إذا الوهم أبدى لي لماها وثغرها تذكرت ما بين العذيب وبارق
ويذكرني من قدها ومدامعي مجرّ عوالينا ومجرى السوابق

ومن تضامين ابن تميم:

عائنت في الحمام أسود واثياً من فوق أبيض كالللال المسفر^(١)
فكأنما هو زورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

وقال في الفانوس:

يقول لي الفانوس حين أتوا به وفي قلبه نار من الوجد تسعر
خذوا بيدي ثم اكشفوا الثوب تنظروا ضنى جسدي لكنني أستر
وله: أزهر اللوز أنت لكل زهر من الأزهار يأتينا إمام
لقد حسنت بك الأيام حتى كأنك في فم الدهر ابتسام
وقال: لو كنت إذ أبصرتها سواة للشمس في أمواها لألاء^(٢)
لرأيت أعجب ما ترى من بركة سال النضار بها وقام الماء
وقال غيره، وسبكه في غير هذا القالب:

لو كنت في الحمام والحنا على أعطافه ولجسمه لألاء
لرأيت ما يسبيك منه بقامة سال النضار بها وقام الماء

عليها الأصابع وينفخ فيهامع تحريك الأصابع فيسيل منها نغم مطرب، وقد تكون مصنوعة من الحديد أو النحاس أو ما إلى ذلك وتعرف أيضاً بالقصبة.

(١) واثياً: مصاباً بالوثء وهو وسم يصيب لحم اليد ولا يبلغ العظم. المسفر: المكشوف.

(٢) أمواه: جمع: ماء.

وقال: يا من يقول بأن رشف لمي الحبايب لم يرق
وغدا يعنفني به دع عنك تعنيفي وذق

وقال: لما رأيت البدر في ساعدي ونرجس الأنجم قد صوّحا (١)
أفريت رشفاً فيه ريق الدجا من قبل أن ترشف شمس الضحا
وقوله: صهباء ريقته رشفت سلافها وتغلبت فعجزت أن أتكلما
وإذا سئلت أقل لمن هو سائل إني لأعلم ما تقول وإنما (٢)

ومن محاسن الشيخ سراج الدين الوراق قوله:

توارت من الواشي بليل ذوائب له من جبين واضح تحته فجر
فدل عليها شعرها بظلامه وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

نقله الشيخ شمس الدين بن الصائغ إلى المداعبة، وزاده تورية، بقوله:

تطلبت حجراً في الظلام فلم أجد ومن يك مثلي حية دأبه الحجر (٣)
فناداني البدر الأديب إلى هنا وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

ويعجبني من تضمين ابن أبي الاصبع قوله، وهو منقول من الحماسة إلى الغزل:

له من ودادي مثل كفيه صافياً ولي منه ما ضمت عليه الأنامل
ومن قده الزاهي ونبت عذاره صدور رماح أشرعت وسلاسل
وقوله: هذا الذي أنا قد سمحت بحبه كرمأ بلؤلؤ دمعي المتنظم
لا تحرموني ضم أسمر قده ليس الكريم على القنا بمحرم

ومن تضامين الشيخ محمود البديعة قوله:

من حاتم عدّ عنه واطرح فبه في الجود لا بسواه يضرب المثل
لو مثل الجود سرحاً قال حاتمهم لا ناقة لي في هذا ولا جمل (٤)

(١) صوّح: جفّ ويس.

(٢) وإنما لا أستطيع التكلما.

(٣) الحجر: بيت الحية - دأبه الحجر: دأبه طلب الحجر.

(٤) لا ناقة لي في هذا ولا جمل: مثل يضرب فيمن لا يعنيه شيء من الأمر.

ومن محاسن تضامين شمس الدين محمد بن العفيف البديعة قوله :

قالوا غداً تندم عن لثمه في خده إذ يغلب السكر
فقال لي مبسمه دعهم اليوم خمر وغداً أمر^(١)
وقال: جلا ثغراً وأطلع لي ثنايا يسوق بها المحب إلى المنايا
وأنشد ثغره يبغي افتخاراً أنا ابن جلا وطلاع الثنايا

ومن تضامين مجير الدين بن تميم التي تطفل الناس عليها بعده قوله :

إن تاه ثغر الأقاحي إذ تشبهه لله حبك واستولى به الطرب
فقل له عندما يحكيه مبتسماً لقد حكيت ولكن فاتك الشنب^(٢)

ومن تضامين القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر البديعة قوله :

وناطقة بالروح عن أمر ربها تعبر عما عندها وتترجم
سكتنا وقالت للقلوب فأطربت فنحن سكوت والهوى يتكلم

ومن تضامين الشيخ صلاح الدين الصفدي قوله :

ملكت كتاباً أخلق الدهر رسمه وما أحد في دهره بمخلد
إذا عاينت كتبي الجديدة جلده يقولون لا تهلك أسي وتجلد
وقال: قل للرقيب يسترح من عذلي ما أصبح المعشوق عندي مشتهي
وارتد قلبي عن سيوف لحظه وكل شيء بلغ الحد انتهى

وقال مضمناً ومكتفياً :

رشفت ريقك حلواً فلم يكن لي صبر
وسوف أحظى بوصل وأول الغيث قطر

ومن تضامين الشيخ عز الدين الموصلبي :

وعلق يرى للترك فيه تحمس يقود عليه أحذب ويعاشره^(٣)
إذا جاءه اللوطي يطلب وصله ثنى طرفه نحو الحسام يشاوره

(١) اليوم خمر وغداً أمر: قالها أمرؤ القيس عندما بلغه مقتل والده وقد كان خلياً لا هم له يشرب الخمرة ويلهو، فصار مهتماً بالتأثر لأبيه.

(٢) حكيت: شابهت - الشنب: بياض الأسنان ورقتها.

(٣) العلق: الصعلوك من الناس، أو المخنث الممتشبه بالنساء - يقود عليه: يجلب له الزبائن وهي من القوادة أي القيادة إلى الفحش - يعاشره: يجامعه، يلوطه.

وله أيضاً:

جَاد لنا كالشادن الربيب
فقال في السكرة عند نومه
وقال: نادمت قوماً لا خلاق لهم ولا
يستيقظون إلى نهيق حميرهم
وقال: لحديث نبت في العذار حلاوة
فإذا نهاني المرء قلت تمهلوا
لحظته بالنظر المريب
يا رب سلمها من الدبيب^(١)
ميل إلى طرب ولا سمار
وتنام أعينهم عن الأوتار
وطلاوة هامت بها العشاق
فإليكم هذا الحديث يساق^(٢)
ومن تضامين الشيخ برهان الدين المعمار التي أجاد فيها قوله:

عزمت على رقى محاسن وجهه
فلما بدا يفتر عن نظم ثغره
وكتب الشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصاري، إلى الشيخ سيف الدين الأمدي:
لئن تقدم قوم عصر سيدنا
وإن يكن علمه فرعاً لعلمهم
وإن أتت قبله كتب مؤلفة
فكم تقدم خير المرسلين نبي
فإن في الخمر معنى ليس في العنب
فالسيف أصدق إنباء من الكتب

ومن الغايات في هذا الباب، قول الشيخ بدر الدين بن صاحب:
لله يوم الوفا والناس قد جمعوا
وللوفاء عمود من أصابعه
ومما جاد به الشيخ برهان الدين القيراطي، في تضمينه:

قل في اخضرار عذاره وقوامه
وانشر من الأغزال في أردافه
خلع الربيع على غصون البان
حللا فواصلها على الكئبان^(٤)

ومن غايات الشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة في هذا الباب قوله:

قل للهلال وغيم الأفق يستره
لك البشارة فاخلع ما عليك فقد
حكيت طلعة من أهواه بالبلج
ذُكرت ثم على ما فيك من عوج

(١) الدبيب: سريان الخمرة في المفاصل بعد شربها.

(٢) المرء: جمع أمرء وهو الشاب لم تنبت لحيته بعد.

(٣) يفتر: يتسم حتى تبدو أسنانه.

(٤) الأرداف: جمع ردف وهي المؤخرة - الكئبان: جمع كئيب: تلة الرمل.

ومن تضامين علاء الدين بن أيبك الدمشقي البديعة قوله :

أقول وقد ظمئت ووجه حيي له عرق على ورد الخدود
أرى ماء وبني ظمأ شديد ولكن لا سبيل إلى الورود

ومن تضامين القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر قوله :

لقد قال لي إذ رححت من خمر ريقه أحث كؤوساً من ألد مقبل^(١)
بلثم شفاهي بعد تقبيل مبسمي تنقل فلذات الهوى في التنقل

وظريف في هذا الباب قول الشيخ بدر الدين بن المنيجي :

ولما خلونا والمسرة بيننا وقد عز شرب الراح فينا عن الشرب^(٢)
تعوّض كلُّ بالحشيش عن الطلا ومن لم يجد ماء تيمم بالترب^(٣)

ومن تضامين شهاب الدين بن أبي حجلة البديعة قوله :

يحكي سنا الفانوس من بعد لنا برقاً تألق موهناً لمعانه
فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه والماء ما سمحت به أجفانه

وقال فيه :

أنا في الدجا ألقى الهوى وبمهجتي حرق يدوب لها الفؤاد جميعه
وكأنني في الليل صب مغرم كتم الهوى فوشت عليه دموعه

وقال وأجاد :

يا صاح قد حضر الشراب ومنيتي وحظيت بعد الهجر بالإيناس
وكسا العذار الخد حسناً فاسقني واجعل حديثك كله في الكاس

ومن تضامين الشيخ برهان الدين القيراطي :

تجمعت من نطف ذاته حتى بدا في قالب فاسد
وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

(١) المقبل : مكان التقبيل وهو الفم .

(٢) المسرة : الفرحة - الشرب : الذين يشربون الراح وهي الخمرة .

(٣) الحشيش : نوع من المسكرات يدخن تدخيناً والطلا : الخمرة .

وقال مضمناً في قطائف:

تخيرتها فاختر لنفسك ما يحلو
وكلي إن حدثكم السن تتلو

لقد نطقت زهر الثنا بقطائف
تقول اسمعوا مني مدائح مرسلي

وله في باذهنج وأجاد:

بإطفاء ما ألقاه من حرق الجوى^(١)
أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى

بروحي أفدي باذهنجاً موكلاً
إذا فتحت في الحر منه طوابق

وقال فيه:

صفاتك ما وفي بهن خطاب
على أن عشقي في هواك صواب

أيا باذهنجا صح فيه لنا الهوا
وما شئت إلا أن أدل عواذلي

وقال فيه الشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة وأجاد:

لأن نسيمه أبداً عليل
إذا صح الهوى دعهم يقولوا

هجا الشعراء جهلاً باذهنجي
فقال الباذهنج وقد هجوه

ويعجبني من قصائد الشيخ برهان الدين القيراطي قوله:

أبدأ على الماء الكثير مواظبا
ويظن دجلة ليس تكفي شاربها

وموسوس عند الطهارة لم يزل
يستصغر البحر الكبير لذقه

ومن غاياته في هذا الباب قوله:

قد انتشرت في الخافقين غياهبه^(٢)
دجا الليل حتى نظم الجزع ثاقبه^(٣)

ولما بدا والليل أسود فاحم
أضياء بدر الثغر عند ابتسامه

وقال بدر الدين حسن الزغاري وأجاد:

قد اكتسبت من وجنتيه احمرارها
تناولها من خده فأدارها

وبي سامري مربى في عمامة
موردة دارت بوجه كأنما

(١) الباذهنج: شجر طيب الرائحة.

(٢) الخافقين: الأفقين - الغياهب: الظلمات.

(٣) الجزع: نوع من الخرز الأسود.

ومثله قول الشيخ عز الدين الموصلي:

وسامري أعار البدر منه سنا
تهتز قامته من تحت عمته

ومن تضامين محيي الدين بن قرناص الحموي:

وأفديه أغيد زارني تحت الدجا
والفرق بين الشعر فوق جبينه

وقال أيضاً:

سقى الله روضاً قد تبدى لناظري
وقد نضحت خداه من ماء ورده

وقوله في كاحل:

دعوا الشمس من كحل الجفون فكفه
فكم أذهبت من ناظر بسواده

وقال الشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة:

ومتى امتطيت من الكؤوس كميتها
ومتى طرقت عشى أنس دبرها

وقال ابن الوردي: تعجبت من اشتها بيتين ما أحكمهما بانيهما، ولا اعتنى بمعانيهما
وهما:

مقامات الغريب بكل أرض
كبنيان القصور على الثلوج
يذوب الثلج تنهدم البنايا
وقد عزم الغريب على الخروج

فخلصتهما من مقامات الغريب بكل أرض، وأوقدت فكرتي فذاب الثلج، وانهدمت
البنايا المستحقة للنقض، وجعلتهما أسمى من السماء، ونقلتهما من كثافة الأرض،
فقلت:

مليح ردفه والساق منه
خذوا من خده القاني نصيباً
كبنيان القصور على الثلوج
فقد عزم الغريب على الخروج

(٤) الدواهي: المصائب.

قلت، وقد سألني بعض حذاق الأدب عن بيت ابن مطروح، الذي لم تصل أفواه
البلغاء إلى لثم أعتابه، ولا الحضور إلى جنبه، ولا وجدوا طاقة للدخول من بابه، فضمنته
تضميناً لو سمعه ابن مطروح ل طرح نفسه خاضعاً، وسلم إليّ مفاتيح بيته طائعاً، وهو
قوله:

لبسنا ثياب العناق مزررة بالقبل

فقلت:

ولما خلعنا العذار فككنا طويق الخجل
لبسنا ثياب العناق مزررة بالقبل

ومن تضامين الشيخ زين الدين بن الوردى ما ذكره في ديوانه، أنه كان له صاحب
يدعي بالمجد، حصل له أذية مفرطة من زوجته، وأبيها وجدها، فكتب إليه الشيخ:

زوجة مجد الدين والداها في ثلب عرض المجد أشبهها(١)
إن أباه وأبا أباه قد بلغا في المجد غايتها

ومن تضميني الذي ما حام فكر من ضمن اعجاز الملحّة عليه، ولا سبقني جواد من
فحول العربية إليه قولي مداعباً:

نصبت أيري إذ نحوت نيكة وهو يريد رفعها لي ابتدا
وبعد ذا للجر قد أضفته وفي المضاف ما يجر أبدا

وأنشدني من لفظه الكريم، قاضي القضاة شهاب الدين بن حجر، من هذا الباب
بيتين كان مولانا قاضي القضاة علاء الدين يترنم بهما:

تبه فلان الدين مع فقره أقوى دليل أنه جاهل
لثوبه بالصقل من فوقه قعاقع ما تحتها طائل(٢)

وقال أيضاً في المجون:

وشاعر فاسق أتى امرأة من خلف إذ سامه المليح قلى
وقال إذا عاتبوه معتذراً تلجى الضرورات في الأمور إلى(٣)

(١) ثلب: تجريح. وعيب.

(٢) القعاقع: الكثير التصويت على غير طائل، والطائل: النتيجة والفائدة والمعنى.

(٣) إلى: إلى الممنوعات.

ومن تضاميني الغربية:

فلم أطق مكثه بأرض
فغاييتي أن ألوم حظي
حشث عزمي شوقاً إليكم
وحيث لم أحظ بالتلاقي

وقولي:

يقول معذبي حسن تخير
وكم في الناس من حسن ولكن
سواي فقلت قد عز اصطباري
عليك لشقوتي وقع اختياري

وأُشد المقر المرحومي محمد بن منهال ناصر الدين، عين الموقعين بدمشق
المحروسة، بيتين لابن الوردي، والأصل للحريري صاحب المقامات:

لوجنة صيادكم نسخة
يقول لنبت العذار اجتهد
حريية ملححة في الملح
ومدّ الشباك وصد من سنح^(١)

فنظمت في ذلك المجلس بيتين اعترفت لهما القصور العوالي بالقصر، وما شك
أحد أن أبا بكر مقدم على عمر:

غدا طير أفراحنا سانحا
فقلنا لدر الحباب اجتهد
يحموم على ورد عذب القدح
ومد الشباك وصد من سنح

ومن تضاميني الغربية ما ضمنته قول عنترة في معلقته:

وإذا سكرت فإنني مستهلك
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى
مالي وعرضي وافر لم يكلم
وكما علمت شمائلتي وتكرمي

فقلت:

جاد النسيم على الربا
أنا ما أقصر عن ندى
بندى يديه وقال لي
وكما علمت شمائلتي

وبيت الشيخ صفي الدين في هذا النوع:

إذا رآه الأعادي قال قائلهم
حتام نحن نساري النجم في الظلم

الشيخ صفي الدين ضمن في بيته الشطر الأول من مطلع المتنبي، وشطره الثاني: «وما
سراه على خف ولا قدم».

(١) سنح: ظهر وتعرض أو مرّ من اليمين إلى الشمال.

وبيت العميان:

واسمح بنفسك وابذل في زيارته كرائم المال من خيل ومن نعم
والعميان ضمنوا الشطر الثاني من بيت الشريف الرضي، وشطره الأول: «ماض من العيش
لو يفدى بذلت له».

وبيت الشيخ عز الدين:

إيداعه الفضل في الأصحاب شرفهم بين الرجال وإن كانوا ذوي رحم
والشيخ عز الدين ضمن الشطر الثاني من بيت المتنبي، من قصيدته لتي ضمن فيها
الشيخ صفي الدين الشطر الأول وهو قوله:

ولم تنزل قلة الإنصاف قاطعة بين الرجال وإن كانوا ذوي رحم

وبيت بديعيتي أنا مستمر فيه على المديح النبوي تابع لقولي، وهو:

وآله البحر آل أن يقس بنسدي كفوفهم فافهموا تنكيت مدحهم
وفي الوغى رادفوا لسن القنا سكناً من العدا في محل النطق بالكلم
وأودعوا للثرى أجسامهم فشكت شكوى الجريح إلى العقبان والرحم

وأنا أيضاً ضمننت في بيتي شطراً ثانياً من ميمية المتنبي، والشطر الأول: «ولا تشك
إلى خلق فتشمته، ووجه الاستحقاق هنا سافر لمستجلي محاسن هذا النوع، والله أعلم».



ذكر التوهيم

والبعض ماتوا من التوهيم واطرحوا والسمر قد قبلتهم عند موتهم^(١)
قلت: هذا النوع، أعني التوهيم، وتقدمه باب الترشيح، كان الأليق بهما أن ينتظما
في سلك باب التورية ويذكر التوهيم مع إيهامها والترشيح مع المرشحة، وقد تقرر كل من
النوعين وتقدم في بابه، والذي مشى عليه الشيخ صفي الدين هنا هو إيهام التورية وهو قوله:
حتى إذا صدروا والخيل صائمة من بعد ما صلت الأسياف في القمم
فذكر صيام الخيل، هنا، يوهم السامع أن السيوف صلت من الصلاة، ومراده
الصليل وهو صوت الحديد، وأعظم الشواهد على هذا النوع قوله تعالى: ﴿والنجم
والشجر يسجدان﴾^(٢) بعد قوله: ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾^(٣) فإن ذكر الشمس والقمر،
هنا، يوهم السامع أن المراد بالنجم أحد النجوم، والمراد به النبات الذي لا ساق له.
قال ابن أبي الأصبع: وقد يأتي التوهيم للمطابقة، كقول أبي تمام رحمه الله تعالى:
تردى ثياب الموت حمراً فما أتى لها الليل إلا وهي من سندس خضر
فإنه أوهم بالمطابقة بين الأحمر والأخضر، وليس يطابق، إذ الأحمر لا يطابق

(١) السمر: الرماح - التقييل: الطعن في الثغر - ويحتمل أن يكون السمر النساء، والتقييل: الاتجاه نحو
القبلة.

(٢) الرحمن، ٦/٥٥.

(٣) الرحمن، ٥/٥٥.

الأخضر، وفرّج منه ضرباً آخر فقال: هو أن يأتي المتكلم بكلمة توهم، بما بعدها من الكلام، أن المتكلم أراد تصحيحها ومراده خلاف ذلك، كقول أبي الطيب:

وإن الفئام التي حوله لتحسد أرجلها الأروس

فإن الأرجل أوهمت السامع أن لفظة الفئام بالقاف، ومراد الشاعر الفئام بالفاء، وهي الجماعات الكثيرة، هكذا روي هذا البيت، والمبالغة تقتضيه فإن القيام بالقاف يصدق عليه أقل الجمع. انتهى.

وبيت عز الدين الموصلي:

يا سائراً مفرداً أعربت لحنك في توهيم منع رضاع الشاء من حلم

قلت: هذا البيت المبارك عجزت عن حلّ معناه، إذ ليس له تعلق بما قبله، ولا بما بعده، ولا بمدح النبي ﷺ، ولم أزل في حيرة إلى أن وقفت على شرح المصنف، فوجدته قد قال: الحلم مشتق من الحلمة، وهي رأس الثدي، ويحصل في جلد الشاة دود، فتقول العرب: حلمت وحلم أديمها، أي وجد الدود في جلدها، ثم قال: ومعنى البيت، أنني أخاطب سائراً في الطريق مفرداً بنفسه عن الناس، لا يرغب في مرافقة أحد، فقلت: له وأنت تتوهم بترك اجتماعك بالناس معنى لا تظهره، كما يوهم الراعي بمنع رضاع الشاء، أن جلودها حلمت، وحلم بين حلم الشاة وحلم الأديب. قلت والله ما ازددت إلا حيرة في تفسير هذا الشرح، والذي أقوله: إن الشرح والنظم في العقادة، وعدم الفائدة، كفرسي رهان.

وبيت بديعيتي تقدم قبله وهو:

وأودعوا للثرى أجسامهم فشكت شكوى الجريح إلى العقبان والرحم

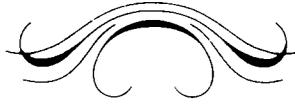
وقلت بعده في التوهيم:

والبعض ماتوا من التوهيم واطرحوا والسمر قد قبلتهم عند موتهم

فذكر الموت في البيت يوهم السامع أن نساءهم السمر قد أدارتهم إلى جهة القبلة، كما هو المعهود. والتوهيم هنا في التقبيل وفي السمر، والمراد بالسمر الريح، وبالتقبيل الطعن في الأفواه التي تنزل هنا منزلة التقبيل، واستعارة التقبيل للريح في غاية الحسن، فإنهم شبهوا سنان الريح باللسان، وشبهوا مواقع الطعن بالثغور. ويعجبني هنا قول ابن المزين في الريح:

لا بالسيوف وسل من الشجعان
نوديت يوم الجمع بالمران^(١)
كلمتهم فيه بكل لسان^(٢)

أنا أسمر والراية البيضاء لي
لم يحل بي عيش الغداة لأنني
وإذا تفاخمت الكماة بجحفل



(١) المران: الرماح اللدنة الصلبة واحدها مرانة.
(٢) تفاخمت: علت قدراً - الكماة: الأبطال الشجعان - الجحفل: الجيش الجرار - كلم: جرح - اللسان:
من الرمح سهمه.

ذكر الألفاظ

وكل ما ألغزوه حله لسن مذ طال تعقيده أزرى بفهمهم
هذا النوع، أعني الألفاظ: يسمى المحاجاة والتعمية، وهي أعم أسمائه، وهو أن يأتي المتكلم بعدة ألفاظ مشتركة، من غير ذكر الموصوف، ويأتي بعبارات يدل ظاهرها على غيره، وباطنها عليه، وأبدع ما فيه أنه لم يسفر في أفق الحلى غير وجه التورية، وأما تعسف الفرقة التي ليس لها إمام بالتورية في الألفاظ، فأمرهم مسلم إليهم، وأما علماء هذا الفن فإنهم ما قرروا غير ما قررناه، فمن ذلك قول أبي العلاء في ابرة:

سعت ذات سم نبي قميصي فغادرت به أثراً والله شاف من السم^(١)
كست قيصرأ ثوب الجمال وتبعأ وكسرى وعادت وهي عارية الجسم

وقول ابن حراز في خيمة:

ومضروبة من غير ذنب أتت به إذا ما هدى الله الأنام أظلت^(٢)
قلت: لغز أبي العلاء ولغز محيي الدين، لم تسفر فيهما الوجوه الحسان إلا من وراء ستور التورية، ومنه قول ابن حراز فيمن اسمه عثمان:

حروفه معدودة خمسة إذا مضى حرف تبقى ثمان

ومن أطف الألفاظ في القلم:

وذو خضوع راعع ساجد ودمعه من جفنه جاري
مواظب الخمس لأوقاتها منقطع في خدمة الباري

(١) السَّم: الثقب، وذات السَّم: الإبرة. والسَّم: مادة تسبب الموت.
(٢) المضروبة: التي ضربت من الحيوانات فشارفت على الموت، والخيمة.

وقول ابن عبد الظاهر في شربه في كوز الوزير:

وذي أذن بلا سمع له قلب بلا قلب
إذا استولى على حب فقل ما شئت في الصب

ومن لطائف ما وقع في باب الألغاز أن شيخ الشيوخ بحماة كتب إلى والده ملغزاً في باب، بقوله:

ما واقف بالمخرج يذهب طوراً ويجي
لست أخاف شره ما لم يكن بمرتج^(١)

فكتب إليه والده في الكتاب:

ذهاب ومجيء وخوف وشر، هذا باب خصومة والسلام.

وقال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر ملغزاً في باب:

أي شيء تراه في الدور والكتيب مجازاً هذا وذاك محقق
هو زوج وتارة هو فرد وهو في أكثر الأحيان يطرق
وطليق في نشأته ولكن بحديد من بعد ذلك يوثق^(٢)
وهو في القلب يستوي وتراه بان تصحيفه لمن يترمق^(٣)
فأجبنى عنه بقيت مطاعاً لست في حلبة الفضائل تسبق

وقال الشيخ برهان الدين القيراطي في باذهنج، وأجاد:

أهواؤنا المختلفة قد أصبحت مؤتلفه
في شامخ بأنفه على العوالي أنفه
وذي جناح لم يطر وكل طير ألفه
جناحه طول المدا يبدي علينا رفرفه
في الريح ضاع قول من على هواه عنفه
عليه الصحيح كم شفى قلوباً دنفه
وروحه لطيفة وذاته منحرفه

(١) أرتج: الباب، أقفله.

(٢) يوثق: يربط، ويقيد.

(٣) التصحيف: تغيير نقط الحروف - المترمق: المحدد النظر.

عن قبلة الدين أرى
ولم تكن مع الهوا
هواه تحت طوعه
ما زال غير شاكر
وكلما أسرف في
أنفاسه كم أودعت
كم رنحت من غصن
معتله هو الصحيح عند من قد عرفه

وقال محيي الدين ملغزاً في قمري:

ما معمى ورأسه
كم له من مترجم
كم خواف له بدت
كله معجم وإن
في عداد المطير
كم له من مسح
لالتماع المبصر^(٢)
زال بعض اسمه قري

وقال المقر المرحومي الأميني، صاحب دواوين الإنشاء الشريف بدمشق المحروسة، ملغزاً في فاخنة^(٣):

وما طائراً يهوى الرياض تنزهاً
هجاء اسمه خمس حروف تعدها
وبعدهما تصحيف باقيه إن ترد
وفيه أخ إن تهت عنه فأخته
ويسرح في أفنانها ويغرد
وخمسه حرف إن تأملت مفرد
بياناً له أفعى تبين وتشهد
تدل على ما قد عنيت وترشد

هذا اللغز ورد إلى الديار المصرية، وحله بقية السلف الشيخ زين الدين بن العجمي، وأجاب عنه بقوله:

أيا من له مجد أثيل وسودد
تفيد يسار المقتيرين يمينه
غدا دون مرقاه سماك وفرقد^(٤)
ويسراه من يمني الغمامة أجود

(١) رنج: أسكر، وأمال.

(٢) الخوافي: أربع ريشات في جناح الطائر تختفي إذا ضم الطائر جناحه، واحدها خافية.

(٣) الفاخنة: نوع من الحمام المطوق، يباعد بين جناحيه وإبطيه ويتمايل في مشيه.

(٤) الأثيل: الأصيل المتجذر - السودد: الرفعه - مرقاه: ارتقاؤه - السماك والفرقد: نجمان، وهنالك

سماكان وفرقدان.

ونقل الشيخ جمال الدين الدميري في كتابه «حياة الحيوان» لغزاً في بجمع :

ما طائر في قلبه يلوح للناس عجب
منقاره في وسطه والعين منه في الذنب

وكتب علامة العصر الشيخ بدر الدين الدماميني، إلى المجدي فضل الله بن مكانس، ملغزاً في قدح، فقال: ما اسم حبيب إلى النفوس، شبيه بالبدر حليف للشموس، إن قلب كان لقلبه من العين مكان المناسب، أو سقط قلبه مع الفعل كان ضدّاً للأقوال الكاذبه، وإن صحف بعد العكس أنبأ عن الذكاء وهذا غاية الشرح، وإن غير ثانياً علم رب الكلام المحرر أنه دال على الطرح، حاشيته مع التصحيف آلة للصيد، معينة على المكر والكيد، وإن قطع طرفه كان صراح باقيه قواماً، وإن عكس على الطرف صار بتصحيفه مداماً، وإن زال أوله كان العكس عقاباً بالمتعاطي إثمه، أو صحف اشتاقت الشفاه إلى تقبيله ولثمه، وربما كان الحد عند تصحيفه الآخر منافياً لاسمه، مبيناً في الحقيقة لحدّه ورسمه.

فكتب الجنب المجدي الجواب وألغز في ورد بقوله: يقبل الأرض التي أطالت بالجفاء حرمانه، وتداركته بعد إجراء دموعه فعظمت في الحالين شأنه، وانتهى المملوك إلى اللغز الذي تمتع بملحه، وشرب بقدحه، فابتهل شكراً، ومالت أعطافه بالقدح الفارغ سكرًا، فوجده كما قال مولانا حبيباً إلى النفوس، مجتهداً في التوصل بما حازه إلى الرؤوس، وكتب في الجواب لغزاً، وخالف نفسه إذ قالت لا ينبغي مجارة هذا الجواد لراً^(١). [وهو] ما عاطل يتحلى به المجالس، ويتفكه به في المجالس، تحمر وجناته من الشرب، وتحمد آثاره في البعد والقرب، إن قلبته وجدته تاجاً، وإن تركته على حاله زادك ابتهاجا، يعذب بالنار وغيره الجاني، ويريك إن بدلت أوله برد الأمانى، يستخرج وهو داخل، ويرى دمعه من نار قلبه هاطل، لا تبرح به في غبطه، ولا تجد فيه مع انهماله نقطه، فإن حذفت أوله وحرفت باقيه وجدته أمراً بالشراب، وإن فعلت كذا في ثانيه رأيت ما بقي مولداً للمحبة بين الأحباب، وور إن حذفت آخره كمن وري، وغص في بحر الفكر على عكس ثلثيه لتستخرج دراً، والمملوك يسأل الصفح فإنه لولا المحبة ما أجاب، ولا طرق بعد فقد أبيه هذا الباب.

فكتب إليه الشيخ بدر الدين الجواب: يقبل الأرض وينهي ورود الجواب، الذي شفى القلوب بوروده، واللغز الذي نسي بوروده، بان الحمى وطيب وروده، فوجده روض

(١) اللز: الإلتصاق، والسرعة.

سؤالك عن أنثى طروب ولم تزل
وتجذبني بالطوق عند نشيدها
ومذ بان منها الطرف أمست لعكسها
وإن حذفت ثاني الأخير فإنه
فأولها مع ما يليه وحرفها
وحرفان منها فرد حرف لناطق
بقيت بقاء الدهر عذك باذخ

وقال ملغزاً في درة:

أي شيء من الجمادات يلفي
وترى ذلك الجماد عزيزاً
وترى الروح منه في حيوان
وإذا ما شدا على العود يوماً
أو بدا في مقفص فابن برد
كله طائر وفي ثلثيه
كله عاطل به تتحلي
وتراه عند الملوك عظيماً
عكسه في تصحيفه زد بنقص
وإذا لم تدر التصاحيف ذره
وبتحريفه تؤدب من شئت
ثلثاه در نفيس وفي فيسه
لكن الثلث عنده نصف وحش
وهو في البر نافر وإذا ما
فافترسه بالحل إن كنت ليثاً

على عودها في الروض تشدو وتنشد
لنحو التصابي لا أطيق أفند
تخاف الردى ممن لها يترصد
على العكس خاف بل يلوح ويشهد
لنا فاه بالمعنى الذي فيه يقصد
واف لمن بالعكس في ذاك يجحد
وفي مفرق الجوزا لواؤك يعقد^(١)

وتراه من بعد ذا حيوانا
غالياً منه رصعوا تيجانا^(٢)
ذي جناح ويألف الطيرانا
فوق دف يحرك الأغصانا
عند أسجاعه يصير مهانا
لك ذو أربع مع العكس بانا
كل خود وتستقل الجمانا^(٣)
ويتصحيفه حقيراً مهانا
فالمعمى هنا فكن يقظانا
للذي فيه فهو يدري البيانا
وإذا كان يجهل العرفانا
ذبح عنا تصحيفه ما اعترانا
حضره قد يألف الإنسانا
فهو لغز عن فضله قد أبانا

وعلى ذكر القمري والفاخنة، أوردت هنا ما ألفزته في القفص، وهو قولي:

مرقص مطرب وبالقلم صفق
فزت من بعضه بسجع المطوق

أي مغنى أعواده بيت شدو
ولمجموعه النباتي حسن

(١) الباذخ: عظيم الشأن - اللواء: الراية.

(٢) عزيزاً: عزيز الوجود: نادره. رصع: زخرف وزين.

(٣) العاطل: الذي لا حلي له - الخود: الحسناء - استقل: رأى الشيء قليلاً - الحجان: اللؤلؤ.

بلاغة عدم العاتب والعاتب، وترعرع زهره حيث أمطرته من الأنامل المجدية خمس سحائب، فلو شاهده ابن الوردى لاحمرّ خجلاً، أو صاحب زهر الأدب لتلّون وجلاً، ثم تأمل حل اللغز فوجده قد كشف المشكل وجلّى، واعترف أنه لم يمر بذوقه أطيّب من ذلك الحل ولا أحلى، وتحقق أن مولانا أوسع المملوك في مقام الأدب بفضله إيناساً، وتناول منه قدحاً أعاده بالفاظه المسكرة كاساً، وانتهى المملوك إلى اللغز المخدومي، فقال:

مولاي مجد الله يا من فضله
ألغزت في اسم عاطل حليته
يروى وجود كفوفه يروي الصدى
فينا بدرّ اللفظ أو قطر الندى^(١)
قد كان للشاني هلاكاً أو ردى^(٢)

وقال مجيباً له أيضاً عن الورد:

لله لغزك يا مولى فضائله
أتى بورد فحياني على قدحي
قد عطر الكون منها طيب أنفاس
به وأبهجني ما بين جلاسي
روحي الفداء لذكر الورد والأس
وقد أسا جرح كسرى حين أقبل لي

فاستحلى المملوك بالتحريف ورده، وود لو اقتطف من أغصان حروفه ورده، ورده إلى ذل القصور عارياً عن ملابس عزه، وأنشد قول ابن قلاقس وقد تقلى بنار عجزه:
إذا منعتك أشجار المعالي جناها الغض فاقنع بالشميم^(٣)

فراح على بهرج هذا الرأي الكاسد، واقتنع بالشميم على رغم أنف الحاسد، وعلم أن تلك الورد لا تخرج إلا من تلك الخضرة، وأن هذه الفاكهة لا تخرجها إلا أغصان أقلام لها باليد المخدومية بهجة ونضرة، وتمشى المملوك من هذا اللغز في بساتين الوزير على الحقيقة، ورأى كل ورقة فاحمرت الوجنات الحمر فتحير أهى وردة أم شقيقه^(٤)، وتفكه به معجباً بشمار غرسه، منشداً لمن كرر النظر في صحيفتي طرسه:

إن كنت تزعم ما في خده عجباً فانظر إلى الورد في خديه منشورا

فلقد ظفرت من نفسه الوردى بالعنبر الورد، وعودته عند تبديل الثلاثة بالواحد

(١) العاطل: الذي لا حلي له.

(٢) الشاني: الشانيء - المبغض - الهلاك: الموت - الردى: الموت.

(٣) الشميم: ما يشتم من الرائحة.

(٤) الشقيقة: واحدة الشقائق، وهي أزهار حمراء قانية فيها بقع سوداء تعرف بشقائق النعمان.

الفرد، وتأمّلت بقصور راحتي نكتة برد الأماني، فانعقد لسحر البيان لساني، وتيقنت أنه لا يقوى على فهم هذا البرد إلا كل حديد النظر، ووجدت تصحيف هذه الكلمة، يا شمس الفضائل للعقول قمر، وعلمت أن الفكر لا يجاري من بديهته من بحر الفضائل رويه، وأن الخاطر لا يقوى على سلطان هذا اللغز لأن شوكته قوية، وقلت للذهن رد^(١) بعضه لتنتهل شراباً سائغاً، وزد تصحيفه ليكون في التعريف بمعناه مبالغاً، وتمتعت من ورده بالمشموم، ثم تذكرت البعد عن جناب المخدوم، فاستقطر البين ماء الورد من حدقي ولمولانا الصفح عن مقابلة هذا الدر بالسقط^(٢)، وتمر هجر بهذا الحشف الملتقط^(٣).

قلت وعلى ذكر القدح والورد، حسن أن نورد هنا لغزاً في المدام وقفت عليه، للشيخ صلاح الدين الصفدي بخطه:

وما شيء حشاه فيه داء وأوله وآخره سواء
إذا ما زال آخره فجمع يكون الحد فيه والمضاء^(٤)
وإن أهملت أوله ففعل له بالرفع والنصب اعتناء
قلت: لا بد للمدام من ماء من حيث الممازجة.

ووقفت بالديار المصرية على لغز للشيخ زين الدين بن العجمي، ألغزه في الماء فأعجبني؛ وهو قوله: سألتك أعزك الله عن سائل لا حظ له في الصدقة، ولم يكن متصل النسب بالأشراف، وتراه كثير الرجفان. من غير أن يخاف، كم رد سائله نهراً، وعفر وجه قائده في التراب قسراً، مذكر كثير الحيض، لطيف الانبساط سريع الفيض، مطلق التصرف وعليه الحجر^(٥)، وطال ما قبل العشاء أبدى لنا الفجر، يتشعب ويتكسر، ويتعوج ويتدور، وتبدو له خمسون عيناً وأكثر، يحمل القناطير المقنطرة، ويعجز عن حمل إبره، سريع الاستحالة، قل أن يثبت على حاله، بعيد الغوص ليس له قرار، ويعاجل صفاء وراده بالاكدار، ويسكن في تخوم الغبرا^(٦)، وينم على أحوال السماء نثراً، بعيد الغوص رقيق القلب على كل عديم، وكيف لا وهو المولى الحميم، وجود بأفخر الحلبي، ولا يرد

(١) رد: أمر من ورَد.

(٢) السقط: من كل شيء الرديء.

(٣) الحشف: التمر الرديء. وتمر هجر أحسن أنواع التمر وهجر مدينة اشتهرت بتمرها.

(٤) الحد: قصاص مفروض من الله سبحانه وتعالى مقابل جنایات معينة. والمضاء: التنفيذ

(٥) الحجر: المنع من التصرف والحركة.

(٦) الغبرا: الأرض.

من نداءه مؤملاً، كم عمر سبيلا، وقطع طريقاً وأخاف سبيلا، وكم طغى واحترق، وأظهر الجفاء وهو كثير الملق^(١)، صقيل يجلو الصدا، ويظهر على شدة البرد تجلداً، قد جمع فيه الخوف والرجاء، والكدر والصفاء، فسبحان من جمع فيه هذه الأضداد، وأرسله رحمة للعباد.

ويعجبني فيه قول أبي الفضل بن الخازن:

فألفت شخصي في حشاه مصورا ^(٢)	وخل صفاء زرته بعد هجعة
فيا حسن ما أفشى الغداة وأظهرا ^(٣)	وأودعته سري فأفشاه للورى
به حامل في بطن منخفض الثرى	أبوه حليف للثريا وأمه
يباري الرياح الذريات إذا جرى	سطيح له جسم بغير جوارح
وتكسوه شهب الليل ثوباً مدثرا ^(٤)	تزر عليه الريح ثوباً موردا

قلت: وعلى ذكر الماء يحسن أن نورد هنا لغزاً في القربة. كتب الشيخ بدر الدين الدماميني إلى المقر الأميني، أمين الدين الحمصي، كاتم السر بدمشق صاحب، ديوان الإنشاء بالشام لغزاً في قربة تراحم سرب الأدب على الشرب منها، ولو عاش صريع الدلاء ود أن يكون راوية عنها، وهو قوله:

ثناه على الأفكار فرض مرتب	أكاتب سر الملك والفاضل الذي
إذا ما أتاه اللغز يرويه مصعب	يحدث عن سهل رواة كلامه
ويبحث في الأسفار عنها وتطلب	فديتك ما ذات أظالعكم بها
وصدق إذا ما قيل تملى وتكتب ^(٥)	تشدوكم في الأرض قارٍ أمالها
لها خبر في الذوق يحلو ويعذب	وما هي في التحقيق راوية وكم
زماناً وفي وقت لها يتجنب	مليحة شكل يألف الحب صيها
ولكن رأينا قلبها وهو طيب	وتبلغ منها للحياض حقيقة
ويشكرها أهل الزوايا ويطنبوا ^(٦)	يزيد مریدوها إذا ما تصوفت

(١) الملق: الكذب والمراءاة.

(٢) الهجعة: سكون الليل وهدوؤه - الحشا: الجوف والداخل.

(٣) أفشى السر: كشفه وأذاع به - الورى: الناس.

(٤) تزر عليه: تلبسه - المدنر: الذي رسمت على أطرافه الدنانير.

(٥) القاري: مطعم الضيوف - تملى: تملأ - تكتب: يقال كتبت القربة إذا ربطت بابها وشدتها بالوكاء.

(٦) الزوايا: أماكن العبادة التي اشتهرت في تونس في فترة من الفترات وكان أشهرها الزوايا السنوسية - أطنب: زاد وتوسّع.

على السعي في الأحياء بالنفع تدأب^(١)
 رأيناه من تلك العتيقة يشرب
 وما نطقت حرفاً عن القصد يعرب
 وكم من فتى في حملها راح يرغب
 فيا حبذا منها البسيط المركب^(٢)
 غدا مرسلأ عنه الرواية تعجب^(٣)
 يمد إليها الراح لهواً ويطرب
 ولم أر بالتحريف من يتقرب
 حواها من الأقطار شرق ومغرب
 ويألفها بعض الجواري ويصحب
 فما لي إلا نحو علياه مذهب
 وكل غدا من ظرفه يتعجب

لها أربع لكن بساق رأيتها
 وما نال إثماً في تعاطيه بعدما
 وشم فيها المفتوح كم راح سائلاً
 وترضع أحياناً وما حان رضعها
 وتحمل ما فيه الحياة لربها
 وترسله فاعجب له من مسلسل
 وكم من خليع شمتة إذ تعتقت
 وكم قد تعبدنا بتحريف لفظها
 وتصحيفها يا جبهة الدهر بلدة
 وتوجد في الأفلاك عالية لها
 ويا من لرق الفضل أصبح مالكاً
 تلفت للغز نحو بابك قد أتى

وقال بعضهم ملغزاً في قرية السباحة:

ولم تكتسب أجراً بتسيحها قط
 كأن بقايا قوم لوط لها رهط

وذات فم طوراً تسبح ربها
 معانقة الصبيان مضمرة الهوى

قلت: أما لغز الشيخ بدر الدين في القرية فنسيج وحده، وما ذاك إلا أنه لم يحتج فيه إلى عقادة من تذهب بغير مذهبنا، ولم يسبكه في غير قوالب التورية، وقد أذكرني لغزاً الغزته في قصب السكر بطرابلس المحروسة، وقد أنشدني بعض المخاديم وهو المقر المرحومي الشهابي الدنيسري لغزاً في قصب السكر أيضاً، وهو:

ونشراً يروى شربه ويقوت
 فمهجتها في اثر ذاك تفوت
 من الخلق تسقي درها وتموت

وحاملة درأ حكي الخمر لذة
 تعيش إذا لم يبد منها فلان بدا
 فلم تر عيني مرضعاً في مثالها

وقال بعد الإنشاد: ولا أعلم في هذا الباب مثل هذا اللغز، لأنه سالم من التعقيد

(١) أربع: أي أربع سوق.

(٢) ربها: صاحبها.

(٣) المرسل من الحديث: ما سقط من اسناده الصحابي ويرويه التابعي بقوله: قال رسول الله صلعم. دون ذكر الصحابي الذي أخذه عنه.

والتصحيح والتحرير والعكس والحذف والابدال، فنظمت هذا اللغز في يوم الإنشاد وهو:

وعسالة تبدو بغير أسنة
ممشقة هيفاء حلو مذاقها
منعمة لفاء مهضومة الحشا
وتحلوا على البيض الرشاق شمائلًا
يلذ قبيل العصر في الظهر رشفا
وإن سقيت ماء سقتك سلافة
وينبت حلو الثغر حلو نباتها
وإن لمعت في ثغرها وتبلجت
على عودها كم للرباب مواقع
وإن قطعوا موصولها شببت به
وترفع بعد النصب والكسر جرها
وهمزاتها همزات وصل وقطعها
وفي أول الأعراف تروي من الظما
ومن حلها إن أفرغت في قوالب
ومن أجل ذا عنها ابن سكرة روى
كذا ابن الجلاوي قلبه معها يرى
فيا من حلا ذوقاً وحل بدائعي
تأملت بعد الحل كيف تنوعت
بنية فكر من حماة تغربت

ولا طعن فيها وهي داخلة الصدر^(١)
به يطرح المران في المهمة القفر^(٢)
تكاد بأن تنقد من رقة الخصر
إذا ما تثنت في نملائها الخضر^(٣)
وبرد لماها من أليم الجوى يبري
بطيب مزاج وهي طيبة النشر^(٤)
فيرشف أرياقاً ألد من الخمر
دع ابن جلا يقرع ثناياه في الثغر^(٥)
وموصولها يغني عن الناي والزمير
أولو الذوق تشبياً شفى غلة الصدر
فتجزم ما للفارسي من الذكر
إذا ما أميلت جائز لك يا مقري^(٦)
وتضرم نيران الجوى وهي في العصر
يقول الورى هذا هو السكر المصري
وأما النباتي قال من ههنا قطري
كسيراً وكم قد أوردته لظى الجمر
وفي عقد الألغاز يا نافث السحر
حلاوتها حتى رقت منبر الشكر
وغربتها والله قد أشغلت فكري

(١) العسالة: الخلية. والجعبة التي توضع فيها السهام.

(٢) المران: الرماح اللدنة الصلبة واحدها مرانة - المهمة: الأرض الواسعة.

(٣) الغلائل: واحدها غلالة وهي الرقيق من الثياب.

(٤) السلافة: الخمره - النشر: الرائحة التي تنتشر منها.

(٥) تبلج: بان ووضح - ابن جلا: الحجاج بن يوسف لقب به لقوله:

أنا ابن جلا وطلّاع الشنايا متى أضع العمامة تعرفوني

(٦) المقري: المقريء وهو علم تقريباً على قارئ القرآن. والإمالة: تقريب الفتحة والألف في اللفظ من الكسرة والياء.

ومن شط ذاك النهر يا بحر قد أتت
سعت من أبي بكر لأحمد خدمة
فلا زلت في حل وظعن مؤملاً
فلا تنهروها فهي في جيرة البحر
وأحمد من أولى الورى بأبي بكر
لكل غريب جاء حتى من الشعر

قلت: وبعد قصب السكر يحلو أن نورد هنا شيئاً مما ألغزه في العسل، فمن ذلك ما كتب به الشيخ شرف الدين عيسى العالية، إلى سيدنا الشيخ الإمام العالم العلامة بدر الدين بن الدماميني، وهو:

يا أيها المولى الرئيس ومن له
اسمع سمعت الخير أمراً محكماً
قالوا من الأطيار حقاً أصله
لكنه ما حاز منقاراً ولا
من أين يعرف ما اسم شيء ربما

فأجابه الشيخ بدر الدين بقوله:

يا فاضلاً نثر المحاسن نظمه
وتطرزت حلل البديع بمنطق
شرف لأعراض البدائع سابق
ألغزت في اسم عاطل حليته
فإذا أضفت القلب منه لأصله
وإذا عكست الأصل منه فهو إن
قد كانت الأذهان منه خلية
ورأى ابن سكرة حلاوة طعمه
ورأى بعين لغزك الحلو الجنى
وأعاده بعلى أمير النحل إذ
فاصفح بفضلك عن جواب سافل

قلت: وعلى ذكر العسل يحلو أيضاً أن نورد هنا ما ألغزه مولانا المقر المرحومي القاضي الناصري محمد بن البارزي الجهني الشافعي في سكر نبات، وكتب به إليّ، وهو:

(١) العاطل: الذي لا حلي له - النفيس: الثمين - اليتيم: من الدر، الذي لا ثاني له.

حلا مذاقاً ووقع لي بتحسين
تصحيف معكوسه ثانٍ يزكيني

يا قاضي الأدب أحكم لي فذا أدبي
واقبل شهادة ما أهديته تر من

ورسم لي بحل اللغز والجواب فألغزت مع الحل لغزاً زائد الحلاوة في قطر، وهو:
فانحل مذ حل في قلبي بتمكين
وجاء منه بشأنٍ قلت يكفيني
وحكمه ثابت عندي بتبيين
مزية تزدري نبت الرياحين
يحل أحشاء أرضينا فيرضيني
هذا وتصحيفه في العيد يأتيني
لأن قطر النباتي عنه ينسيني
وكلما مرّ لي عيش تحليني

أهديت لغزاً حلا ذوقاً مكرره
وفزت منه بشكر في مصحفه
تصحيف معكوسه من غير تزكية
حماة منبته لكن بمصر له
فحل منه لنا لغزاً مجانسه
يرادف اسم رباب فهو يطربني
حلو رقيق بلا حشو لذائقه
فلا برحت برغم الكسر تجبرني

قلت: وعلى ذكر القطر، يحلو أن نورد هنا شيئاً من بديع ما ألغزوه، في الكنافة
والقطائف، فمن ذلك ما ألغزه الشيخ برهان الدين إبراهيم القيراطي في النوعين وهو قوله:

قاضي البرية ما هذان خصمان
حروفه فهما لا شك حرفان
وصورة وهما في الأصل مثلان
أن أحضرا في مكان بين أخوان
من كنية ما انتحى في ذلك اثنان
في لجة البحر ملقى خمسه الثاني
فاعجب له ورقاً ينمو بنيران
وجاده بسحاب منه هتان^(١)
كشافة منه فاستره بكتمان
في آخر الشهر لم تمحق بنقصان^(٢)
بالبرق يسطو عليها سطوة الجاني

هذان لغزان قد حلا ببابك يا
اسمان كل خماسي إذا كتبت
تباينا في الورى شكلاً إذا نظرا
هما إلى الصين منسوب مقرهما
لذا كنى وهو بين الناس ليس له
في البر يلقي وإن فتشت عنه تجد
نبت أرى النار قد أبدت له ورقاً
يحيا إذا ما سقاه القطر وابله
ذو رقة فإذا صحفته ظهرت
هذا وكم من بدور فيه قد طلعت
فقدما خيط فجر أبيض عجل

(١) الهتان: الشديد المطر متابعه.

(٢) محق: البدر صار في المحاق وهي المنزلة التي ينزلها القمر قبل أن يبدأ بالإثارة، أو الهلال قبل رؤيته.

واللغز الآخر في اسم ذات السنة
يا حسنها ألسنا أضحت حلاوتها
بالطي والنشر في حال قد اتصفت
كم سُكرت ففتحنا بالدخول بها
حسناً أجمع أهل العقد كلهم
وصالها حل بالإجماع في زمن
ثلثا ثلاثة أحماس لها وجدا
وما ذكرت من الأحماس قد نطقت
وخمسها جبل لكن بقيتها
ما ملّ راوٍ من القالي أماليه
في الجوف منها قلوب جمعة جمعت
كم ظل يطرحها من ليس ذا شرف
بالحل أنعم سقى القطر المواطىء من
لم يبد منها لنا بالنطق حرفان
يحلو المديح لها من كل لسان^(١)
والطي والنشر فيما قيل ضدان
أبوابها فتلقنا بإحسان
والحل منها عليها بعد عرفان
فيه الوصال حرام عند أعيان
شيئاً يجيء بإيضاح وتبيان
صدقاً بذكر اسمها من غير بهتان^(٢)
في مكة يرتجى فوزاً بغفران
عنها وما خاطر القالي لها شاني^(٣)
ولا يكون بجوف الشخص قلبان
جهرأ ويوصف مع هذا بإتقان
إقدام سعيك من إرواء ظمآن

وكتب مولانا قاضي القضاة، صدر الدين بن الأدمي الحنفي رحمه الله، إلى علامة
العصر سيدنا ومولانا الشيخ بدر الدين بن الدماميني، رحمه الله، ملغزاً في لوزينج وأجاد
إلى الغاية، وهو:

يا من له في علوم النظم أي يد
ما اسم دوائره في نظمها ائتلفت
أجزاؤه من زحاف الحشو قد سلمت
تصحيف معكوسه لفظ يرادفه
والعيد منتظر من حله فرجاً
فاق الخليل بها فضلاً وتمكيناً
والثلم في صدرها مستعمل حيناً
هذا ويقطع مطوباً ومخبوناً
يا فرد يا رحلة قوم مقيمونا
لا زال سعدك بالإقبال مقروننا^(٤)

فحله المشار إليه رحمه الله، وأجاد إلى الغاية، والجواب:

يا مرسلأ من شهبي النظم لي كلما
الله درك صدرأ من حلاوته
منها ابن سكرة قد راح مغبوننا
وجوهر النظم لم ييرح يحليننا

(١) الملسان: الفصيح.

(٢) البهتان: الافتراء والكذب.

(٣) شاني: شانيء مبغض - والقالي: صاحب الأمالي والمبغض أيضا.

(٤) السعد: الحظ - مقروننا: مقترنا ملازماً.

يا فاتني رحمت بالإعجاب مفتونا
للكف قبضاً يزيد العقل تمكيننا
بالكشف عنه لمن وافاك تحسیننا
فینا أميناً رشيد العقل مأمونا

حليت لغزك إذ أبهتته فلذا
هذا وكم قد رأينا في دوائره
وليس إضماره مستحسناً فأين
وكن لنا هادياً صوب الصواب ودم

والله تعالى يمن على أفواه شاكريه بما هو أشهى من اللوزينج وأحلى، ويحلي
أعناق المتأدبين من كلمه بما هو أنفوس من الدر وأغلى.

وكتب الشيخ بدر الدين، المشار إليه، أيضاً لغزاً في دواة وجهزه إلى المقر
المرحومي الأميني المقدم ذكره، وهو هذا:

ونظمي بها يا كاتب السر يجهر
وحكت حبير اللفظ وهو محرر^(١)
لهم فعليك الآن يعقد خنصر
ولكن رأينا منك علماً يجسر^(٢)
وفيها دواء إن عراها تغير
وذلك من عاداتها ليس يترك
وصحف ترى المقصود بالنفس يظهر
على الرأس عباسية حين تخطر
ويحسن مرآها إذا ما تجبر
عهود الصبا والشيء بالشيء يذكر
يلذ به في الذوق ورد ومصدر
فعادت لها الجهال بالعي تحصر^(٣)
وإن غضبت فالموت لا شك أحمر
فتنهل منها مورداً لا يكدر
بذلك قد جاء الكتاب المسطر
وكم ذي غنى عن قصدها ليس يفتر^(٤)

كتبت وأعداري إليك تقرر
أتتك بأبيات المعاني فرضتها
وحليت أهل العصر إذ كنت خاتماً
وما أنت إلا البحر جاش عبابه
فما كلمة أفديك دام اعتلالها
ويحفظها ذو السر وهي التي وشت
وما مسها إلا وجادت بنفسها
وتحمل سمر الخط رايات ملكها
كحيله طرف تعشق العين شكلها
مؤنثة كم ذكرتنا بلونها
وكم قد أرانا ريقها من مسلسل
وكم لاقت الأبحار منها محاسناً
مسودة إن ترض فالعيش أخضر
ويعذب للسمر الرقاق رضابها
لقد أحكمت والنسخ ما زال دأبها
وما هي إلا ذات متربة غدت

(١) حبير اللفظ: المحبر، المكتوب.

(٢) جاش: هاج واضطرب - عبابه: وسطه ولجته.

(٣) الأبحار: مفردها حبر وهو الرئيس الديني للنصارى - العي: عدم قدره على التكلم - تحصر: تمنع
من الكلام.

(٤) المتربة: الحاجة والفقر - يفتر: يضعف.

تفه بسؤال فاعتراننا التحير^(١)
فأنت به والله أجدى وأجدر
على رأسها طول المدى لا تقصر

ولسنا نراها غير سائلة ولم
فانعم بحل اللغز يا خير منعم
فلا زالت الأقلام تسعى لشكركم

فكتب المقر المرحومي الأميني الجواب بعد أيام، وهو قوله:

وروضة آداب بها القلب يجبر
فيا حبذا الاسكندري المحرر
فكم من بليغ عن مداها يقصر^(٢)
حماها من العلياء لا يتسور^(٣)
فأحشاؤها فيها الأجنة تقبر
فإن هب فرد ظل يسعى ويحضر
تهادى بها نشوان يمشي ويعثر
خطيب له فوق الأنامل منبر
وعما رآه في المنام يعبر
سمواً ومع هذا على الطول تقصر
تقام بها بين الأنام وتعمر
وربت ويكفيها بذلك مفخر
تجاهي وجاهي عندها ليس يحقر^(٤)
وأنى استقلت فهي في ذلك تعذر
لدى النقص مثلي فهو حظ موفر
بحق وأفواه الدواة تقطر

مواقع أقلام لها الفضل ينشر
تحرر معنى حسنه نسيج وحده
تشق على الأفهام شقة شأوها
أتت سهلة الألفاظ ممنوعة الذرا
تشير إلى الجبلى التي عز وضعها
ينامون لا تغشاهم سنة الكرى
وإن أرشفته من زلال رضابها
وأما إذا اعتموا السواد فكلهم
وينطق عن علم وطول نباهة
تطاول سمر الخط أنى تشامخت
وكل بني الآداب تلقى بيوتهم
فأكرم بما قد ولدته وأنشأت
نجية وجهي إن جلست ووجهها
وقد فتحت فاما فقالت وقصرت
فلا زلت أهل الجمال وخيركم
بمدحك الأقلام يضحك سنها

ويعجبني من الألغاز، في التورية، قول شهاب الدين الغزاوي، في قوس، وهو:

طويلاً وتثقيها الرجال
وبنوها كبار قدر نبال

ما عجوز كبيرة بلغت سنأ
ولها في البنين سهم وقسم

ومن غريب ما أعجبني في هذا الباب قول القائل في كمون وهو:

(١) سائلة: من الأجسام التي تشبه الماء، والتي تطلب العطاء - فاه: تكلم، نطق.

(٢) شق: صعب وصار شاقاً - الشأو: المدى والغاية.

(٣) تسور: تسلق - الدار: القمم والأعالي.

(٤) النجية: التي تحدث وجهاً لوجه ولكن عن بعد.

يا أيها العطار اعرب لنا
تنظره بالعين في يقظة
عن اسم شيء قل في سومك^(١)
كما ترى بالقلب في نومك

ومثله قول شمس الدين الهيتي في ورق، وهو:

وشيء بلا جرم يصلب تارة
ومن قدم قد بيض الله وجهه
ويقطع حيناً في حضور وأسفار^(٢)
على أنه ما انفك يوماً عن القار^(٣)

ومن لطائف الشيخ شمس الدين بن الصاحب في هذا الباب قوله في سهم:

الله مملوك إذا
لكنه في لحظة
ما قام في الشغل اعترض
محصل لك الغرض

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمه الله ملغزاً في قلم:

مولاي ما اسم لنا حل دنف
لسان قوم فإن حذفت وإن
وما به علة ولا سقم
صحفت بعض الحروف فهو فم

وقال ملغزاً في علي:

أمولاي ما اسم جلي إذا
لك الوصف من شخصه سالماً
تعوض عن حرفه الأول
وإن قلعت عينه فهو لي

ويعجبني في هذا الباب قول ابن المرجاني ملغزاً في مشط وهو:

يا إماماً سألته حل لغز
أهمل الثلث باعتناء وقلب
شط منه مزار أهل الذكاء^(٤)
تره جاء قائد الشعراء

ويعجبني قول الشيخ صلاح الدين ملغزاً في قريشة:

أي شيء يروق للناس أكلاً
خمسه أثقل الجمادات وزناً
ذو بياض وأصله من حشيشه
فتعجب له وباقيه ريشه

(١) السوم: الثمين والتسعير.

(٢) الجرم: الجسم والجسد.

(٣) القار: الزفت وبزيادة الياء: مطعم الضيوف.

(٤) شط المزار: بعد المسكن والمقام.

ويعجبني لغز ابن منقذ في الضرس، وهو:

وصاحب لا أمل الدهر صحبته
يسعى لنفعي ويسعى سعي مجتهد
لم ألقه مذ تصاحبنا فمذ وقعت
عيني عليه تفارقنا إلى الأبد

ومن الغايات التي لم تدرك، في هذا الباب، قول القاضي صدر الدين بن الأديمي رحمه الله ملغزاً في كشتوان:

ما رفيق وصاحب لك تلقا
هو للعين واضح وجلي
واستظرف قول بعض مواليا ملغزاً في بدرة:

محبوتي وجهها يغني عن المقباس
إن تعكسوا تجدوا ضدين في الأجناس
واسمها ينقذ العاشق من الإفلاس^(٢)
هذا نفور وهذا يقبل الإيناس

وسألني جماعة من فضلاء أهل الأدب بالديار المصرية أن أنظم لهم لغزاً في كرمه، وأطلق لهم عنان القلم في ذلك فقلت:

أخبروني عن فاضل بأصول
أسبغ الله ظله فهو ظل
وأبو محجن يقول ادفنوني
كم إلينا قد مد كفاً ندياً
نقط الطل فوقه وضحته
ما تبدي لنا بعين ولكن
فرأينا للترك فيه اسم عين
إن تذكره أحرف الكل تبدي
أو تؤنثه يقبل الهاء في الحا
ويقل شطره لمن عابه مه
هو حلو وفيه مرّك يبدو

وفروع يسمو على كل فاضل
سابغ وافر مديد وكامل
تحتة إن أتاني الموت عاجل
فصير العيش أخضراً في المنازل
عند توقيعها به وهو عاطل^(٣)
حرفته وصحفته الأفاضل
بفتور الأجنان جاءت تغازل
كرماً والندی من الكف هاطل
ل ومن بعد ذا يرى وهو حامل
لك هم بالعكس عندي حاصل^(٤)
عند تحريف عكسه المتمائل

(١) الإبهام: الغموض، والأصبع الكبرى لليد.

(٢) المقباس: الذي ينار به الضوء ويؤخذ منه القبس من النور.

(٣) الوضحة: الجبهة من الوضوح - عاطل: غير محلى.

(٤) مه: اسم فعل أمر بمعنى اكفف، للزجر.

ويلا أول يرى فعل أمر وهو خشب مسندات ولكن ومن العز جسمه الغض يدمى وإذا ما فرطت فيه تراه ذو بياض وحمرة ولدا لي فتراه يوماً عقود بلخش وتراه يبدو عقود جمان وتراه طوراً سلافة راح وعلى عوده يغني علينا لك منه فواكه وشراب وحلاواته بها كل قلب وترى وصله بمصر قليلاً وتراه بذات عرق مقيماً وإذا قلت في المخيم بالغو ولقد جاءنا بعتب لطيف كيف لا والكتاب عن جنتيه فتفكه من حله بقطوف وأقم تحت ظله فهو لغز ثم دم للألغاز في الحل والعقد

واقلب الفعل منه فالأمر حاصل حاز نجلاً يبدو رقيق الغلائل^(١) وتراه من بعد ذا وهو ذابل لم يحل عنك وهو نعم الخصائل فرحاً راح سارياً في المفاصل نظمت سلكها بغير أنامل^(٢) ما لها غير ثغر حبي مماثل ولدر الحباب فيها حواصل^(٣) أعجمي به تهيج البلابل كل غض إليك تلقاه واصل كسروه والكسر للقلب حامل وهو بالشام لا يزال يواصل في نعيم وظله غير زائل ر رأيناك فيه أصدق قائل عند تصحيفه لمن هو هازل قد أتى مخبراً بكل الفصائل دانيات لكل آت وراحل^(٤) ظلّه ظاهر على كل قائل غني إذا أتى اللغز سائل

قلت: ومما ألحقوه بالألغاز، ما حكى عن بعض ولاة الطوف ببغداد: جاؤا إليه بسلامين غلب عليهما السكر، فقال لأحدهما من أبوك؟ فقال:

أنا ابن الذي لا ينزل الدهر قدره ترى الناس أفواجا إلى ضوء ناره
 وإن نزلت يوماً فسوف تعود^(٥) فمنهم قيام حولها وقعود

-
- (١) النجل: الابن - الغلائل: الثياب الرقيقة الناعمة.
 (٢) اللخش: لم نعثر لها على معنى وربما كانت إسماً للخرز أو الجواهر.
 (٣) الحباب: فقايع الماء - الحواصل: جمع حوصلة وهي بالنسبة للطائر كالمعدة بالنسبة للإنسان.
 (٤) الحل: الحلال - القطوف الدانية: القرية المتدلية.
 (٥) القدر: وعاء يستعمل للطبخ.

فأطلقه وعظم في عينه، وقال: هذا أبوه من بيت كبير، وقال للآخر: من أبوك؟ فقال:

أنا ابن من دانت الرقاب له ما بين مخزومها وهاشمها^(١)
تأتيه بالرغم وهي صاغرة يأخذ من مالها ومن دمها

فقال الوالي: ما أشك أن هذا أبوه كان ملكاً شجاعاً، فأمر بإطلاقهما فلما انصرفا كان في المجلس رجل نبيه فقال للوالي: الشاب الأول كان أبوه فوّالاً، والثاني كان أبوه حجاماً. فأعجب الوالي منه ذلك، فقال:

كن ابن من شئت واكتسب أدباً يغنيك مضمونه عن النسب^(٢)
إن الفتى من يقول ها أنا ذا ليس الفتى من يقول كان أبي

وبيت الشيخ صفي الدين على الألغاز في بديعته:

حرّان ينقع حر الكر غلته حتى إذا ضمه برد المقيّل ظمي^(٣)

الشيخ صفي الدين ألغز هنا في السيف فإنه يروى في حر الكر بالدماء، وإذا أدخل القراب الذي كنى به عن برد المقيّل، كان ظامئاً.

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعته. وبيت الشيخ عز الدين السرخسلي في بديعته:

إن المناقق لغز قلبه زغل وهو المعمى كمثل الأرزة الرزم^(٤)

قلت: الشيخ عز الدين، غفر الله له، لم يأت في بيته بغير الجناس المقلوب، في لغز وزغل، وأما التعمية بالأرزة الرزم، فما علمت ما المراد منهما حتى نظرت في شرحه، فوجدته قد قال: الرزم القائم والأرزة شجرة الصنوبر، فما ازددت في التعمية غير تعمية.

وبيت بديعتي أقول فيه عن النبي ﷺ:

وكلما ألغزوه حله لَسِينُ مذ طال تعقيده أزرى بفهمهم

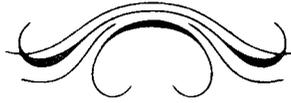
(١) دان: خضع.

(٢) مضمونه: معناه ويروى: محموده.

(٣) الحرّان: الشديد العطش - نقع: روى - الكر: المعركة - الغلة: شدة العطش. - ظمي: ظمىء: عطش.

(٤) الزغل: الخبث والانتواء عليه - الأرزة: شجرة من فصيلة الصنوبريات وهي شعار اللبنانيين وتتوسط علمهم. ومن الناس الأرزة: المنقبض - الرزم: الثابت القائم على الأرض..

قد تقدم، وتقرر أن أحسن التعمية في اللغز ما أسفر بعد الحل عن تورية بديعة في بابها، وهذا البيت أيضاً بديع في هذا الباب، فإن اللغز في الرمح والتورية في لسن، لأن لسان الرمح لسان القائل في التورية للتكليم، وفي التعقيد المشترك بين تعقيد اللغز وتعقيد الرمح، وأما المناسبة بين الحل والتعقيد، والإزاء بالفهم بعد ذكر الألغاز، فمحاسنها لا تخفى على حذاق الأدب. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.



ذكر سلامة الاختراع

وقده باختراع سالم الف يبدو بترويسه من رأس كل كمي^(١)
هذا النوع، أعني سلامة الاختراع: هو أن يخترع الشاعر معنى لم يسبق إليه،
كقول عنترة في وصف الذباب:

وخلا الذباب بها فليس بنازح غرداً كفعل الشارب المترنم
هزجاً يحك ذراعه بذراعه قدح المكب على الزناد الأجزم

هذا المعنى إذا تأمله المتأدب، وتخيله في فكره يجده غريباً في بابه، فإنه قال: إن
هذا الذباب لما خلا بهذه الروضة التي أعاد الضمير إليها في قوله: بها، صار هزجاً مترنماً
يحك ذراعه بذراعه من الطرب الذي اعتراه، فشبّهه عنترة برجل أجزم قاعد يقده زناداً
بذراعيه، والأجزم المقطوع اليد، والتقدير في البيت قدح المكب على الزناد.
انتهى.

ومنه قول ابن الرقاع، في تشبيه قرن الخشف:

يزجي أغن كأن إبسة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها^(٢)

وعدّوا قول ابن الرومي من المخترعات التي لم يسبق إليها، فإنه قال في تشبيه
الرقاقة حين يسطها الخباز:

(١) الترويس: الرأس المحدد. والألف: الرمح، وترويسه، سهمه - الكمي: البطل الشجاع.

(٢) يزجي: يرسل ويحث - الأغن: الذي في صوته غنة - الروق: القرن.

لم أنس بالأمس خبازاً مررت به يدحو الرقاقة وشك اللحم بالبصر^(١)
ما بين رؤيتها في كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر^(٢)
إلا بمقدار ما تنداح دائرة في صفحة الماء يرمى فيه بالحجر^(٣)

وأجمعوا على أن قول أبي الطيب من الاختراعات التي لم يسبق إليها، وهو قوله:
حلفت وفيأ إن رُدَدْتُ إلى الصبا لفارقت شيبى موجع القلب باكيا

قلت: أما أبو الطيب فإنه شن الغارات على معاني المتقدمين كثيراً، وما خفي ما أورده عليه الحاتمي في الحاتمية، وكان قد عنّ لي أن أورد، في هذا الشرح المبارك، له ولمن تقدمه ولمن تأخر عنه جملة مستكثرة مما وقع لهم من معانيهم، من سلامة الاختراع بالنسبة إلى اطلاعي، وخفت أن يقع اختياري على معنى أعده لصاحبه من سلامة الاختراع، فيأتي من تبحر في اطلاعه على معنى له لغيره ممن تقدمه، فأضربت عن ذلك وجنحت إلى ذكر ما وقع لي في نظمي، من سلامة الاختراع التي لم أسبق إليها، ولا حام طائر فكر غيري عليها؛ فمن ذلك قولي من قصيدة رائية:

وحمرة الخد أبدت خيط عارضه فخلت كأس مدام وهو مشعور^(٤)
ومذ بدت نسمات الثغر باردة بدا بإغضاء ذاك الجفن تكسير
وقلت منها في وصف القلم:

له يراع سعيد في قلبه إن خط خطأ أطاعته المقادير
ومنها:

وأشقر يده البيضاء غرته له إلى الرزق فوق الطرس تيسير^(٥)
بل أسمر عينه السوداء يلحظها وهذب أجفانها تلك المشاعير^(٦)

(١) يدحو: يدور- الرقاقة: الرغيف ويروي: ما أنسى لا أنسى خبازاً مررت به.

(٢) قوراء: لم تستكمل دورتها بعد.

(٣) انداح: استدار.

(٤) مشعور: مكسور دون انفصال أجزائه وتبعثرها.

(٥) الطرس: ما يكتب عليه.

(٦) المشاعير: الخطوط الدقيقة.

ومثله قولِي من القصيدة:

كذا محابره سود العيون فإن
ومنه قولِي من قصيدة ميمية:

أثرت خلت ثوب خز منمنم^(١)
حين قابلت خده بدموعي
ومنه قولِي في وصف حماة من قصيدة طائية:

ينظم بالشطين در ثمارها
وقد مد ذاك النهر ساقاً مدملجاً
لويثنا خلاخيل النواعير فالتوت
وقلت من قصيدة أخرى:

ودولابه كالقلب يخفق في الصدر
وعاص رحيب الصدر قد خر طائعاً
وقلت من قصيدة أخرى:

أضحى بهاتيك الثغور مطيباً
وهزرت فيه كل عود أراكية
والمعنى المخترع قولِي بعده:

ودخلت كل خباء زهر قد غدا
ومن اختراعاتي التي لم أسبق إليها، وسارت الركبان بها قولِي في المدائح المؤيدية:
فرج على الملعجون نظم عسكرياً
فانبت منه زحافه في وقعة
وجميع هاتيك البغاة بأسرهم
والمعنى المخترع فيها قولِي:

فكأن هاتيك السروج مقابر
وعلى ظهور الخيل ماتوا خيفة

(١) الخز: الحرير - المنمنم: المزركش.

(٢) العاصي: نهر العاصي وهو نهر ينبع من لبنان ويصب في سوريا - السمط: العقد.

(٣) المدملج: الذي يليس الدمليج وهو من الأساور والحلى.

(٤) مطنباً: مرفوعاً. أو مشدوداً بالطنب وهي جبال وأعمده الخيمة.

(٥) الملعجون: الورق اللزج.

(٦) انبت: انقطع - الزحاف: في المصطلح العروضي تغيير يلحق ثاني السبب من التفعيلة.

ومنها في سلامة الاختراع قولِي :

إذا مددت يراع رمحك ماله
ونعال خيلك كالعيون ومالها
ومنه قولِي متغزلاً في ملبح مشطوب :

بالصدع أبدى شطبة
سألته عن أمرها
قلتم بدا لي عارض
جئت شطبت فوقه
من شكله محوِّط^(٢)
فقال زاد اللغظ^(٣)
مشكل منقط
وقلت هذا غلط

ولي من قصيدة بديعة مشتملة على وصف متزهات حماة المحروسة :

والنبت يضبطها بشكل معرب
والمعنى المخترع قولِي بعده :

والغصن يحكي النون في ميلانه
وقلت في مطلع قصيدة :

ألف القد مدها لي بعزه
وقلت من قصيدة فائية :

وعارضه في الوضع لأمّ وصدغه
إذا مدها من فوقه تتكوف^(٥)

ولعمري، إن الشرح قد طال، ولولا خشية الإطالة لذكرت من هذا الباب قدراً وافياً، بالنسبة إلى ما أدى إليه اجتهادي، وقلت: إنني مخترعه، وبشهادة الله إنني ما تطفلت بالنسبة إلى علمي على معنى لغيري، اللهم إلا أن تكون أحكام الموارد قد حكمت عليّ فالحكم لله العلي الكبير.

(١) الدارعين: لابسى الدروع - المحابر: جمع محبرة وهي الدواة.

(٢) الشطبة: أثر الجرح - محوِّط: مرقى بالرقى لإبعاد الضرر عنه.

(٣) اللغظ: القيل والقال.

(٤) التلحين: من الألحان بمعنى الزقزقة والتغريد ومن اللحن وهو الخطأ اللغوي وكذلك: معرب: مبين

واضح وحسب قواعد الإعراب.

(٥) تتكوف: تتجمع وتستدير.

وبيت الشيخ صفي الدين في بديعته على سلامة الاختراع قوله:

كادت حوافرها تدمي جحافلها حتى تشابهت الأحجال بالرثم^(١)

جحفلة الفرس شفته العليا، والرثم بياض شفته، وكأنه يقول: إن هذه الفرس لسرعة جريانها اتصلت أحجالها إلى شفتها فتشابهها في البياض.

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي رحمه الله في بديعته قوله:

سلامة لاختراعي في علا هممي اسمي وفعلي كحرف عند رسمهم

وقال في الشرح: إسمي علا، وفعلي علا، والحرف المشبه بهما على هذا المعنى على الذي هو معدود من حروف الجر، قلت: لو ألحق الشيخ عز الدين ما قاله هنا بالألغاز لكان أقرب وأليق، فإن سلامة الاختراع وغرابة المعنى عنه بمعزل.

وبيت بديعيتي تقدمه قولي في الألغاز بالرمح بقولي:

وكلما ألغزوه حله لسن مذ طال تعقيده أزرى بفهمهم

ولم أخرج عن الرمح بل قلت مخترعاً فيه اختراعاً بعد من المرقص والمطرب، بعد بيت الألغاز، وهو:

وقده باختراع سالم ألف يبدو بترويسه من رأس كل كمي^(٢)

تقدم قولي: أنه كان عن لي أن أورد هنا، من سلامة الاختراع للمتقدمين والمتأخرين، جمل مستكثرة ولم يصدني عن ذلك إلا الخيفة ممن تبحر علي في المطالعة، فيورد ما أثبت من المعنى المخترع لزيد، أنه مسبوق إليه من عمرو، فأردت أن أخلص من هذا الاعتراض، وأورد هنا نبذة من مخترعات ابن حجاج، فإنه منوال ما فصح عليه غيره، وقد تقدم قول الشيخ جمال الدين بن نباتة في ديباجة كتابه المسمى «بتلطف المزاج من شعر ابن الحجاج»، وأما أشعار أبي عبد الله الحسيني بن حجاج، فإنه أمة غريبة تبعث وحدها، وذرية تبلغ باتقان اللهورشدها، فمن ذلك قوله:

يا ديمة الصفع صبي على قفا المتنبي

(١) الجحفلة: شفة الحيوان ذي الحافر - الأحجال: مفردها حَجَل وهو بياض يكون في قوائم الخيل - الرثم: بياض الشفة عند الخيل.

(٢) الألف: الرمح - الترويس: السهم - الكمي: البطل الشجاع.

وأنت يا ربح بطني
يا قفاه تقدم
وإن صفعتك ألفا
وقد تعشقت معني
يا لحيه هي عن أهـ
قومي ادخلي جوف بطني
وأنت عندي مكان
كأنما باب سور مبعرها
كأنما الأير فوق عصعصها
ومنه قوله:

جارية قد سمطت فيشتي
أخذت في الليل مجس استها الـ
أوجب إخراج دم فاسد
لبظرها الأسود ذنية
خطبت بالأمس عليها استها
وبات أيري رافضي الخصى
وقال أيضاً:

قوموا افتحوا باب سرمها ولجوا
قوموا فعين استها لرؤيتكم
إن لم يسعكم ممر عصعصها
وفي استها خاتم للولبه
إذا الخصي صافح استها خريت
وقال أيضاً:

بأبي من تمكنت من فؤادي
قدها في القياس من قوم ياجو

على عذارينه هبي
واقعد قليلاً بجنبي
فلا تقولن حسبي
طرطورك المتعبي^(١)
يا لحيه هي عن أهـ
فقد وقعت بقلبي
السواد من عين صلبي
عنقود كرم مزيب العنب^(٢)
راكب حمارة على قتب
بوهج حمى سرمها الصالب^(٣)
حامي وقد نامت إلى جانبي
من عين قيفال استها الضارب^(٤)
تصلح للقاضي أبي السائب
فأنعمت للخاطب الراغب
يعطي قفا مبعرها الناصب
فكل عضو من استها شرح
بالليل فوق الفراش تختلج
فشم بالطول تحته أزج
طوق محلي وفصه سبج^(٥)
تحتي وبالببيض تعمل العجج
فأنا الدهر كله في اجتهاد
ج ولكن بظرها قوم عاد

(١) الطرطور: من حلى النساء: قلنسوة دقيقة طويلة ويقال: طنطور بالنون.

(٢) الميعر: مكان خروج البعر والبعر هو فضلات الحيوانات أو روثها.

(٣) الفيشة: الحشفة من الأير- السرم: طرف المعى الغليظ أو مكان خروج البراز- الصالب: الحمى الشديدة الحرارة.

(٤) القيفال: وريد في الجانب الوحشي من العضد.

(٥) السبج: خرز أسود.

وقفت لي فبستها من قعود بوسة بردت غليل فؤادي^(١)
ولها شعرة ولا زيد البحر بياضاً وعصص كالمداد
وحر أشمط العذارين الحي فيه سمت النساك والعباد
بظرها فوقه كدنية الحما كم يوم انحداره في السواد
ما توهمته وحقك إلا بعض أصحابنا بني حماد
يوم حاملتها فلما أحست في خراها بمثل شرط الفصاد^(٢)
جذبت لحيتي وقالت أيا شيخ ترى أنت كافر بالمعاد
أنت ممن يبغي خلافاً على الله ويسعى في أرضه بالفساد
قلت كفي إنا وجدنا على هذا أيور الأبناء والأجداد
عرفيني وخبريني متى كا نت سيوف الخصي بلا أغماد

ومن غياته في هذا الباب قوله:

مولاي يدعوك شيخ لا وقار له حتى القيامة سكران ومخمور
ما فيه للشيب إكرام فيزجره عن الخمر ولا للسُن توقير
يقول بالأمرد المصقول عارضه مقسماً فيه تأنيث وتذكير
وبالفتاة التي تنور مدخلها بعد العشا لشوى الخصيان مسجور^(٣)
وبالعجوز التي في أصل عنبلها غداة بعث المخاصي ينفخ الصور
زبال زرع استها يسقى بدالية وبظرها واقف في الزرع ناطور^(٤)
لها حر أشمط قد شاب مفرقه عليه بظر طويل فيه تدوير
كأنه شاعر قد جاء من حلب شيخ على رأسه المحلوق طرطور^(٥)

هذا الاستطراد في البيت الأخير استطرده فيه إلى أبي الطيب، وهو في غاية اللطف والظرف، وقد تقدمت إشارته إلى طرطوره في الأبيات المتقدمة البائية، ومن اختراعاته في هذا الباب قوله:

أحب من الكس تقبيله إذا كان في شفتيه لعس^(٦)

(١) البوسة: القبلة.

(٢) الشرط: البضع والجرح - الفصاد: عملية إخراج الدم الفاسد من العروق.

(٣) مسجور: محمى.

(٤) الزبال: ما تحمله النملة - الدالية: الناعورة - البظر: نتوء في فرج المرأة.

(٥) الطرطور: القلنوسة.

(٦) الكس: فرج المرأة - اللعس: سواد مستحسن في باطن الشفة.

نقرت أنفه بقمدي عطس^(١)
إذا مسها النيك ضيق النفس
يعلق من خصيته جرس

ويعجبني منه أنسى إذا
وواسعة السرم تشكو استها
فتاة لدرب استها حارس

ويعجبني قوله من قصيدة:

جمعوا لي من تحتها كف نبق^(٢)
ن إذا لكته تحمض شدقي^(٣)

في إستها سدره إذا نفضوها
وهو نبق بلا نوى أسود اللو



(١) القمد: الطويل الضخم العنق.

(٢) النبق: ثمرة شجر الدر أو دقيق يخرج من لب جذع النخلة.

(٣) لآك: مضغ.

ذكر التفسير

وصحبه بالوجوه البيض يوم وغى كم فسروا من بدور في دجى الظلم
هذا النوع، أعني التفسير، من مستخرجات قدامة، وسماه قوم التبيين، وهو أن يأتي
المتكلم أو الشاعر في بيت بمعنى لا يستقل الفهم بمعرفة فحواه دون تفسيره، إما في
البيت الآخر، أو في بقية البيت، إن كان الكلام يحتاج إلى التفسير في أوله. والتفسير يأتي
بعد الشرط وما هو في معناه، وبعد الجار والمجرور، وبعد المبتدأ الذي يكون تفسيره
خبره، بشرط أن يكون المفسر مجملاً والمفسر مفصلاً. فمن بديع التفسير الذي وقع في
بيت واحد قول بعض المغاربة:

صالوا وجادوا وضأوا واحتبوا فهم أسد ومزن وأقمار وأجبال

فإنه أحسن الترتيب في عجز البيت كله، وجعل المفسر في الصدر، بحيث أتى كل
قسم مستقلاً بنفسه.

ومثال ما وقع من التفسير بعد الحروف المتضمنة معنى الشرط، قول الفرزدق:

لقد جئت قوماً لو لجأت إليهم طريد دم أو حاملاً ثقل مغرم
لألفيت منهم معطياً ومطاعناً وراءك شزراً بالوشيج المقوم^(١)

والفرزدق ما راعى حسن الترتيب في بيته، فإن عندهم عدم الترتيب مع حسن
الجوار، وقرب الملائم، لا ينقص حسن الكلام البليغ. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿يوم

(١) ألفيت وجدت - الشزرا: النظر بطرف العين - الوشيج المقوم: الرمح المستقيم.

تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودّت وجوههم^(١): ثم قال سبحانه وتعالى بعد ذلك: ﴿وأما الذين ابيضت وجوههم﴾^(٢).

ومن الأمثلة الواقعة بعد الجار والمجرور في باب التفسير، قول شرف الدين القيرواني:

لمختلفي الحاجات جمع يبابه فهذا له فن وهذا له فن
فللخامل العليا وللمعدم الغنى وللمذنب العقبي وللخائف الأمن

ومما جاء من التفسير بعد المبتدأ، قول ابن الرومي:

آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم في الحادثات إذا دجون نجوم
منها معالم للهدى ومصباح تجلو الدجى والأخريات رجوم^(٣)

قالوا إن هذا أبلغ ما وقع في التفسير من الأمثلة الشعرية، فإنه راعى فيه الترتيب أحسن مراعاة.

ومن بديع هذا النوع قول محمد بن وهيب في المعتصم:

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبو إسحق والقمر

ومثله في الحسن قول محمد بن شمس الخلافة:

شيئان حدّث بالقساوة عنهما قلب الذي يهواه قلبي والحجر
وثلاثة بالجود حدّث عنهم البحر والملك المعظم والمطر

ومن معجز التفسير، ما جاء في الكتاب العزيز، وهو قوله تعالى: ﴿والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع﴾^(٤) فذكر سبحانه الجنس الأعلى أولاً، حيث قال: كل دابة فاستغرق أجناس كل ما دب ودرج، ثم فسر سبحانه هذا الجنس، بعد ذلك، بالأجناس المتوسطة والأنواع، حيث قال: فمنهم ومنهم ومنهم، مراعيًا للترتيب، وذلك أنه قدم ما يمشي على غير آلة لكون الآية سبقت لبيان القدرة وتعجب السامع، وما يمشي بغير آلة أعجب مما يمشي

(١) آل عمران، ١٠٦/٣.

(٢) آل عمران ١٠٦/٣.

(٣) رجوم: ظنون لا دليل على صحتها.

(٤) النور، ٤٥/٢٤..

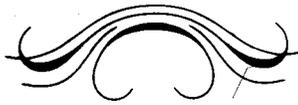
بآلة، فلذلك كان تقديمه ملائماً لمقصود الآية الشريفة، ثم ثنى بالأفضل فأتى بما يمشي على رجلين وهو الأدمي والطيور لتمام خلق الإنسان وكمال صورته ولما في الطير من عجيب الطيران الدال على الخفة مع ما فيه من الكثافة الأرضية، وثلث بما يمشي على أربع لأنه أحسن الحيوان البهيمي وأقواه، فتضمنت هذه الكلمات، التي هي بعض آية، عدة من المحاسن، وهي صحة التفسير وصحة التقسيم مع مراعاة الترتيب والإشارة وائتلاف اللفظ مع المعنى وحسن النسق. والفرق بين التفسير والإيضاح: أن التفسير تفصيل الإجمال، والإيضاح رفع الإشكال، لأن المفسر من الكلام لا يكون فيه إشكال.

وبيت صفي الدين على التفسير قوله:

هم النجوم بهم يهدى الأنام وينجاب الظلام ويهمي صيب الديم^(١)
والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي قوله:
ذكر الإمام وابنيه يفسره عليّ والحسن أكرم بذكرهم
الشيخ عز الدين ما أفادنا في التفسير هنا شيئاً.

وبيت بديعيتي أقول فيه، عن الصحابة رضي الله عنهم أجمعين:

وصحبه بالوجه البيض يوم وغى كم فسروا من بدور في دجى الظلم
هذا هو التفسير الذي لا يستقل الفهم بمعرفة فحواء، في الشطر الأول من البيت،
إلا بتفسيره من الشطر الثاني على الترتيب. وأما ذكر الإمام عليّ كرم الله وجهه، وذكر
ولديه عليهما السلام في بيت الشيخ عز الدين رحمه الله، فإنه غير محتاج إلى تفسير والله
أعلم.



(١) انجاب: انكشف - يهمي: يمطر بغزارة - الديم: الغيوم.

ذكر حسن الاتباع

ذكره يطربهم والسيف ينهل من أجسامهم لم يشن حسن اتباعهم^(١)
هذا النوع، أعني حسن الإلتباع، هو أن يأتي المتكلم إلى معنى اخترعه الغير فيحسن اتباعه فيه، بحيث يستحق بوجه من الوجوه الزائدة التي توجب للمتأخرين استحقاق معنى التقدم، إما باختصار لفظه، أو قصر وزن، أو عذوبة لفظ، أو تمكين قافية، أو تميم نقص، أو تحلية من البديع توجب الاستحقاق، كاتباع أبي نواس جريراً في قوله:

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

فنقل أبو نواس المعنى من الفخر إلى المدح بقوله:

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

فزاد على جرير زيادات، منها: قصر الوزن، وحسن السبك، وإخراج كلامه من الظن إلى اليقين، وأيضاً فإن ذكر العالم، أعم من ذكر الناس في بيت جرير.

وعدوا من الشواهد الحسنة في حسن الاتباع، قول منصور النميري، في زينب أخت الحجاج وأترابها، وهو:

وهن اللواتي إن برزن قتلنتي وإن غبن قطعن الحشا حسرات

(١) شان: عاب.

فأحسن اتباعه ابن الرومي بقوله:

ويلاه إن نظرت وإن هي أعرضت وقع السهام ونزعهن أليم
قلت: وقع السهام ونزعهن، بعد ويلاه، في بيت ابن الرومي، تركت بيت النميري
أطلاً بالية.

وقال أبو عبادة البحرني:

أخجلتني بذات يديك فسودت ما بيننا تلك اليد البيضاء
صلة غدت في الناس وهي قطيعة عجباً وبراً راح وهو جفاء
وأحسن أبو العلاء وقال:

لو اختصرتم من الإحسان زرتكم والعذب يهجر للإفراط في الخصر
لأنه استوعب معنى البيتين في صدر بيته، وأخرج العجز مخرج المثل السائر، مع
الإيجاز والإيضاح وحسن البيان.
وقال عنتره:

إني امرؤ من خير عبس منصباً شطري وأحمي سائري بالمنصل^(١)
فأحسن اتباعه منصور الفقير في شريف نسبه، وكان شرفه من جهة أبيه لا من جهة
أمه، بقوله:

إن فاتني بأبيه فلم يفتني بأمه^(٢) ورام شتمي ظلماً سكت عن نصف شتمه

فإن هذا الفقيه أحسن غاية الإحسان، من وجوه: أحدها الإيجاز، فإنه عمل معنى
عنتره الذي جاء به في بيت تام من الكامل، في بيت من الممجث، وأتى بالمطابقة
المعنوية فأما قوله سكت عن نصف شتمه، ففيه من التأدب الديني مع رسول الله ﷺ،
والاحتراس، ما يزيد على الوصف.

وقال ابن الرومي:

تخذتكم درعاً حصيناً لتدفعوا نبال العدا عني فكتتم نصالها

(١) المنصل: السيف.

(٢) لم يفتني: بالقرابة.

على حين خذلان اليمين شمالها
ذماماً فكونوا لا عليها ولا لها
وخلوا نبالي للعدا ونبالها

عوناً فكتم عون كل ملمة
نظر العدو ومقاتلي من جنتي^(١)
نفض الأنامل من تراب الميت

فكانوها ولكن للأعادي
فكانوها ولكن في فنؤادي
لقد صدقوا ولكن من وداي

لكن فم الحال عني غير مسدود

أهجي لكل مقصر عن منطقي

خليق الثنايا بالعدوية والبرد^(٢)
كما شيم برق في السحابة من بعد^(٣)

بماء الندى في آخر الليل عابق^(٤)
كما شيم في أعلى السحابة بارق

وكنت أرجي منكم خير ناصر
فإن كنتم لا تحفظون مودتي
قفوا وقفة المعذور عني بمعزل
فأحسن ابن سنان الخفاجي اتباعه بقوله:

أعددتكم للدفاع كل ملمة
وتخذتكم لي جنة فكأنما
فلأنفضن يدي يأساً منكم
ويعجبني هنا قول القائل:

وأخوان حسبتهم دروعاً
وخلتهم سهاماً صائبات
وقالوا قد صفت منا قلوباً
وقال ابن الرومي:

سد السداد فمي عما يريكم
وأحسن زكي الدين بن أبي الأصبع اتباعه فقال:

هبني سكت فما لسان ضرورتي
وقال سليك بن سلعة:

وتبسم عن ألمى اللثاة مفلج
وما ذفته إلا بعيني تفرساً
وقال نصيب:

كأن على أنيابها الخمر شجها
وما ذفته إلا بعيني تفرساً

(١) أي منكم عرف العدو كيف يقتلني - والمقاتل: الأمكنة التي إذا أصيب فيها الإنسان قتل.
(٢) ألمى: أسمر - اللثاة: مفردا لثة وهي مكان انغراز الأسنان في الفم - مفلج: بين أسنانه فسحات متساوية.

(٣) التفرس: الثبت بالنظر - شيم: انتظر.

(٤) شجها: الخمرة مزجها بالماء - العابق: اللبق الظريف.

وأحسن بشار بن برد اتباعهما بإيجازه، وقال:

يا أطيب الناس ريقاً غير مختبر
إلا شهادة أطراف المساويك^(١)
وقال السموأل:

يقرب حب الموت آجالنا لنا
وتكرهه آجالهم فتطول
فأحسن بشار اتباعه، بزيادة محاسن، فقال: أفناهم الصبر إذ أبقاهم الجزع.
وقال الأسود ابن يعفر:

يسعى بها ذو توأمين كأنما
قنأت أتامله من الفرصاد^(٢)
وأحسن أبو نواس إتباعه، بزيادة من المحاسن، وقال:

تبكي فتذري الدمع من نرجس
وتلطم الورد بعناب
استوفى أبو نواس المعنى في نصف بيت، وأخذه الوأواء الدمشقي من أبي نواس،
وزاد عليه زيادة عجيبة، بقوله:

وأمرت لؤلؤاً من نرجس فسقت
ورداً وعضت على العناب بالبرد
وقال مسلم بن الويد:

تجري محبتها في قلب عاشقها
مجرى المعافاة في أعضاء منتكس^(٣)
فأحسن أبو نواس اتباعه فقال:

فتمشت في مفاصلهم
كتمشي البرء في السقم
وجميع ذلك مأخوذ من قول بعض الملوك باليمن:

منع البقاء تقلب الشمس
تجري على كبد السماء كما
وتلوعها من حيث لا تسمي
يجري حمام الموت في النفس

نقل أبو هلال العسكري في «الصناعتين» عن الصولي أنه قال: حدثني أبو بكر بن
هارون بن عبد الله المهلبى، قال: كنا في حلقة دعبل الشاعر، فجرى ذكر أبي تمام،

(١) المساويك: مفردا مساوك وهو غصن شجر يستاك به أي تنظف به الأسنان.

(٢) قنأ: احمر كثيراً - الفرصاد: التوت أو صبغ أحمر، أو نوى العنب.

(٣) المعافاة: البرء - المنتكس: الذي يعود إليه المرض بعد تماثله للشفاء.

فقال دعبل: كان يتبع معانيً فيأخذها، فقال له رجل في مجلسه: مثل ماذا أعزك الله؟
فقال: قلت:

وإن امرأ أسدى إليّ بشافعٍ إليه ويرجو الشكر مني لأحمق
فأخذه أبو تمام، وقال:

وإذا امرؤ أسدى إليك صنيعه من جاهه فكأنها من ماله
فقال الرجل: أحسن والله! فقال دعبل: كذبت والله، قبحك الله. فقال الرجل: إن
كان سبقك بهذا المعنى وتبعته فما أحسنت، وإن كان أخذه منك فقد أجاد فصار أولى به
منك على الحالين، فغضب دعبل وقام.
وقال بشار:

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج^(١)
فأحسن اتباعه سلم الخاسر، وقال:

من راقب الناس مات غمًا وفاز باللذة الجسور
فلما سمع بشار هذا البيت قال: قد ذهب ابن الفاعلة بيتي.

وممن زاد على المتقدمين بحسن سبكه وعذوبة لفظه، ابن المعتز رحمه الله بقوله:

ولاح ضوء هلالٍ كاد يفضحه مثل القلامة قد قدت من الظفر^(٢)
وهو مأخوذ من قول الأول:

كأن ابن ليلته جانح إلى مسقط الأفق من خنصر^(٣)
وقال أبو لعتاهية:

كم نعمة لا تستقل بشكرها لله في طي المكاره كامنه
فأحسن أبو تمام اتباعه فقال:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلي الله أدنى القوم بالنعمة

(١) الفاتك: الشجاع - اللهج: المثابر.

(٢) القلامة: قصابة الظفر - قُد: قُطِع.

(٣) ابن ليلته: الهلال مضت عليه ليلة واحدة بعد المحاق - الخنصر: الأصبع الصغير.

فزاد عليه، إلا أنه أتى بعكس المعنى، وما يعرف للمتقدمين معنى شريف، إلا نازعهم إياه المتأخرون وطلبوا الشركة معهم فيه، إلا قول عترة: وخلا الذباب بها فليس بنازح^(١). فإنه ما نوزع في هذا المعنى، على جودته، وقد رامه بعض المجتهدين فافتضح، وتقرر ذلك في بيت سلامة الاختراع.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي، على حسن الاتباع قوله:

ينازع السمع فيها الطرف حين جرت فيرجعان إلى الآثار في الأكم^(٢)

بيت الشيخ صفي الدين مأخوذ من قول القائل ::

وطرف يفوت الطرف في جريانه ولكن للأسماع فيه نصيب

والعميان ما نظوا هذا النوع في بديعيتهم وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعته قوله:

والجزع حن إليه بعد فرقه حسن اتباع لتلك الأربع الحرم

ذكر الشيخ عز الدين، في شرحه، أنه اتبع الفرزدق في قوله، في مديح الإمام زين العابدين علي بن الحسين بن علي عليهما السلام، وهو هذا:

هذا ابن من تعرف البطحاء وطأته والركن يعرفه والبيت والحرم

وبيت بديعيتي تقدمه قولي، في حق الصحابة رضي الله عنهم أجمعين:

وصحبه بالوجوه البيض يوم وغى كم فسروا من بدور في دجى الظلم

ثم إنني قلت بعده، في حسن الاتباع عن الصحابة:

ذكراه يطربهم والسيف ينهل من أجسامهم لم يشن حسن اتباعهم

هذا المعنى سبقني إليه الشيخ شرف الدين بن الفارض، وكنت في صغري أترنم به وهو قوله:

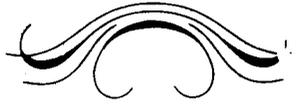
فلي ذكرها يحلو على كل صيغة ولو مزجوه عدلي بخصام

الشيخ شرف الدين قرر: إن ذكر محبوبه يحلو، ولو كان في محل خصام من

(١) نازح: مغادر.

(٢) الأكم: المكان الملتف الأشجار المرتفع.

العذال، وقولي أبلغ في حق الصحابة رضي الله عنهم، لأن ذكر النبي ﷺ، يطربهم
والسيوف تنهل من أجسامهم، وأين الطرب في هذا المقام؟ من يحلو في ذلك المقام؟ وأين
المخاصمة بالألسن من التكليم باللسنة السيوف؟ والزيادة التي ما على حسنها من مزيد،
قولي: لم يشن حسن اتباعهم، فإن شدة الحرب وتكليم النفوس، ما شان حسن السيوف
وذهاب الأنفس، ما شان حسن اتباعهم للنبي ﷺ يوماً من الأيام. والتورية، في حسن
الاتباع الذي هو المراد من تسمية النوع، محاسنها لا تخفى على المنصفين من أهل
الأدب، والله أعلم.



ذكر المواردة

كأنما الهام أحداق مسهدة ونومها واردته في سيوفهم^(١)
هذا النوع، أعني المواردة: هو أن يتوارد الشاعران على بيت، أو بعض بيت،
بلفظه ومعناه: فإن كان أحدهما أقدم من الآخر وأعلى رتبة في النظم حكم له بالسبق،
وإلا فلكل منهما ما نظمه كما جرى لامرئ القيس وطرفة بن العبد في معلقتهما، وهو
قول امرئ القيس:

وقوفاً بها صحتي عليّ مطيهم يقولون لا تهلك أسي وتجمل
قال طرفة: أسي وتجلد. فلما تنافسا في ذلك وأحضر طرفة بن العبد خطوط أهل
بلده في أي يوم نظم هذا البيت، كان اليوم الذي نظما فيه واحداً. وقد يقع مثل ذلك أو
دونه في بيت يخالف وزن البيت الأصلي.
وبيت الشيخ صفي الدين على المواردة قوله:

تهوى الرقاب مواضيهم فتحسبها حديدها كان أغلالاً من القدم
وبيت الشيخ صفي الدين ذكر في شرحه أنه نظم بيتاً من جملة أبيات، وهو:
تهوى مواضيك الرقاب كأنما من قبل كان حديدها أغلالاً
ثم ذكر أنه سمع بعد ذلك بيتاً لا يعلم قائله وهو:

تهوى الرقاب مواضيه فتحسبها تود لو أصبحت أغلال من أسرا
فأسقط البيت الذي له، فلما تعددت عليه الأنواع في نظم البديعية، ووصل إلى

(١) الأحداق: جمع حدقه وهي استدارة العين - والهام: الجباه.

الموارد، ألقائه الضرورة إلى نظمها، ليكون البيت المنظوم منتظماً في سلك شواهد
بديعته، بحيث لا تخلو من هذا النوع.

وبيت الشيخ عز الدين في بديعته قوله:

بيت المدائح تستوفي علاه ولو تواردت في مديح غير منصرم
الشرط الأول من هذا البيت، ذكر الشيخ عز الدين، في شرحه، أنه توارد هو وأبو
الطيب المتنبى عليه.

والعميان لم ينظموا هذا النوع في بديعيتهم. ومعنى الموارد في بيت بديعيتي أنني
كنت مدحت تمر بغناء الأفضلي الشهير بمنطاش، ورياحين الشبية غضة، ونشوة الابتداء
تحت على دور كاسات الأدب، وكان المشار إليه إذ ذاك كافل المملكة الحموية، بقصيدة
رائية سارت ببديع محاسنها الركبان، واحتوت على معان لم أسبق إليها، وتمثلت في
غصون نظمها بين يدي شيخي، وهو مولانا قاضي القضاة علاء الدين أبو الحسن على
القضامي الحنفي رحمه الله، وقد علق بخاطري منها أبيات، فأنشدته في ذلك الوقت ما
علق بخاطري، وهو قولي منها:

له مطالعة في الحرب حين يرى	دم العدا فوق طرس الأرض قد سطرا
إن راسل القوم انشا في رسائله	سجعات ضرب بها الهامات قد نثرا
كتابه السيف والخطي له قلم	والرسل أسهم حتف توضح الخبرا ^(١)
إن كان قد نظم الأعدا مكيدتهم	فقل لهم إنه من قبلهم شعرا
لأنه ببديع الحسن لف لنا	شمالاً ولكن لأرقاب العدا نشرا
وخط من فوق ألواح الصدور لهم	باباً من الخوف في أحشائهم وقرا
وصار يكتب بالهندي ويعجم بالـ	خطي فعل شجاع قد قرا ودرى ^(٢)
تراه بالرمح بدرأ حاملاً غصناً	وبالتريسة غصناً حاملاً قمرا ^(٣)
إن جس عوداً لضرب مال سامعه	والخيل يرقصها إن حرك الوترا

وصار^(٤) كلما أنشدته بيتاً من هذه الأبيات يترنم كثيراً، ويرسم لي بإعادته حتى
انتهيت إلى قولتي:

(١) الخطي: الرمح.

(٢) الهندي: السيف، ويكتب بالهندي: يفرض بالسيف - يعجم: يزيل الإبهام، ويختبر - قرا: قرأ.

(٣) التريسة: الترس وهو ما يتقى به السيف.

(٤) في الأصل: صرت.

كأنما الهام أحداق أضرب بها سهد وأسيافه في الحرب طيب كرى

فلما سمع هذا البيت لم يترنم كما ترنم للأبيات التي قبله، وقال: أبو الطيب هو أبو عذرة هذا المعنى ولكن أحسنت الاتباع، بقولك: أضربها سهد، وبقولك في الشطر الثاني: طيب كرى، فإن فيهما زيادتين حسنتين، فالتزمت له بيمين أنني ما ملكت ديوان المتنبي يوماً من الأيام، ولا طالعت عند الغير، وما كنت في ذلك الوقت أطلع غير ديوان الشيخ جمال الدين بن نباتة، وديوان الشيخ صفى الدين الحلبي، فتعجب مولانا قاضي القضاة من ذلك وبالغ في الجبر والثناء، ولكنني أسقطت البيت من القصيدة، خوفاً من قدح حاسد، فلما وصلت بديعيتي إلى نوع المواردة ألجأت الضرورة إلى نظمه في سلك أنواعها.

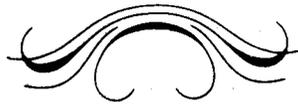
وبيت المتنبي الذي حصلت المواردة به قوله:

كأن الهام في الهيجا عيون وقد طبعت سيوفك من رقاد^(١)

وبيت بديعيتي:

كأنما الهام أحداق مسهدة ونومها وارتته في سيوفهم

والترشيح أيضاً هنا ظاهر في قولي: مسهدة، والترشيح، في تورية المواردة، بتسمية النوع وزيادة المعنى، غير خاف على أهل الأدب.



(١) الهام: جمع هامة وهي الجبهة من الإنسان.

ذكر الإيضاح

هذا وتزداد إيضاحاً مخافتهم في كل معترك من بطش ربهم
هذا النوع، أعني الإيضاح: هو أن يذكر المتكلم كلاماً في ظاهره لبس، فلا يفهم
من أول وهلة، حتى يوضحه في بقية كلامه، كقول الشاعر:

يذكرك الخير والشر كله وقيل الخنى والحلم والعلم والجهل^(١)
فألقاك عن مكروها متنزهاً وألقاك في محبوبها ولك الفضل
معنى البيت الأول ملتبس، وما ذاك إلا أنه يقتضي المدح والذم ولكنه أوضحه بقوله:
فألقاك عن مكروها متنزهاً وألقاك في محبوبها ولك الفضل

وقد يكون الإيضاح في الوصف الذي لا يتعلق به مدح ولا هجاء، وذلك أن يخبر
المتكلم بخبر واحد عن شيء واحد يحصل فيه الإشكال، فيوضح ذلك الإشكال بما يفهم
منه كشف اللبس عن الحد الأول، كقول ابن حيوس:

ومقرطق يغني النديم بوجهه عن كأسه الملقى وعن إبريقه^(٢)
فعل المدام ولونها ومذاقها في مقلتيه ووجنتيه وريقه

فإنه لو اقتصر على البيت الأول أشكل الأمر من جهة الوجه، فإنه وإن كان حسناً لا
يغني النديم عن الخمر، فأزال اللبس في البيت الثاني وأوضحه، وقد تقدم وتقرر الفرق
بين الإيضاح والتفسير.

(١) الخنى: القول الفاحش.

(٢) المقرطق: لابس القرطق وهو ثوب فارسي مزركش.

وبيت الشيخ صفي الدين قوله:

قادوا الشواذب كالأجبال حاملة أمثالها ثبتة في كل مصطدم^(١)
العميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلبي في بديعته
قوله:

للخير والشر إيضاحاً به فبذا أمر وعن ذلك نهى حب نصحهم

والذي أقوله: إن الشيخ عز الدين غفر الله له لم يتضح في بيته غير الإشكال.

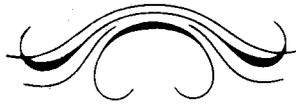
وبيت بديعيتي تقدم قولبي قبله في وصف الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، بحسن
الاتباع والصبر والإقدام، إلى أن قلت في الموارد:

كأنما الهام أحداق مسهدة ونومها واردته في سيوفهم

ثم إنني قلت بعده في الإيضاح:

هذا وتزداد إيضاحاً مخافتهم في كل معترك من بطش ربهم

الإطناب والمبالغة، في وصف الصحابة رضي الله عنهم، قد تقدم بالشجاعة التي
هي فوق الوصف، فلما قلت في هذا البيت: إن مخافتهم تزداد إيضاحاً في كل معترك،
ظهر اللبس فأوضحته بقولبي: من بطش ربهم. والتورية بتسمية النوع، الذي هو المطلوب
هنا، محاسنها لم تفتقر إلى الإيضاح، والله الموفق.



(١) الشواذب: جمع مفردة الشاذب وهو المتنحي عن وطنه - ثبتة: شجاعة - المصطدم: مكان الاصطدام
أو ساحة المعركة.

ذكر التفريع

ما العود إن فاح نشراً أو شداً طرباً يوماً بأطرب من تفريع وصفهم

هذا النوع، أعني التفريع، وهو ضد التأصيل، هو أن يصدر الشاعر أو المتكلم كلامه باسم منفي، بما خاصة، ثم يصف ذلك الاسم المنفي بأحسن أوصافه المناسبة للمقام، إما في الحسن وإما في القبح، ثم يجعله أصلاً يفرع منه جملة، من جار ومجرور، متعلقة به تعلق مدح أو هجاء أو فخر أو نسيب أو غير ذلك، ثم يخبر عن ذلك الاسم بأفعل التفضيل، ثم يدخل من على المقصود بالمدح أو الذم أو غيرهما، ويعلق المجرور بأفعل التفضيل، فتحصل المساواة بين الاسم المجرور بمن وبين الاسم الداخلة عليه ما النافية، لأن حرف النفي قد نفى الأفضلية. فتبقى المساواة بين ذلك أن تقول: ما الزهر إذا بكى الغمام فضحك، بأحسن من أخلاق زيد. فالمساواة بين الزهر والأخلاق ههنا ثابتة، بالشروط المذكورة، ومن الأمثلة الشعرية قول الأعشى:

ما روضة من رياض الحسن معشبة غناء جاد عليها مسبل هطل^(١)
يضاحك الزهر منها كوكب شرق^(٢) مؤزر بعميم النبت مكتهل
يوماً بأطيب منها طيب رائحة ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل^(٣)

(١) غناء: ملتفة الشجر - جاد: هطل - المسبل: من المطر: النازل من السحاب بغزارة - هطل: صيغة

مبالغة من هطل.

(٢) شرق: واضح الإشراق - مؤزر: يلبس الإزار - مكتهل: كبير السن.

(٣) الأصل: التأصيل أو وقت الغروب.

وقد يجيء الفرع والأصل في بيت واحد، كقول أبي تمام:

ما ربع مية معموراً يطيف به غيلان أبهى ربا من ربعها الخرب^(١)
ولا الخدود وإن أدمين من خجل أشهى إلى ناظري من خدها الترب

فذكر في البيت الأول الأصل والفرع، وكذلك في البيت الثاني، فالأصل هو الاسم المنفي مع ما ذكر من أوصافه، والفرع هو أفعل التفضيل مع ما يتعلق به.

ويعجبني في هذا الباب قول إبراهيم بن سهل الأشبيلي، من قصيدة، وهو:

وما وَجَدُ أعرابية بان دارها وحتت إلى بان الحجاز ورنده^(٢)
إذا آنست ركباً تكفل شوقها بنار قرأه والدموع بورده
وإن أوقدوا المصباح ظنوه بارقاً يحيي فهشت للسلام ورده
بأعظم من وجدي بموسى وإنما يرى أنني أذنت ذنباً لوده

ومن إنشاء القاضي شهاب الدين محمود، في هذا الباب، قوله: وما أم طفل قذفها الزمن العنيد، في بعض البيد، في أرض موحشة المسالك، قليلة السالك، قد لمع سربابها، وتوقدت هضابها، وصرخ بومها، ونفر ظليهما^(٣)، وحضر سمومها^(٤)، وغاب نسيمها، فلما خافت على ولدها من الظمأ الهلاك، أجلسته إلى جنب كثيب هناك، ثم ذهبت في طلب الماء للغلام، لثلا يقضي عليه الأوام^(٥)، فأنتهى بها المسير إلى روضة وغدير، وآثار مطي بوارك، تدل على أن الطريق هنالك، فعادت إلى ولدها مسرعه، وكل أعضائها إليه عيون متطلعه، فلما شارفت جنب الكثيب، رأت ولدها في فم الذيب:

بأكثر مني حسرة وتلهفاً وأعظم مني حرقة وتأسفاً
وأغزر دمعاً عندما قيل لي الذي كلفت به أضحى على البعد مزمعاً

وذكر صاحب الإيضاح، للتفريع، قسماً ثانياً لم يذكره غيره، ولا نسج على منواله أصحاب البديعيات فألغيته أيضاً، والشيخ زكي الدين بن أبي الأصبع اخترع قسماً ثالثاً،

(١) غيلان: إسم ذي الرمة الشاعر.

(٢) بان: بُعد - البان: شجر طيب الرائحة طويل الأغصان طريها - الرند: شجر طيب الرائحة يشبه الأس وينبت في البادية.

(٣) الظليم: ذكر النعام.

(٤) السموم: الريح الحارة.

(٥) الأوام: شدة العطش والنشجان.

ولكن وجدت هذا النوع الذي نحن بصدده أحلى في الأذواق، وأوقع في القلوب، وعلى سننه مشى أصحاب البديعيات، فألغيت أيضاً ما اخترعه ابن أبي الأصبع رحمه الله .

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي على هذا النوع في وصف الصحابة، رضي الله عنهم أجمعين:

ما روضة وشع الوسمي بردتها يوماً بأحسن من آثار سعيهم^(١)

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم . وبیت الشيخ عز الدين في بديعته قوله:

ما الدوح تفريعه بالزهر متسق نظماً بأطيب من تعريف ذكرهم

وبیت بديعيتي أقول فيه عن الصحابة رضي الله عنهم أجمعين:

ما العود إن فاح نشراً أو شداً طرباً يوماً بأطيب من تفریع وصفهم

هذا البيت فيه نوع التفریع، الذي هو القصد هنا، والتورية بتسميته، والاستخدام، ومرعاة النظر، وفيه الانسجام، والتمكين، والله أعلم.



(١) وشح: زين وزخرف - الوسمي: مطر الربيع.

ذكر حسن النسق

من ذا يناسقهم من ذا يطابقهم من ذا يسابقهم في حلبة الكرم

هذا النوع، أعني حسن النسق، ويسمى التنسيق، من محاسن الكلام، وهو أن يأتي المتكلم بالكلمات من النثر، والأبيات من الشعر، متتاليات متلاحمات تلاحماً مستحسنًا مستهجاً، وتكون جملها ومفرداتها منسقة متوالية، إذا أفرد منها البيت قام بنفسه واستقل معناه بلفظه، كقول شرف الدين القيرواني:

جاورُ علياً ولا تحفل بحادثة إذا أدّرت فلا تسأل عن الأسل^(١)
سل عنه وانطق به وانظر إليه تجد ملء المسامع والأفواه والمقل

فالحظ حسن النسق، وصحة هذا التركيب فيه، واستيعاب هذا التقسيم، ووضوح هذا التفسير.

ومنه قول أبي نواس:

وإذا جلست إلى المدام وشربها فاجعل حديثك كله في الكاس
وإذا نزعت عن الغواية فليكن لله ذاك النزاع لا للناس

حسن النسق، هنا، لأمرين بين فنيين متضادين، في هذين البيتين، وهما المعجون والزهد، حتى صارا كأنهما فن واحد.

(١) أدّرت: لبس الدرع - الأسل: الرماح.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي قوله:

والذئب سلم والجني أسلم والثعبان كلم والأموات في الرحم^(١)
والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعته
قوله:

فالضيق أذهب والتوفيق سبب والتنسيق رتب في تصديق حكمهم
وبيت بديعيتي أنا مستمر فيه على وصف الصحابة رضوان الله عليهم بقولي:
من ذا يناسقهم من ذا يطابقهم من ذا يسابقهم في حلبة الكرم



(١) سلم: رضي - الجني: واجد الجن - أسلم: انقاد وتدين بالإسلام. - الثعبان: الحية ذكراً كانت أو أنثى - كلم: تكلم وردّ الجواب. - الأموات في الرحم: الأجنة. والبيت في مدح النبي صلعم.

ذكر التعديد

تعديد فضلهم يبدي لسامعه علماً وذوقاً وشوقاً عند ذكرهم

هذا النوع، أعني التعديد، ذكره الإمام فخر الدين الرازي وغيره، وسماه قوم الإعداد، وهو عبارة عن إيقاع أسماء منفردة على سياق واحد، فإن روعي في ذلك ازدواج، أو مطابقة، أو تجنيس، أو مقابلة، فذلك الغاية في حسن النسق. مثاله قوله تعالى: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين﴾^(١) ومن الأمثلة الشعرية قول أبي الطيب المتنبّي:

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وبيت الشيخ صفي الدين في بديعته على هذا النوع قوله:

يا خاتم الرسل يا من علمه والعدل والفضل والإيفاء للذمم

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت عز الدين في بديعته قوله:

تعديد أوصافهم في المدح يعجزنا أهل التقى والنقا والمجد والهمم

وبيت بديعيتي أنا مستمر فيه على مدح الصحابة رضي الله عنهم أجمعين بقولي:

تعديد أوصافهم يبدي لسامعه علماً وذوقاً وشوقاً عند ذكرهم

(١) البقرة، ١٥٥/٢.

ذكر التعليل

نعم وقد طاب تعليل النسيم لنا لأنه مر في آثار تربهم هذا النوع، أعني التعليل: هو أن يريد المتكلم ذكر حكم واقع، أو متوقع، فيقدم قبل ذكره علة وقوعه، لكون رتبة العلة تتقدم على المعلول، كقوله تعالى: ﴿ولولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾^(١) فسبق الكتاب من الله تعالى علة النجاة من العذاب، وكقوله ﷺ: لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة، فخوف المشقة على الأمة، هو علة في التخفيف عنهم من الأمر بالسواك عند كل صلاة. ومن أمثله الشعرية قول البحري:

ولو لم تكن مناخطاً لم أكن أدم الزمان وأشكو الخطوباً
فوجود سخط الممدوح، هو علة في شكوى الشاعر.

ومنه قول ابن هانيء الأندلسي:

ولو لم تصافح رجلها صفحة الثرى لما صح عندي علة للتييم
وفي رواية: لما كنت أدري، وعلى كلتي الروائيتين، ففي الغلو قبح وإساءة أدب، كيف أنه لم يدر علة للتييم إلا بما ذكر، وقد علمت صحة التييم من نص الكتاب والسنة.

ولقد أحسن ابن رشيقي القيرواني، في تعليل قوله ﷺ: جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، حيث قال:

(١) الأنفال، ٦٨/٨.

سألت الأرض لم جعلت مصلى ولم كانت لنا طهراً وطيباً
فقلت غير ناطقة لأنني حويت لكل إنسان حبياً

فتخلص مما وقع فيه ابن هانيء، لكونه سأل الأرض عن العلة، وتلطف في استخراج علة مناسبة لا حرج عليه في إيرادها. وقد يتقدم المعلول على العلة في هذا الباب، وعلى هذا المنوال نسج ابن رشيق.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته على التعليل قوله:

لهم أسام سوام غير خافية من أجلها صار يدعى الاسم بالعلم^(١)

وبيت العميان:

لم تبرق السحب إلا أنها فرحت إذ ظللته فأبدت حسن مبتسم

وبيت الشيخ عز الدين قوله:

تعليل طيب نسيم الروض حين سرى بأنه نال بعضاً من ثنائهم

وبيت بديعيتي أقول فيه عن الصحابة:

نعم وقد طاب تعليل النسيم لنا لأنه مر في آثار تربهم



(١) أسام: جمع مفردة إسم - سوام: جمع مفردة سامي: عالي المكانة.

ذكر التعطف

تعطف الخير كم أبدوا لمذنبهم والخير ما زال في أبواب صفحهم^(١)
التعطف شبيه بالترديد في إعادة اللفظة بعينها في البيت، والفرق بينهما أن التعطف شرطه أن تكون إحدى كلمتيه في مصراع، والأخرى في مصراع آخر.
قلت: وهذا النوع أيضاً من الأنواع التي تقدمت، وقررت أن ليس تحتها كبير أمر، وأن رتبة البديع أعلى من هذه الأنواع السافلة، ولكن تقدم قولي: إن القوم كلما طلبوا الكثرة تغالوا في الرخيص، والشروع في المعارضة ملزم، وقد استشهدوا على هذا النوع أعني التعطف، بقول أبي الطيب المتنبي:
فساق إليّ العرف غير مكدر وسقت إليه المدح غير مذموم
وبيت الشيخ صفي الدين على هذا النوع الرخيص قوله:
وصحبه من لهم فخر إذا افتخروا ما أن يقصر عن غايات فضلهم
والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعته قوله:

تعطفوا برضا أحبابهم وعلى أعدائهم عطفوا بالصارم الخدم^(٢)
وبيت بديعيتي أنا مستمر فيه على وصف الصحابة رضي الله عنهم بقولي:
تعطف الخير كم أبدوا لمذنبهم والخير ما زال في أبواب صفحهم
وقلت بعده مشيراً إليهم.

(١) الصفح: العفو والغفران.

(٢) الصارم: السيف القاطع - الخدم: القاطع.

ذكر الاستبعا

يحمون مستبعين العفو إن ظفروا ويحفظون وفاهم حفظ دينهم
الاستبعا: هو استفعال من تتبع الرجل، إذا اقتفى أثره. وفي الاصطلاح: هو أن
يذكر الناظم أو الناثر معنى مدح أو ذم أو غرض من أغراض الشعر، فيستبع معنى آخر
من جنسه يقتضي زيادة في وصف ذلك الفن، كقول أبي الطيب المتنبّي:

نهبت من الأعمار ما لو حوته لهنت الدنيا بأنك خالد
فإنه مدحه بالشجاعة، على وجه استبع مدحه بكونه سبياً لإصلاح الدنيا، حيث
جعلها مهنة بخلوده ومثله قوله:

إلى كم ترد الرسل فيما أتوا به كأنهم فيما وهبت ملام
فمدحه بالشجاعة إيماء، وألغز في رد الرسل عما أتوا به وصددهم عن مطلوبهم
والتهاون بمرسلهم، واستبع في آخر البيت مدحه بالكرم، لعصيان الملام في الهبات.

ويعجني هنا قول أبي بكر الخوارزمي:

سمح البديهة ليس يمسك لفظه فكأنما أفاضه من ماله
فإنه مدحه بذلاقة اللسان على وجه استبع الكرم.

وبيت الشيخ صفي الدين في بديعته على هذا النوع قوله:

الباذلو النفس بذل الزاد يوم قرى والصائنو العرض صون الجار والحرم^(١)

(١) القرى: إطعام الضيوف، ويوم القرى: يوم المسغبة أو يوم الحاجة.

وبيت العميان:

تجري دماء الأعداء من سيوفهم مثل المواهب تجري من كفوفهم

وبيت الشيخ عز الدين:

يستبعون بئذ العلم بئذ ندى ويحفظون المعالي حفظ عرضهم

وبيت بديعيتي:

يحمون مستبعين العفو إن ظفروا ويحفظون وفاهم حفظ دينهم



ذكر الطاعة والعصيان

طاعاتهم تقهر العصيان قدرهم له العلو فجانسه بمدحهم
هذا النوع، أعني الطاعة والعصيان، استنبطه أبو العلاء المعري في شرحه الذي
سماه «معجز أحمد» عند نظره في شعر أبي الطيب، وهو قوله:
يرد يداً عن ثوبها وهو قادر ويعصي الهوى في طيفها وهو راقد

وسماه الطاعة والعصيان، وقال: إنما أراد أبو الطيب أن يقول: يرد يداً عن ثوبها
وهو مستيقظ، بحيث تطيعه المطابقة في قافية البيت، بقوله: راقد، فلم يطعه الوزن في
ذلك، ولما عصاه الوزن عدل إلى لفظه: قادر، وجعلها مكان مستيقظ، لما فيها من معنى
اليقظة وزيادة، فأطاعه التجنيس المقلوب، بين قادر وراقد، وعصته المطابقة، بين راقد
ومستيقظ، فلم يخل بيته عن معنى بديعي، وقيل إن هذا النوع لم يسمع له مثال قبل أبي
العلاء، ولا بعده في سائر كتب البديع، لقلة وقوعه وتعدر اتفاقه، وإنما وقع للمتنبّي
نادراً.

قلت: أنا تابع، في هذا النوع، مذهب علامة هذا العلم، وهو الشيخ زكي الدين
ابن أبي الأصعب تغمده الله برحمته ورضوانه، فإنه كشف عن وجه الإشكال، وأرشد من
كان متعلقاً بحبال المحال، فإن القوم أضربوا عن هذا النوع وهو ظاهر، لأن الشيخ زكي
الدين قال: إضرابهم عن النظر فيه، إما لحسن ظنهم بالمعري وموضعه من الأدب،
واعتقادهم فيه العصمة من الخطأ والسهو، وإما أن يكون مر عليهم ما مر عليه في هذا
البيت، إذ ليس في البيت شيء أطاع الشاعر ولا شيء عصاه، ودليل ذلك قول المعري:
إن المتنبّي أراد مستيقظاً، ليحصل بينها وبين لفظه راقد طباقاً، فعصته لفظه مستيقظ

لامتناعها من الدخول في هذا الوزن، وهذا محال، لأن المتنبى لو أراد أن يقول: يرُدُّ يداً عن ثوبها وهو ساهر، لحصل له غرضه من الطباق، ولم يعصه الوزن، وإنما المتنبى قصد أن يكون في بيته طباق وجناس، فعدل عن لفظة ساهر إلى قادر، لأن القادر ساهر وزيادة، وحصل بين راقد وقادر الطباق المعنوي، وجناس العكس، لأن الطباق أنواع: منها المعنوي. كما أن الجناس أنواع: منها العكس، ومذهب المتنبى ترجيح المعاني على الألفاظ، ولا سيما وبالعدل عن الطباق اللفظي، حصل في البيت الطباق والجناس معاً، وما كان فيه الطباق والجناس معاً أفضل مما ليس فيه سوى الطباق. ولو عدل المتنبى إلى ما ذكره المعري، لفاته هذا الفضل، والله أعلم.

وقد ثبت من هذا البحث، أن بيت المتنبى لا يصلح أن يكون شاهداً على هذا الباب، لأنه لم يعصه فيه شيء ولم يطعه غيره، وكذلك بيت الشيخ صفي الدين في بديعته وهو قوله:

لهم تهلل وجه بالحياء كما مقصوره مستهل من أكفهم^(١)

فإنه ذكر، في شرحه، أنه أراد الجناس، بين الحياء والحياء، ولما عصاه الوزن وتعذر التجنيس عدل إلى لفظة مقصوره، وهي ردف لفظة الحياء، فأطاعه الجناس المعنوي بإشارة ردفه إليه. اهـ.

قلت: والذي قرره الشيخ صفي الدين أيضاً محال، ولو قال:

لهم تهلل وجه بالحياء كما لنا الحياء مستهل من أكفهم

لحصل له ما أراد من الجناس، وخلص من ثقل مقصوره، وحصل لبيته طلاوة في الأذواق، وخلا من العقادة، وتحقق المتأمل أن عصيان الوزن هنا محال، وكذلك بيت الشيخ عز الدين وهو:

أطاعه وعصاه المؤمنون ومن ناواه ذا الفرق بين الانس والنعم^(٢)

فإنه ذكر، في شرحه، أنه أراد الطباق بين المؤمنين والكافرين، فعصاه الوزن وتعذرت المطابقة، فأتى بلفظة ناواه، فأطاعته المطابقة وعصاه الوزن.

قلت: والذي قرره الشيخ عز الدين أيضاً ههنا محال، ولو قال:

أطاعه وعصاه المؤمنون وجمع الكافرين ولم يحفل بجمعهم

(١) المقصور: الذي يقتصر عليهم منه - مستهل: نازل أو باديء.

(٢) ناواه: ناواه: عصاه وعمل ضده - النعم: الأنعام وهي الحيوانات.

لحصل له ما أراد من المطابقة بين المؤمنين والكافرين، وخلص من ثقل ناواه وتجشم الانس والنعم التي زلزلت أركان بيته، وأما قوله: أطاعه وعصاه، فهذه المطابقة تحصيل الحاصل، لأنها تسمية النوع الذي هو المراد هنا، وجل القصد: أن عصيان الوزن في بيت أبي الطيب، وبيت الشيخ صفي الدين وبيت الشيخ عز الدين محال.

وبيت بديعيتي أقول فيه، عن الصحابة رضي الله عنهم أجمعين:

طاعاتهم تقهر العصيان قدرهم له العلو فجانسه بمدحهم

هذا البيت أردت أن أجانس فيه بين العلو والغلو، فلم يطع فيهما الوزن، فلما عصى ذلك عدلت إلى لفظة مجانسة، فحصل الجناس المعنوي بإشارة ردفه إليه، فهذا البيت مشتمل على الطاعة والعصيان حقيقة، فإن الناظم أراد فيه جناس التصحيف، فعصاه الوزن وأطاعه الجناس المعنوي. والعميان ما نظموا في بديعيتهم، والله أعلم.



ذكر المدح في معرض الذم

في معرض الذم إن رمت المديح فقل لا عيب فيهم سوى إكرام وفدهم
هذا النوع، أعني المدح في معرض الذم، من أنواع ابن المعتز، وهو أن ينفى صفة
ذم ثم يستثنى صفة مدح، كقولك: لا عيب في زيد سوى أنه يكرم الضيف. وأعظم
الشواهد على هذا النوع قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا إِلَّا قِيلاً سَلَامًا
سَلَامًا﴾^(١).

ومن الشواهد الشعرية قول النابغة الذبياني:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب^(٢)
ومنه قول الشاعر:

ولا عيب فيكم غير أن ضيوفكم تعاب بنسيان الأحبة والوطن
ومنه أيضاً قول الشاعر:

ولا عيب في هذا الرشا غير أنه له معطف لذن وخذ منعم^(٣)
وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي:

لا عيب فيهم سوى أن النزيل بهم يسلو عن الأهل والأوطان والحشم

(١) الواقعة، ٢٦/٥٦.

(٢) فلول: كسور - قراع: قتال - الكتائب: مجموعات من الجيوش.

(٣) الرشا: الغزال - اللدن: الطريء.

وبيت العميان في بديعيتهم:

لا عيب فيهم سوى أن لا ترى لهم ضيفاً يجوع ولا جاراً بمهتضم^(١)

قلت: بين قول الشيخ صفي الدين، عن الضيف أنه يسلو عن الأهل والأوطان والحشم، وبين قول العميان عن الضيف، أنه لا يجوع، بون بعيد.

وبيت الشيخ عز الدين:

في معرض الذم إن رمت المديح فهم لا عيب فيهم سوى الإعدام للنعم

وبيت بديعيتي:

في معرض الذم إن رمت المديح فقل لا عيب فيهم سوى إكرام وفدهم



(١) مهتضم: مغموط الحق أو لحق به الجور.

ذكر البسط

هم معشر بسطوا جوداً سقاه حيا فأخضر العيش في أكناف أرضهم^(١)
هذا النوع، أعني البسط، من مستخرجات ابن أبي الأصبغ، والبسط بخلاف الإيجاز لكونه عبارة عن بسط الكلام، لكن شروطه زيادة الفائدة، كقول النبي ﷺ: الدين النصيحة، فقيل: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولنبيه ولأئمة المسلمين وعامتهم. فبسط هذه اللفظة الجامعة، ليفرد الأئمة بالذكر من جملة المسلمين، ولم يكن الاقتصار على الأئمة لأجل نقص المعنى، إذ تمامه لا يكون إلا بذكر عامة المسلمين، فأتى بذلك البسط ليفيد تميم المعنى، بعد تخصيص من يجب تخصيصه بالذكر.

ومن الأمثلة الشعرية المستحسنة على البسط، قول البحتري في الخيري وهو المنثور الأصفر:

قد نفص العاشقون ما صنع الـهـجر بالوانهم على ورقه

فإن حاصل هذا الكلام الإخبار بصفرة الخيري، فبسط اللفظ الذي لو اقتصر عليه لما حصل به المراد، لما في البسط من حسن إدماج الغزل في الوصف، بغير لفظ التشبيه ولا قرينة، إذ مفهوم اللفظ أن صفرة المنثور تشبه ألوان المهجورين.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته:

سهل الخلائق سمح الكف باسطها منزه قوله عن لا ولن ولم

(١) الحيا: المطر - الأكناف: النواحي. مفردهما كنف.

والعميان ما نظموه في بديعتهم . وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعته :
ذو بسط كف وخلق زانه خلق أثنى عليه إله العرش بالعظم
وبيت بديعتي ، أنا مستمر فيه على مدح الصحابة رضي الله عنهم أجمعين :
هم معشر بسطوا جوداً سقاه حيا فأخضر العيش في أكناف أرضهم



ذكر الاتساع

نور القبائل ذو النورين ثالثهم وللمعالي اتساع في عليهم
هذا النوع، أعني الاتساع، يتسع فيه التأويل على قدر قوى الناظم فيه، وبحسب ما
تحتمل ألفاظه من المعاني، كقول امرئ القيس:

إذا قامتا تَضَوَّع المسك منهما نسيم الصبا جاءت برىا القرنفل

فإن هذا البيت اتسع التقيد في تأويله، فمن قائل: تَضَوَّع المسك منهما بنسيم
الصبا، ومن قائل: تَضَوَّع المسك منهما تَضَوَّع نسيم الصبا، ومن قائل تَضَوَّع المسك
منهما، بفتح الميم، يعني الجلد بنسيم الصبا، وهو أضعف الوجوه، والوجه الثاني مذهب
ابن أبي الأصبغ، وهو أنور الوجوه. ومن ذلك فواتح السور التي أقسم الله بها، فإنهم
اتسعوا في تأويلها، ولم يترجح من ذلك إلا أنها أسماء للسور.

وبيت الحلبي في بديعته قوله:

بيض المفارق لا عار يدنسهم شم الأنوف طوال الباع والأمم^(١)

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعته
قوله:

(١) شم الأنوف: أي رافعو الرؤوس كناية عن العزة - طوال الباع: طوال ما بين اليدين إذا مدتا.
وهذا كناية عن القوة والقدرة - بيض المفارق كناية: عن نقاء العرض والنسب أو الشرف -
الأمم: قريب التناول

بان اتساع المعالي في الصحابة كالفاروق ثم شهيد الدار ذي الحرم^(١)
وبيت بديعيتي، أنا مستمر فيه على مدح الصحابة رضي الله عنهم أجمعين:
نور القبائل ذو النورين ثالثهم وللمعالي اتساع في عليهم



(١) الفاروق: لقب عمر بن الخطاب الخليفة الثاني للمسلمين بعد أبي بكر- شهيد الدار: هو عثمان ابن عفان الخليفة الثالث.

ذكر جمع المؤلف والمختلف

جمعت مؤتلفاً فيهم ومختلفاً مدحاً وقصرت عن أوصاف شيخهم

هذا النوع أعني جمع المؤلف والمختلف، ذكر المؤلفون فيه أقوالاً كثيرة غير سديدة، ومثلوه بأمثلة غير مطابقة، ولم يحرره ويطابقه بالأمثلة الصحيحة اللائقة غير الشيخ زكي الدين بن أبي الأصبع، والذي تحرر عنده: أن هذا النوع عبارة عن أن يريد الشاعر التسوية بين ممدوحين، فيأتي بمعان مؤتلفة في مدحهما، ويروم بعد ذلك ترجيح أحدهما على الآخر، بزيادة فضل لا ينقص بها مدح الآخر، فيأتي لأجل الترجيح بمعان تخالف معنى التسوية، كقوله تعالى: ﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين * ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً﴾^(١) فحصلت المساواة في الحكم والعلم، فساوى بينهما في أهلية الحكم، ثم رجح سليمان فقال: ففهمناها سليمان، ثم راعى حق الوالد فقال: وكلا آتينا حكماً وعلماً، فحصلت المساواة في الحكم والعلم. وكقول الخنساء في أخيها، وقد أرادت مساواته بأبيها مع مراعاة حق الوالد بزيادة مدح لا ينقص به حق الولد:

جارى أباه فأقبلا وهما
صقران قد حطا على وكر
لزت هناك العذر بالعذر^(٢)
هما وقد برزا كأنهما
حتى إذا نزت القلوب وقد

(١) الأنبياء، ٧٨/٢١ و٧٩.

(٢) تعاور: تداور أي كل واحد يلبسها مرة - الملاءة: الثوب الفضفاض.

(٣) نزا: طاش، والقلب: طمخ - لزت: ألصقت.

وعلا طباق الأرض أيهما
برقت صفيحة وجه والده
أولى فأولى أن يساويه
قال المجيب هناك لا أدري
ومضى على غلوائه يجري
لولا جلال السن والكبر

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي رحمه الله في بديعته قوله:

هم هم في جميع الفضل ما عدموا
سوى الإخاء ونص الذكر والرحم

قلت: الحلبي أساء الأدب في نظم هذا البيت، وكان يجب أن يؤدي على نظمه، فإنه بخس فيه حق صحابة رسول الله ﷺ، وكذب في الثلاثة التي استثناها، وقال: إن الصحابة رضي الله عنهم عدموها وقوله: هم هم في جميع الفضل، لا يفهم منه مدح، لأنه سلبهم الفضل في الشرط الثاني من البيت، ولهذا قال الشيخ عز الدين في بديعته مشيراً إلى هذا البيت:

هم هم في جميع الفضل ما عدموا
ما قاله الرافضي النذل في الكلم^(١)

وعلى هذا الترتيب الفاسد. فما اجتمع في بيت الصفي غير المختلف، لأن المؤلف عنه بمعزل.

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعتهم، وبیت الشيخ عز الدين في بديعته قوله:

جمع لمؤتلف فيهم ومختلف
في العلم والحلم مع تقديم ذي قدم

وبيت بديعتي يجب أن لا يستشهد على هذا النوع بغيره، فإني قلت فيه، عن الصحابة رضي الله عنهم:

جمعت مؤتلفاً فيهم ومختلفاً
مدحاً وقصرت عن أوصاف شيخهم



(١) الرافضي: لقب للذي يرفض خلافة أبي بكر وعمر، يجمع على الروافض وهو منسوب إليهم - النذل: الخسيس من الناس الدنيء.

ذكر التعريض

تعريض مدح أبي بكر يقدمني في سبق حُليهم مع موصلهم

هذا النوع، أعني التعريض: نوع لطيف في بابه، وهو عبارة عن أن يكتفي المتكلم بشيء عن آخر، لا يصرح به، ليأخذه السامع لنفسه ويعلم المقصود منه، كقول القائل: ما أقبح البخل، فيعلم أنك أردت أن تقول له: أنت بخيل. وكقول بعضهم للآخر: لم تكن أمي زانية، يعرض بأن أمه زانية، والتعريض نوع من الكناية، ومن أمثله الشعرية قول الحجاج، يعرض بمن تقدمه من الأمراء:

لست براعي إبل ولا غنم ولا بجزار على ظهر وضم^(١)

والشواهد على هذا النوع كثيرة، ولكن أردت أن أجعل العمدة فيه على بيتي المنتظم في سلك بديعيتي، فإنه من الأمثلة البديعة، وليس في هذا النوع له مثال، ولكن نبدأ ببيت الشيخ صفي الدين رحمه الله، لأجل الترتيب، وهو:

ومن أتى ساجداً لله ساعته ولم يكن ساجداً في العمر للصنم

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي، رحمه الله، قوله:

تطويل تعريض شائهم يعظمهم والرفض أقبح شيء موجب الأضم^(٢)

(١) الوضم: الخشبة التي يقطع عليها الجزار اللحم.

(٢) الشائء: المبغض والكاره. الأضم: الحقد والعداوة.

وبيتي، الذي أطنبت في وصفه، هو قولي بعد:

جمعت مؤتلفاً فيه ومختلفاً
تعرّض مدح أبي بكر يقدمني
مدحاً وقصرت عن أوصاف شيخهم
في سبق حليهم مع موصلتهم



ذكر الترصيع

نعم ترصع شعري واعتلت هممي وكم ترفع قدري وانجلت غممي

هذا النوع، أعني الترصيع: هو عبارة عن مقابلة كل لفظة من صدر البيت، أو فقرة الشعر، بلفظة على وزنها ورويها، وهو مأخوذ من مقابلة ترصيع العقد، ومن أمثلته الشريفة في الكتاب العزيز قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾^(١) ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّا إِلَيْنَا يَا بَهُمْ ثُمَّ إِنَّا عَلَيْنَا حِسَابُهُمْ﴾^(٢) ومنه قول الحريري في المقامات: يطبع الأسجاع بجواهر لفظه، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه.

وإن كان مع الترصيع زيادة بديع، كطباق أو مقابلة أو جناس، كان ذلك زيادة حسنة. ومن أمثلته الشعرية قول أبي فراس:

وأفعالنا للراغبين كرامة وأموالنا للطالبين نهاب

ومنه قول الشاعر:

فيا يومها كم من مناف منافق ويا ليلها كم من مواف موافق

والمبرز في هذا النوع هو الذي يخلي نظم بيته من الحشو، والحشو فيه عبارة عن تكرار الألفاظ التي ليست من الترصيع، بحيث لا يأتي في صدر بيته بلفظة إلا ولها أخت تقابلها في العجز حتى في العروض والضرب، كقول ابن النبية:

فحريق جمرة سيفه للمعتدى ورحيق خمرة سبيه للمعتفي^(٣)

فهذا البيت وقع الترصيع في جميع ألفاظه فإن المقابلة فيه حاصلة بين حريق

(١) الانفطار، ١٤/٨٢.

(٢) الغاشية، ٢٥/٨٨.

(٣) السيب: الكرم والعطاء - المعتفي: طالب المعروف.

ورحيق، وبين جمرة وخمرة، وبين سيفه وسبيه، وبين المعتدي والمعتفي، وأبو فراس بيته خال من ترصيع العروض والضرب. والشاهد الثاني كرر فيه ناظمه حرف النداء، فدخل عليه الحشو.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في الترصيع قوله:

من حاسر بفرار العضب ملتحف وسافر بغبار الحرب ملتشم^(١)

صفي الدين فاته في هذا البيت ترصيع العروض والضرب وقد تسامحوا فيهما ولكن الغاية ما قررته في نظم هذا النوع، وأيضاً فإن الشيخ صفي الدين غير عاجز عن ذلك، فإن أتى في بيته بالحشومع عدم ترصيع العروض والضرب، وناهيك أن العميان تبصروا له ونظموه في بديعيتهم، وهو:

فهجر ربعي لذاك الربع مغنمي ونثر جمعي لذاك الجمع معتصمي

هذا البيت استشهد به العميان على الترصيع الواقع في جميع ألفاظ البيت، ولكن ذاك في مقابلة ذاك اعتذر عنهما الشيخ شهاب الدين أبو جعفر الشارح، وقال: إن معناهما مختلف، فإن الإشارة الأولى للربع، والثانية للجمع، وعلى كل تقدير فللنظر فيهما مجال.

وبيت الشيخ عز الدين الموصلبي في بديعته قوله:

كم رصعوا كلاً من در لفظهم كم أبدعوا حكماً في سر علمهم

الشيخ عز الدين رصع، حتى في العروض والضرب، ولكن كرر في بيته لفظه كم، ودخل عليه الحشو وهو من وفي، والكمال لله.

وبيت بديعيتي أقول فيه بعد قولي في بيت التعريض:

نعم ترصع شعري واعتلت هممي وكم ترفع قدري وانجلت غممي

التنبيه على محاسن هذا البيت، كالتنبيه على محاسن بيت ابن النبية، وفي حقوق هذا النوع في نظمه، وأما الجماعة المذكورون معه، فما منهم إلا من بخسه بعض حقه، لما أدخله في بيته. وقد تميز بيتي على بيت ابن النبية أيضاً في ترصيع نظمه بزيادة جوهرتين، فإني قابلت فيه خمسة بخمسة، ولبن النبية وبقية القوم قابلوا أربعة بأربعة، والزيادة على ابن النبية أيضاً في تسمية النوع الذي هو الترصيع، ولعمري إنها تورية ما رصع في العقود نظيرها، وهذا البيت مشتمل على الترصيع، والتورية، والجناس اللاحق، واللزوم، والتمكين، والموازنة، ومراعاة النظير، والسهولة والانسجام، والله أعلم.

(١) الحاسر: كاشف الرأس - غرار العضب: حد السيف القاطع - السافر: كاشف الوجه.

ذكر السجع

سجعي ومنتظمي قد أظهرها حكيمي وصرت كالعلم في العرب والعجم

السجع: مأخوذ من سجع الحمام، واختلف فيه، هل يقال في فواصل القرآن أسجاع أو لا؟ فمنهم من منعه ومنهم من أجازته، والذي منع تمسك بقوله تعالى: ﴿كتاب فصلت آياته﴾^(١) فقال: قد سماه فواصل، وليس لنا أن نتجاوز ذلك.

والسجع ينقسم أربعة أقسام: المطرف، والموازي، والمشطر، والمرصع. القسم الأول: المطرف، وعلى منواله نسج نظام البديعيات، وهو أن يأتي المتكلم في أجزاء كلامه، أو في بعضها بأسجاع غير متزنة بزنة عروضية، ولا محصورة في عدد معين، بشرط أن يكون روي الأسجاع روي القافية، كقوله تعالى: ﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً﴾^(٢) وكقولهم: جنباه محط الرحال، ومخيم الآمال. ومن الأمثلة الشعرية قول أبي تمام:

تجلّى به رشدي وأثرت به يدي وفاض به ثمدي وأورى به زندي^(٣)

الثاني: الموازي، وهو أن تتفق اللفظة الأخيرة من القرينة مع نظيرتها في الوزن والروي، كقوله تعالى: ﴿سرر مرفوعة وأكواب موضوعة﴾^(٤). ومنه قول النبي ﷺ: اللهم أعط منفقاً خلفاً، وأعط ممسكاً تلفاً. ومنه قول الحريري في المقامات: ألباني

(١) فصلت، ٣/٤١.

(٢) نوح، ١٤/٧١.

(٣) الشمذ: الماء - وأورى: اشتعل - والزند: عود تفتدح به النار.

(٤) الغاشية، ١٣/٨٨.

حكم دهر قاسط، إلى أن أنتجع أرض واسط. وقوله: وأودى بي الناطق والصامت، ورثني لي الحاسد والشامت. ومن أمثله الشعرية قول أبي الطيب المتنبّي:

فنحن في جذل والروم في وجل والبر في شغل والبحر في خجل

القسم الثالث: المشطر، وهو أن يكون لكل نصف من البيت قافيتان مغايرتان لقافيتي النصف الأخير، وهذا القسم مختص بالنظم، كقول أبي تمام:

تديبر معتصم بالله منتقم لله مرتقب في الله مرتعب

الرابع: المرصع، وقد تقدم الكلام عليه.

قلت: وإذ كنت منشيء ديوان الإنشاء الشريف، أنشأت جميع ما يحتاجون إليه من الفوائد التي أخذتها عن علماء هذا الفن، فإن قصر الفقرات يدل على قوة المنشيء، وأقل ما يكون من كلمتين، كقوله تعالى: ﴿يا أيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر﴾^(١) وأمثال ذلك كثيرة في القرآن العزيز، لكن الزائد على ذلك هو الأكثر. وكان بديع الزمان يكثر من ذلك، كقوله: كميت نهدي^(٢)، كأن راكمه في مهد، يلطم الأرض بزير^(٣)، وينزل من السماء بخبر. لكن قالوا: التذاذ السامع بما زاد على ذلك أكثر، لتشوقه إلى ما ورد منه متزايداً على سمعه. وأما الفقر المختلفة، فالأحسن أن تكون الثانية أزيد من الأولى بقدر غير كثير، لئلا يبعد على السامع وجود القافية فتذهب اللذة، وإن زادت القرائن على اثنتين، فلا يضر تساوي القريبتين الأوليين، وإن زادت الثانية على الأولى يسيراً، والثالثة على الثانية، فلا بأس، ولا يكون أكثر من المثل. ولا بد من الزيادة في آخر القرائن.

مثاله في القريبتين: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً * لقد جئتم شيئاً إداً * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً﴾^(٤) فالثانية أطول من الأولى، ومثاله في الثالثة قوله تعالى: ﴿وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً * إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً * وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً﴾^(٥) ومن قواعد الإنشاء، أن تكون كل فاصلة مخالفة لنظيرتها في المعنى، لأن اللفظ إذا كان

(١) المدثر، ١/٧٤-٤.

(٢) الكميت: الأحمر الذي يميل إلى السواد - والنهد: السريع.

(٣) الزير: الحديد وهي قطع توضع في أسفل حافر الحصان (النضوة).

(٤) مريم، ٨٨/١٩ - ٩٠.

(٥) الفرقان، ١١/٢٥ - ١٣.

من القرينة بمعنى نظيره من الأخرى كان معيياً، كقول صاحب بن عباد يصف منهزمين: طاروا واقين بظهورهم صدورهم، وبأصلايهم نحورهم. فالظهور بمعنى الأصلاب والصدور بمعنى النحور. ومنه قول الصابي: يسافر رأيه وهو لا يبرح، ويسير وهو ثاو لا ينزح. ويبرح وينزح بمعنى واحد، ويسافر ويسير كذلك.

ومن فوائد الإنشاء التي يطول بها باع المنشئ، أن السجع مبني على الوقف، وكلمات الأسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الأعجاز موقوفاً عليها، لأن الغرض أن يجانس المنشئ بين القرائن ويزاوج، ولا يتم له ذلك إلا بالوقف، إذ لو ظهر الإعراب، لفات ذلك الغرض، وضاق ذلك المجال على قاصده، ألا ترى أنهم لو بينوا الإعراب، مثل قولك: ما أبعد ما فات، وما أقرب ما هو آت، للزم أن تكون التاء الأولى مفتوحة، والثانية مكسورة منونة فيفوت غرض الاتفاق؟ ومن ذلك أن السجع مبني على التغيير، فيجوز أن تغير لفظة الفاصلة لتوافق أختها، فيجوز فيها حالة الازدواج ما لا يجوز فيها حالة الانفراد. فمن ذلك: الإمالة، فقد يكون في الفواصل ما هو من ذوات الياء وما هو من ذوات الواو، فتمال التي هي من ذوات الواو وتكتب بالياء حملاً على ما هو من ذوات الياء، لأجل الموافقة، نحو قوله تعالى: ﴿والضحى * والليل إذا سجى﴾^(١). أميلت والضحى وتكتب بالياء حملاً على ما هي من ذوات الياء، لأجل الموافقة، وكذلك: ﴿والشمس وضحاها﴾^(٢) أميلت فيها ذوات الواو وتكتب بالياء حملاً على ما هي من ذوات الياء. ومن ذلك، حذف المفعول، نحو قوله تعالى: ﴿ما ودَّعك ربك وما قلى﴾^(٣)، الأصل وما قلاك، حذف الكاف لتوافق الفواصل. ومن ذلك، صرف ما لا ينصرف، كقوله تعالى: ﴿قواريرا * قواريرا﴾^(٤) صرفه بعض القراء السبعة، ليوافق فواصل السورة الكريمة. ولو تتبع المتأمل ذلك في الكتاب العزيز، لوجده كثيراً.

ومما جاء من الحديث^(٥)، قوله ﷺ: أعينه من الهامة والسامة، ومن كل عين لامة. والأصل: عين ملمة، لأنه من ألم، ولكنه لأجل الموافقة قيل: لامة، ومنه قوله ﷺ: ارجعن مأزورات غير مأجورات. الأصل: موزورات بالواو، لأنه من الوزر، ولكن ليوافق مأجورات. ومنه قوله ﷺ: دعوا الحبشة ما ودعوكم، واركوا الترك ما تركوكم. الأصل: ما وادعوكم، ولكن حذف الألف ليحصل الاتفاق مع تركوكم.

(١) الضحى، ٢٠١/٩٣.

(٢) الشمس، ١/٩١.

(٣) الضحى، ٣/٩٣.

(٤) الإنسان ١٥/٧٦ و١٦.

(٥) أي من السجع.

وسمعت أن بعض علماء الإنشاء صنع مؤلفاً في أحكام الفواصل. ومن ذلك أن المراد من علم الإنشاء: البلاغة في المقاصد. والبلاغة هي أن يبلغ المتكلم بعبارته كنه مراده، مع إيجاز بلا إخلال، وإطالة من غير إملال. والفصاحة خلوص الكلام من التعقيد. وقيل البلاغة في المعاني والفصاحة في الألفاظ، فيقال لفظ فصيح ومعنى بليغ. والفصاحة خاصة تقع في المفرد، يقال كلمة فصيحة ولا يقال كلمة بليغة، وأنت تريد المفرد، فإنه يقال للقصيد كلمة، كما قالوا: كلمة لبيد. ففصاحة المفرد خلوصه من تنافر الحروف، والفصاحة أعم من البلاغة، لأن الفصاحة تكون صفة للكلمة والكلام، يقال: كلمة فصيحة وكلام فصيح. والبلاغة لا يوصف بها إلا الكلام، فيقال: كلام بليغ، ولا يقال: كلمة بليغة. واشتركا في وصف المتكلم بهما فيقال: متكلم فصيح بليغ.

فمن الإنشاء الفصيح البليغ، قول ابن عباد، وقد قيل له: ما أحسن السجع! فقال: ما خف على السمع. فقيل: مثل ماذا؟ قال: مثل هذا. ومنه، ما كتب به عبد الحميد، عند ظهور الخراسانية بشعار السواد: فاثبتوا ريثما تنجلي به هذه الغمرة، وتصحو هذه السكر، فينصب السيل، وتمحى آية الليل. ومنه قول أبي نصر العتبي: دب الفشل في تضاعيف أحشائهم، وسرى الوشل^(١) في تفاريق أعضائهم، فجيوب الأقطار عنهم مزروره^(٢)، وذبول الخذلان عليهم مجروره. ومنه قول الصابي: نزع به شيطانه، وامتدت في الغي أشطانه^(٣). ومنه قول بدیع الزمان: كتابي إلى البحر وإن لم أره، فقد سمعت خبره، والليث وإن لم ألقه، فقد تصوّرت خلقه، ومن رأى من السيف أثره، فقد رأى أكثره. ومنه قول القاضي الفاضل رحمه الله: ووافينا قلعة نجم وهي نجم في سحاب، وعقاب في عقاب، وهامة لها الغمامة عمامه، وأنملة إذا خضبتها أيدي الأصيل كان الهلال لها قلامه.

ويعجبني في هذا الباب، من إنشاء الشهاب محمود قوله في وصف مقدم سرية: لا زال في مقاصده أخف من وطأة ضيف، وفي مطالبه أخفى من زورة طيف، وفي تنقله أسرع من سحابة صيف، وأروع للعدا من سلة سيف. ومثله في الحسن قوله في صدر مثال شريف سلطاني: أصدرناها والسيوف قد أنفت من الغمود ونفرت من قربها، والأسنة قد ظمئت إلى موارد القلوب وتشوقت إلى الارتواء من قلبها، والسيوف قد أضرمت الحمية

(١) الوشل: الوهن والضعف.

(٢) مزرورة: مقفلة.

(٣) الأشطان: جمع شطن وهو الجبل.

للدين نار غضبها، وعداها حر الإشفاق على ثغور المسلمين فأعرضت عن برد الثغور وطيب شنبها، والحماة ما منهم إلا من استظهر بإمكان قوته وقوة إمكانه، والأبطال ما فيهم من يسأل عن عدد العدو بل عن مكانه.

قلت: ما أوردت كثيراً من الإنشاء ههنا إلا لأن يطيب للتأمل تنقله من شطوط البحور، إلى التنزه في رياض المثور. فمن ذلك ما أنشأته في تقليد مولانا المقر الأشرف المرحومي القاضي الناصري، محمد بن البارزي الشافعي، بصحابة دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية المحروسة، وهو قولي: وقد أوصلناه إلى رتبة استحقيقه من رتب المعالي، ورقيناه إلى درجات الكمال، علماً أن الكمال ما خرج عن بيته العالي، فإنه المنشىء الذي ما للصاحب دخول إلى ديوانه، ولا لابن عبد الظاهر بلاغته وقوة سلطانه، ولا للشهاب محمود أن يباهي كماله في طارفه وتليده، ولا للقاضي الفاضل شرف البارزي وتمييزه ولو بالغ في كثرة شهوده، ما نثر في كمام طرسه^(١) زهره إلا وأرانا ذبول زهر المثور، ولا قرع أبواب المصطلح إلا فتحت ودخل بيتها بغير دستور، ولا تسنم منبراً إلا أجاد بالفاظ كان مزاجها من تسنيم، وقالت البلغاء للفصاحة المحمدية ما ثم إلا الرضا والتسليم.

ومنه ما أنشأته في تقليد ولده، وهو مولانا المقر الأشرف الكمالي عظم الله شأنه، بصحابة دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية المحروسة، وهو قولي: فإنه من البيت الذي وهبه الله شرف العلم ورحم منه كل ميت، فقل لكل من مشايخ الإسلام ناشدتك الله هل تنكر هبة الله لهذا البيت، وما خفي أن إمامكم الأعظم أول من راعى حقوقه وبادر إلى رفع مثاله، وشرع في رفع قواعده وتشبيد كماله، ولهم هذا الفرع الذي زكت أصوله وسقيناه ماء القرب فأثمر، وقد أنبته الله نباتاً حسناً والنبات الحموي حسنه لا ينكر. غاب نيره الأكبر فأبدر بعده وهذا البدر في كماله ما أبهاه، ولجأ إلى الله ثم إلينا فزاده الله كمالاً وعلمنا أن الكمال لله، وسلكناه في حياة والده فكان لمشيختنا الشريفة نعم المريد، وأخذ عنا الأدب فجاد نظمه وها هو في البيوت البارزية بيت القصيد، والكتابة دون كماله ومحاسنه تجل أن تقابل بمثال، وإن كان الكمال زها بحاشيته فحاشيتنا زهت بهذا الكمال، وكان والده عقداً فرط فيه الزمان ولكن استدرك فارطه، وقد نظمناه في عقد سلكننا الشريف إلى أن صار به نعم الواسطه. وامتدت ألسن الأقلام إلى ثغور المحابر فقبلتها، وانشرحت صدور الأوراق وعلق فيها عنابر سطور فحملتها، وقالت لحرر أقلامه: أهلاً بالعربيات التي ليس لها إلا الأيدي الجهينية غرر، ومرحباً بعد النوبة بقهوة الإنشاء

(١) الطرس: ما يكتب عليه.

فإن شباب الزمان قد عاد وزهر المنثور قد زهر، وجاء الإمام الذي إن كتب تقليداً قالت البلغاء هذا الإمام الذي يجب تقليده، وهذا هو الخليفة على السر الشريف وأمينه ومأمونه ورشيده. إن تحمس في إنشائه قال الجبان لا أقعد الجبن عن الهيجا، أو استطرد إلى وصف روض ممرج زاد هرجاً ومرجاً، أو ترسل غرامياً فما حديقة زهير عند زهر منثوره، أو كتب عنا تهديداً سال جامد الصخر، ولو سمعت الجوزاء حديثه لسقطت مع الحصى عند خريره، فإنه المنشىء الذي ما اعتقل رمح فمه بيمينه وهزه هزه، إلا قال كل منشىء دخلت أصبع قلبي من دواتي تحت رزه^(١)، ولا حرك من دوح أعلامه فرعاً إلا تساقط بين الأوراق ثمرات شهيه، فلو أدركها الصاحب لقدمها وأخر الفواكه البدرية، ولو ناسبه الفتح لقابله المؤمنون بالقتال، وكان والده قد اعترف بكماله وهذا التقليد لثبوت ذلك الاعتراف أسجال^(٢)، فإنه الأمين الذي إن تصرف في مزررتنا^(٣)، الشريفة، فقد ثبت أن توثيق العرا^(٤) لبيته العالي، أو أملى في ديواننا الشريف كانت أماليه أمالي المحب لا أمالي القالي^(٥) ولولا خشية الإطالة، لأوردت هذا التقليد الشريف بكماله. لأنه في صناعة الإنشاء لنسيج وحده.

ومنه ما أنشأته عن مولانا السلطان الملك المؤيد، سقى الله ثراه من غيث الرحمة جواباً عن مكاتبة الملك الناصر صاحب اليمن، وهو: لا زال جناس مجده سعيد الحركة بين اليمن واليمن، وسيفه اليماني لم يرض بمجانسة سيف بن ذي يزن، والأمة بأحمدها تهنأ بجنات عدن^(٦) في عدن، ولا برحت صنائعه بصنعاء محبرة حتى في سطور الطروس، وأقلام الثناء سود اللمم بمدحه ولو تركت لاعتراها شيب الرؤوس، وتحياته المكرومة مخصصة منا بشرف التسليم، وبدور مودته سافرة في ليالي سطورها بين بديعي التكميل والتتميم، أصدرناها وشاهد المودة قد وضع رسم شهادته وكتب، وأثبت مقدمات الإخلاص فحكم له قاضي المحبة بالموجب، وأودعناها من السلام ما تعمه رحمة الله وبركاته، ومن طيب الثناء ما يتأرجح بين ادراك ذلك المندل^(٧) الرطب نفحاته، ومن خالص المودة ما يضم به بعد حسن المخلص من طيب أعرافه حسن الختام، ومن سجعات

(١) رزه: ورقه الصقيل.

(٢) أسجال: إثباتات.

(٣) المزررة: مكان الأزرار.

(٤) العرا: جمع عروة وهو فتحة الزر.

(٥) القالي: أبو علي صاحب الأمالي المشهورة، والقالي: الهاجر الكاره.

(٦) عدن: خلدٍ ونعيم. وعدن بالمكان أقام فيه.

(٧) المندل: بفتح الميم: عود طيب الرائحة.

الأشواق كل مصونة ليس لها غير سواد النفس لثام. وتبدي لعلمه ورود المثال العالي بطيب تلك المعادن التي ودّ النسيم أن يقيدها ويحتبس، ولقد رافقها الاكتساب اللطيف ولكن سرق من طيب عرفها وتكلم بنفس، فأكرم به مثلاً أرانا خضر الملك على كل قرينة لها من حجب البلاغة ستور، وخدامها من سود سطورها وبيض طروسها عنبر وكافور^(١)، ورد صحف الصفاء صقيلة فتمثل فيها، وأظهر من أوراقه ثمرات المودة ونحن بيد القبول نجنيها، وقدم من ذلك الحرم الأحمدى فكان أكرم وافد قويل منا بالإكرام، وفتح أبواب الدخول إلى السلام فسلمنا وقلنا لخواصنا ادخلوها بسلام. ولقد ثملنا بكأس إنشائه وهو بحضرتنا الشريفة دائر، وعلمنا أن هذا الإنشاء لا يصدر إلا من فاضل والفاضل لا ينسب إلا إلى الناصر، وتغزلنا في محاسنه بحيرة اليمن بعد تغزلنا بحيرة العلم، وراعنا تحمس بلاغته فقلنا هذا لا يصدر إلا من رب سيف وقلم، وود كل دوح أن يملأ طروس أوراقه بريحان سطوره، وتطفل كل روض أريض^(٢) عند وروده على زهر منوره، وقالت فصاحته وتلك البلاغة التي جاءت بسحر البيان، هل يفتى لنا بصدق المحبة فقال لهما القلب: قضي الأمر الذي فيه تستفتيان، فهذا نفس طيب عرفنا معدن طيبه فلم نقل من أين، وهذه سلافة إنشاء دارت سلطانياتها فأنشأت أهل الخافقين^(٣)، وهذا سحر صدقت عزائمه في العطف والقبول بين الملكين، وأبطل هذا السحر الحلال ما حرم بيابل من سحر الملكين^(٤)، واشتمل على نظم ونثر رأينا شعار السلطنة عليهما عيانا^(٥)، كأن البلاغة قالت لهما قديماً سنجعل لكما سلطانا^(٦)؛ فيا له من مثال تدرع زرد ميماته فقلنا لا طعن فيك لطاعن، وتشرع طباق بديعه فكانت على أكتاف النيل من أثره مساكن، وأطرب بأنفاس علمنا أنها من يراع ما برح بالسعادة موصولاً، وطاف في حضرتنا الشريفة بكاس يمانية كان مزاجها زنجبيل^(٧). ولقد أكثر هذا المقال في كتابه المبين من إيناس الخطاب، وقضت به الوحشة أجلها فقلنا لكل أجل كتاب.

وهذا الجواب أيضاً، لولا خشية الإطالة لاستوعبته بكماله، فإن اليمن ما دخل إليها من الديار المصرية نظيره، والله أعلم.

(١) الأريض: والأروض: الروض الذي كسى الأرض بالنبات.

(٢) الخافقين: المشرق والمغرب.

(٣) الملكين: هما هاروت وماروت اللذان ورد ذكرهما في قوله تعالى: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين... يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين بيابل هنوت ومنوت﴾ البقرة،

١٠٢/٢.

(٤) العيان: الظاهر للعين، الواضح.

(٥) السلطان: السلطة والقوة.

(٦) الزنجبيل: نوع من الشراب كالخمرة أو هو الخمرة ذاتها.

ومنه ما أنشأته عن مولانا السلطان الملك المؤيد، سقى الله ثراه، جواباً عن مكاتبة وردت من صاحب تونس، وهو المتوكل على الله أبو فارس عبد العزيز رحمه الله، وهو: لا زالت سيوف عزائمه في الجهاد ماضية الضرب، ولا برح جوده وإقدامه متطابقين في السلم والحرب، نخصه بسلام هو لنا والشوق برد وسلام، وسقاية وداد ماء رمرم تسنيم قبولها إلا تعالى ذلك المقام، وتحيات تنطق بها عند مواظبة الخمس^(١) السنة الأقالم، وثناء يقلد بخالص عقوده جيد الزمان، وينسى قلائد العقيان، ومحبة يقمر صدقها في ذلك الأفق الغربي ويشمس، وتزِيل وحشة من سلا عن غيرها في المغرب وتونس... واستطردت مفاوضتكم إلى الوصية بحاج المغرب فبادرنا إلى قبول ذلك، فإن هذا قد يتبرك من النجب السائرة به بالمبارك، وقد أعدناه مصحوباً بالسلامة وحُداته^(٢) تطرب بنغمتها الحجازية، وتهيم اشتياقاً عند تشبيها بذكر الطلعة المتوكلية، وأعدنا جواب ذلك على يد رسولكم الذي لم يقابل منا بغير القبول، ليكون خالص ودنا متمسكاً بالكتاب والرسول.

ومنه ما كتبه جواباً عن مكاتبة وردت من الجنب العالي، الناصري محمد بن أبي يزيد بن عثمان، وهو: لا زالت تحياته مخصصة منا بشرف التسليم، وسيره العثماني محفوظاً في بيعة المودة بالتقديم، وشعراء الإخلاص في كل بيت من معاني محبته تهيم، وفروض الجهاد بسيوفه المسنونة في كل وقت تقام، وبلاد الإسلام محروسة بالجنب المحمدي عليه السلام، وهمزات عوامله بصدور الكفار موصولة، وألسن سيوفه بثغور بلادهم من رشف أرياق دمائهم مبلولة، ولا برح يجاهد في سبيل الله براً ويتخذ في البحر سبيله، فإنه من الذي علا بمحمد مقامه، وانسجم بالخلف العثماني نظامه، واقتدى بمشيختنا المؤيدية والنجح في هذا الاقتداء له شريك، وساعدته تورية السعادة لما تمسك بقول من قال: ولا بد من شيخ يريك، ولم يبق بعد الاقتداء بهذه المشيخة إلا الفتوحات المقبولة، والمشاركة في القبول على ما يرضي الله ورسوله، صدرت هذه المفاوضة إلى الجنب المحمدي تأرجح بطيب السلام عليه، وتنسم نسيمات القبول من أخبارها الطيبة ما تنقله إليه، وحملناها ثناء أطلقنا عنان كميته القلم وهو غرة في جبهته، وتوجهت رؤوس الأقالم قبل ركوعها إلى قبلته، [ومن الإنشاء الملوكي ما أطلق به فصيح التلم لسانه وخضر الشباب على عوارض نفسه ومحاسن سجعاته، وقال الفاضل الناصر هذا الإنشاء الذي ما خرس لسان قلمه ولا شاب لمة دواته] وتبدي لعلمه الكريم ورود ما أهدها من

(١) الخمس: يعني الصلوة الخمس: الصبح والظهرين والمساءين.

(٢) الحداة: جمع حادي، وهو الذي يسوق الإبل بالحداء وهو نوع من الغناء.

ثمرات المودة يانعا في أوراقه، مختالاً في شعار الإخلاص فعلمنا أنه عنوان لعهد
وميثاقه، وقد أتحف من نبات الإيناس ما غرس بأكناف النيل فحلا نباته، وودت قطوف
أنسه وظهر في فروع المحبة ثمراته، فاقتطفنا زهر المنثور من رياضه عند الورود^(١)،
وتغزلنا في رقم سطوره على بياض طروسه بين العوارض^(٢) والخدود. وطالعنا مجموع
محاسنه الذي لم ينس فعلمنا أنه للملوك تذكرة، وتبصرنا فيما أدهش من حكمه فرأينا
المدهش في التبصرة، وقلنا هذه لمعة لو أدركها السراج لقصر لسانه وقال: سراج الملوك
حرمته قوية، أو القاضي السعيد لقال: ما لسان الملك بهجة عند هذه الأنوار
المحمدية... وقد تيقظت عيون عزمنا الشريف للجهاد وعن قريب تهجر مقل السيوف
أجفانها، وتتجرد لقتال المشركين وقد تكنى لها النصر بأبيه فأيد سلطانها، وإذا قدحت
سيوف الدولتين في عباب البحر على الكفار ناراً، تلا لسان النصر: ﴿لا تذر على الأرض
من الكافرين دياراً﴾^(٣). [ومن إنشاء الفاضل عن الناصر هنا ما يحسن أن يشنف به سمعه
الكريم، فإنه عن أبي الفتوحات الذي مشى على هذا الصراط المستقيم] وهو: إذا كان الله
قد أعطانا البلاد وهي آلة المقيم الراتب^(٤). وأعطاهم المراكب وهي آلة الظاعن^(٥)
الهارب، فقد علمنا لمن عقبى الدار، ومن ينقله الله تعالى انتقال قوم نوح من الماء إلى
النار. فالجناب يوطن نفسه على حسن المال في الحالين، ويعلم أنه من المكرمين في
الدارين^(٦)، وقد تلمظت^(٧) ألسن سيوفنا شوقاً لحلاوة نصره، وتحركت عيدان رماحنا طرباً
عند سماع ذكره، ونفضت جوارح سهامنا ريش أجنحتها لاقتناص تلك الغربان، وهامت
فرساننا المؤيدية إلى منازل الأحباب لترية من أعدائه مقاتل الفرسان، فإنه المجاهد الذي
حظ بني الأصفر في البحر الأزرق من بياض سيوفه أسود، وكم أذاقهم الموت الأحمر،
وكمال التدبير يقول أهلاً بعيش أخضر يتجدد، وتتولد نصرتنا عنده برفع راية الفرع في
كل وقت عليه مبارك، ويتأيد بعز نصرنا المؤيدي حتى يقول له لسان الحال: أعز الله
أنصارك، فتقديمه العثماني من جهة الاستحقاق قد ثبت عندنا وتقرر، وهو اليوم إمام
المجاهدين الذي ما صلت سيوفه في محراب القتال إلا قال مرقى النصر الله أكبر. والله

(١) الورود: المجيء.

(٢) العوارض: جمع عارض وهو صفحة الخد.

(٣) نوح: ٢٦/٧١.

(٤) الراتب: الدائم الثابت، وعند المحدثين: ما يأخذه الموظف من أجر شهري لقاء عمله.

(٥) الظاعن: الراحل.

(٦) الدارين: الدنيا والآخرة.

(٧) تلمظ: السيف: خرج واهتز.

يجريه على أجمل العوائد من هذا النصر، ليصير الكافرون في زلزلة من قارعة سيوفه بهذا العصر.

ومنه ما كتبه جواباً عن مولانا السلطان الملك المؤيد، سقى الله عهده، عن مثال كريم ورد من قرى يوسف صاحب العراقين، وهو: أعز الله أنصار المقر الكريم العالي الجمالي اليوسفي، لا زالت زوراء العراق في أيامه القويمة مستقيمة الجانبين، وحلتها الفيحاء عالية المنار وشمل الدين بها مجتمعاً في الجامعين، وعراق العرب والعجم بارزين من محاسنه اليوسفية في حلتين، فلامية العرب تقول:

ولولا اجتناب الدم لم يلف مشرب يعاش به إلا لديّ ومأكل
ولامية العجم تقول:

حلو الفكاهة مر الجد قد مزجت بشدة البأس منه رقة الغزل

فأكرم بهما لامين دارا على وجنات الطروس لكمال المحاسن اليوسفية، وفتحت لها الميمات أفواه الشكر لأنها من الأحرف المؤيدية، أصدرناها إلى المقر وسواجعها تغرد بالثناء بين أوراقها، وألسن الأقلام قد أودعت صدور طروسها سر أشواقنا عند انطلاقها، فإنها الصدور التي تعرب من نفثاتها عن ضمائر الأشواق، وإذا أطلقت من فض الختم خفت أجنحتها بذلك الثناء على الإطلاق، ونبدي لكريم علمه ورود البشير بالقرب اليوسفي، وقد حل بالأسماع قبل رؤيته تشنف، وهبت نسيمات قبوله فأطفأت ما في القلوب من التلهف، وضاع نشرها^(١) اليوسفي، فقال شوقنا اليعقوبي: إني لأجد ريح يوسف، وتأملنا كريم مثاله فوجدناه قد مد أطناب المحبة وخيم على معاني المودة، وحام عليه صادي الأشواق فوجده منها قد أعذب الله في مناهل الصفاء ورده، وأومض البرق في الظلمات من رقم سظوره فما شككنا أنه نظم برده، فهو مثال يوسفي ولكن ظهر السر الداودي من فصل خطابه، وصدقنا رسوله لما جاءنا بكريم كتابه، والتفتت من كناس سظوره آرام الإيناس فاقتنصنا منها ما هو عن العين شارد، وألفت القلوب على الولاء فضربت الأعداء من جماد الجسد في حديد بارد، وأمست الدجلة والنيل لامتراجهما بسلاف المحبة كالماء الراكد، وهذه ألفة خولتنا في نعم الله وزمام الأخوة منقاد إلينا، وقد تعين على المقر أن يقول: أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا، وسرتنا الإشارة الكريمة بالتمكين من أرض الأعداء ومطابقة الطول بالعرض، وعلمنا أن هذا الاسم الكريم قد

(١) ضاع نشرها: انتشر ريحها الطيب.

شمלתه العناية قديماً بقوله تعالى: ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض﴾^(١) وأما قرا عثمان فمقل سيوفنا ما غمضت عنه في أجفانها، وأنامل أستتنا ما ذكرت نوبته إلا شرعت في جس عيدانها، وجوارح سهامنا ما برحت تنفض ريش أجنحتها للطيران إليه، وإن كان معنى سافلاً فلا بد لأجل الغرض اليوسفي أن نخيم عليه، وننزل سلطان قهرنا بأرضه ونغرس فيها عوامل المران^(٢)، وإن كانت من الأسماء التي ما أنزل الله بها من سلطان، ولم يهمل إلا لاشتغال الدولتين بالدخول في تطهير الأرض من الخوارج، وإيقاع الضرب الداخلى بعد جس العيدان في كل خارج، وقد آن سله لثلا يكون بين المحب والمحبوب رقيقاً، ولا بد أن يجانسه العكس ويرى ذلك قريباً، ويدهمه من أبي النصر أبناء حرب شرف في أنساب الوقائع جدهم، ورد الجموع الصحيحة إلى التكسير فردهم، وإذا كثرت الخدود وتوردت بالدماء غردت بورق الحديد الأخضر مردهم^(٣)، وإذا امتدوا إلى أمد تلالهم حصنهم سورة الفتح قبل القتال، فإنهم يريدون ولهم شيخ منحه الله بكثرة الفتوح والإقبال، وإذا صرفوا الهمم المؤيدية لم تكن لهم حصونهم عند ذلك الصرف مانعة، ولم يسمع لساكنها مجادلة إذا صدموا بالحديد وتلت تلك الحصون الواقعة^(٤)، وإن كانت المنايا غابت عنه مدة، كلمته ألسنة سيوفهم وقالت حصرت، وإذا طرق بوجه منهم طارق رأى سماء تلك البروج قد انفطرت، وما خفي عن كريم علمه ما جمعه الناصر من الجموع التي مزقها الله أيدي سبأ، وكم سائل سأل وقد رآهم في النازعات عن ذلك النبأ.

وقد أشار بعض شعراء دولتنا الشريفة إلى ذلك بقصيدة كامل بحرهما مديد، ولكن القصد هنا من أبيات تلك القصيدة:

يا حامي الحرمين والأقصى ومن	لولاه لم يسمر بمكة سامر
والله إن الله نحوك ناظر	هذا وما في العالمين مناظر
فرج على اللجون نظم عسكريا	وأطاعه في النظم بحر وافر ^(٥)
فانبت منه زحافه في وقعة	يا من بأحوال الوقائع شاعر ^(٦)
وجميع هاتيك البغاة بأسرهم	دارت عليهم من سطاك دوائر
وعى ظهور الخيل ماتوا خيفة	فكأن هاتيك السروج مقابر

(١) يوسف ١٢/٢١.

(٢) المران: جمع مرانة وهي الرمح اللدن في صلابه.

(٣) المراد: جمع أمرد وهو الشاب لم تنبت لحيته بعد.

(٤) الواقعة: القتال، المجادلة، الحديد، الطارق، النازعات، النبأ: أسماء لسور من القرآن الكريم.

(٥) اللجون: البطيء الثقيل المشي، أو الورق اللزج: الملجون. وقد وردت في ما سبق «الملجون».

(٦) انبت: انقطع - الزحاف: من علل الشعر، وهو تغيير يلحق ثاني السبب من التفعيلة...

وما خفي عن علمه الكريم أمر الذين نقضوا بيعتنا بعد الناصر فاشتروا الضلالة بالهدى، ودعوا سيوفهم الصقيلة لما حاق^(١) بهم المكر السيء فأجابهم الصدا، ولم يكن لحرارة عزمنا الشريف عند عصيانهم البارد فتره^(٢)، حتى أظهرنا تلون الشام من دمائهم على تدبيح الدروع ألوان النصر، وأخذوا سريعاً شبان حرب ما شابت عوارضهم إلا بغبار الوقائع، وحكم برشدهم ولم يخرجوا من تحت حجر المقامع^(٣)، وقد أسبغ الله ظلال الملك وخيم به على الدولتين، ولم يظهر لمحراب بهجة إلا بهاتين القبيلتين، ولوصلت السيوف لغيرهما ما قبلت، أو صرفت العوامل^(٤) للإعراب عن سواهما ما عملت، وقد فهمنا كريم الالتفات إلى أن تدار كؤوس الإنشاء بيننا ممزوجة بصافي المودة، وعلمنا أنها أحكام صحيحة في شرع الأخوة. وهذه الأحكام عندنا عمدة، وتالله لقد سبق القصد اليوسفي بسهام مراده إلى الغرض، وقضى حاجة في نفس يعقوب لي عنها عوض، ولم يبق إلا اتصال شمل الأوصال بكل رسالة سطور الأخوة في رقاها محققة، وتصديق ما يقصه في الجواب فإن القصة اليوسفية ما برحت مصدقه، والله تعالى يمتع الأسماع والأبصار بمشاهدة مثلته وطيب أخباره، ويفكهننا من بين أوراقها بشهي ثماره.

ومما أنشأته بالديار المصرية، وحصل إجماع الأمة على أنه من الأفراد، تقليد مولانا قاضي القضاة جلال الدين شيخ الإسلام البلقيني، نور الله ضريحه، بعد عزل الهروي، ويوم قراءته بالجامع المؤيدي أرخه المؤرخون، وذكروا أنه لم يتفق بملك مصر يوم نظيره، وهو: الحمد لله الذي أبان فضل العرب على العجم في الكتاب والسنة، وأظهر جلال سراجهم المنير فأوضح بحسن تدريبه طريق الجنة، وأزال ظلم الجهل بنور هذا الجلال فله الحمد على هذه المنة، ونكرر حمده على نصره أصحاب الشافعي وعود جيرته إلى منازلها العالية، ونشكره على نبيل الغرض بسهام ابن إدريس فدن جهل أحكام القضاء أمست عليه قاضية، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نستعين بحسن أدائها عى القضاء والقدر، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي من قابل شريعته المطهرة بدنس الجهل فقد كفر، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين أزالوا بفصاحتهم

(١) حاق: أحاط وطوّق.

(٢) فترة: وهن وضعف.

(٣) المقامع: جمع مقمعة وهي خشبة أو حديدة في طرفها سلك معدني أو خيط يضرب بها الحيوان والإنسان ليُقمَع ويذل.

(٤) العوامل: مصطلح نحوي يعني الكلام الذي يسبب رفعاً أو نصباً أو جرأً في غيره من الكلام. كالفعل مثلاً يعمل الرفع في الفاعل والنصب في المفعول به، والمبتدأ يعمل الرفع في الخبر بينما الإبتداء يعمل الرفع في المبتدأ إلخ..

العربية كل عجمه، وتميزوا على العجم بقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾^(١) وهذا التمييز نصبه مرفوع على كل أمة، صلاة نسن بها سيوف السنّة على من تسربل بدروع ضلاله، ونقيم حدودها على من بدل حديث النبي ﷺ وجعل أسماء رجاله، وسلم تسليماً كثيراً. أما بعد، فالهناء بنصرة هذا الدين القيم بين هذه الأمة مشترك، وكيف لا وقد ظهر جلاله مقمراً وأنشدوا:

يا ليل طل أو لا تطل فليس نرعى قمرك

وقد حلا مكرر الحمد بنشر الأعلام المؤيدية على أئمتنا الأعلام^(٢)، وحلت أيضاً مواقع التورية بنصرة شيخ الإسلام، فهو الليث الذي كان لظما العلماء إلى إمامهم نعم الغوث والغيث، حتى تأيدوا بمؤيدهم وأعز الله أنصارهم بالشافعي والليث، حجبناه عن غيوم العزل، وقلنا وقد ساعدنا رأينا الشريف في إظهاره:

أصالة الرأي صانتني عن الخطل وحلية الفضل زانتني لدى العطل^(٣)

وولى غيره فأنشد كل عالم أظلم ضوء نهاره:

ما كنت أوتر أن يمتد بي زمني حتى أرى دولة الأندال والسفل

واعتلت كتب العلم فقالت وعيون سطورها باكية:

لعل إمامة بالجذع ثانية يدب منها نسيم البرء في علي

وأنشد لسان حال شيخ الإسلام وقطوف قربه دانية:

تقدمتني رجال كان شوطهم وراء خطوي لو أمشي على مهل

وأشار إلينا وقال وخواطرنا الشريفة بأشارته راضية:

لعله إن بدا فضلي ونقصهم لعينه نام عنهم أو تنبه لي

فتنبهنا له وقلنا لضده وقد أهبطناه من تلك الرتبة العالية:

فإن جنحت إليه فاتخذ نفقاً في الأرض أو سلماً في الجوّ فاعتزل

وكيف يطلب من نار خامدة هدى، أو يجعل السراب ماء، وإذا دعونا الري جاوبنا

الصدى، ويأبى الله أن يطابق سحبان بياقل، أو يجاري فارس العلم براجل:

ومن يقل للمسك أين الشذى كذبه في الحال من شما

(١) الزخرف، ٣/٤٣.

(٢) الأعلام: الفطاحل الهداة.

(٣) العطل: عدم التزين - والخطل: خطأ الرأي.

وتالله لقد زادنا بحجبه في غيوم العزل علماً بعلو مقداره، وكان عزلاً أظلمت بسببه الدنيا إلى أن من الله على المسلمين بإيداره، وقالت الأمة ذلك ما كنا نبغي، واستوفى كل عالم شروط المحبة واستوعب، وعلمنا أن الحكم العدل حكم بتقديم هذا الإمام بالموجب، أنلنا وظيفته غيره فزلزلت الأرض زلزالها، وقلنا يخف على قلبنا فأخرجت الأرض أثقالها، وأظهرنا جلال العرب فأطلقوا أعنة بلاغتهم في ميادين الفصاحة، وما أحقهم هنا بقول الفاضل: وتناجدت أهل نجد فكل صاح يا صباحه، وعلمنا أن هذا فضل رفل به أبناء العرب في حلل التقديم، وأن الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، وامتلاً صحن جامع القلعة بحلاوة هذه البشرية، وهلل مؤذونه وذكروا طلعتة الجلالية فكبروا وأنشدوا:

لو أن مشتاقاً تكلف فوق ما في وسعه لسعى إليك المنبر

وأزهرت هذه البشرية في ربيع ولكنه ربيع الأبرار الذي نزه الله روحه وريحانه عن كل نمام، وصان فيه المسلمين ممن يأكل أموال الناس بالباطل ويدلي بها إلى الحكام. ونشر الله أعلام كتب العلم وزاد الله بالسيف المؤيدي إسعافها. وكانت ستور الجهل قد أسبلت على التفاسير فأظهر السر للآي كشافها، أما القراءات فهي في قرى^(١) شيخ الإسلام وفضله فيها عاصم من الجهل ونافع^(٢)، وأما الحديث فهو مجلي مبهمات بنور جلاله الساطع. وأما العربية فقد ظهر بعد وعر العجم تسهيلها، وشرعت بيوت العرب لشواهدا وأكرم نزيلها. وأما المعاني فقد أظهر الله بيانها وجلت بها عروس الأفراح، واهتدينا بنور جلالها ففتحت لنا أبوابها بغير مفتاح. وأما المنطق فمقدمات منطق العذب أرتنا نتائجه يقيناً، وأما العقلية فما رأينا لمن ناظره فيها في هذه المدة عقلاً ولولا الحياء لقلنا ولا ديناً، وها هو قد نبه الفقه من سنة الغفلة بعدما مرض الجهل عيونه وأرمد، والحاوي أظهر ما حواه من العلم بعدما كان هلك أسى وتجلد، والروضة أزهرت في حدائق هذه المسرة بين أوراقها فأينعت، ومدت الشافعية أصول دوحتها فتفرعت؛ وظهرت رفعة الرافعي في أفق كماله، ونور الله ضريح الشافعي بنور سراجيه وبهجة جلاله.

[ولما كان] الجناب الكريم الجلالى هو الذي ناظرناه بالغير فقال نور الشريعة وهو

أشهر من نار على علم:

(١) قرى: طعام الضيف أو قراءة.

(٢) عاصم ونافع: من المقرئين الأفاضل.

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوار والظلم

فعلمنا أنه حجة للشافعي الذي منه الاستقصاء وإليه منتهى السؤال، وما أبدر في أفق درس إلا أزال ظلم الشك بأنواره وأسفر أبداره عن التتمة والإكمال، وهو أبو العلماء الذي ولد من الأم أفراحهم، وأبو المهمات الذي شهر من العدة الكاملة في ميدان الفرسان سلاحهم، وإليه انتهت الغاية فإنه ما برح يأتينا في وجيز تقريره بالعجاب، ويغنيننا عن موضح القشيري فإنه يغذينا في إبانته باللباب.

اقتضت آراؤنا الشريفة أن نعيده إلى منال شرفه بعد التحجب وها هو قد ظهر، ويتسلسل في أيامنا الشريفة عند الرواة حديث ابن عمر، فلذلك رسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي المؤيدي السيفي، لا زالت الشافعية في أيامه الشريفة بجلالهم في ترشيح بهجة وابتهاج، وثبت الله القواعد وأقامها في ملكه عى التحرير ومشى الرعية فيها على أوضح منهاج، أن تفوض إلى الجناب المشار إليه وظيفة كذا وكذا. وقد وقع التمويه في الفروق بينه وبين الغير عند أهل التبصرة والهداية وهو نهاية المطلب، وعيون المسائل وتاج رؤوسها والمذهب، الذي تهذيبه في أدب القاضي كفاية، وهو البحر الذي ما دخلنا بسبطه المبسوط، إلا قالت التورية إنه في البسيط كامل، ولا نظرنا إلى حليته الجلالية إلا غنينا عن المصباح بنوره الشامل، وقد ميزناه على مناظره لما أقروا له بالتعجيز، وقرت عيون ابن البارزي نور الله ضريحه بهذا التمييز، وألغينا ذكر علوم يجمل قدره عن نسبتها إليه، ولكن ثغور سيناتها تبسم عند ذكره وأفواه ميماتها تكثر الشاء عليه، فليتلق ذلك فإنه العزيز عندنا والمنتقى لهذا التشريف الذي هو ديباجة رقه، وإذا ذكرنا الأصول فأصوله محفوظة، وهو المعتمد عليه في التمهيد والمستصفي ببديع علمه، ولو عاش ابن الحاجب ما تغزل في رفع حاجبه وخفض له جانبه، وعلم أن جلالنا عين الإسلام فلم نرفع على العين حاجبه، والوصايا كثيرة ولكن جواهر ذخائرنا تلتقط من إملائه وأماله، وهو جامع مختصراتها ومظهر زوائدها ببيانه ومعانيه، لا زال حديث فضله يتسلسل مع الرواة ويسند، ولا برح أجل من أوضح الرسالة في مسند محمد وأحمد.

[ورسم] لي في الأيام الشريفة المؤيدية، سنة تسع عشرة وثمانمائة، أن أنشئ رسالة بوفاء النيل المبارك لم أسبق إليها، ولا حام طائر فكر عليها، وأحضر مولانا المقر الأشرف القاضي الناصر محمد بن البارزي الجهني الشافعي، صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية، تغمده الله بالرحمة والرضوان، قطعة من إنشاء القاضي الفاضل بوفاء النيل وقرئت على المسامع الشريفة المؤيدية، وحذرت من التعرض إلى شيء من ألفاظها ومعانيها فأنشأت رسالة حكم لأبي بكر بها على كل فاضل بالتقديم، وإن

كان لسان القلم قد طال فأنا أقطه^(١) ههنا تأدباً مع عبد الرحيم، وقد وصلنا ههنا شمل القطعتين، ليتفكه المتأمل في جنى الجنتين، ويتزهر نظره في حدائق الروستين، ويغرب لسجع حمام الدوحتين.

[قال القاضي الفاضل]: نعم الله سبحانه وتعالى من أصوبها بزوغاً، وأضفاها سبوغاً، وأصفاها ينبوعاً، وأسناها منفعوفاً، وأمدها بحر مواهب، وأضمنها حسن عواقب، النعمة بالنيل المصري الذي ييسط الآمال ويقبضها مده وجزره، ويربي النبات حجره، ويجري على سواد الأرض بفضته البيضاء، ويهنا بيده الخضبية نقب الجرب من الحربى، ويحيى مطلعها أنواع الحيوان، ويجنى ثمرات الأرض صنوان وغير صنوان، وينشر مطوي حريها وينشر مواتها، ويوضح معنى قوله تعالى: وبارك فيها وقدر فيها أقواتها، وكان وفاء النيل المبارك في تاريخ كذا وكذا، فأسفر وجه الأرض وإن كان قد تنقب، وأمن يوم بشراه من كان خائفاً يترقب، فرأينا الإبانة عن لطائف الله سبحانه وتعالى وقد حققت الظنون، ووفت بالرزق المضمون، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون، وقد أعلمناك لتوفي حقه من الإذاعة، وتبعده من الإضاعة، وتتصرف فيه على ما يصرفك من الطاعة، وتشهر ما أورده البشير من البشرى بإبانته، وتمده بإيصال رسمه إليه على عادته.

[فقلت بعد الفاضل]: ونبدي لعلمه ظهور آية النيل المبارك الذي عاملنا الله فيه بالحسنى وزياده، وأجراه لنا في طرق الوفاء على أجمل عاده، وحلق أصابعه ليزيل الإبهام فأعلن المسلمون بالشهاده، كسر بمسرى فأصبح كل قلب بهذا الكسر مجبوراً، وأتبعناه بنوروز^(٢) ما برح هذا الاسم بالسعد المؤيدي مكسوفاً، دق قفا السودان فالراية البيضاء من كل قلع^(٣) عليه، وقبل ثغور الإسلام وأرشفها ريقه الحلو فمالت بأعطاف غصونها إليه، وشبب خريره في الصعيد بالقصب، ومد سبائكته الذهبية إلى جزيرة الذهب، فضرب الناصرية واتصل بأمر دينار، وقلنا إنه صيغ بقوة لما جاء وعليه الاحمرار، وأطال الله عمر زيادته فتردد الناس على الآثار، وعمته البركة فأجرى سواقي مكة إلى أن غدت جنة تجري من تحتها الأنهار، وحسن مشتهى الروضة في صدره وحنى عليه حنو المرضعات على الفطيم:

وأرشفه على ظمًا زلالاً ألد من المدامة للنديم^(٤)

(١) قَطَّ: قَصَّ وقَصَّرَ.

(٢) النوروز: عيد الربيع عند الفرس وهو رأس السنة الفارسية.

(٣) القَلْع: الصدرية والرجل الذي لا يثبت على ظهر الخيل. ويفتح القاف وكسر العين: الذي لا يثبت في البطش ولا على السرج، والرجل البليد.

(٤) الزلال: الماء الصافي - وأرشف: سقى.

وراق مديد بحره لما انتظمت عليه تلك الأبيات، وسقى الأرض سلافته الخمرية فخدمته بحلو النبات، وأدخله إلى جنات النخيل والأعناب فالتق النوى والحب، فأرضع جنين النبات وأحى لها أمهات العصف والأب^(١)، وصافحته كفوف السوز فختمها بخواتيمه العيقية، ولبس الورد تشريفه وقال أرجو أن تكون شوكتي في أيامه قوية، ونسي الزهري بحلاوة لقاءه مرارة النوى، وهامت به الشقراء فأرخت صفائر فروعها عليه من شدة الهوا، واستوفت الأشجار ما كان لها في ذمة الري من الديون، ومازج الحوامض بحلاوته فهام الناس بالسكر والليمون، وانجذب إليه الكباد^(٢) وامتد. ولكن قوي قوسه لما حظي منه بنصيب سهم لا يرد، ولبس شربوش الأترج^(٣) وترفع إلى أن لبس بعده التاج، وفتح منشور الأرض لعلامته بسعة الرزق وقد نفذ أمره وراج. فتناول معالم الشنبر^(٤) وعلم بأقلامها ورسم لمحبوس كل سد بالإفراج، وسرح بطائق السفن فخفقت بمخلق بشائره، وأشار بأصابعه إلى قتل المحل فبادر الخصب إلى امتثال أوامره، وحظي بالمعشوق وبلغ من كل أمنية مناه، فلا سكن على البحر إلا تحرك ساكنه للمطالعة بعدما تفقه وأتقن باب المياه، ومد شفاه أمواجه إلى تقبيل فم الحور، وزاد بسرعه فاستحلى المصريون زائده على الفور. ونزل بركة الحبش فدخل التكرور^(٥) تحت طاعته، وحمل على الجهات البحرية فكسر المنصورة وعلا على الطويلة بشهامته، وأظهر في مسجد الخضر عين الحياة فأقر الله عينه، وصار أهل دمياط في برزخ بين المالح وبينه، وطلب المالح رده بالصدر وطعن في حلاوة شمائله، فما شعر إلا وقد ركب عليه ونزل في ساحله، وأمست واوات دوائره على وجنات الأرض عاطفه، وثقلت أردافه على خصور الجواري فاضطربت كالخائفة، ومال إليه باسق النخل فلثم طلعه وقبل سوافه، وأمست سود السفن كالحسنات في حمرة وجناته، وكلما زاد زاد الله في حسناته، فلا فقير سد إلا وحصل له من فيض نعمائه الفتوح، ولا ميت خليج إلا عاش به ودبت فيه الروح.

ولكنه احمرت عيونه على الناس بزيادة وترفع، فقال له المقياس عندي قبالة كل عين أصبع، فنشر النيل أعلام قلوبه وحمل وله من ذلك الخريز زمجره، ورام أن يهجم

(١) الأب: ورد ذكره في قوله تعالى، في سورة عبس: ﴿فأنبئنا فيها حبا* وفكهة وأبا﴾ (٣١ - ٢٧/٨٠). وهو «المرعى لأنه يؤب أي يؤم أو الفاكهة اليابسة تؤب أي تعد للشتاء» (تفسير

شبر، ص ٥٤٩).

(٢) الكباد: عامية معناها الأترج ويقال له أيضاً الترنج وهو ثمر شبيه بالليمون.

(٣) الشربوش: لغة في الطربوش، والأترج: الكباد.

(٤) الشنبر: لم نعثر على هذه اللفظة في ما بين أيدينا وربما كانت بمعنى «القصب».

(٥) التكرور: لقب حاكم الحبشة في ذلك الوقت.

على غير بلاده فبادر إليه عزمنا المؤيدي وكسره، وقد اثرتنا المقر بهذه البشرية التي عم فضلها براً وبحراً، وحدثناه عن البحر ولا حرج وشرحنا له حالاً وصدراً، ليأخذ حظه من هذه البشرية البحرية بالزيادة الوافره وينشق من طيها نشراً، فقد حملت له من طيبات ذلك النسيم أنفاساً عاطره، والله تعالى يوصل بشائرتنا الشريفة لسمعه الكريم ليصير بها في كل وقت مشنفأً، ولا برح من نيلنا المبارك وانعامنا الشريف على كلا الحالين في وفا.

ومما انفردت بإنشائه: رسالة السكين، فإن الشيخ جمال الدين بن نباتة سبق إلى رسالة السيف والقلم، وتقدمه أبو طاهر إسماعيل بن عبد الرزاق الأصفهاني إلى رسالة القوس. وكتاب الإنشاء لا بد لهم من سكين فقلت: وينهى وصول السكين التي قطع المملوك بها أوصال الجفاء، وأضافها إلى الأدوية فحصل بها البرء والشفاء، وتالله ما غابت إلا وصلت الألام من تعثرها إلى الجفاء زرقاء^(١)، كم ظهر للبيض منها ألوان، خرساء ومن العجائب أنها لسان كل عنوان، ما شاهدها موسى إلا سجد في محراب النصاب، وذل بعد أن خضعت له الرؤوس والرقاب. كم أيقظت طرف القلم بعدما خط، وعلى الحقيقة ما رؤي مثلها قط، وكم وجد بها الصاحب في المضائق نفعاً، وحكم بحسن صحبتها قطعاً، ماضية العزم قاطعة السن فيها حدة الشباب من وجهين، لأنها بالناب والنصاب معلمة الطرفين، وأنملة صبح تقمعت بسواد الدجى، فعودتها بالضحي والليل إذا سجي، ولسان برق امتد في ظلمات الليل، فتنكرت أشعة الأنجم وما عرف منها سهيل^(٢)، هذا وتقطيعها موزون إذ لم يتجاوز في عروض ضربها الحد، ومعلوم أن السيف والرمح لم يعرفا غير الجزر والمد.

من أجل ذا تدخل في مضائق ليس للسيف فيها قط مدخل، وكلما تفعله ترجمه والرمح في تعقيده مطول. إن هجعت بجفنها كانت أمضى من الطيف، وكم لها من خاصة جازت بها الحد على السيف. تنسى حلاوة العسال^(٣) فلا يظهر لطوله طائل، ونغني عن آلة الحرب بإيقاع ضربها الداخل. إن مرت بكلها المحلى تركت المعادن عاطله، ولم يسمع للحديد في هذه الواقعة مجادله. شهد الرمح بعدالته أنها أقرب منه إلى الصواب، وحكم لها بصحة ذلك قبل أن تستكمل النصاب. ما طال في رأس القلم شعرة إلا سرحتها بإحسان، ولا طالعت كتاباً إلا أزال غلظه بالكشط من رأس اللسان.

(١) رزقاء: نافعة.

(٢) سهيل: نجم يظهر في أواخر شهر تموز يقولون إن خروجه دليل على نضوج الفواكه وانقضاء القيظ، وفي المثل: إذا طلع سهيل رفع كيل ووضع كيل يضرب في تبدل الأحكام.

(٣) العسال: الرمح. وهو في الأصل الذي يستخرج العسل.

تعقد عليها الخناصر لأنها عدّة وعدّة، وتالله ما وقعت في قبضة إلا أطالت لسانها وتكلمت بحدّه. إن أدخلت إلى القراب كانت قد سبكت^(١) على الدخول، أو أبرزت من غيمه كان على طلعتها قبول. تطرف بأشعتها الباهرة عين الشمس، وبقامتها الحد حافظت الأقلام على مواظبة الخمس^(٢). وكم لها من عجائب صار بها جدول السيف في بحر غمده كالغريق، ولو سمع بها قبل ضربه ما حمل التطريق. فلو عارضها أبو طاهر لعرك من قوسه الأذنين، وقال له جحدت رسالتك يا ذا القرنين. فإن جذبت إلى مقاومتها وكان لك يد تمتد، وصلت السكين إلى العظم وصار عليك قطع وانتهى أمرك إلى هذا الحد. وهل تعاند السكين صورة ليس لها من تركيب النظم، إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا أو ما اختلط بعظم. ولو لمعها الفاضل لحقق قوله إن خاطر سكينه كل، أو أدركها ابن نباتة ما أقر برسالة السيف وفل، وقال لقلم رسالته أطلق لسانك بشكر مواليك، وأخلص الطاعة لباريك، وما قصد المملوك الإيجاز في رسالة السكين ونظمها، إلا لتكون مختصرة كحجمها، لا زالت صدقات مهديها تنحف بما يذبح نحر فقري، وتأتي بما يشفي وإيها التورية يقول ويبري.

قلت: الذي أوردته ههنا من إنشائي وإنشاء الغير، كان من الواجب، لأن الباب الذي تحتم عليّ شرحه وبيانه وإيضاحه، باب التسجيع، وهو عبارة عن علم الإنشاء، وقد تقدم تقرير السجع وأقسامه، وعلم أنها أربعة أقسام، وهي المطرف والموازي والمشطر والمرصع، وذكرت فيه الفوائد التي منها أحكام الفواصل، وأوردت المباحث في الإنشاء الذي فيه نظر بالنسبة إلى الحالة التي هي المطلوب، وأوردت من بديع الإنشاء وغيره، هذه النبذة التي هي من إنشائي وإنشاء الغير، ولولا خشية الإطالة لأوردت من ذلك ما يذبل عنده زهر المنثور، ويقرط^(٣) في قلائد النحور، ومن أراد البحث عن صحة ذلك فعليه بمصنفي المسمى «بقهوة الإنشاء»، فإنه خمسة مجلدات، منها مجلد أنشأته بالبلاد الشامية، قبل أن أستقر منشئ دواوين الإنشاء الشريف بالديار المصرية والممالك الإسلامية، وثلاثة مجلدات أنشأتها عن مولانا السلطان الملك المؤيد سقى الله ثراه، ومجلد أنشأته عن الملك المظفر والملك الظاهر والملك الصالح، وعن مولانا السلطان الملك الأشرف، وعن مولانا أمير المؤمنين المعتضد بالله زاده الله شرفاً وتعظيماً. انتهى.

(١) سبكت: جبلت عليه وفطرت فهو خلق منها.

(٢) الخمس: يعني الصلوات اليومية - والمواظبة عليها: المداومة.

(٣) يُقرط: يجعل أقرطاً - القلائد: جمع قلادة وهي الحلية تلبسها المرأة في عنقها - والنحر: موضع القلادة (العنق وما يليه من الصدر).

والفرق بين التسجيع والتجزئة، اختلاف زنة أجزائه ومجيئه على قافية واحدة، من غير عدد معين محصور. وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته على التسجيع قوله:

فعال منتظم الأحوال مقتحم الأهوال ملتزم بالله معتصم
وبت العميان:

من لي بمستلم ليلد معتصم بالعيش لا مسثم يوماً ولا سثم^(١)
وبيت الشيخ عز الدين الموصلي قوله:

كم قاتل بصحيح الجمع مقتحم وقائل لنظيم السجع ملتزم

قلت: الذي يظهر لي أن الشيخ عز الدين لم يمش في نظم بديعته مشي محقق، لأنه تقرر عنده وعند الجماعة في شروحهم: أن التسجيع هو أن يأتي المتكلم في أجزاء بيته أو كلامه أو في بعضها، بأسجاع غير مترنة، والشيخ أتى في شطر بيته الأول بأسجاع قابل كلاً منها في الشطر الثاني بوزنه، مثل: قاتل وقائل، وصميم ونظيم، وجمع وسجع، ومقتحم وملتزم، وهذا هو الترصيع بعينه. فإن الترصيع من شرطه أن تقابل كل لفظة من البيت بوزنها وروبها وليته نقل هذا البت إلى الترصيع فإن بيته في الترصيع ناقص بالذي أظهره، مع قصر باعه فيه من الحشو، وهو:

كم رضعوا كِلماً من درّ لفظهم كم أبدعوا حكماً في سر علمهم
مع أنه نظر في بيت الشيخ صفي الدين الحلبي، وهو:

فعال منتظم الأحوال مقتحم الأهوال ملتزم بالله معتصم
ورأى اختلاف الوزن بين ملتزم ومعتصم.

وبيت بديعتي أقول فيه:

سجعي ومنتظمي قد أظهرها حكمي وصرت كالعلم في العرب والعجم



(١) المسثم: الممل المتعب - والسثم: الملول التعب.

ذكر التسميط

تسميط جوهره يلقي بأبحره ورشف كوثره يروي لكل ظمي^(١)
هذا النوع، أعني التسميط: هو أن يجعل الشاعر كل بيت، بسمطه، أربعة أقسام
ثلاثة منها على سجع واحد، بخلاف قافية البيت، كقول مروان بن أبي حفصة:
هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دعوا أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا

والفرق بين التسميط والتسجيع، كون أجزاء التسميط غير ملتزم أن تكون على
روي البيت، وكون أجزائه متزنة فيكون عددها محصوراً، والفرق بين التفويف وبينه
تسجيع بيت التسميط. قال ابن أبي الأصبع: ما خالفوا بين قافية البيت وأسجاع التسميط
إلا لتكون القافية كالسمط، والأجزاء المسجعة بمنزلة حب العقد، لأن السمط يجمع حب
العقد، والمراد بأجزاء التسميط بعض أجزاء التقطيع ويسمى تسميط التبعض، ومن
التسميط نوع آخر يسمى تسميط التقطيع، وهو أن تسجع جميع أجزاء التفعيل على روي
يخالف القافية، كقول ابن أبي الأصبع:

وأسمر مثمر من مزهر نضر من مقمر مسفر عن منظر حسن

فجاءت جميع أجزاء التفعيل من هذا البيت، من سباعيها وخماسيها، مسجعة على
خلاف سجعة الجزء الذي هو قافية البيت.

(١) التسميط: في اللغة أن تجعل الجواهر سماًطاً أو عقداً - والرشف: الشرب على مهل - والكوثر: النهر
العذب الماء الصافي - والظمي: الظامىء: العطشان.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته على التسميط:
فالحق في أفق والشرك في نفق والكفر في فرق والدين في حرم
والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعته
قوله:

تسميط ذي أدب تنظيم ذي أرب تحقيق ذي غلب بالنصر ملتزم^(١)
وبيت بديعتي أشرت فيه إلى نظمي ونثري، ترفعاً بمدح النبي ﷺ وصحابته رضي
الله عنهم، بقولي:

سجعي ومنتظمي قد أظهرها حكمي وصرت كالعلم في العرب والعجم
وقلت بعده مشيراً إلى النظم:

تسميط جوهره يلفى بأبحره ورشف كوثره يروي لكل ظمي
التورية في التسميط هنا منتظمة في سلك الجواهر، وقد تقرر أن السمط هو الذي
يجمع حب العقد، ولهذا قلت: تسميط جوهره، والمناسبة البديعية حاصلة بقولي: يلفى
بأبحره، فمحاسنه غير خافية بعد ذكر الجواهر، ومثل ذلك الرشف للكوثر والري للظامى،
وتمكين القافية ظاهر. والله أعلم.



(١) الأرب: الحاجة، والبغية والأمنية، والمهارة.

ذكر الالتزام

لأن مدح رسول الله ملتزمي فيه ومدح سواه ليس من لزمي^(١)
هذا النوع الذي سماه قوم: الالتزام، ولزوم ما لا يلزم، ومنهم من سماه:
الاعتات، والتضييق، وهو في الاصطلاح أن يلتزم الناثر في نشره، أو الناظم في نظمه،
بحرف قبل حرف الروي أو بأكثر من حرف، بالنسبة إلى قدرته مع عدم التكلف، وقد جاء
في الكتاب العزيز في مواضع تجل عن الوصف، كقوله تعالى: ﴿فلا أقسم بالخنس
الجوار الكنس﴾^(٢) وكقوله تعالى: ﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون * وإن لك لأجرأ غير
ممنون﴾^(٣) ومثله قوله تعالى: ﴿والليل وما وسق والقمر إذا اتسق﴾^(٤)، وأما الشعراء فأبو
العلاء كان أكثرهم في هذا النوع التزاماً، حتى إنه صنع كتاباً سماه «اللزوميات» جاء
فيه بأشياء بديعة، إلا أن فيه من عشرات لسانه كثيراً، كقوله:

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البسيطة أن ييخوا
يحطمننا صرف الزمان كأننا زجاج ولكن لا يُعادُ لنا سبك
ومنه قوله:

لا تطلبن بآلة لك رفعة قلم البليغ بغير حظ مغزل
سكن السماكان السماء كلاهما هذا له رمح وهذا أعزل

(١) ملتزمي: ألتزم به، واجبي - واللزم: الواجب.

(٢) التكوير، ١٦/٨١.

(٣) القلم، ٣٠/٦٨ و٣١.

(٤) الإنشاق، ١٧/٨٤ و١٨.

ومنه قوله:

يقولون في البستان للعين لذة
إذا شئت أن تلقى المحاسن كلها
وفي الراح والماء الذي غير آسن^(١)
ففي وجه من تهوى جميع المحاسن
وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي على لزوم ما لا يلزم قوله:

من كل مبتدر للموت مقتحم
في مارق بغبار الحرب ملتحم^(٢)
وبيت العميان:

وميل سمعي لنيل القرب من شيمي
وسيل دمعي بذيل الترب كالديم^(٣)
وبيت الشيخ عز الدين قوله:

لي التزام بمدحي خير معتصم
بربه وارتباط غير منفصم
وبيت بديعتي أقول فيه:
لأن مدح رسول الله ملتزمي
فيه ومدح سواه ليس من لزمي



(١) آسن: الماء: فسد وتغير لونه وطعمه وريحه. أو ركذ.
(٢) المبتدر: الذي يبادر إلى الأمر ويندفع إليه - المارق: من الدين الخارج عنه، ومن الغبار الخارج منه.
(٣) الشيم: جمع شيمة: وهي الخلق الحسن، والخصلة النبيلة.

ذكر المزاجية

إذا تزوج ذنبي وانفردت له بالمدح منّ ونجاني من النقم
هذا النوع، سمّوه المزاجية والازدواج، وهو في اللغة مصدر زواج بين الشيثين، إذا
قارب بينهما، وفي الاصطلاح قال السكاكي ومن تبعه: هو أن يزواج المتكلم بين معنيين
في الشرط والجزاء، كقول البحري:

إذا ما نهى الناهي فلج لي الهوى أصاغت إلى الواشي فلج بها الهجر^(١)
ومنه قوله:

إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها^(٢)
وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته قوله:
ومن إذا خفت في حشري فكان له مدحي نجوت وكان المدح معتصمي
وبيت العميان:

إذا تبسم في حرب وصاح بهم ييكي الأسود ويرمي اللسن بالبكم^(٣)

(١) لَجّ: ألح - وأصاخ: أنصت وسمع كلامه وأطاعه - والواشي: النمام الذي يتقل الكلام بين اثنين وأكثر بهدف إفساد ذات البين.

(٢) احتربت: تحاربت - والقربى: الأقرباء.

(٣) اللسن: الفصحاء - البكم: العمي والخرس.

وبت الشيخ عز الدين:

ذكرت أن نجاتي في مديحهم

إذا تزوج خوف الذنب في خلدي

وبيت بديعيتي أقول فيه:

بالمدح منّ ونجاني من النّقم (١)

إذا تزوج ذنبي وانفردت له



(١) منّ: تفضّل - النّقم: الانتقام.

ذكر التجزئة

وريت في كلمي جزيت من قسمي أبديت من حكمي جلبيت كل عمي

التجزئة: هي أن يأتي المتكلم بيت ويجزئه جميعه أجزاء عروضية، ويسجعها كلها على وزنين مختلفين جزءاً بجزء، أحدهما على روي يخالف روي البيت، والثاني على روي البيت، كقول الشاعر:

هندية لحظاتها خطية خطراتها دارية نفحاتها^(١)

وبيت الشيخ صفي الدين:

ببارق خذم في مارق أمم أو سابق عرم في شاهق علم^(٢)

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين قوله:

ذي فضل أندية ذي عدل تجزئة فالذئب في ظلم يمشي مع الغنم

الشيخ عز الدين سها في هذا البيت عن رتبة التجزئة في الشطر الثاني، بالنسبة إلى التقرير، في شرط الرتبة.

وبيت بديعيتي أشير فيه إلى ما أبديته من المحاسن في المديح النبوي، بقولي:

وريت في كلمي جزيت من قسمي أبديت من حكمي جلبيت كل عمي

(١) هندية: نسبة إلى الهنديه - خطية: نسبة إلى الرماح الخطيه أي تفعل فعلها - ودارية: نسبة إلى داريا.

(٢) البارق: السيف - الخذم: الفاطح - المارق: الخارج من الشيء - الأمم: المأموم وهو المضروب

على أم رأسه - السابق: الفارس - العرم: السريع الطعن الشرس.

الشاهق: الشديد الإرتفاع - والعلم: الجبل.

ذكر التجريد

لي المعاني جنود في البديع وقد جردت منها لمدحي فيه كل كمي (١)
التجريد، عرفه صاحب التلخيص بأن قال: هو أن ينتزع من أمر ذي صفة آخر
مثله، وفائدته المبالغة في تلك الصفة، كقولك: مررت بالرجل الكريم، والنسمة
المباركة. فجردت من الرجل نسمة متصفة بالبركة، وعطفها عليه كأنها غيره، وهي هو.

ومن أمثله الشعرية قول الشاعر:

أعائق غصن البان من لين قدها وأجني جنني النورد من وجناتها
فإنه جرد من قدها غصناً ومن وجنتيها ورداً.
وبيت الشيخ صفي الدين في بديعته قوله:
شوس ترى منهم في كل معترك أسد العرين إذا حر الوطيس حمي (٢)

والشيخ صفي الدين جرد في بيته أسد العرين من الشوس.

وبيت العميان في بديعيتهم:

من وجه أحمد لي بدر ومن يده بحر ومن لفظه در لمتنظم

(١) الكمي: الفارس المغوار.

(٢) الشوس: والأشاوس: الشجعان - العرين: بيت الأسد - الوطيس: المعركة.

وبيت الشيخ عز الدين الموصلي قوله:
من لفظه واعظ بالنصح جرد لي
وبيت بديعيتي في المديح النبوي قولي:
لي في المعاني جنود في البديع وقد
يا نفس توبي وللتجريد فالتزمي
جردت منها لمدحي فيه كل كمي



ذكر المجاز

وهو المجاز إلى الجنات إن عمرت أبياته بقبول سابغ النعم

المجاز: هو عبارة عن تجوز الحقيقة، فإن المراد منه أن يأتي المتكلم بكلمة يستعملها في غير ما ضعت له في الحقيقة في أصل اللغة، هذا رأي السكاكي وأصحاب المعاني والبيان، وقال البديعيون: المجاز عبارة عن تجوز الحقيقة، بحيث يأتي المتكلم إلى اسم موضوع لمعنى فيخصه، إما أن يجعله مفرداً بعد أن كان مركباً، أو غير ذلك من وجوه الاختصاص.

والمجاز جنس يشتمل على أنواع كثيرة، كالاستعارة والمبالغة والإرداف والتمثيل والتشبيه، وغير ذلك مما عدل فيه عن الحقيقة الموضوعية للمعنى المراد. وهذه الأنواع، وإن كانت من المجاز، فكونها متعددة لخلوها عن معنى زائد عن تجوز الحقيقة، كالاستعارة والتشبيه وبقي ما ذكره من الأنواع، فلما لم يكن له غير تجوز الحقيقة اختصاراً، أفرد باسم المجاز إذ لا يليق به غيره.

وعمل الشريف الرضي كتاباً سماه «مجاز القرآن» ومات قبل استيفائه، ومن أمثله الشعرية قول العتابي:

يا ليلة لي بحوارين ساهرة حتى تكلم في الصبح العصافير
قوله: ساهرة، مجاز.

وبيت الشيخ صفي الدين قوله:

صالوا فنالوا الأماني من مرادهم ببارق في سوى الهيجاء لم يشم

المجاز في بيت الشيخ صفي الدين في لفظة بارق.
والعمبان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين قوله:
أحیی فؤادی مجازی نحو حجرته وقد دهشت لجمع فيه مزدحم
وبيت بديعيتي تقدمه قولي: إني تجردت لمدح النبي ﷺ، وقلت بعده في المجاز:
وهو المجاز إلى الجنات إن عمرت آياته بقبول سابغ النعم



ذكر الائتلاف

وهو أربعة أنواع هي :

١ - ائتلاف اللفظ مع المعنى :

تألف اللفظ والمعنى بمدحته والجسم عندي بغير الروح لم يقيم هذا النوع ذكره قدامة، أعني ائتلاف اللفظ مع المعنى، وترجمه منفرداً ولم يبين معناه وشرحه الأمدي وأطال، ولم توف عبارته ببيضاحه. وأوضحه ابن أبي الأصبع وقال: مختصر عبارة هذه التسمية أن تكون ألفاظ المعاني المطلوبة ليس فيها لفظة غير لائقة بذلك المعنى، إن كان اللفظ جزلاً كان المعنى فخماً، أو رقيقاً رقيقاً كان المعنى غريباً، كقول زهير بن أبي سلمى:

أثافي سفعاً في معرس مرجل ونؤيا كجذم الحوض لم يتسلم^(١)
فلما عرفت الدار قلت لربعها ألا انعم صباحاً أيها الربع واسلم

فإن زهيراً قصد تركيب البيت الأول من ألفاظ تدل على معنى غريب، لكن المعنى غير غريب، فركبه من ألفاظ متوسطة بين الغرابة والاستعمال، ولما جنح في البيت الثاني إلى معنى أبين من الأول وأغرب، ركبه من ألفاظ مستعملة معروفة. وبيت الحلبي في بديعته قوله:

كأنما حلق السعدي منتشراً على الثرى بين منقض ومنقضم

(١) الأثافي: حجارة الموقد - السفع: تغير اللون - المعرس: المنزل، أو مكان التعريس وهو التجمع والمعرس: هو الدار أو مكان الخيمة، وهنا مكان القدر أو الموقد - والمرجل: القدر يطبخ به - النؤي: نهر صغير يحفر حول الخيمة ليمنع دخول ماء المطر إليها - الجذم: البقية والأثر - تسلّم: تشقق وتكسر وخرب.

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم . وبيت الشيخ عز الدين الموصلي قوله :
تؤلف اللفظ والمعنى فصاحته تبارك الله مشي الدرّ في الكلم

بيت الشيخ عز الدين في هذا النوع عامر، وبيت الشيخ صفي الدين خراب لأنه غير
صالح للتجريد، ولم يظهر له معنى حتى يأتي بالمشبه به في البيت، وعلى هذا التقدير لم
يحصل في بيته ائتلاف بين اللفظ والمعنى .

وبيت بديعيتي أقول فيه عن النبي ﷺ :

تآلف اللفظ والمعنى بمدحته والجسم عندي بغير الروح لم يقم

٢ - ائتلاف اللفظ مع الوزن :

واللفظ والوزن في أوصافه ائتلفا فما يكون مديحي غير منسجم

هذا النوع، أعني ائتلاف اللفظ مع الوزن، قال قدامة: هو أن تكون الأسماء
والأفعال تامة لم يضطر الشاعر في الوزن إلى نقصها في البنية، ولا إلى الزيادة، ولا إلى
التقديم والتأخير. ومنهم من قال: هذا النوع لا مثال له بصورة معينة، لأنه عبارة عن أنه
لا يضطر إلى ما لا يلزمه منه فساد صورة المعنى وذهاب رونق اللفظ، كقول الفرزدق:

وما مثله في الناس إلا مملكاً أبو أمه حي أبوه يقاربه

وفي رواية: أخو أمه: فإن اضطرار الوزن حمله على رداءة السبك، فحصل في
الكلام تعقيد يمنع من فهم معناه بسرعة، ولو قال: وما مثله إلا مملك أبوه يقارب
خاله، لسهل مأخذه وقرب تناوله.

وبيت الشيخ صفي الدين في بديعته قوله:

في ظل أبلج منصور اللواء له عدل يؤلف بين الذئب والغنم

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم . وبيت الشيخ عز الدين الموصلي قوله:

أؤلف اللفظ مع وزن بمدحة مو لانا وذم عدو بين الثلم

قلت: ثقل الهمة في لفظة أؤلف، والوقوف لتحرير الوزن عند قوله: بمدحة
مولانا، كان سبباً في عدم ائتلاف اللفظ مع الوزن في بيت الشيخ عز الدين.

وبيت بديعيتي قلت فيه، عن النبي ﷺ بعد قولي فيه في ائتلاف اللفظ مع المعنى :
تألف اللفظ والمعنى بمدحته والجسم عندي بغير الروح لم يقم
وقلت بعده :

واللفظ والوزن في أوصافه ائتلفا فما يكون مديحي غير منسجم

٣- ائتلاف المعنى مع الوزن :

والوزن صح مع المعنى تألفه في مدحه فأتى بالدرّ في الكلم

هذا النوع، أعني ائتلاف المعنى مع الوزن: هو أن تأتي المعاني في الشعر
صحيحة، لا يضطر الشاعر في الوزن إلى قلبها عن وجهها، ولا إلى خروجها عن
صحتها، كقول عروة بن الورد:

فإني لو شهدت أبا سعاد فديت بنفسه نفسي ومالي
غداة غد بمهجته يفوق^(١) وما آله إلا ما يطيق^(٢)

فإنه أراد أن يقول: فديت نفسه بنفسه ومالي، فألجأته ضرورة الوزن إلى قلب
المعنى. ومهما كان الشعر سليماً من مثل هذا، كان الشعر الذي ائتلف معناه مع وزنه.
وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعيته قوله:

من مثله وذراع الشاة حذره عن سمه بلسان صادق الرتم^(٣)

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعيته
قوله:

تؤلف اللفظ والمعنى مدائحهم فللمعاني ترى الألفاظ كالخدم

قلت: بيت الشيخ صفي الدين، في هذا النوع، قاصر عن بيت الشيخ عز الدين،
فإن الشيخ عز الدين أتى أولاً بالانسجام والسهولة مع التورية بتسمية النوع وتمكين
القافية، فإن لفظة رتم، في بيت الشيخ صفي الدين غير ممكنة، وأيضاً فإن الوزن
والمعنى في بيت الموصلي في غاية الائتلاف.
وبيت بديعيتي قلت فيه:

واللفظ والوزن في أوصافه ائتلفا فما يكون مديحي غير منسجم

(١) يفوق: يوجد.

(٢) آلى: أقسم وحلف اليمين.

(٣) الرتم: الكلام الخفي.

وقلت بعده في ائتلاف المعنى مع الوزن:

والوزن صح مع المعنى تألفه في مدحه فأتى بالدر في الكلم

٤ - ائتلاف اللفظ مع اللفظ:

واللفظ باللفظ في التأسيس مؤتلف في كل بيت بسكان البديع حمي

هذا النوع، أعني ائتلاف اللفظ مع اللفظ: هو أن يكون في الكلام معنى يصح معه هذا النوع، ويأخذ عدة معان فيختار منها لفظة بينها وبين الكلام ائتلاف، كقول البحري في الإبل النحيلة:

كالقسي المعطفات بل الأسهم مبرية بل الأوتار^(١)

فإن تشبيه الإبل بالقسي كناية عن هزها، فلو شبهها بغير ذلك كالعرجون والبال جاز، ولكن المناسبة والائتلاف بين الأسهم والأوتار والقسي حسنت التشبيه.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعيته:

خاضوا عباب الوغى والخيل سابحة في بحر حرب بموج الموت ملتطم

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعتهم. وبيت الموصلي في بديعيته:

ساروا وجدوا النوى واللفظ مؤتلف من لسنٍ دمعي بلفظٍ جدٍ منسجم^(٢)

الذي فهمته من هذا النوع معنى الشطر الأول، وأما الشطر الثاني فما حصل بينه وبين هذا النوع ائتلاف.

وبيت بديعيتي قلت قبله:

والوزن صح مع المعنى تألفه في مدحه فأتى بالدر في الكلم

وقلت بعده، في ائتلاف اللفظ مع اللفظ:

واللفظ باللفظ في التأسيس مؤتلف في كل بيت بسكان البديع حمي

(١) القسي: جمع قوس - المعطفات: المحنات - الأسهم المبرية: المحددة الرؤوس.
(٢) جدوا النوى: أسرعوا بالبعاد والسفر. وقد ورد الشطر الثاني من هذا البيت بلفظ «خد» بدل «جد» التي أثبتناها وهي كما هو واضح، أصح وأقوم.

ذكر التمكين

تمكين سقمي بدا من خيفة حصلت لكن مدائحه قد أبرأت سقمي

هذا النوع أعنى، التمكين: وهو ائتلاف القافية، منهم من سماه بالتمكين، ومنهم من سماه بائتلاف القافية: وهو أن يمهد الناثر لسجعه فقرة، أو الناظم لقافية بيته تمهيداً تأتي به القافية ممكنة في مكانها، مستقرة في قرارها، غير نافرة ولا قلقة، ولا مستدعاة بما ليس له تعلق بلفظ البيت ومعناه، بحيث أن منشد البيت، إذا سكت دون القافية، كملها السامع بطباعه بدلالة من اللفظ عليها. وأكثر فواصل القرآن على هذه الصورة، والذي عقد البديعون عليه الخناصر في هذا الباب، قول أبي الطيب:

يا من يعز علينا أن نفارقهم وجداننا. كل شيء بعدكم عدم

وقال ابن أبي الأصبح: لم نسمع لمتقدم شعراً متمكناً في قافية أشد من تمكين النابغة الذبياني، حيث قال:

كالأقحوان غداة غب سوائه جفت أعاليه وأسفله ندي
زعم الغمام ولم أذقه بأنه يروي بريقته من العطش الصدي

قلت: ويعجبني هنا قول صدر الدين بن عبدالحق، ولعمري إنه أمكن وألطف وأظرف، وهو:

ورب ظبي أنس	حشاشتي ملكته
أسقيته أسكرته	حركته نبهته
نادمته أعجبته	حدثته أطربته
مددته كشفته	بلا طويل نكته

وبيت الحلبي على تمكين القافية قوله :

به استغاث خليل الله حين دعا رب العباد فنال البرد في الضرم^(١)
والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم . وبيت الشيخ عز الدين الموصلبي في بديعته
قوله :

تمكين حبك في قلبي نسخت به محبة الكل من عرب ومن عجم^(٢)
وبيت بديعيتي أقول فيه عن النبي ﷺ :
تمكين سقمي بدا من خيفة حصلت لكن مدائحہ قد أبرأت سقمي



(١) الضرم : النار الملتهبة، والبيت عبارة عن قوله تعالى: ﴿يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ .
(٢) النسخ : الإبطال، ومنه الناسخ والمنسوخ في القرآن، الآيات التي جاءت لتبطل أحكام آيات جاءت قبلها.

ذكر الحذف

وقد أمنت وزال الخوف منحذفاً نحو العدو ولم أحقر ولم أضم^(١)
هذا النوع، أعني الحذف، عبارة عن أن يحذف المتكلم من كلامه حرفاً من
حروف الهجاء، أو جميع الحروف المهملة، بشرط عدم التكلف والتعسف، وهذا هو
الغاية، كما فعل الحريري في المقامة السمرقندية، بالخطبة المهملة التي أجمع الناس
على أنها نسيج وحدها، وواسطة عقدها. [وقد عن لي] أن أوردتها ههنا بكمالها، وأورد
معها ما نسج المتأخرون على منوالها، وهي قوله:

الحمد لله الممدوح الأسماء، المحمود الآلاء، الواسع العطاء، المدعو لحسم
اللاؤاء، مالك الأمم، ومصور الرمم^(٢)، وأهل السماح والكرم، ومهلك عاد وإرم، أدرك
كل سرّ علمه، ووسع كل مصر حلمه، وعمّ كل عالم طوله، وهذّ كل مارد حوله، أحمده
حمد موحد مسلم، وأدعوه دعاء مؤمل مسلم، وهو الله لا إله إلا هو الواحد الصمد، لا
والد له ولا ولد، أرسل محمداً للإسلام ممهّداً، وللملة موطداً، ولأدلة الرسل مؤكداً،
وللأسود والأحمر مسدداً، وصل الأرحام، وعلم الأحكام، ووسم الحلال والحرام، ورسم
الإحلال والإحرام، كرّم الله محله، وكمل الصلاة والسلام له، ورحم آله الكرماء، وأهله
الرحماء، ما همم ركام^(٣) وهدر حمام، وسرح سوام^(٤)، وسطا حسام.

-
- (١) أضم: مجزوم أضام. أي لم أصب بأذى أو أتضايق.
(٢) الرمم: واحدها رمه وهي عبارة عن الهيكل العظمي البالي.
(٣) الركّام: الغيوم المركوم بعضها فوق بعض.
(٤) السوام: إلماشية.

اعملوا رحمكم الله عمل الصلحاء، واكدهوا لمعادكم كدح الأصحاء، وادعوا أهواءكم ردع الأعداء، وأعدوا للرحلة إعداد السعداء، وادّرعوا حبل الورع، وداووا علل الطمع، وسووا أود العمل، وعاصوا وساوس الأمل، وصوّروا لأوهامكم حؤول الأحوال، وحلول الأحوال، ومساورة الأعمال، ومصارمة المال والآل، وادّكروا الحمام وسرعة مصرعه^(١)، والرّمس وهول مطلقه^(٢)، واللحد ووحدة مودعه، والملك وروعة سؤاله ومطلعه، والمحو الدهر ولؤم كرهه، وسوء محاله ومكرهه، كم طمس معلماً، وأمر مطعماً، وطحطح عرمرما، ودمر ملكاً مكرماً، همه سك المسامع، وسح المدامع، وإكداء المطامع، وإرداء المسمع والسامع، عم حكمه الملوك والرعاغ، والمسود والمطاع، والمحسود والحساد، والأساود والأساد، ما مَوّل الآمال، وعكس الآمال، ولا وصل الأوصال، وكلم الأوصال، ولا سر إلا وسا^(٣)، ولؤم وأسا^(٤)، ولا أصح إلا ولّد الداء، وروع الأوداء.

الله الله، رعاكم الله، إلام مداومة اللهو، ومواصلة السهو، وطول الإصرار، وحمل الإصار، وأطّراح كلام الحكماء، ومعاضاة إله السماء، أما الهرم حصادكم، والمدر^(٥) مهادكم، أما الجمام مدرّكم، والصراط مسلككم، أما الساعة موعدكم، والساهرة موردكم، أما أهوال الطامة^(٦) لكم مرصده، أما دار العصاة الحطمة المؤصدة^(٧)، حارسهم مالك، ورواؤهم حالك، وطعامهم السّموم، وهوأؤهم السّموم^(٨)، لا مال أسعدهم ولا ولد، ولا عدد حماهم ولا عدد، ألا رحمه الله امرأ ملك هواه، وأكّم مسالك هداه، وأحكم طاعة مولاها، وكدح لروح مأواها، وعمل ما دام العمل مطاوعاً، والعمر موادعاً والصحة كاملة، والسلامة حاصله، ولا دهمه عدم المرام، وحصر الكلام، وإلمام الآلام، وحموم الحمام، وهذوء الحواس، ومراس الأرماس، آها لها حسرة ألمها مؤكّد، وأمدها سرمد، وممارسها مكمد^(٩)، ما لولها حاسم، ولا لسدمه^(١٠) راحم، ولا له

(١) الجمام: بكسر المهملة: الموت.

(٢) الرمس: القبر.

(٣) سا: ترخيم ساء: أحزن.

(٤) أسا: ترخيم أساء: أضرب.

(٥) المدر: الطين الذي لا يخالظه رمل.

(٦) الطامة: المصيبة الكبيرة، والقيامة.

(٧) الحطمة: نار جهنم - المؤصدة: المقفلة. التي لا يمكن الخروج منها.

(٨) السّموم: الريح الحارة (ريح جهنم). والرياح الخمسينية.

(٩) مكمد: مكبوت الحزن. مهموم.

(١٠) السدم: الهم مع الندم، أو الغيظ مع الحزن.

مما عراه عاصم، ألهمكم الله أحمد الإلهام، وردأكم رداء الإكرام، وأحلکم دار السلام،
وأسأله الرحمة لكم ولأهل ملة الإسلام، وهو أسمح الكرام والمسلم والسلام.

قلت: رحم الله أبا القاسم الحريري، أتى في عاطل هذه الخطبة بالسهل الممتنع،
ولكن ألجأته ضرورة العاطل، في مواضع، إلى الإتيان بألفاظ تفتقر إلى الحل. وقد تعين
هنا تفسيرها، لثلا يتعذر على الطالب مرام، ولا يحصل هذا الإشكال في مرآة الأفهام.

فالأواء: الشدة. والأحمر والأسود: العرب والعجم، ووسم بمعنى علم. وهمر
بمعنى صب والركام: السحاب المترام. والكدح: عمل الإنسان، من الخير والشر.
والأود: الموعج، والمسورة: الموائبة. وطحطح بمعنى هدّ وأهلك. والسكك ضيق
الصماخ. والرعاغ: السفلة. والأساود: الحيات. والأصار: جمع إصر، وهو الثقل.
والساهرة: قيل إنها عرصات القيامة، وقيل إنها وجه الأرض. انتهى.

[وأوقفني] رجل من طلبة العلم بحلب المحروسة، يقال له الشيخ بدر الدين بن
محمد بن الضعيف، سنة أربع عشرة وثمانمائة، على رسالة مشتملة على حكّم ومواعظ،
على طريق الفقهاء لا على طريق الأدباء، وسألني الكتابة عليها فامتنت من ذلك، فتوصل
إلى أن رسم لي مولانا المقر الأشرف القاضي الناصري محمد بن البارزي الجهني
الشافعي، صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية، رُوِّحَ اللهُ رُوحَهُ، وجعل
من الرحيق المختم غبوقه وصبوحه، أن أكتب له على رسالته العاطلة تقريظاً عاطلاً،
فقلت: هذا النوع من المستحيلات، فإن الخطب والوعظيات ثمرات، ألفاظها دانية
القطوف. وأما التقرّيز فالتوصل إلى تحصيل ألفاظه العاطلة غير ممكن، لأن كف المتناول
من ذلك صفر، والطريق مخوف، فلم يحصل عن المرسوم رجوع، وعلمت، أن الصرف
إلى غير الامتثال، ممنوع. [فكتبت] هذا التقرّيز الذي ما سبقني نادر إليه، ولا حام طائر
فكره عليه، وهو:

طالع المملوك رسالة محمد وسلم، وأحكم السمع والطاعة لكلامها المحكم. والله
ما سمعها عالم إلا وهام، ولا ردع سحرها الحلال مسلماً إلا كره الحرام، وعاد عاملاً
وأعد للصالح حواصله، وصار له مع الله معاملته. ما أحلى ما كرر عاطلها المحلي، وأهلاً
لسهولة مسلكها وسهلاً، ما لولد ساعة سعد أحكامها، ولا أهل العصر سكر إلا ما أدار
كأس مدامها، ولا لعمارة عامر صرحها ورهطه، ولا للصرّ در كلؤلؤها وسمطه^(١)، ولا لولد
مطروح مع طرحها المحرر مطارحه، ولا صار لولادة رسالة مسموعة ولا لسرحها آرام

(١) السمط: عقد اللؤلؤ.

سارحه، ولا مسارح الماء الحلو لملحها إلا كالآل^(١)، وما عامر ما أسه المعمار إلا أطلال، وما المطاعم الحلوة معها إلا مالحة، وما صوادح الكلام الصادح إلا حول دوحها صادحه، وما لطعم الراح مع حلاوة وردها راحه، ولا لسلسل الورد معها طلاوة ولو كلل الطل^(٢) أدواحه، ولا لسلك الدر در سلوكها، ولا للمسوك العاطرة عطر مسوكها.

ولم لا ومحكمها حرسه الله صار ملكاً ولحكمه أحكام، وكلام الملوك ملوك الكلام، لا إله إلا الله ما أسرار ولد آدم إلا حكمه، وما كلام الحكماء وما أحكامه إلا حرمه، وما أمة رسول الملك العالم إلا سادة الأمم، وما سماه صدورهم إلا مطالع أهل الحكم، أطال الله عمره وما ملها سامع، وأطلع هلال دالها^(١) وسعد السعود لها طالع، وحصل للعالم لما هل هلالها سرور، وأكرموا محلها وأحلوها الصدور. أحكامها عمدة لأمة محمد، وما أعادها السامع إلا صار العود أحمد:

سلسلوا دورها لسمع كساه درها وهو عاطل كل حلّه
لا سماع إلا لها لا كلام لسواها كره كره الله

وع ما حكاها، ولد همام أو رواه، واسمع مسامرة همام صعد طور الحكم وساعده الله، وحسم كل كلامه مادة العواطل، وسلسل لظروسه وسطوره سلاسل الدور ودور السلاسل، ولو سمعها ملك العواطل أمال رؤوس رماحه، وكل حذ سلاحه، وسع معالم العلم ومعاهده صدره، وأدر لأهل الموارد الحلوة والله دره، ما للكمال أصول سطوره الكاملة، ولا ورد مع رسول كرسالة محمد مراسله، رحم الله امرأ أطاع أوامر حكمها، وسمع مرسوم رسمها، ودارس ما أحكامه ممهدا وأملاه، أمد الله عمره والحمد لله.

والحلي بنى بيت بديعته، في باب الحذف، على العاطل، وهو:

آل الرسول محل العلم ما حكموا لله إلا وعدوا أعدل الأمم

والعميان ما نظمو نوع الحذف في بديعيتهم، وأنا والشيخ عز الدين تعذر علينا نظم الحذف عاطلاً، لأجل تسمية النوع في البيت، إذ فيه الذال والفاء ولا بد من التورية بتسمية النوع، كما شرط أولاً، فكل منا جنح في باب الحذف إلى جهة. أما الشيخ عز الدين فإنه ذكر أنه نظم بيته من الحروف النورانية المقطعة، وسمى الحذف في بيته إسقاطاً، فقال:

(١) الآل: السراب الذي يحسبه الظمان ماءً.

(٢) الدال: جمع الدالة وهي الشهرة والسلطان.

أروم إسقاط ذنبي بالصلاة على محمد وعلى صديقه العلم^(١)
وبيت بديعيتي حذفت منه الأحرف التي تنقط من تحت، وهو الذي نظمته بعد قولي:
تمكين سقمي بدا من خيفة حصلت لكن مدائحه قد أبرأت سقمي
فقلت:

وقد أمنت وزال الخوف منحذفاً نحو العدو ولم أحقر ولم أضم



(١) أروم: أتوخى وأقصد - الصديق: الخليفة الثاني أبو بكر وكان ملقباً بالصديق.

ذكر التدبيج

واخضر أسود عيشي حين دبجه بياض خطي ومن زرق العداة حمي

نوع التدبيج من مستخرجات ابن أبي الأصبع، وهو عبارة عن أن يذكر الناظم أو الناثر ألواناً يقصد بها التورية والكناية بذكرها عن أشياء، من تشبيب أو مدح أو وصف أو غير ذلك من الأغراض. فمن التدبيج على طريق التورية قول الحريري، في المقامة الزورائية: فمذ اغبر العيش الأخضر، وازور المحبوب الأصفر، اسود يومي الأبيض، وابيض فودي الأسود، حتى رثا لي العدو الأزرق، فحبذا الموت الأحمر.

ومنه، ما كتبت به جواباً عن مولانا السلطان الملك المؤيد رحمه الله إلى الجناب العالي الناصري محمد بن أبي يزيد بن عثمان. فإنه المجاهد الذي جعل حظ بني الأصفر، في البحر الأزرق من بيض سيوفه أسود، فأذاقهم الله به الموت الأحمر، وكمال التدبيج يقول أهلاً بعيش أخضر يتجدد.

ومن الأمثلة الشعرية في باب التدبيج قول ابن حيوس:

إن ترد خبر حالهم عن يقين فالفهم في منازل أو نزال^(١)
تلق بيض الوجوه سود مثار النقع خضر الأكناف حمر النصال
ومثله قوله:

بياض عزم واحمرار صوارم وسواد نقع واخضرار رحاب^(٢)

(١) النزال: الحرب.

(٢) الصوارم: السيوف - النقع: غبار الحروب.

وظريف هنا قول الشيخ زين الدين بن الوردي، من أبيات:

ولي صاحب بالمدح والهجو كسبه يقول أتدري كيف أصنع بالخلق
إذا حمروا وجهي وما بيضوا يدي أزرق لهم رجلي ولو خضروا عنقي^(١)

ويعجبني قول الشيخ عز الدين في هذا الباب:

خضرة الصدغ والسواد من العيون بياض المشيب قد أورثاني
واحمرار الدموع صفّر خدي كل ذا من تلونات الزمان

قلت: تلونات الزمان، في باب التدبيح، غاية في الحسن.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في التدبيح قوله:

خضر المراع حمر السمر يوم وغى سود الوقائع بيض الفعل والشيم^(٢)

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلبي في

بديعته:

خضر المراع حمر البيض سود ردى بيض الثنا فاستمع تدبيح وصفهم

قلت: ما يليق بالشيخ عز الدين ما اعتمده في بيت الشيخ صفي الدين، من أخذ

لفظه ومعناه، والحق أنه تلون في باب التدبيح على الصفي، وتحرم على الحلبي: وبيت

بديعيتي قولبي:

واخضر أسود عيشي حين دبجه بياض حظي ومن زرق العداة حمي

(١) حمّر الوجه: أحجل صاحبه - بيضوا يدي: بالعتاء والهدايا - أزرق لهم رجلي: أسرع لهم الخطو.

(٢) السمر: الرماح - المراع: الدور وأماكن النزول.

ذكر الاقتباس

وقلت يا ليت قومي يعلمون بما قد نلت كي يلحظوني باقتباسهم

الاقتباس: هو أن يضمن المتكلم كلامه كلمة من آية، أو آية من آيات كتاب الله خاصة، هذا هو الإجماع. والاقتباس من القرآن على ثلاثة أقسام: مقبول، ومباح، ومردود. فالأول، ما كان في الخطب والمواعظ والعهود ومدح النبي ﷺ ونحو ذلك. والثاني، ما كان في الغزل والرسائل والقصص. والثالث على ضربين: أحدهما، ما نسبه الله تعالى إلى نفسه، ونعوذ بالله ممن ينقله إلى نفسه، كما قيل عن أحد بني مروان أنه وقع على مطالعة فيها شكاية من عماله: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾^(١) والآخر تضمين آية كريمة في معنى هزل، ونعوذ بالله من ذلك، كقول القائل:

أوحى إلى عشاقه طرفه ﴿هيهات هيهات لما توعدون﴾^(٢)
وردفه ينطق من خلفه ﴿لمثل ذا فليعمل العاملون﴾^(٣)

ومن الاقتباسات التي هي غير مقبولة، قول ابن النبية في مدح الفاضل:

قمت ليل الصدود إلا قليلاً ثم رتلت ذكركم ترتيلاً
ووصلت السهاد أقبح وصل وهجرت الرقاد هجراً جميلاً
مسمعي كلَّ عن سماع عذول حين ألقى عليه قولاً ثقيلاً
وفؤادي قد كان بين ضلوعي أخذته الأحباب أخذاً وبيلاً^(٤)

(١) الغاشية، ٢٦/٨٨.

(٢) المؤمنون، ٣٦/٢٣.

(٣) الصافات، ٦١/٣٧، مع إبدال «ذا» ب «هذا».

(٤) وبيلاً: شديداً قاسياً.

قل لراقي الجفون إن لعيني في بحار الدموع سبحاً طويلاً
 ماس عجباً كأنه ما رأى غصناً ظليحاً ولا كثيباً مهيباً
 وحمى عن محبه كاس ثغر كان منه مزاجها زنجيبلاً^(١)
 بان عني فصحت في أثر العيد س ارحموني ومهلوم قليلاً
 أنا عبد للفاضل بن علي قد تبتلت بالثنا تبتيلاً^(٢)
 لا تسميه وعد بغير نوال إنه كان وعده مفعولاً^(٣)
 ونعوذ بالله من قوله بعد ذلك:

جل عن سائر الخلائق فضلاً فاخترعنا في مدحه التنزيلاً

واعلم أن الاقتباس على نوعين: نوع لا يخرج به المقتبس عن معناه، كقول
 الحريري: فلم يكن إلا كلمح البصر أو أقرب، حتى أنشد فأغرب. فإن الحريري كنى به
 عن شدة القرب، وكذلك هو في الآية الشريفة. ونوع يخرج به المقتبس عن معناه، كقول
 ابن الرومي:

لئن أخطأت في مدحيك ما أخطأت في منعي
 لقد أنزلت حاجاتي ﴿بوادٍ غير ذي زرع﴾^(٤)

فإن الشاعر كنى به عن الرجل الذي لا يرجى نفعه، والمراد به في الآية الكريمة
 أرض مكة، شرفها الله وعظمها.

ثم اعلم أنه يجوز أن يغير لفظ المقتبس منه، بزيادة أو نقصان أو تقديم أو تأخير أو
 إبدال الظاهر من المضمرة أو غير ذلك، فالزيادة وإبدال الظاهر من المضمرة، كقول
 الشاعر:

كان الذي خفت أن يكونا إنا إلى الله راجعونا

فزاد الألف في راجعون على جهة الإشباع وأتى بالظاهر مكان المضمرة في قوله: إنا
 إلى الله، ومراده آية التعزية في المصيبة، وهي قوله تعالى: ﴿إنا لله وإنا إليه

(١) الزنجيبيل: من المشروبات الروحية. وهو قريب من الخمرة.

(٢) تبتل: انقطع لعبادته ومنه البتول مريم التي انقطعت لعبادة ربها.

(٣) مفعولاً: نافذاً - وسام: طلب. و«وعد» وردت بالرفع وكان حقها النصب «وعداً».

(٤) ابراهيم، ٣٧/١٤.

راجعون»^(١). والنقصان ما تقدم من قول الحريري: فلم يكن إلا كلمح البصر أو أقرب، فإنه أسقط لفظة هو، إذ الآية الكريمة لفظها: «كلمح البصر أو هو أقرب»^(٢). والتقديم والتأخير، كقول الشاعر:

قال لي إن رقيبني سيء الخلق فبداره
قلت دعني وجهك الجنة حفت بالمكارة

هذا الاقتباس من الحديث، فإنه تقدم أن الإجماع على جواز الاقتباس من القرآن ومنهم من عد المضمن في الكلام من الحديث النبوي اقتباساً، وزاد هنا الطيبي في الاقتباس من مسائل الفقه، والشاعر قدم في لفظ الحديث وأخر، لأن لفظ الحديث: حفت الجنة بالمكارة، ومن هنا يتبين لك قطع نظرهم في الاقتباس عن كونه نفس المقتبس منه، ولولا ذلك للزمهم الكفر في لفظ القرآن، والنقص منه، ولكنهم يأتون به على أنه لفظ القرآن، ومن أمثله الشعرية قول الحماسي:

إذا رمت عنها سلوة قال شافع من الحب ميعاد السلو المقابر
سبقي لها في مضمرة الحب والحشا سرائر تبقى يوم تبلى السرائر^(٣)

ومنه:

أهدى إليكم على بعد تحيته حيوا بأحسن منها أو فردوها

ويعجبني هنا قول ابن سنا الملك في بعض مطالعه:

رحلوا فليست مسائلأ عن دارهم أنا باخع نفسي على آثارهم^(٤)

ومن لطائف هذا الباب قول القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر في معشوقه المسمى بالنسيم:

إن كانت العشاق من أشواقهم جعلوا النسيم إلى الحبيب رسولا
فأنا الذي أتلو لهم «يا ليتني كنت اتخذت مع الرسولا سبيلا»^(٥)

ومثله في الحسن، قول شيخ شيوخ حماة المحروسة رحمه الله تعالى:

(١) البقرة، ١٥٦/٢.

(٢) النحل، ٧٧/١٦.

(٣) السرائر: الأولى: الأسرار، والثانية: النوايا أو مكان الأسرار وتبلى: تختبر وتجرب.

(٤) باخع نفسه: قاهرها وقتلها غيظاً وغماً.

(٥) الفرقان، ٢٦/٢٥. بزيادة «كنت» عليها.

حتى انقضت وأدامتني على وجل
فقال لي ﴿خلق الإنسان من عجل﴾^(١)

بكى على حالي من لا بكي
يا أيها الإنسان ما غركا

ونهار مبسمه إذا جلاها
وبليل صدغيه إذا يغشاها
صدقت وأفلح من بذا زكاهها
قدألهمت بفجورها تقواها
والعدل منبعث له أشقاها

نزلوا بعين باصره
فإذا هم بالساهره^(٢)

ومنه قول الشيخ جمال الدين بن نباته رحمه الله تعالى :

وأسهرت الأجفان أجفانه الوسنى^(٣)
ترى السحر منه قاب قوسين أو أدنى

يا نظرة ما جلّت لي حسن طلعته
عاتبت إنسان عيني في تسرعه

ومثله: إن دمعت عيني فمن أجلها
أوقعتني إنسانها في الهوى

ومثله: قسماً بشمس جبينه وضحاها
وبنار خديه المشعشع نورها
لقد ادعت دعاوياً في حبه
فنفوس عدّالي عليه وعدّري
فالعذر أسعدها مقيم دليله

ومنه قول القاضي محيي الدين بن قرناص:

إن الذين ترحلوا
أنزلتهم في مقلتي

وأغيد جارت في القلوب لحاظه
أجل نظراً في حاجبيه وطرفه

ومنه قول الشيخ زين الدين بن الوردي رحمه الله تعالى :

قال يا أهل الفتوة
فأعينوني بقوة^(٤)

رب فلاح مريح
كفلي أضعف خصري

ومنه قول المعمار:

برح بي موته وأذى
﴿يا ليتني مت قبل هذا﴾^(٥)

ابن الجمالي مات حقاً
ورحت أقرأ عليه جهراً

(١) الأنبياء، ٣٧/٢١. وإنسان العين: يؤبؤها.

(٢) الساهرة: من الأرض المنبسطة المطمئنة، وجهها.

(٣) الأغيد: الفتاة التي تتمايل في مشيها(العادة) - الوسنى: الناعسة.

(٤) الكفل: الردف أو العجيزة.

(٥) مريم، ٢٣/١٩.

ويعجبني في هذا الباب قول سيدنا الإمام القدوة، الحافظ الشيخ شهاب الدين بن حجر العسقلاني الشافعي، تغمده الله برحمته، وهو:

خاض العواذل في حديث مدامعي لما جرى كالبحر سرعة سيره
فحبسته لأصون سر هواكم ﴿حتى يخوضوا في حديث غيره﴾^(١)

وقلت:

ناحت مطوقة الرياض وقد رأت تلوين دمعي بعد فرقة حبه
لكن به لما سمحت تباخلت فغدت مطوقة بما بخلت به

وهنا فائدة يتعين ذكرها في هذا الباب، وهي أن العلماء في هذا الباب قالوا: إن الشاعر لا يقتبس بل يعقد ويضمن، أما الناثر فهو الذي يقتبس كالمنشئ والخطيب، فمن ذلك قول الحريري: فطوبى لمن سمع ووعى، وحقق ما ادعى، ﴿ونهى النفس عن الهوى﴾^(٢)، وعلم أن الفائز من ارعوى، ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى﴾^(٣)، وقوله: ﴿أنا أنبئكم بتأويله﴾^(٤)، وأميز صحيح القول من عليه. وكقول ابن نباتة الخطيب في الخطب التي في ديوانه: أما أنتم بهذا الحديث تصدقون، ما لكم لا تشفقون، ﴿فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾^(٥).

قلت: وأما عبد المؤمن الأصفهاني، صاحب أطباق الذهب، فإنه عنوان هذا الكتاب، وإمام هذا المحراب، فمن قوله في الأطباق: فمن عاين تلوين الليل والنهار لا يغتر بدهره، ومن علم أن بطن الثرى مضجعه لا يمرح على ظهره، فيا قوم لا تركضوا خيل الخيلاء في ميدان العرض، ﴿أمتتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض﴾^(٦). وقوله: ولو علم الجذل صولة النجار، وعضة المنشار، لما تناول شبرا، ولا تخايل كبرا، وسيقول البلبل المعتقل ليتني كنت غراباً، ﴿ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾^(٧)، وقوله:

الله تحت قباب العز طائفة أخفاهم في رداء الفقر إجلالا

(١) النساء، ٤/١٤٠.

(٢) النازعات، ٧٩/٤٠.

(٣) النجم، ٣٩/٥٣ و ٤٠.

(٤) يوسف، ١٢/٤٥.

(٥) الذاريات، ٥١/٢٣.

(٦) الملك، ٦٧/١٦.

(٧) النبأ، ٧٨/٤٠.

هم السلاطين في أطمار مسكنة
هذي المكارم لا ثوبان من عدن
هذي المناقب لا قعبان من لبن
استعبدوا من ملوك الأرض أقبالا (١)
خيطا قميصاً فعادا بعد أسمالا
شييا بماء فعادا بعد أبوالا (٢)

هم الذين جبلوا براء من التكلف، ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾ (٣) وقوله أهل التسييح والتقديس، لا يؤمنون بالتربيع والتسدیس، والإنسان بعد علو النفس، يجلب عن ملاحظة السعد والنحس، وإن في الدين القويم، لشغلاً عن الزيغ (٤) والتقويم. الإيمان بالكهانة، باب من أبواب المهانة، فأعرض عن الفلاسفة، وغض بصرك عن تلك الوجوه الكاسفة، فأكثرهم عبدة الطبع، وحرسة الكواكب السبع، فما للمنجم الغبي، وما للكاهن الأجنبي، وسرِّ حُجِبَ عن غير النبي، وهل ينخدع بالقال إلا قلوب الأطفال، وإن أمراً جهل حال قومه، وما الذي يجري عليه في يومه، كيف يعرف حال الغد وبعده، ونحس الفلك وسعده، وإن قوماً يأكلون من قرصة الشمس (٥) لمهزولون، وإنهم عن السمع لمعزولون، ما الموات إلا مجاهل والكواكب ضواها، وما النجوم إلا هياكل سبعة ومن الله قواها، كل يسري لأمر معمي، ﴿وكل يجري لأجل مسمى﴾ (٦).

وقوله: الحرص يسبل على وجوه الظلمة براقعا، والظلم يدع الديار بلاقعا (٧)، يرضون طيب الحياة وينسون يوم النشور، ويفتكون فتك البراة ويؤملون عمر النسور. فلا تغرنك من الظلمة كثرة الجيوش والأنصار، ﴿إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ (٨). وقوله: اغتنم فودك (٩) الفاحم قبل أن يبيض، فإنما الدنيا جدار يريد أن ينقض، فلا يغرنك قطفها النضيج هو ﴿غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج﴾ (١٠) وقوله في آخر مقالة من الأطباق: تلك أمة قد خلت ذكروا الله في الخلوات، ﴿فخلف من بعدهم خلف

(١) الأطمار: الثياب البالية - الأقبال: جمع مفرده قيل وهو الملك العظيم.

(٢) المناقب: الأعمال الجليلة - قعبان: مثني قعب وهو القدح الضخم أو وعاء الحلب.

(٣) البقرة: ٢٧٣/٢.

(٤) الزيغ: خيط البناء الذي يمد على الحائط لتضييطة المداميك.

(٥) فرصة الشمس: عينها.

(٦) الرعد، ٢/١٣ وفاطر، ١٣/٣٣٥، والزمر، ٥/٣٩.

(٧) بلاقع: مقفرة.

(٨) إبراهيم، ٤١/١٤.

(٩) الفود: جانب الرأس مما يلي الأذنين إلى الأمام. الشعر الذي عليه.

(١٠) الحد، ٢٠/٥٧.

أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ﴿١﴾. وقوله: أصدق الأرواح روحان ممتزجان، وأخلص القلوب قلبان يزدوجان، يتصاحبون ﴿قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾ ﴿٢﴾، وآخرون ﴿يقولون بألستهم ما ليس في قلوبهم﴾ ﴿٣﴾. وقوله لله دره: فيا هذا لا تحسد المتنعم على ترفه، ولا تغبط المتكبر على شرفه، وقل له إذا برزت الجحيم وقدم له الحميم، ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ ﴿٤﴾. وقوله: أليس من الخسران جزار يأكل الميت، ومكّي لا يزور البيت، فلا تكن كالجمال الطليح ﴿٥﴾ يحمل لغيره أسفاراً، ولأنك ﴿كالحمار يحمل أسفاراً﴾ ﴿٦﴾.

قلت: هذا القدر الذي أوردته هنا كافٍ في الاقتباسات التي تليق بمواعظ الخطب، فيتعلم بليغ الخطباء منها سلوك الأدب، ولم يبق إلا إظهار نور الاقتباس من مشكاة نور المترسلين، فإنهم ملوك هذا الشأن، ومن استضاء بسحر اقتباسهم قال إن هذا إلا سحر مبین. [ومن ذلك] قول مالك أزمة هذا الفن القاضي الفاضل من تقرّظ ورأيت كل معترض غيره لصناعة البديع لاهجاً بالبدعه خارجاً عن الشرعه، دارجاً في غير عشه، مخرجاً ميت القول من طرسه على نعشه، فهي المدام وما دون فهم عنها قدام، ووفود بلاغة لو وجهت إلى الجنة لقال رضوانها ﴿ادخلوها بسلام﴾ ﴿٧﴾ وكل ابنة فكر ما طالعت فكره إلا صاح لسان طربه ﴿يا بشرى هذا غلام﴾ ﴿٨﴾ وكل غصن ألف وكل همزة حمام، وفيها وفيها، وأخاف أن أقول ولا أوفيها، وليت هذه المحاسن وليت الأسماع، وألقت القناع، وفي العمر مستمتع، وفي قوس الشبيبة منزع، ولكن ضاق فتر عن مسير، وجاء فضلها الأوّل في الزمن الأخير، وقد حان أن تخيب في البلاغة القدحان ﴿٩﴾، وأنى وإنه ﴿قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ ﴿١٠﴾.

وقوله: لا زالت الملوك تنزل لركوبه، والسيوف تضحك لقطوبه، وأسبغ عليه نعمه باطنة وظاهره، وكتب له في الدنيا حسنة وفي الآخرة، وغض عيون أعدائه فإذا هم

(١) مريم، ٥٩/١٩.

(٢) آل عمران، ١٩١/٣.

(٣) آل عمران، ١٦٧/٣.

(٤) الدخان، ٥٩/٤٤.

(٥) الطليح: المهزول المجهود.

(٦) الجمعة، ٥/٦٢.

(٧) الحجر، ٤٦/١٥.

(٨) يوسف، ١٩/١٢.

(٩) القدحان: جمع مفردة قدح وهو ما كان يستقسم به أو قدح: وهو الإناء.

(١٠) يوسف، ٤١/١٢.

بالساهرة (١). وقوله: وقف الخادم على الكتاب فارتقى إلى سماء المكرمات وكانت سطوره درجا، وأضاءت في خاطره فما استمدت مداداً ولكن أذكت سرجاً، ونهجت له طريق السعادة فلله من كتاب لولا الغلو لقلنا من كتاب ﴿لم يجعل له عوجاً﴾ (٢). وقوله: ورد على الخادم الكتاب الكريم فشكره وقربه نجياً ورفع مكاناً علياً، وأعاد عليه عصر الشباب وقد بلغ من الكبر عتياً. وقوله: كتبها الخادم وقد أخرجت السماء أثقالها، وفتحت من العز إليّ أقبالها، وركضت الرعود لابسة من الغيم جلالها، وثوب الليل بالغمام غسيل، وسبح (٣) الظلام بسيف البروق قتيل. وقد زادت السيول إلى أن صارت الخيام عليها فواقع، وهمهم الرعد قارئاً فاستقبلت قبابها بين ساجد وراكع، وكأن الصباح قد ذاب في الليل قطراً، وكان البرق لما ساوى الغمام بين صدفي الليل والنهار قال: أتوني أفرغ عليه قطراً. وقوله: ونفذت بلاغته بسلطانها، ونفتت بسحر بيانها، وصلي القلم من يده في محراب، ومن طرسه على سجادة وجاء منه كتاب، لو كان البحر مداداً لما زاده، وكم كتاب لا يساوي مداده ﴿وأخذت الأرض زخرفها﴾ (٤) وحملت من الأسلحة أحرفها، وشنت الغارة على السمع والبصر، فسلم لها من سلم وبهت الذي كفر. وقوله: النوبة البغدادية الحديث فيها زائد وناقص، والخبر عنها مشوب وخالص، وابن أبي عصرون قوم يقولون قد وزر، وقوم يقولون كلا لا وزر. وقوله: وقفت على تلك الألفاظ المجنسة التي هي ذرية بعضها من بعض، وثمرات الجنة فكلما رزقت منها رزقاً قلت كقول أهلها: الحمد لله الذي أورثنا الأرض.

وقوله: ومما يجب أن يعانیه تربية الحمام التي سكنت في البروج فهي أنجم، وأعدت كنانتها للحاجات فهي أسهم، وقد كادت أن تكون من الملائكة فإذا نيطت بها الرقاع، صارت أولي أجنحة مثني وثلاث ورباع. وقوله: وعملوا الأبرجة الخشبية، وزحفوا بها إلى الأبراج الحجرية، وخصوصاً إلى برج يعرف بالذباب، ولكن حماه ذباب السيف الإسلامي من الذباب، فلم يقدرُوا أن يستنقذوه، وضعفوا عنه فسلبهم أرواحهم ﴿وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه﴾ (٥). وقوله: والإسلام مد إلى تراهه باعاً طويلاً، وألقى عليه الشرك من أسنة السيوف قولاً ثقيلاً، وحصون العدو قامت قيامتها فحالها اليوم كيوم

(١) الساهرة: من الأرض المنبسطة المطمئنة. وجهها.

(٢) الكهف، ١/١٨.

(٣) السبح: نوع من الخرز أسود اللون، وسبح الليل سواده.

(٤) يونس، ٢٤/١٠.

(٥) الحج، ٧٣/٢٢.

تكون الجبال كثيباً مهيباً. وقوله، مما كتب به عن السلطان الملك الناصر إلى أمير المؤمنين المستضيء بالله، وهو: سلام قولاً من رب رحيم ﴿وروح وريحان وجنة نعيم﴾^(١)، مملوك العتبات الشريفة وعبدها، ومن اشتمل على خاطره ولاؤها وودها، ينهى أن الله سبحانه شرف ملة الإسلام على الملل، ودولة أمير المؤمنين على الدول، وقد أقام سيفه حساب الكفرة فأظهر تحريف حسابها، ونقلها من ظهور أسرتها إلى بطون ترابها، فهل ترى لهم من باقيه، أو تسمع لهم من لاغيه، وظلت أقحاف بني حام تحت غربان الفلاة غربانا، وشوهدت ظلمات بعضها فوق بعض أفعالاً وألواناً. وعزت سيوف الإسلام فظلت أعناقهم لها خاضعين، وعوتبت منهم الأنفس والرؤوس فقالتا أتينا طائعين.

ومن اقتباسات القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر البديعة، قوله، من رسالته التي كتبها عن السلطان الملك الظاهر إلى شمس الدين آق سنقر الفارقاني، جواباً عن كتابه الذي أرسله بفتوح النوبة، لما توجه إليها من الديار المصرية، [وهو]: أدام الله نعمة المجلس ولا زالت عزائمه مرهوبه، وغنائمه مجلوبة ومحبوبة، وسطاه وخطاه هذي تكفي النوب^(٢) وهذه تفتح أرض النوبة، ولا برحت وطأته على الكفار مشتده، وآمالها لهلاك الأعداء كرماحه ممتده، ولا عدمت الدولة بيض سيوفه التي يرى بها الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة. صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس تثنى على عزائمه التي دلت على كل أمر رشيد، وأتت على كل جبار عنيد، وحكمت بعدل السيف في كل عبد سوء ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾^(٣) والله يشكر تفاصيل همم المجلس وجملها، وآخر غزواته وأولها، وإذا انسلخ نهار سيفه من ليل هذا العدو يعود سالماً إلى مستقره، ﴿والشمس تجري لمستقر لها﴾^(٤).

وقوله: في وصية العهد الشريف الذي أنشأه للسلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل، عن والده الملك المنصور قلاوون الصالح رحمة الله، وهو: والشرع الشريف هو قانون الحق المتبع، ومأمون الأمر المستمع، به يتمسك من يمتاز^(٥) ويمتاز، وهو جنة والباطل نار، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز.

[ومن ذلك] اقتباس العلامة أبي طاهر إسماعيل بن عبد الرزاق الأصفهاني، في

(١) الواقعة، ٨٩/٥٦.

(٢) النوب: الكوارث والمصائب.

(٣) فصلت، ٤٦/٤١.

(٤) يس، ٣٨/٣٦.

(٥) إمتاز: وامترى: شك وجادل.

رسالة القوس وهو صورة مركبة، ليس لها من تركيب النظم، إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا أو ما اختلط بعظم.

[ومن ذلك] ما أورده الشيخ جمال الدين بن نباتة من الاقتباسات البديعية، في رسالة السيف والقلم، فرقى الأنامل على أعواده وقام خطيباً بمحاسنه في خلعة سواده، والتفت إلى السيف فقال: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم * ن والقلم وما يسطرون * ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾^(١) الحمد لله الذي علم بالقلم، وشرفه بالقسم، وخط به ما قدر وقسم، وصلى الله على سيدنا محمد القائل: جف القلم بما هو كائن، وعلى آله وصحبه ذوي المجد البين وكل مجد بائن، صلاة واضحة السطور، فاتحة أدراج الصدور، ما نقلت عن صحائف البحار غواديها، وكتبت أقلام النور على مهارق الرياض حكمة باريها.

أما بعد: فإن القلم منار الدين والدنيا، وقصة سباق ذوي الدرجة العليا، ومفتاح باب اليمن المجرب إذا أعبى، وسفير الملك المحجب، وعذيق الملك المرجب^(٢)، وزمام أموره السائره، وقادمة أجنحته الطائره، وأنملة الهدى المشيرة إلى ذخائر الدنيا والآخرة، به رقم كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل، وسنة نبيه ﷺ التي تهذب الخواطر الخواطل^(٣). فبينه وبين من يفاخره الكتاب والسنة، وحسه ما جرى على يده الشريفة من منة، إن نظمت فرائد العلوم فالقلم سلكتها، وإن علت أسرة الكتب فإنما هو ملكها. هذا، وهو الجاري بما أمر الله به من العدل والإحسان، والمسود الناظر فكأنما هو لعين الرأي إنسان، طالما قاتل على البعد والصوارم في القرب، وأوتي من المعجزات نوعاً من النصر والرعب، لا يعاديه إلا من سفه نفسه، ولبس لبسه، وطبع على قلبه، وفل الجدل من غربه، وكيف يعادى من إذا كرع من نفسه^(٤). فقل: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾^(٥) وإذا ذكر شأنه فقل: ﴿إن شأنك هو الأبر﴾^(٦). فعند ذلك نهض السيف عجباً، وتلمظ لسانه للقول مرتجلاً، وقال: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم... وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز﴾^(٧).

(١) القلم، ١/٦٨ و ٢.

(٢) العذيق: الذكي اللبق - والمرجّب: المبيّج، المعظم والمهيب.

(٣) الخواطل: جمع خاطل وهو خطأ الرأي، والخواطر بمعنى الآراء.

(٤) النفس: المداد.

(٥) الكوثر، ٣/١٠٨.

(٦) الكوثر، ١/١٠٨.

(٧) الحديد، ٢٥/٥٧.

الحمد لله الذي جعل الجنة تحت ظلال السيوف، وشرع حدها في ذوي العصيان فأغصتهم بماء الحتوف، وشيد بها مراتب الذين يقاتلون في سبيله صفاً، كأنهم بنيان مرصوص وعقد مرصوف، وصلى الله على سيدنا محمد هازم الألوف، وعلى آله وأصحابه الذين طالما محوا بريق الصوارم من سطور الصفوف، وسلم.

أما بعد فإن السيف زند الحق القوي وزنده الوري، به أظهر الله الإسلام وقد جنح خفاء، وجلا شخص الدين الحنيفي وقد جمح جفاء، وأجرى سيوله بالأباطح فأما الحق فمكث وأما الباطل فذهب جفاء، وحملته اليد الشريفة النبوية، وخصته على الأقلام بهذه المزية، وأطلعت في ليالي النقع^(١) والشك سراجاً وهاجاً، وفتح باب الدين إلى أن دخلت فيه الناس أفواجا، فهو ذو العزم الثاقب، وسماء المجد الذي زين آثاره بزينة الكواكب، والحد الذي كأنه ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب، تحسم به أدواء الفتن المضلة، وتحذف هممه الجازمة حروف العلة، ويحيى من سماء القتام بالضرب فقل: يسألونك عن الأهله، يجلس على رؤوس الأعداء قهراً، ويصرع أبناء الشجاعة قائلاً للقلم: ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا. وهل يفاخر من وقف الموت على بابه، وعضت الحرب الضروس بنابه، وقذف شياطين القراع بشهبه، ومنح آيات شريفة منها طلوع الشمس من غربه، ومنها أن الله أنشأ برقه، وكان للمارد مصرعا، وللرائد مرتعا، ﴿ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً﴾^(٢) فقام القلم في دواته وقعد، واضطرب على وجه القرطاس وارتعد، وانحرف إلى السيف وقال أيها المضر بطبعه، المغر بلمعه، الناقض حبل الأنس بقطعه، الناسخ بهجره من ظلال العيش فياً، السراب الذي يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، الحبيس الذي طالما عادت عليه عوائد شره الكمين، الإبلis الذي لو أمر لي بالسجود لقال ﴿خلقتني من نار وخلقته من طين﴾^(٣)، فاقطع عنك أسباب المفخرة واستر من نابك في هذه المكاشرة، فما يحسن بالصامت محاورة المفصح، والله يعلم المفسد من المصلح، أولست الذي قيل فيه:

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحل دم الحجاج في الحرم؟!

فدع عنك هذا الفخر المديد، وتأمل قدرى إذا كشف عنك الغطاء ﴿فبصرك اليوم حديد﴾^(٤).

(١) النقع: الغبار الذي يحجب الرؤية.

(٢) الروم، ٢٤/٣٠.

(٣) الأعراف، ١٢/٧.

(٤) حديد: قوي جداً. ق، ٢٢/٥٠.

قلت: ولولا خشية الإطالة لأوردت هنا رسالة السيف والقلم بكمالها، ولكن في هذا القدر من نور اقتباسه ما يهتدي به الأعشى، ويستغني بإنشائه عن سلافة الإنشا.

ومن غريب اقتباسات الشيخ جمال الدين أيضاً، ما كتب به مع منقذ نحاس، [وهو قوله فيه]: طالما حمدت معاشرته ولذت في الليالي مسامرتة، وأطلع من أفقه نجوماً سعيدة القرآن، وتلا على الريح والثلج ﴿يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران﴾^(١). [ومن ذلك] بديع الاقتباس للشيخ زين الدين بن الوردي في خطبته في الكلام على المائة غلام. [وهو]: لعمرى ما أنصفتني من أساء بي الظن، وقال إني رضيت مع درجة العلم بهذا الفن، والصحابة كانوا ينظمون وينثرون، ونعوذ بالله من قوم لا يشعرون. [ومن ذلك] قوله في توقيع عدالة بعض الشهود بحلب المحروسة، [وهو]: الحمد لله الذي شاد رتبة العدالة وحماها، وجعلها همة من شرفت نفسه فركت ﴿وقد أفلح من زكاها﴾^(٢) وعصمة من فرقة في قلوب الحكام من نار تدليسهم وقود، ﴿وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود﴾^(٣). [ومن ذلك] ما كتب به عنه وعن أخيه يوسف: وإذا عني الصاحب بالأخ رفقا وإحساناً، تلونا ﴿هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا﴾^(٤)، والله يعلينا بعلوك، وبلغنا مرجونا ببلوغ مرجوك، حتى يقول أولاد الصاحب عنا ﴿ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا﴾^(٥). [ومن ذلك] ما كتب به بقية السلف، الشيخ زين الدين أبو بكر العجمي، على قصيدتي الكافية البرهانية، تقریظاً أشرفت أقطار الأدب بنور اقتباسه، والاقتباس في التقریظ: فیا له من قصيد رد عیون أعیان هذه الصناعة من الحياء مطرقة، تالية على من قاسها بامرئ القيس ﴿فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة﴾^(٦). [ومن ذلك] ما كتب به الشيخ برهان الدين القيراطي إلى الشيخ جمال الدين بن نباتة: يقبل الأرض التي سقت السماء نباتها، وعمر الله بمعاني الحسن أبياتها.

[منها]: فلا غرو أن فصح بديع الزمان بلفظه البديع، وأزهرت الأوراق بمتشور رسائله التي كل فصل منها ربيع، وخجلت صفحة الخد المنمنمة بطراز العذار المرقوم، وقالت الكؤوس حين شبهت في إمالة الأعطاف بألفاظه وما منا إلا له مقام معلوم. [ومنها]:

(١) الرحمن، ٣٥/٥٥.

(٢) الشمس، ٩/٩١.

(٣) البروج، ٧/٨٥.

(٤) يوسف، ٦٥/١٢.

(٥) يوسف، ٨/١٢.

(٦) النساء، ١٢٩/٤.

فسبحان من أسرى بها في ليل نفسها إلى المحل الأقصى، وجباها بالفضل الذي لا يحصى، وأبنت دوحتها في رياض الفصاحة، ونمق حداثتها التي لو فتح النرجس عينه في عينها لنسب إلى الوقاحة. فتبارك الذي جعل في سماء دوحته لشمس بلاغته بروجاً، وأعلى هممه التي لا ترضى الشهب جياداً والأهلة سروجاً، حتى أقام يراع قلمه لسوق الأدب قصبه، وشاد من قصائده كل بيت إذا مر الحاسد ببابه قبل العتبه، وسارت كالسبعة السيارة مصنفاته، وعلت من قصره المشيد بسيئات سطوره شرفاته، وفديت بالمباسم والقُدود ميماته وألفاته، وزهت أمداحه المؤيدية فأصبت بيوته المرفوعة ذت العماد، وراقت محاسنها التي لم يخلق مثلها في البلاد، وفضحت لسهلها الممتنع أدباء العصر الذين جابوا الصخر بالواد. [ومنها]: طالما سرح الناظر في بستانها منظره، ورام ابن سكرة فتح الأبواب لمعارضة قطرها النباتي فوجدها مسكرو، وعلم المتنبّي أن هذا خاتم الأدباء لا محاله، والمترسل الذي نهض دونه بأعباء كل رساله، وأقام بتقديمها على غيرها براهين الاحتجاج، وقال الملحي عندما قابل بحرهما الحلو ببحره ﴿هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج﴾^(١).

ومن ذلك ما نقلته من خط صاحب فخر الدين بن مكاس، تغمده الله برحمته [وهو]: ورد علينا شخص من أهل القيروان ضرير، يسمى عبد الله الزغبى يتعاطى نظم الشعر المقفى الموزون الخالي عن المعاني، فتردد إليّ في مجالس متفرقة، ثم بلغني أنه وشى إلى صاحبنا الشيخ زين الدين بن أبي بكر العجمي، عين كتاب الإنشاء الشريف، أنني اهتضمت جانبه، وانتقصته وغضيت منه بالنسبة إلى الأدب، وأنه يستعين بكلام الغير كثيراً فتأذى من ذلك. وتأذيت من كذب الناقل، فكتبت: ﴿ليس على الأعمى حرج﴾^(٢) بلغني، بلغ الله سيدنا ومولانا الإمام العالم العلامة الأديب الشاعر الناظم الناثر المحقق الأمة الكاتب الحجة زين الدنيا والدين قرة عين الكرام الكاتبين، أقصى ما ينتهي إليه تنافس المتنافس، وتبتهج به صدور الأولياء والرؤساء والمجالس، ولا زال زينة يحلّي به العاطل، ويظل تحت جناح أدبه القائل، من غيبة ذلك الضرير، ما لا خشى الله فيه بظهر الغيب، ونقل إلى المسامع الكريمة ما لا يحتاج للاعتذار عنه لما فيه من الريب، ولكن لا غناء لسيف ذهن المملوك الكليل من التنصل، ولا بد من نهلة اعتذار على سبيل التعلل. وكان المملوك يترب سبباً للمطارحة، فهذا المغتاب الآن صار عنده محموداً، إذ كان السبب لحسن التوسل إلى صناعة الترسل. [ومنها] فلو اختلف الأدباء على إمام لأهل هذه

(١) فاطر، ١٢/٣٥.

(٢) النور، ٦١/٢٤.

الصناعة مطهر من الأرجاس، لقال لهم لسان البلاغة مروا أبا بكر فليصل بالناس، فكيف يسوغ للمملوك أن يدعي غير هذا، وكيف ولمَ ولماذا؟ أحسداً على الأدب فما أهجرني له من عصر الصبا بحمد الله وما أغناني، أو تفاخراً بالنظم فما أشغلني عنه بتدبير الممالك بما عناني. نعم، وإن كان جوهر الألفاظ مما يحسد عليه فما أزهديني والله في هذا العرض الفاني. [ومنها] والمسؤول من احسانه أمران: الجواب فإنه يقوم عند المملوك مقام الفرج من هذه الشدة، والآخر رد كل فاسق عن الباب العالي فإن أبا بكر أول من تصلب في الرِّدَّة^(١). وبلغ المملوك أن هذا الضرير قصد بعض الأصحاب برمية كهذه فأصمى، وتردد إليه مرة أخرى ﴿فعبس وتولى أن جاءه الأعمى﴾^(٢).

[ومن ذلك] ما كتبت به إلى المقر الصاحبى الفخر المشار إليه بعد توجيهي من خدمته إلى دمشق المحروسة، ومشاهدتي ما قدر الله عليها من الحريق والحصار من قبل الملك الظاهر، سنة إحدى وتسعين وسبعمائة. وهذه الرسالة التي سارت بها الركبان، وجاء لبديع الاقتباس في معانيها بيان، [وهي]: يقبل الأرض التي من يممها أو تيمم ترابها حصل له الفخر والمجد، فلا برح هيام الوفود إلى أبوابها أكثر من هيمان العرب إلى ربا نجد، ولا زالت فحول الشعراء تطلق أئنة ألفاظها، وتركض في ذلك المضممار، وتهيم بواديها الذي يجب أن ترفع فيه على أعمدة المدائح بيوت الأشعار، وينهى بعد أشواق أمست العين بها في مجاري العين معتره، ولو لم يقر إنسانها بمرسلات الدمع لقلت في حقه ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾^(٣) وصول المملوك إلى دمشق المحروسة فيا ليته قبض قبل أن يكتب عليه ذلك الوصول، ودخوله إليها والله لقد تمنى خروج الروح عند ذلك الدخول. [ومنها]: وتطرقت بعد ذلك إلى الحدادين ولقد نادتهم النار بلسانها من مكان بعيد ﴿أتوني زبر الحديد﴾^(٤). ولقد كان يوم حريقها يوماً عبوساً قمطيرياً، ضج المسلمون فيه من الخيفة وقد رأوا سلاسل وأغلالاً وسعيراً. يا مولاي لقد لبست دمشق في هذه المآتم السوداء، وطبخت قلوب أهلها وسلقوا من الأسنة بالأسنة حداد، ولقد نشفت عيونهم من الحريق واستنشقوا فلم ينشقوا رائحة الغاديه، وكم رؤي في ذلك اليوم وجوه يومئذ خاشعة، عاملة ناصبة تصلى ناراً حاميه، وكم رجل تلا عند لهيب بيته ﴿تبت يدا أبي لهب﴾^(٥) وخرج هارباً، وامراته حمالة الحطب.

(١) الرِّدَّة: الارتداد عن الدين.

(٢) عبس، ٢/٨٠.

(٣) عبس، ١٧/٨٠.

(٤) الكهف، ٩٦/١٨.

(٥) المسد، ١/١١١.

[ومنها]: ونظرت بعد ذلك إلى القلعة المحروسة، وقد قامت قيامة حربها حتى قلنا ﴿أزفت الأزفة﴾^(١) وستروا بروجها من الطارق بتلك الستائر وهم يقولون ﴿ليس لها من دون الله كاشفه﴾^(٢). [ومنها]: وتناول إلى السور المشرف، وقد فضل في علم الحرب وحفظ أبوابه المقفلات، فما وقفنا على باب إلا وجدناه لم يترك خلفه لصاحب المفتاح تلخيصاً لما أبداه من المشكلات، فلا وايك لو نظرته يوم الحرب وقد تصاعدت فيه أنفاس الرجال، لقلت ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد، وإلى المحاصرين وقد جاؤوا فارساً وراجلاً ليشهدوا القتال لقلت ﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾^(٣)، وإلى كواكب الأسنة وقد انتشرت وإلى قبور الشهداء وهي من تحت أرجل الخيل قد بعثت، وإلى كرف الفوارس وفرها لقلت ﴿علمت نفس ما قدمت وأخرت﴾^(٤). [ومنها]: وتصفحنا بعد ذلك فاتحة باب النصر فعوذته بالإخلاص^(٥) وزدت لله شكراً وحمداً، وتأملت أهل الباب وهم يتلون لأهل البلد سورة الفتح وللمحاصرين ﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً﴾^(٦) وكم طلبوا فتحه ولم يجدوا لهم طاقة وضرب بينهم بسور له باب ﴿باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب﴾^(٧). [ومنها]: هذا وكم من مؤمن قوم خرج من دياره حذر الموت وهو يقول النجاة وطلب الفرار، وكلما دعاه قوم لمساعدتهم على الحريق ناداهم وقد عدم الاضطبار: ﴿يا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار﴾^(٨). [ومنها]: فأعيد ما بقي من السبعة بالسبع المثاني والقرآن العظيم، فكم رأينا بها يعقوب حزن رأى سواد بيته فاصفر لونه ﴿وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾^(٩). [ومنها]: وتوصلت إلى ظاهر كيسان، فأنفقت كيس الصبر لما افتقرت من دنائير تلك الأزهار والدراهم رباها، وكابرت إلى أطراف الباب الصغير فوجدت فاضل النار لم يغادر منها ﴿صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾^(١٠). [ومنها]: هذا وكم خائف قبل اليوم آويناها بها إلى ربوة ذات قرار، وكم كان بها مطرب طير خرج بعدما كان يطرب على عود وطار.

(١) النجم، ٥٣/٥٧ و ٥٨.

(٢) ق، ٥٠/٢١.

(٣) الانفطار، ٨٢/٥.

(٤) الإخلاص: من سور القرآن الكريم، وتسمى: التوحيد. والصمد.

(٥) تيس، ٣٦/٩.

(٦) الحديد، ٥٧/١٣.

(٧) غافر، ٤٠/٤١.

(٨) يوسف، ١٢/٨٤.

(٩) الكهف، ١٨/٤٩.

وأضحت أوقات الربوة بعد ذلك العيش الخضل واليسر عسيرة، ولقد كان أهلها ﴿في ظل ممدود وماء مسكوب وفاكهة كثيرة﴾^(١).

ومن ذلك، ما أنشأته قديماً في توقيع لمولانا قاضي القضاة، علاء الدين عالم المسلمين، أبي الحسن علي الحنبلي جمل الله الوجود بوجوده، بنظر البيمارستان^(٢) النوري بحماة المحروسة. والذي أوردته في التوقيع، من الاقتباسات البديعة، قولي: وصفت مشارب الصفاء بعد الكدر ﴿وسقاهم ربهم شراباً طهوراً﴾^(٣) وتلا من سعى لهم في ذلك وجزى بالخيرات، إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً، ودار شراب العافية على أهل تلك الحضرة بالطاس والكاس، وحصل لهم البرء من تلك البراني^(٤) التي يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، وتمشت الصحة في مفاصل ضعفائه وقيل لهم: جوزيتم بما صبرتم، وامتدت مقاصيرهم ﴿وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم﴾^(٥).

[ومن ذلك]، ما اقتبسته في ديباجة عهد مولانا أمير المؤمنين المعتضد بالله، زاده الله شرفاً وتعظيماً، وهو: الحمد لله الذي شد عضد هذه الأمة بمن أمسى به معتضداً، وأسعفنا من البيت النبوي بخليفة ما برح شيخ الملوك في تقديم بيته الشريف مجتهداً، وأقام العلم العباسي بعد أبي مسلم بأبي النصر فأكرم بحسن الختام وحسن الابتداء، وتكرر حمده على سلطان مؤيد أتخف به العلماء الأعلام، وظهر لجلالهم في أيامه الزاهرة بهجة فقال: هذا زمان مشايخ الإسلام، نحمده على حكمته التي اقتضت أن تكون الخلافة عمدة الأحكام يزول بها الالتباس، وهو القائل تعالى: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس﴾^(٦).

[ومن ذلك] ما اقتبسته في عهد مولانا السلطان الملك الظاهر ططر، بقولي منه: فإن البغاة لاحتجاب السلطنة عنه سدا أسسته على الطغيان، فليل لأهل البيعة قد فتح الله لأبي الفتح ﴿فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾^(٧).

(١) ال ٣٢/٥٦.

(٢) البيمارستان: فارسية معربة بمعنى العيادة والمستشفى.

(٣) الإنسان، ٢١/٧٦.

(٤) البراني: جمع مفردة برينة وهي إناء من فخار.

(٥) الزمر، ٧٣/٣٩.

(٦) ص، ٢٦/٣٨.

(٧) الرحمن، ٣٣/٥٥.

[ومن ذلك]، ما اقتبسته في مثال شريف مؤيدي، كان جواباً لقرا يوسف: وتبدى لعلمه الشريف ورود البشير بالقرب اليوسفي، وقل حل بالأسماع قبل رؤيته تشنف، وهبت نسما ت قبوله فأطفأت ما في القلوب من التلهف، وضاع نشرها اليوسفي فقال شوقنا اليعقوبي ﴿إني لأجد ريح يوسف﴾^(١) وهذه ألفة خولتنا في نعم الله وزمام الأخوة منقاد إلينا، وقد تعين على المقر أن يقول ﴿أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا﴾^(٢).

[واتفق لي] في تقليد قاضي القضاة، ولي الدين العراقي اقتباسات بديعية [منها]: وكم قال هذا المنصب رب قد أضعفني اليتيم وصار الباطل قوياً فهب لي من لدنك ولياً. [ومنها]: وأعادنا الله من ولاية قوم يسمعون بينة الحق وإذا اجتمعوا على الرشوات، تفرقوا واختلّفوا من بعد ما جاءهم البيّنات.

[ومن ذلك]، ما كتبه على ديوان المقر البارعي الكاملي الأديبي العمادي، إسماعيل ابن الصائغ الحلبي، أحد أعيان كتاب الإنشاء الشريف الذي عارض به ديوان الصبابة، للشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة رحمه الله، وهو: وقفت على هذا الكتاب الذي رفع عماد الأدب في هذا الجيل، وشرعت في ذكر محاسنه فقال لسان القلم واذكر في الكتاب إسماعيل. [ومنه]: وأما ابن حجة فقد ندب إلى الوقفة على عرفات هذا الفضل المعروف، والامتثال هنا واجب ولكن الكف صفر والطريق مخوف. هذا وقد ذوت من حدائق فكري زهرة الشباب، واختفى لساني كما قال ابن نباتة وأغلق عليه من شفّيته مصراعي باب، وخمد جمر القريحة وجمد ذلك الذهن السيال، ونأى عن خدمتي كافور الطروس وعبر المداد وصواب المقال، ولكن هبت عليّ نسما ت الشبية من دوحة هذا المصنف الجليل، فقلت وقد شبت نار القريحة وأمّلت عليّ هذا الوصف الجميل: الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل.

وهذا القدر الذي أوردته كاف هنا في الاقتباس من القرآن، فإنني أخشى. باب الملاة، ولكن عنّي لي أن أفرد كتاباً وأسميه «رفع الالتباس عن بديع الاقتباس»، وقد تقدم وتقرر أيضاً أنه إن جاء في المنظوم فهو عقد وتضمنين، وإن كان في المنشور فهو اقتباس. وقد أوسع بعض علماء هذا الفن المجال في ذلك، فذكر أن الاقتباس يكون في مسائل الفقه، وقال بعضهم: إذا قلنا بذلك فلا معنى للاقتصار على مسائل الفقه، بل يكون في غيره من العلوم. وعلى هذا التقدير تعين أن نورد هنا ما وقع من الاقتباس في الحديث

(١) يوسف، ٩٤/١٢.

(٢) يوسف، ٩٠/١٢.

النبوي وبقية العلوم، بحيث لا يخلو هذا الشرح الغريب من الغرائب، فإن الظاهر من كلامهم أن الاقتباس مقصور على القرآن والحديث. فمما وقع من الحديث النبوي قول الصحاب بن عباد:

أقول وقد رأيت له سحاباً من الهجران مقبلة إلينا
وقد سحت غواذيتها بهطل حوالينا الصدود ولا علينا

الصحاب اقتبس من قوله عليه الصلاة والسلام، حين استسقى وحصل نزول مطر عظيم: اللهم حوالينا ولا علينا.

[ومنه] قول أبي الحسن علي بن المفرج المنجم، لما احترقت دار الوجيه بن صورة بمصر:

أقول وقد عاينت دار ابن صورة وللنار فيها مارج يتضرم^(١)
كذا كل مال أصله من نهاوش فعما قليل في نهاير يعدم^(٢)
وما هو إلا كافر طال عمره فجاءته لما استبطأته جهنم

اقتبس من قوله ﷺ: من أصاب مالا من نهاوش أهلكه الله في نهاير. النهاوش: بالنون المظالم. والنهاير: المهالك، الواحد نهبور.

[ومنه] قول شمس الدين محمد بن عبد الكريم الموصلية:

ومنكر قتل شهيد الهوى ووجهه ينبىء عن حاله
اللون لون الدم من خده والريح ريح المسك من خاله

اقتبس من قوله ﷺ، في وصف دم الشهيد: اللون لون الدم، والريح ريح المسك.

ومن اقتباسات الحديث في النثر، قول الحريري في المقامات: إنما الأعمال بالنيات، وبها انعقاد العقود الدينيات. ومنه قوله: شامت^(٣) الوجوه. وقبح اللكع^(٤) ومن يرجوه. اقتبس من قوله ﷺ يوم حنين، وقد رمى الكفار بكف من الحصى: شامت الوجوه.

(١) المارج: الشعلة - يتضرم: يلهب.

(٢) النهاوش: المظالم - النهاير: جمع مفردة نُهْبْرَة وهي الحفرة بين الآكام.

(٣) شامت الوجوه: قبحت.

(٤) اللكع: اللثيم الخسيس.

ويعجبني من المنظوم، هنا، قول الشيخ شهاب الدين أبي جعفر بن مالك الأندلسي
الغرناطي:

لا تعاد الناس في أوطانهم كلما يرعى غريب في الوطن
وإذا ما شئت عيشاً بينهم خالق الناس بخلق ذي حسن
اقتبس من قوله عليه السلام، لأبي ذر: اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها،
وخالق الناس بخلق حسن. وهذا الحديث صحيح.

ومن الاقتباس في مسائل الفقه، في المنظوم، قول بعضهم:

أقول لشادن في الحسن أضحى يصيد بلحظه قلب الكمي^(١)
ملكك الحسن أجمع في نصاب فأدر زكاة منظر كالبهي
فقال أبو حنيفة لي إمام يرى أن لا زكاة على الصبي
وإن تك مالكي الرأي. أو من يرى رأي الإمام الشافعي
فلأنك طالباً مني زكاة فأخرج الزكاة على الولي

ومثله قول أبي العلاء، أحمد بن سليمان المعري:

أيا جارة البيت الممنع جاره غدوت ومن لي عندكم بمقيل
لغيري زكاة من جمال فإن تكن زكاة جمال فاذكري ابن سبيل
ومما ينسب إلى الإمام الشافعي رحمه الله:
خذوا بدمي هذا الغزال فإنه رمانى بسهمي مقلتيه على عمد
ولا تقتلوه إنني أنا عبده وفي مذهبي لا يقتل الحر بالعبد
ومنه قول القاضي عبد الوهاب المالكي:

يزرع ورداً ناضراً ناظري في وجنة كالقمر الطالع
فلم حرمت شفتي قطفها والحكم أن الزرع للزارع
وله أيضاً:

ونائمة قبلتها فتنبتهت وقالت تعالوا فاطلبوا اللص بالحد^(٢)
فقلت لها إنني فديتك غاصب وما حكموا في غاصب بسوى الرد^(٣)

(١) الشادن: الغزال تشبه به الحسناء - اللحظ: النظر - الكمي: الشجاع.

(٢) الحد: قصاص معلوم وهو القصاص الشرعي، منه حد الزنى وحد السرقة.

(٣) الرد: إرجاع المغصوب وهو المأخوذ عنوة وبالقوة.

ومنه قول أبي الطيب المتنبي :

بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها وقوف شحيح ضاع في التراب خاتمه
قفي تغرمي الأولى من اللحظ مهجتي بشانية والمتلف الشيء غارمه^(١)
المعنى أن النظرة الأولى أتلفت مهجتي، فلزم غرمها بنظرة ثانية، لأنه من أتلف
شيئاً حكم عليه بغرمه، ولكن في التركيب قلق وعقادة.

[ومنه]: قول شمس الدين محمد بن جابر الأندلسي رحمه الله تعالى :

طلبت زكاة الحسن منها فجاوبت إليك فهذا ليس تدركه مني
عليّ ديون للعيون فلا ترم زكاة فإن الدين يسقطها عني
ومنه قول الشيخ صدر الدين بن الوكيل :

يا سيدي إن جرى من مدمعي ودمي للعين والقلب مسفوح ومسفوك
لا تخش من قود يقتص منك به فالعين جارية والقلب مملوك^(٢)
ومن الاقتباسات، في علم المنطق، قول شمس الدين محمد بن العفيف التلمساني :

للمنطقيين أشتكى أبداً عين رقيب فليته هجعا
صا درها من أحبه فأبى أن نختلي ساعة ونجتمعا
كيف غدت دائماً وما انفصلت مانعة الجمع والخلو معا

وهذه الأبيات في غاية الحسن، ولكن أورد بعضهم إيراداً وقال: ظاهر كلامه
التعجب من هذه القضية، والمراد في مثل هذا أن يتعجب مما خرج عن القواعد. وهذه
القضية موجودة مستعملة، وذلك قولهم: العدد إما زوج وإما فرد، فهذه القضية مانعة
الجمع فإن الزوجية والفردية لا يجتمعان، ومانعة الخلو فإن العدد لا يخلو من أحدهما،
فلا معنى للتعجب.

ومنه قول بعضهم :

مقدمات الرقيب كيف غدت عند لقاء الحبيب متصله
تمنعنا الجمع والخلو معا وإنما ذاك حكم منفصله

(١) غارم: كافل ضامن - والمتلف: المفسد.

(٢) القود: الثار، والقصاص.

هذا تعجب مما يسوغ التعجب منه، لأن منع الجمع لا يكون في المتصلة؛ وإنما هو في حكم المنفصلة.

وأما الاقتباس، في علم الجدل، فمنه قول شمس الدين بن العفيف:

وما بال برهان العذار مسلماً ويلزمه دور وفيه تسلسل
وعندي أن الشمس بالضحو آذنت وسكري أراه من محياك يقبل

وأما الاقتباس، من علم النحو، فقد اتسع مجالهم فيه، حتى غلب على غالبهم التوجيه، فمنه قول أبي الطيب:

حولي بكل مكان منهم حلق تخطي إذا جئت في استفهامها بمن

أبو الطيب يقول إذا استفهمت عن مثل هؤلاء الأقسام لا تستفهم بمن لأن من لمن بعقل وهؤلاء عندي بمنزلة ما لا يعقل، فحقهم أن يستفهم عنهم بما. ومنه قوله:

إذا كان ما ينويه فعلاً مضارعاً مضى قبل أن تلقى عليه الجوازم

يقول إذا هم بفعل أوقعه، قبل أن يمنع وينهى عنه. ويقال له: لا تفعل، أو ينفي فيقال: لم يفعل. ومنه قول ابن عنين في معزول:

فلا تغضبني إذا ما صرفت فلا عدل فيك ولا معرفه

ومنه قول ابن أبي الأصبع في ذلك:

أيا قمرأ من حسن وجنته لنا وظل عذاريه الضحى والأصائل
جعلتك للتمييز نصباً لناظري فهلا رفعت الهجر فالهجر فاعل

قلت: ومن أغرب ما وقع في هذا الباب، أن شرف الدين محمد بن عنين مرض فكتب إلى الملك المعظم هذين البيتين:

أنظر إليّ بعين مولى لم يزل يولي الندى وتلاف قبل تلافني^(١)
أنا كالذي أحجاج ما يحتاجه فاغنم ثنائي والدعاء الوافي^(٢)

فجاءه الملك المعظم يعوده ومعه ألف دينار، وقال له: أنت الذي، وأنا العائد، وهذه الصلة.

(١) يولي: يعطى - الندى: العطاء - تلاف: أمر من تلافى أي اجتنب وتحاش - وتلافني: هلا؟

(٢) الثناء: المدح - الوافي: الكثير.

ومنه قول البهاء زهير:

بالله كوني ألف الوصل

يا ألفاً من قده أقبلت

ومنه قول الأمير أمين الدين علي السليمانى:

فطال ولولا ذاك ما خص بالجر
على شرطها فعل الجفون من الكسر

أضيف الدجا معنى إلى لون شعره
وحاجبه نون الوقاية ما وقت

ومنه قول شمس الدين بن العفيف:

وليس فيه سواه ثانى
وما التقى فيه ساكنان

يا ساكناً قلبي المعنى
لأى معنى كسرت قلبي

أما البيتان، فإنهما في غاية اللطف، ولكن أوردوا عليهما أيضاً إيراداً حسناً، وهو أن الساكنين إذا اجتمعا كسر أحدهما، وهو الأول وكلامه في البيتين أن المكسور غير الاثني.

ومنه قول ابن الوردي:

عند خباز فلما أن عرف^(١)
يصرف الشاعر ما لا ينصرف

شاعر أخرج نصفاً زغلاً
قال لم تصرف هذا قال مه

قلت: قد أتيت في معنى هذه النكتة، بما هو أبداع من بيت زين الدين بن الوردي، وما ذاك إلا أن مولانا المقر الأشرف القاضى الناصري، محمد بن البارزى الجهني الشافعي، صاحب دواوين الإنشاء الشريف، رحمه الله، أحالني على شهاب الدين الذهبي بخمسين ديناراً، ومطل بها مدة، فكتبت إليه:

ولكم في الورى هبات كثيره
صرفها جائز لأجل الضروره

قد منعمت صرف الدنانير عني
وأنا شاعر وفي شرع نظمي

ويعجبني في هذا الباب إلى الغاية، قول الشيخ زين الدين بن الوردي رحمه الله تعالى:

ما المبتدا والخبر
فقلت أنت القمر

وأغيد يسألني
مثلهما لي مسرعاً

وحكي أنه كان بالعراق غلامان، أحدهما اسمه عمر، والآخر أحمد، فعزل عمر عن عمله وولي أحمد مكانه بسبب ما وزنه، فقال بعض الشعراء في ذلك:

(١) الزغل: الغش.

أيا عمر استعد لغير هذا
وكل منكما كفوء كريم
فيصدق فيك معرفة وعدل
ومنه قول الفاضل:

لي عندكم دين ولكن هل له
فكأنني ألف ولام في الهوى
من طالب وفؤادي المرهون
وكان موعد وصلك التنوين
ويعجبني، في الاقتباس من علم العروض، قول القائل:

ويقلبي من الجفاء مديد
لم أكن عالماً بذاك إلى أن
ويسيطر ووافر وطويل
قَطَعَ القلب بالفراق الخليل

وهذا القدر كاف، في الاقتباس من القرآن والحديث النبوي ومسائل الفقه والمنطق
وعلم العربية والعروض وغيره، وقد تقدم أن الاقتباس مقصور على القرآن والحديث في
النثر، وأما في النظم فهو عبارة عن عقد وتضمنين.

ونظام البديعيات لم يقتبسوا من غير القرآن، وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في
بديعته قوله:

هذي عصاي التي فيها مآرب لي
وبيت العميان:
وقد أهش بها طوراً على غنمي^(١)
ذو مرة فاستوى حتى دنا فرأى

وبيت الشيخ عز الدين:
وقيل سل تعط قد خيرت فاحتكم^(٢)
فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم

ولا اقتباس يرى من هذه الأظم^(٣)
وبيت بديعتي قولي:

وقلت يا ليت قومي يعلمون بما
قد نلت كي يلحظوني باقتباسهم^(٤)

(١) أهش: أهول، وأنهر. والبيت عبارة عن قوله تعالى على لسان النبي موسى ﷺ بعد سؤاله: ﴿وما

تلك يمينك يا موسى، قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى﴾.

(٢) مرة: قوة - استوى: استقام والبيت إقتباس لقوله تعالى: ﴿علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى﴾.

(٣) البيت إقتباس لقوله تعالى في معرض حديثه عن قوم عاد: ﴿فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم﴾ الأحقاف، ٢٥/٤٦. والأظم: الحصون أو البيوت العالية، جمع أظام وأطوم.

(٤) البيت اقتباس لقوله تعالى: ﴿يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين﴾ يس،

ذكر السهولة

يا رب سهل طريقي في زيارته من قبل أن تعتريني شدة الهرم
السهولة: ذكرها التيفاشي مضافة إلى باب الظرافة، وشركها قوم بالانسجام، وذكرها
ابن سنان الخفاجي في كتاب «سر الفصاحة»، فقال في مجمل كلامه: هو خلوص اللفظ
من التكلف، والتعقيد والتعسف في السبك.

وقال التيفاشي: السهولة أن يأتي الشاعر بألفاظ سهلة تتميز على ما سواها عند من
له أدنى ذوق من أهل الأدب، وهي تدل على رقة الحاشية، وحسن الطبع وسلامة الروية.
ومن ألطف الأمثلة، [عليها] قول الشاعر:

إذ ما تبت عن ليلي تتوب ليس وعدتني يا قلب أني
فما لك كلما ذكرت تذوب فها أنا تائب عن حب ليلي

ومنه قول أبي العتاهية:

إليه تجرر أذيالها أتته الخلالة منقادة
ولم يك يصلح إلا لها فلم تكن تصلح إلا له

ومذهبي: أن البهاء زهير، قائد عنان هذا النوع وفارس ميدانه، فمن ذلك قوله:

ومدام من رضاب بحباب من ثنايا
كان ما كان ومنه بعد في النفس بقايا

ومثله قوله: إن أمري لعجيب ما يرى أعجب منه
كل أرض لي فيها غائب أسأل عنه

كما علمت وأزید
به ضميرك يشهد
قطعت يومي كله لم أرك
فليتني أعرف من غيرك
سيدي أوحشت عبدك
مثل ما أذكر عهدك
مثل ما أحفظ ودك
مسرعاً أو شئت عندك
فتفضل أنت وحدك
قد زاد فيك غرامه
فرق حتى كلامه
مثل النسيم سلامه

ومثله قوله: شوقي إليك شديد
وكيف تنكر شيئاً
ومثله قوله: أوحشتني والله يا مالكي
هذا جفاء منك ما اعتدته
ومثله قوله: سيدي قلبي عندك
أترى تذكر عهدي
أترى تحفظ ودي
قم بنا إن شئت عندي
أنا في داري وحدي
ومنه قوله: هذا كتاب محب
أضناه فرط اشتياق
أما ترى كيف أضحي

ومنه قوله:

قد نفحت من حباب ميسمه^(١)
سكران يشتط في تحكمه^(٢)
عن نار وجددي وعن تضرّمه^(٣)
رسالة من فمي إلى فمه
يذكره الناس من تكرمه
رب خذ الحق من معلمه

كلمني والمدام في فمه
وماس كالغصن في تمايله
بالله يا برق هل تحدثه
وهل نسيم سرى يبلغه
عجبت من بخله عليّ وما
هم علموه فصار يهجرني

وقال، ويكاد يسيل رقة وسهولة:

أموراً من فراقك أشتكيها
رخيصاً لم أجد من يشتريها
يكن فيها يكن فيما يليها
لمولانا علو الرأي فيها

كبت إليك أشكو في كتابي
وفي سوق الهوان عرضت نفسي
فهل وعد إلى سنة فإن لم
وقد أنهيت من شوقي فصولاً

ومثله في الرقة والسهولة قوله:

فانحط قدرتي لديكم

ملكتموني رخيصاً

(١) الحباب: المحبوب.

(٢) ماس: تمايل - يشتط: يجور.

(٣) الوجد: شدة الشوق - التضرّم: شدة الاشتعال.

دخلت منه إليكم
ولا السلام عليكم

فاغلق الله باباً
حتى ولا كيف أنتم

والطف منه قوله :

قل قسمني لديكم
والتفاتي إليكم
وسلام عليكم

أنا أدري بأنني
فإلى كم تطلعي
كان ما كان بيننا

والطف منه قوله :

فلم تأخرت عنا
حللت ما قد عقدنا
ولو يكون علمنا
قلنا وقلنا وقلنا

أما تقرّر أنا
وما الذي كان حتى
ولم يكن لك عذر
فلا تلمنا فإننا

ومنه قوله :

قال ما تطلب مني قلت شي
وثناه التيه عني لا إلي^(١)
آه لو أفعل ما كان عليّ

قال ما ترجع عني قلت لا
فانشئ يحمر مني خجلاً
كدت بين الناس أن أئثمه

وقطعت تلك الناحيه
واخلع ثياب العاريه
تلك الشمائل باقيه
قلب رقيق الحاشيه
فيه من الطرب القديم بقية في الزاويه

ومنه قوله : قالوا كبرت عن الصبا
فدع الصبا لرجاله
ونعم كبرت وإنما
ويميلني نحو الصبا

وقال، وزناً وقافية وسال برقته :

من لي بقلب أشتريه من القلوب القاسيه
ح وقفت أشكو حاله
ليست عليك بخافيه
هبة وإلا عاريه^(٢)

وإليك يا ملك الملا
إنني لأطلب حاجة
أنعم علي بقبله

(١) ثنى : ردّ - التيه : الخيلاء والتكبر.

(٢) عارية : إعارة.

وأعيدها لك لا عدمت بعينها وكما هيه
 وإذا أردت زيادة خذها ونفسي راضيه
 ومنه قوله: إن شكنا القلب هجركم
 لو أمرتم بما عسى مهد الحب عذركم
 قصروا عمر ذا الجفا ما تعديت أمركم
 شرفوني بزورة طول الله عمركم
 كنت أرجو بأنكم شرف الله قدركم
 قد نسيتم وإنما شهركم لي ودهركم
 لو رأيتم محللكم أنا لم أنس ذكركم
 لو وصلتكم محبكم من فؤادي لسركم
 ما الذي كان ضرركم

ومن المرقص في هذا الباب قوله:

تعيش أنت وتبقى أنا الذي مت عشقا
 حاشاك يا نور عيني تلقى الذي أنا ألقى
 ولم أجد بين موتي وبين هجرك فرقا
 يا أنعم الناس بالآ إلى متى فيك أشقى
 سمعت عنك حديثاً يا رب لا كان صدقا
 وما عهدتك إلا من أكرم الناس خلقا
 لك الحياة فإني أموت لا شك حقا
 يا ألف مولاي مهلا يا ألف مولاي رفقا^(١)
 قد كان ما كان مني والله خير وأبقى
 وبيت الشيخ صفي الدين في السهولة قوله:

وقلت هذا قبول جاءني سلفاً ما ناله أحد قبلي من الأمم

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. ولا وجدته في بديعية الشيخ عز الدين
 الموصللي، إلا أن يكون في نسخة غير التي نقلت منها، وعلى كل تقدير فالشيخ عز
 الدين قدم العقادة في بيته على السهولة.

وبيت بديعيتي:

يا رب سهل طريقي في زيارته من قبل أن تعتريني شدة الهرم

(١) الرّفق: اللطف والتمهل.

ذكر حسن البيان

حتى يث بديعي في محاسنه حسن البيان وأشدو في حجازهم

حسن البيان: قالوا هو عبارة عن الإبانة عما في النفس، بعبارة بليغة بعيدة عن اللبس، إذ المراد منه إخراج المعنى إلى الصورة الواضحة، وإيصاله إلى فهم المخاطب بأسهل الطرق، وقد تكون العبارة عنه تارة من طريق الإيجاز، وطوراً من طريق الإطناب، بحسب ما يقتضيه الحال، وهذا بعينه هو البلاغة وحقيقتها. وفي البيان: الأقبح، والأوسط، والأحسن. فالأقبح، كبيان باقل وقد سئل عن ثمن ظبي في يده، فأراد أن يقول أحد عشر، فأدركه العي، حتى فرق أصابعه وأدلع لسانه فأفلت الظبي. ومن هنا يعلم أنه ليس كل إيجاز بلاغة، ولا كل إطالة عيباً، فإنه لا إيجاز في الأفهام أوجز من بيان باقل، لأن المخاطب فهم عنه بمجرد نظرة واحدة. وقد ضرب به المثل بالعي في بيانه. وكان الأحسن أن يقول: أحد عشر. والأوسط: أن يقول: ستة وخمسة، أو عشرة وواحد.

والنور المبين في هذا الباب، بيان القرآن الكريم، كقوله تعالى، وقد أراد أن يحذر من الاغترار بالنعم: ﴿كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين﴾^(١). وكقوله سبحانه وتعالى: وقد أراد أن يبين عن الوعد: ﴿إن المتقين في مقام أمين﴾^(٢)، وكقوله سبحانه، وقد أراد أن يبين عن الوعيد: ﴿إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين﴾^(٣)، وكقوله تعالى، في الاحتجاج القاطع للخصم: ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي

(١) الدخان، ٢٥/٤٤.

(٢) الدخان، ٥١/٤٤.

(٣) الدخان، ٤٠/٤٤.

خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق
عليم^(١). وكقوله تعالى، وقد أراد أن يبين عن العدل: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا
عنه^(٢)﴾، وأمثال هذا الباب كثيرة لمن يتبعها في القرآن.

ومما جاء من ذلك في الشعر قول أبي العتاهية:

يضطرب الخوف والرجاء إذا حرك موسى القضيبي أو فكرا
وكقول الآخر:

له لحظات في خفايا سريرة إذا كرّها فيها عتاب ونائل^(٣)
فإن هذين الشاعرين أرادوا مدح هذين الممدوحين بالخلافة، ووصفهما بالقدرة
المطلقة وعظم المهابة، بعد الله سبحانه وتعالى، فإذا نظر أحدهما نظرة أو حرك القضيبي
مرة أو أطرق مفكراً، اضطرب الخوف والرجاء في قلوب الناس، فأبانا عن هذه المعاني
بأحسن إبانة.

وبيت الشيخ صفي الدين رحمه الله تعالى:

وعدتني في منامي ما وثقت به مع التقاضي بمدح فيك منتظم
والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين قوله:
حسن البيان بحمد الله بين لي هدي النبي الرضي الواضح اللقم^(٤)
وبيت بديعيتي قلت قبله، في السهولة:
يا رب سهل طريقي في زيارته من قبل أن تعتريني شدة الهرم
وقلت بعده، في حسن البيان:
حتى يث بديعي في محاسنه حسن البيان وأشدو في حجازهم

(١) يس، ٧٨/٣٦ و٧٩.

(٢) الأنعام، ٢٨/٦.

(٣) كرّها: كرّرها تكراراً.

(٤) اللقم: النهج والطريق.

ذكر الإدماج

قد عز إدماج شوقي والدموع لها على بهار خدودي صبغة العنم^(١)
هذا النوع، أعني الإدماج: هو أن يدمج المتكلم غرضاً له في ضمن معنى قد نحاه
من جملة المعاني، ليوهم السامع أنه لم يقصده، وإنما عرض في كلامه لتتمة معناه الذي
قصدته، كقول عبد الله بن عبيد الله لعبد الله بن سليمان بن وهب، حين وُزِرَ للمعتمد، وكان
ابن عبيد الله قد اختلّت حاله فكتب لابن سليمان:

أبى دهرنا إسعافنا في نفوسنا وأسعفنا في من نحب ونكرم
فقلت له نعماك فيهم أتمها ودع أمرنا إن المهم المقدم

فأدمج شكوى الزمان، وشرح ما هو عليه من الاختلال في ضمن التهئة، وتلطف
في التلويع، ورفق التخيل لبلوغ الغرض، مع صيانة نفسه عن التصريح بالسؤال. لا جرم
أن ابن سليمان فطن لذلك ووصله واستعمله.

ومن لطيف الإدماج قول ابن نباتة السعدي:

ولا بد لي من جهلة في وصاله فهل من حليم أودع الحلم عنده

ابن نباتة أدمج الفخر في الغزل فإنه جعل حلمه لا يفارقه البتة، ولا يرغب عنه
بنفسه جملة، وإنما عزم على أن يودعه، إذ كان لا بد له من وصل هذا المحبوب لأز
الودائع تستعاد، ثم استفهم عن الخل الصالح الذي يصلح لهذه الوداعة استفهاماً إنكارياً،

(١) العنم: شجر ذو ثمار حمراء، واحده عنمة - والبهار: الجمال أو تكون فارسية معربة بمعنى «الربيع».

فيكون مفهوم الخطاب: بقيا حلمه لعدم من يصلح للوداعة، ثم ادمج في ضمن الفخر الذي أدمجه في الغزل شكوى الزمان لقلة الأخوان، بحيث أنه لم يبق منهم من يصلح لهذا الشأن، ومنه قول ابن المعتز في وصف الخيري:

قد نقض العاشقون ما صنع السـدهر بألوانهم على ورقه
قصد وصف الخيري بالصفرة، وأدمج فيه وصف ألوان العشاق.
وبيت الحلبي في الإدماج قوله:

لصدق قولك لو حب امرؤ حجراً لكان في الحشر عن مثواه لم يرم
هذا البيت فيه إدماج سؤاله حسن المحشر في زمرة النبي ﷺ، في طي تصديقه الحديث المأثور عنه.

وبيت العميان:

لهم أحاديث مجد كالرياض إذا أهدت نواسم أحييت دارس السلم
قال الشيخ أبو جعفر الشارح: إن الناظم جعل لهم أولاً أحاديث مجد طيبة. وأدمج في ذلك وصف الرياض.

وبيت الشيخ عز الدين الموصلبي:

أدمجت شكواي من ذنبي بمدحته عساك تشفع لي يا شافع الأمم
الشيخ عز الدين ذكر أنه أدمج الشكوى من ذنبه، لكن نوع الإدماج البديعي لا أعلم أين أدمجه. والله أعلم.

وبيت بديعيتي:

قد عز إدماج شوقي والدموع لها على بهار خدودي صبغة العنم
هذا البيت أبدع من بيت ابن المعتز، وفيه زيادة وإدماج آخر. فإن ابن المعتز غاية قصده وصف الخيري^(١) بالصفرة، وأدمج فيه ألوان العشاق. وأنا قصدت شرح الحال في غرة إدماج الشوق بواسطة جريان الدمع، وأدمجت في ذلك صفرة اللون وحمرة الدموع. هذا ومحاسن التورية بتسمية النوع غير خافية على أهل الإنصاف من حذاق الأدب. والله أعلم.

(١) الخيري: نوع من الحمام.

ذكر الاحتراس

فإن أقف غير مطرود بحجرته لم أحترس بعدها من كيد مختصم
الاحتراس: هو أن يأتي المتكلم بمعنى يتوجه عليه فيه دخل فيفطن له، فيأتي بما
يخلصه من ذلك ومثاله في كتاب الله عز وجل: ﴿أسلك يدك في جيبيك تخرج بيضاء
من غير سوء﴾^(١) فاحترس بقوله سبحانه وتعالى: من غير سوء، عن إمكان أن تدخل في
البرص والبهق^(٢) وغير ذلك، ومثال ذلك في الشعر، قول طرفة:

فسقى ديارك غير مفسدها صوب الغمام وديمة تهمي

فقوله: غير مفسدها احتراس من مقابله وهو محو معالمها، والفرق بين الاحتراس
والتتميم والتكميل أن المعنى قبل التكميل صحيح تام، ثم يأتي التكميل بزيادة تكمل
حسنه، إما بفن زائد أو معنى، والتتميم يأتي لتتميم نقص المعنى ونقص الوزن معاً،
والاحتراس إنما هو لدخل يتطرق إلى المعنى وإن كان تاماً كاملاً ووزن الشعر صحيحاً.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته قوله:

فوفني غير مأمور وعودك لي فليس رؤياك أضغاثاً من الحلم^(٣)

احتراس الشيخ صفي الدين، في قوله: غير مأمور، فإن لفظة وفني في البيت فعل
أمر، ومرتبة الأمر فوق مرتبة المأمور، فاحترس بقوله: غير مأمور.

(١) القصص، ٣٢/٢٨.

(٢) البهق: بياض في الجسد غير البرص.

(٣) أضغاث: جمع مفردة ضغث وهو الكلام لا خير فيه، وأضغاث أحلام: أحلام لا يمكن تأويلها
لالتباسها واختلاطها.

والعميان ما نظموا هذا النوع. وبيت الشيخ عز الدين:

حيي له يتمشى في المفاصل قل بالاحتراس تمشي البرء في السقم^(١)

قلت: الشيخ صفي الدين احترس في بيته، بقوله: غير مأمور. واحتراس الشيخ عز الدين عجزت عن تحقيقه بل عن تحقيق معناه، فإن هذا البيت مأخوذ من قول أبي نواس، في وصف الخمرة:

فتمشت في مفاصلهم كتمشي البرء في السقم

وبيت بديعيتي:

فإن أقف غير مطرود بحجرته لم أحترس بعدها من كيد مختصم

فقولي: غير مطرود، هو الاحتراس الذي يليق بمقام المادح، بالنسبة إلى مقام النبي ﷺ، والتورية باسم النوع في قولي: لم أحترس بعدها، محاسنها توري. والتكميل، بقولي: من كيد مختصم، هو الذي زاد محاسنها بهجة وكمالاً.



(١) احتراس الشيخ عز الدين في قوله «بالاحتراس». إذ يكون معنى البيت قل إن حيي له يتمشى في المفاصل تمشي البرء في السقم، واحترس بقوله «بالاحتراس» لئلا يخيل للسامع أن هذا التمشي على كل حال. والله أعلم.

ذكر براعة الطلب

وفي براعة ما أرجوه من طلب إن لم أصرح فلم أحتج إلى الكلم
هذا النوع من مستخرجات الشيخ عز الدين الزنجاني، في كتاب «المعيار». وهو أن
يلوح الطالب بالطلب، بالفاظ عذبة مهذبة منقحة مقترنة بتعظيم الممدوح خالية من
الإلحاف^(١) والتصريح، بل يشعر بما في النفس دون كشفه، كقول أبي الطيب المتنبّي:

وفي النفس حاجات وفيك فطانة سكوتي بيان عندها وخطاب^(٢)
والفرق بين براعة الطلب وبين الإدماج، أن الإدماج أن يقدر معنى من المعاني، ثم
يدمج غرضه ضمنه ويوهم أنه لم يقصده، وهذا مقصور على الطلب فقط، وهو أيضاً فرق
بينه وبين الكناية. وبيت الشيخ صفي الدين قوله:

وقد علمت بما في النفس من أرب وأنت أكرم من ذكري له بفمي^(٣)
والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم وبيت الشيخ عز الدين الموصلي رحمه الله
قوله:

براعة بان فيها منتهى طلبي وأنت أكرم من نطق بلا ولم
وبيت بديعيتي:

وفي براعة ما أرجوه من طلب إن لم أصرح فلم أحتج إلى الكلم

(١) الإلحاف: الرّمز أو ما خفي معناه من الكلام، التلميح.

(٢) الفطانة: سرعة البديهة. والذكاء، وقوة الذاكرة مجتمعة.

(٣) الأرب: الحاجة الماسة.

ذكر العقد

قد صح عقد بياني في مناقبه وإنّ منه لسحراً غير سحرهم

العقد ضد الحل، لأن العقد نظم المنشور والحل نثر المنظوم. ومن شرائط العقد أن يؤخذ المنشور بجملة لفظه أو بمعظمه، فيزيد الناظم فيه وينقص ليدخل في وزن الشعر، ومتى أخذ بعض معنى المنشور دون لفظه كان ذلك نوعاً من أنواع السرقات، ولا يسمى عقداً إلا إذا أخذ الناظم المنشور برمته، وإن غير منه طريقاً من الطرق التي قدمناها كان المتبقي منه أكثر من المغير، بحيث يعرف من البقية صورة الجميع، كما فعل أبو تمام، في كلام عزى به الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الأشعث بن قيس، في ولده، وهو: إن صبرت صبر الأحرار، وإلا سلوت سلوّ البهائم. فعقده أبو تمام شعراً فقال:

وقال علي في التعازي لأشعثٍ وخاف عليه بعض تلك المآثم
أتصبر للبلوى عزاءً وحسبة فتؤجر أم تسلو سلوّ البهائم^(١)

وبيت الشيخ صفي الدين قوله:

ما شب من خصلتي حرصي ومن أمني سوى مديحك في شبيبي وفي هرمي

المقصود، في هذا البيت، من العقد، قول النبي ﷺ: يشيب ابن آدم ويشب فيه خصلتان: الحرص وطول الأمل.

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين في بديعيته

قوله:

(١) حسبة: أي تحتسب أجر الصبر عند الله سبحانه وتعالى.

عقد اليقين صلاتي والسلام على محمد دائماً مني بلا سأم

قلت: أما الشيخ صفي الدين فإني لم أصادف في بيته من عقد الحديث النبوي محلاً، ولكن ذكر فيه حكاية حاله. وأما الشيخ عز الدين غفر الله له فإنه ذكر، في شرحه، أن الصحابة رضي الله عنهم قالوا: يا رسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك، فكيف نصلي عليك؟ فقال ﷺ: قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم. وفي حديث آخر: قولوا اللهم صل على محمد عبدك ورسولك النبي الأمي، وعلى آله وصحبه وسلم. وفي الحديث: أكثروا من الصلاة عليّ.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(١). وذكر أنه عقد الآية والحديث، ولم يظهر لي حل هذا العقد في أي موضع هو من البيت.

وبيت بديعيتي:

قد صح عقد بياني في مناقبه وإن منه لسحراً غير سحرهم
العقد هنا قوله ﷺ: إن من البيان لسحراً. والله أعلم.



(١) الأحزاب، ٥٦/٣٣.

ذكر المساواة

تمت مساواة أنواع البديع به لكن يزيد على ما في بديعهم

هذا النوع، أعني المساواة، مما فرعه قدامة من ائتلاف اللفظ مع المعنى، وشرحه بأن قال: هو أن يكون اللفظ مساوياً للمعنى، بحيث لا يزيد عليه ولا ينقص عنه، وهذا من البلاغة التي وصف بها بعض الوصاف بعض البلغاء فقال: كأن ألفاظه قوالب لمعانيه. ومعظم آيات الكتاب العزيز كذلك.

واعلم أن البلاغة قسمان: إيجاز وإطناب، والمساواة معتبرة في القسمين معاً. فأما الإيجاز فكقوله تعالى: ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب﴾^(١). والإطناب في هذا المعنى كقوله تعالى: ﴿ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل﴾^(٢). وقال سبحانه وتعالى، في قسم الإيجاز من غير هذا المعنى: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾^(٣). وقال عز من قائل، في الإطناب: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾^(٤) الآية.

ولا بد من الإتيان بهذا الفصل، لثلا يتوهم المتأمل أن الإطناب لا يوصف بالمساواة. ومن الشواهد على المساواة قول امرئ القيس:

فإن تكتموا الداء لا نخفه وإن تبعثوا الحرب لا نقعد
وإن تقتلوننا نقتلكم وإن تقصدوا الذم لا نقصد

(١) البقرة، ١٧٩/٢.

(٢) الإسراء، ٣٣/١٧.

(٣) الأعراف، ١٩٩/٧.

(٤) النحل، ٩٠/١٦.

وقول زهير:

ومهما تكن عند امرىء من خليفة وإن خالها تخفى على الناس تعلم^(١)

وقوا، طرفة:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً وبأتيك بالأخبار من لم تزود

وبيت الشيخ صفي الدين الحلبي في بديعته قوله:

وقد مدحت بما تم البديع به مع حسن مفتوح منه ومختتم

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعته قوله:

خطت مساواة معناه وصورته في الحسن شاهده في نون والقلم^(٢)

وبيت بديعيتي في المساواة قولي:

تمت مساواة أنواع البديع به لكن يزيد على ما في بديعهم



(١) الخليفة: العادة والخصلة، والخلق - خال: ظن.

(٢) ن والقلم: سورة القلم من القرآن الكريم.

ذكر حسن الختام

حسن ابتدائي به أرجو التخلص من نار الجحيم وهذا حسن مختمي هذا النوع ذكر ابن أبي الأصبع أنه من مستخرجاته، وهو موجود في كتب غيره بغير هذا الاسم، فإن التيفاشي سماه «حسن المقطع»، وسماه ابن أبي الأصبع «حسن الخاتمة». وهذا النوع الذي يجب على الناظم والناثر أن يجعلاه خاتمة لكلامهما، مع أنهما لا بد أن يحسنا فيه غاية الإحسان، فإنه آخر ما يبقى في الأسماع، وربما حفظ من دون سائر الكلام في غالب الأحوال، فلا يحسن السكوت على غيره.

وغاية الغايات، في ذلك، مقاطع الكتاب العزيز في خواتم السور الكريمة. فمن المعجز في ذلك، قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا يَوْمئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بَأَن رَّبِّكَ أَوْحَىٰ لَهَا يَوْمئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^(١). أنظر أيها المتدبر هذه البلاغة المعجزة. فإن السورة الكريمة بدئت بأحوال يوم القيامة، وختمت بقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [ومثله] قوله تعالى، في سورة عبس: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِيءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ، وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْوَدَّةٌ * عَلَيْهَا غِيبَةٌ * تَرَهَقَهَا فَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ الْفٰجِرَةُ﴾^(٢). ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وترى

(١) الزلزلة، ٧/٩٩ و٨.

(٢) عبس، ٣٤/٨٠-٤٢.

الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ﴿١﴾.

ومن كلام أمير المؤمنين، عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه، وهو المقدم في فنون البلاغة على بلغاء البدو والحضر، في ختام جواب كتاب كتب به إلى معاوية: ثم ذكرت أن ليس لي ولأصحابي عندك إلا السيف، فلقد أضحكت بعد استعبار، وإني مرقل (٢) إليك بجحفل من المهاجرين والأنصار، وقد صحبتهم ذرية بدرية، وسيوف هاشمية، عرفت مواقع نصالها في أخيك وخالك وجدك، وما هي من الظالمين ببيعد.

وأجمعوا، بعد ذلك، على أن فواصل المقامات يقوم غالبها مقام المثل السائر، وحسن خواتمها تعقد عليه الخناصر. [وقد عنّ لي] أن أورد هنا مقامة كاملة، فإذا نظر المتأمل إلى براعة استهلالها، وفهم القصد الذي جنح إليه الحريري، عرّف مقدار حسن الختام الذي تمت به الفائدة؛ وحسن السكوت عليه. [وقد اخترت المقامة الثالثة عشرة]، وهي الزورائية، لأنه ثبت عن القاضي الفاضل أنه شرع في معارضة المقامات، وعارض منها كل فصل بفصل أحسن منه، إلى أن وصل إلى فصل هذه المقامة الذي سيأتي وأنبه عليه في موضعه.

والمقامة الموعود بإيرادها هو قوله: [حكى الحرث بن همام] قال: ندوت (٣) بضواحي الزوراء، مع مشيخة من الشعراء، لا يعلق لهم مبار بغبار، ولا يجري معهم ممار (٤) في مضمار، فأفضنا في حديث يفضح الأزهار، إلى أن نصفنا النهار، فلما غاض در الأفكار، وصبت النفوس إلى الأوكار، لمحنا عجزاً تقبل من البعد، وتحضر إحضار الجرد (٥)، وقد استتلت صبية أنحف من المغازل، وأضعف من الجوازل، فما كذبت إذ رأتنا أن عرتنا، حتى إذا ما حضرتنا، قالت حيا الله المعارف. وإن لم يكن معارف. اعلموا يا مآل الأمل، وثمان الأرامل، أني من سروات القبائل، وسريات العقائل.

[والفصل الذي عجز الفاضل عنه، هو]: لم يزل أهلي وبعلي يحلون الصدر، ويسرون القلب ويمطون الظهر، ويولون اليد. فلما أردى الدهر الأعضاء، وفجع

(١) الزمر، ٧٥/٣٩.

(٢) أرقل: اسرع- والجحفل: الجيش الكثير العدد.

(٣) لم نشرح من هذه المقامة إلا الألفاظ التي لم يشرحها الكاتب إذ أنه يعود إلى شرح ما استعجم من مفرداتها بعد إتمامها.

(٤) المماري: المجادل المناقش.

(٥) الجرد: من الخيول: السريعة واحدها أجرد.

بالجوارح الأكباد، وانقلب ظهر البطن، نبا الناظر، وجفا الحاجب، وذهبت العين، ونفدت الراحة، وصلد الزند، ووهت اليمين، وبانت المرافق، ولم يبق لنا ثنية ولا ناب.

قلت: وهذا الفصل الذي أحجم القاضي عن معارضته، قلت في معناه، وكتبت إلى سيدنا قاضي القضاة صدر الدين بن الأدمي نور الله ضريحه، رسالة مجسده، مشتملة على ذلك جيده، راعيت فيها النظر، لأجل الصدر من الرأس إلى القدم، ولم أخرج فيها عن حسن الختام الذي ما ختمت رسالة بنظيره، والتزمت فيها السجع الذي فر الحريري منه في فصله. [وقد عنّ لي] أن أثبت الرسالة هنا بكما لها، وأرجع إلى ما كنا فيه من حسن الختام في المقامة الحريرية. [والرسالة هي]:

يقبل أرضاً بالعلا قد تجسدت بأرواح أهل العلم روضة مشتهى
وهبت بأنفاس العلوم قبولها ولا زال صدر الدين منشرحاً بها

وينهى أن الصدر رأس العلوم، وكم له من فرق دق على الأفهام، وهو كالغرة في جباه الأيام، لا زال المجد له حاجياً^(١) مقروناً بسعده الشامل، ولا برح بعلمه عيناً لوجوه المسائل. فلله أهداب معانيه التي هي أسحر من عيون الغزلان، وأمضى من السيوف إذا برزت من الأجفان، وأصدغ فضائله التي هي عاطفة على وجنات الوجود، لأنها كالعوارض الماطرة، وكم أنست عند ذكره من سالفه، وكم لها في قلوب الأعداء من حدود. وندى جوده الذي إذا جاءه الشارب وجد عنده شفاه، وحلاوة نظمه الذي أنسانا ذكر العذيب وثناياه، وعنق مكارمه التي ألفت من البديع الالتفات؛ وأوصافه التي غدت على خد الدهر شامات، حتى تبدلت سيئاته حسنات. كف عنا تعب الفقر بكرم راحته المتزايد، من غير أن يقال له ساعد. وشهدنا بأن أياديه بحر يفيض بصنائه. فأشار النيل إلى قبول هذه الشهادة بأصابه. فلله ندى يمينه الذي لم يزل المملوك به في بلاد الشام مكفى، وكم فاض منه قلب النيل وجهد أن يوفيه بالباع والذراع فما وفى. جبلت على محبته القلوب فصار حبه ظاهراً في كل باطن، وحنّت إليه الجوارح لما سارت مناقبه إلى كل جانب فحركت كل ساكن، ورفع المملوك أدعيته التي هي إن شاء الله تعالى نعيم للبدن الكريم، واعتدال اللطيف ذلك المزاج، وأثنيته التي هي كالمناطق على خصور الحسان وبها لكل قلب ابتهاج. لكن تناقلت^(٢) عليه أرداف النوى، وأسكنت في وسط لبه الجوى، وقده الانقطاع بسيفه الذي زاد في حده، ولكن جار في قده. ولو حصر المملوك

(١) حاجياً: ملازماً وسابقاً.

(٢) تناقلت: أصبحت ثقيلة، وفي النسخة المطبوعة «تناقلت» بالنون وما أثبتناه هو الصحيح، كما هو ظاهر.

ما ساق إليه البعد من الاشتياق إلى تقبيل الأقدام لم تسعه قائمه، وهو يعد القلب بالصبر، ولكن كما ذكر كعب عن مواعيد عرقوب، فنسأل الله حسن الخاتمة.

[رجع] إلى ما كنا فيه من تكملة المقامة الحريرية، والتنبيه على حسن ختامها. قال بعد الفصل المسجد الذي آخره: ولم يبق لنا ثنية ولا ناب. فمذ اغبر العيش الأخضر وازور المحبوب الأصفر، اسود يومي الأبيض، وابيض فودي الأسود، حتى رثى لي العدو الأزرق، فحبذا الموت الأحمر. وتلوى من ترون عينه فراره، وترجمانه اصفراره، قصوى بغية أحدهم ثرده^(١)، وقصارى أمنيته برده. وكنت آليت أن لا أبذل الحر إلا للحر، ولو أني مت من الضر، وقد ناجتني القرونه، بأن توجد عندكم المعونه، وأذنتني فراسة الحوباء، بأنكم ينابيع الحباء، فنضر الله امرأ أبر قسمي، وصدق توسمي ونظر إليّ بعين يقذيتها الجمود، ويقذيتها الجود. [قال الحرث بن همام]: فهمنا لبراعة عبارتها وملح استعارتها، وقلنا لها: قد فتن كلامك، فكيف إلحامك. فقالت: يفجر الصخر ولا فخر، فقلنا لها: إن جعلتنا من رواتك، لم نبخل بمواساتك. فقالت: لأرينكم أولاً شعاري، ثم لأروينكم أشعاري. فأبرزت ردن درع دريس^(٢) وبرزت برزة عجوز درديس، وأنشأت تقول:

أشكو إلى الله اشتكاء المريض	جور الزمان المعتدي البغيض
يا قوم إني من أناس غنوا	دهراً وجفن الدهر عنهم غضيض
فخارهم ليس له دافع	وصيتهم بين الورى مستفيض
كانوا إذا ما نجعة أعوزت	في السنة الشهباء روضاً أريض
تشب للسايرين نيرانهم	ويطعمون الضيف لحماً غريض
ما بات جار لهم ساغباً	ولا لروع قال حال الجريض
فغيضت منهم صروف الردى	بحار جود لم أحلها تغيض ^(٣)
وأودعت منهم بطون الثرى	أسد التحامي وأساءة المريض
فمحلمي بعد المطايا المطا	وموطني بعد اليفاع الحضيض
وافرخي ما تأتلي تشتكي	بؤساً له في كل يوم وميض ^(٤)
إذا دعا القانت في ليله	مولاه نادوه بدمع يفيض
يا رازق النعاب في عشه	وجابر العظم الكسير المهيض

(١) الثردة: الخبز المشرود بمرق اللحم (الثريد) وقد كنى به عن تهاة الغاية.

(٢) دريس: بال.

(٣) غييض: الماء، غار في العمق ومنه قوله تعالى: ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغييض الماء﴾. لم أخلها: لم أظنها.

(٤) إئتلى: مل، ما تأتلي ما تنفك - الوميض: الإشارة الخفية أو اللمعان الخفيف.

أتح لنا اللهم من عرضه
 يطفىء نار الجوع عنا ولو
 فهل فتى يكشف ما نابهم
 فوالذي تعنو النواصي له
 لولاهم لم تبد لي صفحة
 من دنس اللؤم نقي رحيض
 بمذقة من جازر أو مخيض^(١)
 ويغنم الشكر الطويل العريض
 يوم وجوه الجمع سود وبيض^(٢)
 ولا تصديت لنظم القريض

[قال الراوي]: فوالله لقد صدعت بأبياتها أعشار القلوب، واستخرجت خبايا الجيوب، حتى ماحها من دينه الامتياح، وارتاح لرفدها من لم تخله يرتاح، فلما افوعم جيها تبرا، وأولاها كل منا برا تولت يتلوها الأصاغر، وفوها بالشكر فاغر، فاشرأبت الجماعة بعد ممرها إلى سبرها، لتبلو مواقع برها، فكفلت لهم باستنباط السر المرموز، ونهضت أقفو أثر العجوز، حتى انتهت إلى سوق مغتصة بالأنام، مختصة بالزحام، فانغمست في الغمار، وأملست من الصبية الأغمار، ثم عاجت بخلو بال، إلى مسجد خال، فأماطت الجلباب، ونضت النقاب، وأنا ألمحها من خصائص الباب وأرقب ما ستبدي من العجاب، فلما انسرت أهبة الخفر، رأيت محيا أبي زيد قد سفر، فههمت بأن أهجم عليه، لأعنفه على ما أجرى إليه، فاستلقى استلقاء المتمردين، ثم رفع عقيرة المغردين، واندفع ينشد:

يا ليت شعري أدهري أحاط علماً بقدري
 وهل درى كنه غوري في الخدع أم ليس يدري
 كم قد قمرت بنيه بحيلتي وبمكري
 وكم برزت بعرف عليهم وبنكر
 أصطاد قوماً بوعظ وآخرين بشعر
 واستفزز بخل عقلاً وعقلاً بخمر
 وتارة أنا صخر وتارة أخت صخر^(٣)
 ولو سلكت سبيلاً مألوفة طول عمري
 لخاب قدحي وقدحي ودام عسري وخسري
 فقل لمن لام هذا عذري فدونك عذري

[قال الحرث بن همام]: فلما ظهرت على جلية أمره، وبديعة أمره، وما زخرف في

(١) المذقة: الشربة - الجازر: اللبن - المخيض: اللبن الذي سُحب منه الدسم بواسطة المخض.
 (٢) تعنوا: تخضع - النواصي: جمع مفردة ناصيه وهي مقدم الشعر من الرأس وكنى بها عن الرأس.
 (٣) صخر: : هو ابن عمرو الشريد أخو الخنساء الشاعرة واسمها تماضر بنت عمرو الشريد.

شعره من عذره، علمت أن شيطانه المرید لا یسمع التفتید^(١)، ولا یفعل إلا ما یرید، فثنیت إلى أصحابی عنانی، وأبشثهم ما أثبتہ عیانی، فوجموا لضیعة الجوائز، وتعاهدوا علی محرمة العجائز.

[قلت]: قد علمت أيها المتأمل أن هذه المقامة البديعة بنيت على ترهات هذه العجوز، وما زخرفته من الباطل، في نظمها ونثرها، الذي خلب كل منهما القلوب وسلب عقول السامعين إلى أن بالغوا في إكرامها. فلما كشف لهم الغطاء عن جميع ما نمقته، وتحققوا أنه بني على الباطل، كانت الخاتمة. فوجموا لضیعة الجوائز، وتعاهدوا علی محرمة العجائز.

والألفاظ المحتاجة إلى الحل، في هذه المقامة، هي قوله: ندوت أي حضرت النادي، والجوازل: فراخ الحمام، واحداها جوزل. وعرتنا قصدتنا: يقال عراه واعتراه. والمعارف: الوجوه. والمعارف الثانية: من المعرفة. وثمان القوم: من يقول بأمرهم. وسروات القبائل: السرو: وهو السخاء والمروأة. واحد السروات سراة، لا يجوز أن يكون سراة بالضم. وسريات: جمع سرية، وهي العقيلة السخية. والقلب: هنا قلب العسكر. ويمطون الظهر: أي يحملون المنقطع. ويولون اليد: أي النعمة، وأردى: أهلك. والأعضاء: جمع عضد، وهو ما يمسك الشيء ويقويه. والجوارح: هنا الأعضاء التي تجرح. وقوله: وانقلب ظهراً لبطن: المراد به عكس الحال. ونبا: ارتفع. والحاجب: صاحب الأمير. وصلد الزند: أي لم يور. ووهت: أي ضعفت. واليمين: القوة. والثنية: الناقة التي لها ستة أعوام. والنباب: المسنة. واغبر العيش: أي تكدر. وازور: مال. والمحجوب الأصفر: هو الدينار. وفودي: مدغي. والموت الأحمر: كناية عن الفقر. والعدو الأزرق: الشديد العداوة، والأصل فيه: العطش، وبه فسر قوله تعالى: ﴿ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً﴾^(٢) أي عطاشاً. وتلوى تابعي وعينه قراره: أي عيانه يغنيك عن اختباره، وفي المثل: إن الجواد عينه فرارة. أي عيانه. وقصارى أمره: أي آخر أمره. وآليت: أي حلفت. وأبذل الحر: أي الوجه. والقرونة: النفس. والحوباء: النفس أيضاً. ونضر: بمعنى حسن. ويقذيها: يلقي فيها القذى. والجمود: الإمساك. ويقذيها الجود: يخرج عنها القذى. والحامك: بمعنى نظمك الشعر. والشعار: الثوب الذي يلي الجسد. والدثار: ما فوقه. والردن: الكم. ودرديس: من أسماء الداهية. والسنة الشهباء:

(١) التفتيد: الاحتجاج والمناقشة.

(٢) طه، ١٠٢/٢٠.

المجدبة. وتشب: توقد، وغريض: طري. وساغب: جائع. والجريض: الغصص. والأساة: الأطباء. والمطايا: الإبل. والمطا: الظهر. واليفاع: التل المشرف. والحضيض: القرار من الأرض. تأتلي: تترك. والنعاب: فرخ الغراب. والمهيض: الذي كسر بعد جبر. وأتح: وفق. ورحيض: مغسول. وبمذقة: أي بجرعة. وأعشار القلوب: أي قطع القلوب. وحتى ماحها من دينه الامتياح: أي أعطاها من عادته يعطي. وافعوم: امتلاً، وفاغر: مفتوح. فاشرأبت: تطلعت. وسبرها: اختبارها. واستنباط: استخراج. والمرموز: المبهم. والغمار: الزحام. والأغمار: البله. وعاجت: عطفت. وأماطت الجلباب: باعدته، وهو الرداء. ونضت: جردت. وخصاص: جمع خصاصة، وهو الثقب في الباب، وكذلك الصير. وفي الحديث: من نظر إلى قوم من صير باب فقتت عينه. وانسرت: انكشفت. والخفر: الحياء. وسفر: انكشف. وأسفر: أضاء. وأجرى: قصد. واستلقى: رقد على ظهره ورفع رجلاً على رجل. والمغردين: المطربين. والعقيرة: الصوت. وكنه غوري: حقيقة أمري. والخل والخمر: هنا كنايةتان عن الخير والشر. وقدحي: سهمي. وقدحي: استخراجي أمره العجيب. والمريد: العاتي. والمرادة: العتو. وجموا: أي سكتوا. اهـ. تفسير الألفاظ المحتاجة إلى البيان من هذه المقامة.

[ومن صناعات القاضي الفاضل، في حسن الخواتم، قوله]: في حسن خاتمة رسالة كتب بها إلى الديوان العزيز الخلفي، وهو: لا برحت راياته السود سويدات^(١) قلوب العساكر، وأجنحة الدعاء المحلق إلى السماء من أفق المنابر.

ومثله قوله: لا برحت الأقدار له جنوداً، والجديدان^(٢) يسوقان إليه في أيامهما ولياليهما إماء^(٣) وعبيداً.

ومثله قوله: والله تعالى يرده رد السحب الهائلة إلى الأمكنة الجدوب^(٤)، والمغفرة الشاملة إلى مواقع الذنوب، والمسرة إلى مستقرها من مطالع القلوب.

[ومن ذلك] قوله، في ختام جواب كتاب ناصري: ولا زال كالتأ^(٥) للإسلام بسيفه الذي جفنه كجفنه ساهر، ولا أخلى الله منه الدين بقوة منه ولا ناصر.

(١) سويدات: جمع مفردة سويداء وهي مركز العواطف من القلب.

(٢) الجديدان: الليل والنهار سمياً بذلك لتجددهما الدائم.

(٣) الإماء: الخدم من النساء، جمع أمة.

(٤) الجدوب: المقفرة.

(٥) كاليء: حافظ، حامي.

[ومنه قوله]: والله تعالى يغني عن المكاتبات بلقائه، كما أغنى عن بقية الخلق ببقائه.

[ومن ذلك قول العلامة الشهاب محمود في ختام رسالة]: والله تعالى يجعل الآمال منوطة به وقد فعل، ويجعله كهفاً للأولياء وقد جعل.

[وصرع] ابن الصاحب أمين الدين مرزماً، وهو من أصناف الطير الجليل، ومن طيور الواجب، وسأل الشيخ جمال الدين في إنشاء مطالعة إلى الحضرة الشريفة المقدسة الخليفة، يسأل فيها القبول فيما صرعه من الواجب، فأنشأ الشيخ جمال الدين ابن نباتة رسالة بديعة، في هذا المعنى، وحسن ختامها أبدع [وهو]: والله المسؤول سبحانه أن يتمتع المملوك في ولاء المواقف المقدسة باتباع طريقه، وأن ينفعه بالانتماء إذا ألزمته الدنيا طائره في يديه، وألزمته الآخرة طائره في عنقه.

[ومن ذلك]، حسن ختام العهد الذي أنشأه القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، عن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون، لولده الملك الأشرف صلاح الدين خليل، [وهو]: والله تعالى يجعل استخلافه هذا للمتقين إماماً، وللمعتدين انفصاماً^(١)، ويطفىء بماء سيوفه نار كل حطب حتى تصبح كما أصبحت نار سميء برداً وسلاماً.

[ومن ذلك]، حسن ختام رسالتي، التي تقدم ذكرها في باب الاقتباس، المشتملة على الكائنة التي قدرها الله تعالى على دمشق المحروسة، من الحريق وغيره، [وهو]: فوصل المملوك إلى البلاد وقد ودَّ يومه لو تبدل بالأمس، ولم يسلم له في وقعة الحرب غير الفرس والنفس،! فأعاذ الله مولانا وبلادنا من هذه القيامة القائمة، وبدأه في الدنيا ببراعة الأمن وفي الآخرة بحسن الخاتمة.

[ومن أبدع الأمثلة، التي ليس لها مثال في حسن الختام، قولي في تقليد بالإشارة الشريفة]: والوصايا كثيرة ولكن لا يهدي تمر إلى هجر، فإننا إلى مشورته أحوج من المبتدا إلى الخبر. والله تعالى يديمه ركناً لهذا البيت الشريف، الذي تطوف الناس حوله ويسعى إليه، ولا برح كلامه في المشورة، لفظاً ومعنى، تتم الفائدة به ويحسن السكوت عليه.

[وقلت في خاتمة تقليد بنظر الكسوة]: فليباشر ذلك علماؤنا أنه من تقرب إلى الله بخدمة بيوته فقد فاز، ولا بد أن يصير لديباجة هذا البيت بحسن توشيحته دار الطراز، فقد

(١) الانفصام: التفريق.

أسعده الله وظهر له في توشيح هذا البيت نظم مفيد، ولا ينكر حسن هذا التوشيح للقاضي السعيد، والله تعالى يكرم مثواه في الآخرة بتشديد هذا البيت وقيام شعاره، ولا زالت أنامل بره تتختم بخواتيم الخير وتنقل أحاديث المحاسن بفصها في أخباره.

[ومثله قولي]: في تقيظ كتبه لأقضى القضاة، ولي الدين القرشي، على كتابه المسمى «بعمدة المناسك» [وهو]: والله تعالى يزيد صناعة هذا النسك بهجة على كل ناظم، ويجعله لأعماله الصالحة المقبولة من أحسن الخواتم.

[وتقدم لي بالديار المصرية] بشارة بوضع المقر الأشرف، سيدي موسى ولد المقام الشريف المؤيدي، سقى الله من غيث الرحمة ثراه، من رأس القلم بالحضرة الشريفة جاءت نسيج وحدها، وواسطة عقدها. [منها]: حملت به أمه وأبرزته كشمس الحمل^(١) بهجة ونوراً، وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً ولكن ملأ الدنيا سروراً.

[وتوجهت]، بعد ذلك التاريخ، إلى ثغر الاسكندرية المحروسة في مهم شريف، فورد على نائب الثغر المحروس بشارة شريفة، بمولد سيدي المقر الأشرف الناصري، محمد ولد المقام الشريف المؤيدي، نور الله ضريحه، فركب نائب السلطنة الشريفة بالثغر المحروس إلى أن جاء عندي، وسألني الجواب، فكتبت تهنئة بديعة وحسن ختامها أبدع منها، [وهو]: أكرم بها صحيفة محمدية أمسى بها كل قلب مأنوساً، وتلت مسرتها من تقدم قبلها من الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى. فالحمد لله على تواتر هذه التهاني التي أتهم بها كل حادٍ وأنجد، وعمت بركتها بإبراهيم وموسى ومحمد، والله تعالى يوصل أحاديث التهاني المؤيدية ليتسلسل كل حديث بمسنده، ولا برحت الخواطر الشريفة مسرورة بمحمد وحديثه ومولده.

[ومن ذلك]، قولي في ختام تقليد قاضي القضاة ولي الدين العوافي بقضاء قضاة الشافعية، بالديار المصرية والممالك الإسلامية، [وهو]: والله تعالى يطلق له أعنة الاقبال، وينيله من نعمه ما لا يخطر قبل وقوعه ببال، ويحلي به جيد الدهر وقد تحلى بعدما ذهب رونقه وزال، وكما أحسن له في البداية، أن يحسن إليه في النهاية، حتى يقول الحمد لله على كل حال.

[ومثله] في الحسن، ختام تقليد قاضي القضاة أبي البقاء علم الدين صالح البلقيني، [وهو]: والله يرفع علم علمه على كل غاد ورائح، ويجعل كلا من عمله وحكمه واسمه الكريم صالحاً في صالح في صالح.

(١) الحمل: منزلة من منازل الشمس أحسن ما تكون فيها نوراً.

[وقد عن لي] أن أختم ما تقدم لي من الأمثلة في حسن الخواتم، بختام كتاب المسك من أقل عبيده، ويود منشور الدر أن يتنظم في سلك عقوده، وذلك أني كتبت للمقر المرحومي الفتحي، فتح الله صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية، كان على لسان قاضي القضاة شرف الدين مسعود الشافعي وأعيان طرابلس المحروسة، وقد وصلوا إلى الديار المصرية في البحر قسراً، مما عاينوه من أهوال تلك المحنة المشهورة، التي قدرها الله تعالى على طرابلس المحروسة. وحسن الختام في القصة المذكورة قولي: والقوم يا نظام الملك قد دهمهم من لم يفرق بين التحليل والتحریم، إلى أن صرحوا بالطلاق، ووقعوا في التغابن، وشمتم المنافقون، ومنعوا في الجمعة الصف، ومست فرقتهم الممتحنة في الحشر، ولم يسمع لهم مجادلة، لما فزعوا بالحديد في هذه الواقعة، ولكن من الرحمن، وطلع قمر الأمن، ولاحظهم نجم السعد وصعدوا طور النجاة، وكفكفوا ذاريات الدموع، وطردت عنهم العداة إلى قاف، لما دخلوا حجرات مصر، وحظوا من مولانا السلطان بعد سد المذاهب بالفتح^(١).

[قلت]: هذا الختام جعلته خاتمة للأمثلة المنشورة في هذا الباب. وأما الأمثلة الشعرية، فمن المجيدين فيها أبو نواس، حيث قال في خاتمة قصيدة مدح بها الخصيب:

وإني جدير إذ بلغتك بالمني وأنت بما أملت منك جدير
فإن تولني منك الجميل فأهله وإلا فلإني عاذر وشكور

ومنه قول أبي تمام معتذراً في آخر قصيدة:

فإن يك ذنب عن أو تك هفوة على خطأ مني فعذري على عمد^(١)

ومنه قول أبي الطيب، في ختام قصيدة:

فلا حطت لك الهيجاء سرجاً ولا ذاقت لك الدنيا فراقاً^(٢)

وقال أبو العلاء، من ختام قصيدة:

ولا تزال بك الدنيا ممتعة بالآل والحال والعلياء والعمر^(٣)

(١) عن: ظهر وبان.

(٢) السرج: البردعة توضع على ظهر الحصان ليركب.

(٣) الآل: الأهل.

وقول الأرجاني في ختام قصيدة:

فإنك في هذا الزمان فريد^(١)
وجودك طوق والبرية جيد^(٢)

بقيت ولا أبقى لك الدهر كاشحاً
عُلاك سوار والممالك معصم

وقول ابن نبيه، في ختام قصيدة أشرفية:

تجوز في التخليد حد الزمان
شرقاً وغرباً وعلى الضمان

دمتم بني أيوب في نعمة
والله لا زلتم ملوك الورى

وقال شيخ شيوخ حماة، في ختام مديح مظفري:

تدين لك الدنيا وتصفو لك الأخرى
وما الطول إلا أن يطيل لك العمرا

فلا زلت ذا ملك جديد مؤيد
ولا زال للأيام طول على الورى

وقال ابن سنا الملك، في ختام مديح عادلي:

هذا أبو إلياس أو هذا أبو الخضر^(٣)

بقيت حتى يقول الناس قاطبة

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة، رحمه الله، في ختام مديح مؤيدي:

قاهر الباس ظاهر الأنبياء
أتمنى له امتداد البقاء

فابق عالي المقام داني العطايا
يتمنى عدوك العيش حتى

وقال الشيخ برهان الدين القيراطي، رحمه الله تعالى، في ختام مديح نبوي:

وسلام في الصبح ثم العشاء
ذكر الملتقى على الصفراء

يا إمام الهدى عليك صلاة
ما صبا في أصائل قلب صب

ومثله قول الشيخ زين الدين عمر بن الوردي، في ختام قصيد نبوي:

ما نار نور من ضريحك في الدجى

صلى عليك الله يا خير الورى

ومثلهما قولي، في ختام مديح نبوي، ولكن مسك هذا الختام أضوع من ختامهما

في المديح النبوي، وهو:

(١) الكاشح: المبغض.

(٢) السوار: ما تتحلى به المرأة في معصمها - والجود: الكرم - والطوق: القلادة تطوق العنق - والجيد: العنق وما يليه من النحر.

(٣) إلياس والخضر: من أنبياء الله سلامه عليهم.

عسى وقفة أو قعدة لابن حجة
فقد جاء يشكو من ذنوب تعاظمت
وقد ناله في عنفوان شبابه
وعارضه قد شاب في زمن الصبا
فيا وردنا الصافي طيور قلوبنا
وقلت بعده في حسن الختام:

عليك سلام نشره كلما بدا
به يتغالى الطيب والمسك يختم
وبيت الشيخ صفي الدين في حسن الختام [هو]:
فإن سعدت فمدحي فيك موجه
وبيت العميان فيه [هو]:

لكن وإن طال مدحي لا أفي أبداً
فاجعل العذر والإقرار مختمي
وبيت الشيخ عز الدين الموصلي قوله:
فاجعل له مخلصاً من قبح زلته
في حسن مفتوح منه ومختتم

وبيت العميان في حسن الختام أبداع من بيت الشيخ صفي الدين الحلبي في حسن
ختامه، وموجب ذلك التورية بتسمية النوع، وتمكين القافية في آخر البيت. وبيت الشيخ
عز الدين أبداع من بيت العميان، إذ فيه الترشيح بذكر التخلص والافتتاح والمختتم،
وللكن فاته الترتيب، فإنه قدم ذكر التخلص على الافتتاح.
وبيت بديعيتي:

حسن ابتدائي به أرجو التخلص من
نار الجحيم وهذا حسن مختمي
هذا البيت العامر بمدح النبي ﷺ ختامه مسك، لكونه جاء خاتمة لما وصلت إليه
القدرة من الأوصاف النبوية، واجتمع فيه: حسن الابتداء موري به، مع حسن التخلص،
وحسن الختام على الترتيب. ولو قال الشيخ عز الدين في بيته: بحسن مبتدأ، ساعدته
التورية بتسمية النوع الذي هو حسن الابتداء.

(1) العارض: الأولى: بمعنى الشعر الذي على قفى الرأس بين الأذنين. والثانية: بمعنى ما يعرض له من
مرض وأحداث.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: هذا المصنف المبارك، أعني البديعية وشرحها، إذا ملكه متأدب شرفت نفسه عن النظر في غيره من تذاكر الآداب، فإني ما تركت نوعاً من أنواع البديع إلا أطلقت عنان القلم في ميادين الطروس، مستطرداً إلى استيعاب ما وقع من جيده ورديته، ونصبت فيه البحث بين المقصرين والمجيدين. بيد أنني أقول وبالله المستعان: إن العميان اختصروا جانباً كبيراً من البديع، وما أجادوا النظم فيما وقع اختيارهم عليه. والشيخ صفي الدين الحلبي أجاد في الغالب، لخلاصه من التورية في تسمية النوع، ولكنه قصر في مواضع نبهت عليها في مظانها. والشيخ عز الدين رحمه الله قصر في غالب بديعته، لالتزامه بتسمية النوع البديعي ومراعاة التورية. والبحث مقرر مع كل منهم في إجادته وتقصيره، عند إيراد بيته على ذلك النوع الوارد.

وقد تقدم الإطناب في تقرير حسن الابتداء وبراعة الاستهلال، وفي الفرق بينهما، وأوردت في حسن التخلص ما وقع من غريبه وبديعه، وما تقرر من البحث مع المقصر في نظمه، وما يتفرق به شمل مجاميع الأدب وينسى تذاكره، وقد انتهت الغاية بحمد الله إلى حسن الختام. وأوردت فيه ما لا خفيت محاسنه على المتأمل، ولا ضمه صدر كتاب، وأنا أسأل الله سبحانه وتعالى حسن الخاتمة، ببركة الممدوح عليه أفضل الصلاة وأتم السلام. وقد فرغت من تأليف هذا الكتاب في شهر ذي الحجة الحرام سنة ست وعشرين وثمانمائة، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وسبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم، وأستغفر الله العظيم وأتوب إليه، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.



فهرس الموضوعات

٣	ذكر النواذر
٧	ذكر المبالغة
١١	ذكر الإغراق
١٦	ذكر الغلو
٢١	ذكر ائتلاف المعنى مع المعنى
٢٤	ذكر نفي الشيء بإيجابه
٢٧	ذكر الإيغال
٣١	ذكر التهذيب والتأديب
٣٦	ذكر ما لا يستحيل بالانعكاس
٣٩	ذكر التورية
٢٥٢	ذكر المشاكلة
٢٥٤	ذكر الجمع مع التقسيم
٢٥٦	ذكر الجمع مع التفريق
٢٥٨	ذكر الإشارة
٢٦٠	ذكر التوليد
٢٦٣	ذكر الكناية
٢٦٦	ذكر الجمع
٢٦٨	ذكر السلب والإيجاب
٢٧٠	ذكر التقسيم
٢٧٤	ذكر الإيجاز

٢٧٦	ذكر المشاركة
٢٧٨	ذكر التصريح
٢٨٠	ذكر الاعتراض
٢٨٢	ذكر الرجوع
٢٨٤	ذكر الترتيب
٢٨٦	ذكر الاشتقاق
٢٨٨	ذكر الاتفاق
٢٩١	ذكر الإبداع
٢٩٣	ذكر المماثلة
٢٩٥	ذكر حصر الجزئي وإحاطه بالكلي
٢٩٧	ذكر الفرائد
٢٩٩	ذكر الترشيح
٣٠١	ذكر العنوان
٣٠٣	ذكر التسهيم
٣٠٥	ذكر التطريز
٣٠٧	ذكر التنكيت
٣٠٩	ذكر الإرداف
٣١١	ذكر الإيداع
٣٣٩	ذكر التوهيم
٣٤٢	ذكر الألغاز
٣٦٢	ذكر سلامة الاختراع
٣٧٠	ذكر التفسير
٣٧٣	ذكر حسن الاتباع
٣٨٠	ذكر المواردة
٣٨٣	ذكر الإيضاح
٣٨٥	ذكر التفريع
٣٨٨	ذكر حسن النسق
٣٩٠	ذكر التعديد
٣٩١	ذكر التعليل
٣٩٣	ذكر التعطف

٣٩٤	ذكر الاستتباع
٣٩٦	ذكر الطاعة والعصيان
٣٩٩	ذكر المدح في معرض الذم
٤٠١	ذكر البسط
٤٠٣	ذكر الاتساع
٤٠٥	ذكر جمع المؤنث والمختلف
٤٠٧	ذكر التعريض
٤٠٩	ذكر الترصيع
٤١١	ذكر السجع
٤٣١	ذكر التسميط
٤٣٣	ذكر الالتزام
٤٣٥	ذكر المزوجة
٤٣٧	ذكر التجزئة
٤٣٨	ذكر التجريد
٤٤٠	ذكر المجاز
٤٤٢	ذكر الائتلاف
٤٤٦	ذكر التمكين
٤٤٨	ذكر الحذف
٤٥٣	ذكر التدبيح
٤٥٥	ذكر الاقتباس
٤٧٨	ذكر السهولة
٤٨٢	ذكر حسن البيان
٤٨٤	ذكر الإدماج
٤٨٦	ذكر الاحتراس
٤٨٨	ذكر براءة الطلب
٤٨٩	ذكر العقد
٤٩١	ذكر المساواة
٤٩٣	ذكر حسن الختام